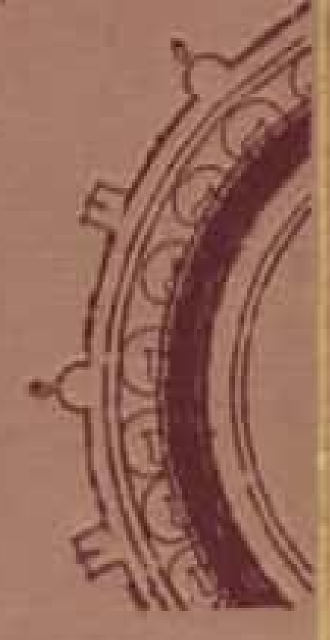


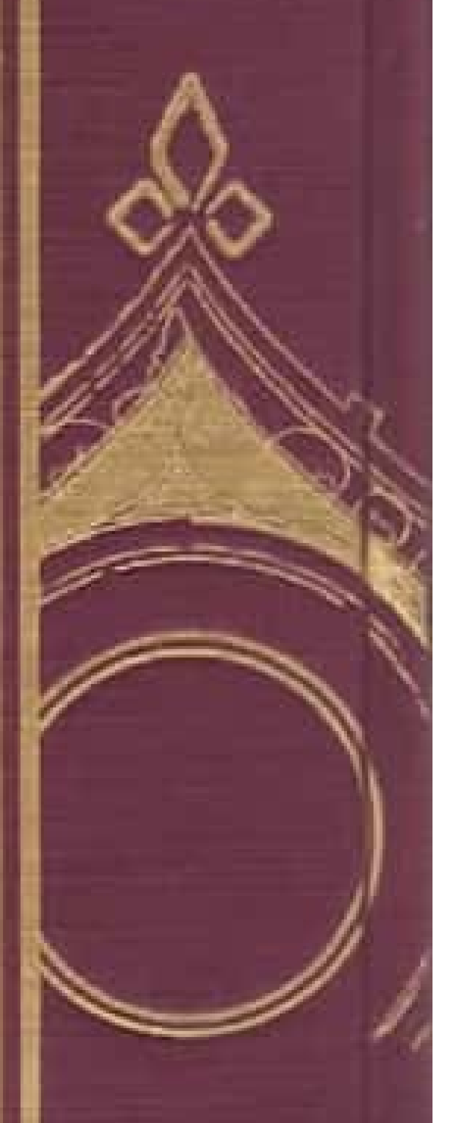
سلسلة الأعمال الكاملة
للإمام حسن البنا
الإصدار الأول

مقاصد القرآن الكريم

للإمام الشهيد
حسن البنا

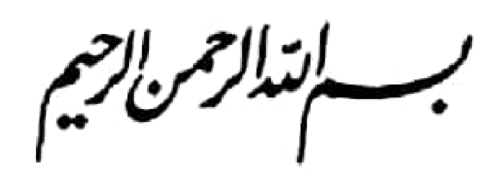
أشرف على جمعها وضبطها
أحمد سيف الإسلام حسن البنا







دار الوثيقة
للنشر والتوزيع
الكويت



ردمك

99906-627-0-3

رقم الإيداع

2004/00196

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م



ص. ب: 17118 الخالدية

الرمز البريدي 72452

info@alwatheeqa.com

الكويت


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾
الشورى : ٢٣


شباب
النادي الشبابي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم



هـذا الكـتـاب ..

هـذه الصفحات ..

هـذه الفـقـرات ..

هـذه الكلمـات ..

قبسٌ من نور الله سبحانه وتعالى انعكس على مرآةِ قلبِ عبد من العارفين.

هي صدى الذكر الحكيم سطَّرها قَلَمُ عبدٍ من الذاكرين.

هي كـمـا قـال كـاتبُـهـا : (لوامع بروقٍ تسطعُ في قلوبِ المؤمنينَ حين تهطل عليـهم سحائبُ فيضِ الحُبُّ النبـوي من سمـاء الحقيـقـة المحمدية ، فـتهـتفُ بهـا ألسنتُهم وتجري بها أقلامُهم) .

والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.

أحمد سيف الإسلام حسن البنا

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا ونبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم أما بعد...

لقد عاش الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ محبا للخير طالبا له فكرّس عمله وجهده لخدمة الدين الحنيف فكانت حركاته وسكناته في رحاب الدعوة ونصح الناس ، ولم يلتفت لتأليف المجلدات والكتب بقدر التفاته لتأليف الرجال وصنع دعاة الخير، وعلى الرغم من ذلك فقد خلّف تراثا عميقا يعتبر من روائع النظام الدعوي والحركي والاجتماعي ، إلا أنه لم يظهر للقرّاء طيلة نصف قرن من الزمان ، وها هي اليوم دار الوثيقة للنشر والتوزيع تتشرف بإخراج هذا التراث للعالم الإسلامي مبتدأة بعرض كتاب (**مقاصد القرآن الكريم**) للإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ بعد جمع أوراقه من بين الصحف القديمة والمجلات المندثرة وقصاصات المقالات التي مضى عليها عقود من الزمان والكتابات التي لم تنشر أصلا والتي وجدت بين أوراق مكتبه.

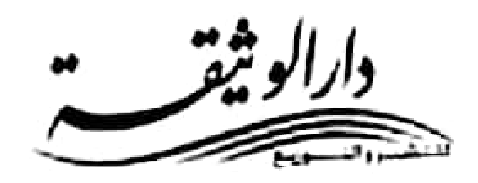
إنه لجهد كبير بذله نجله البار الأستاذ/ أحمد سيف الإسلام حسن البنا دام سنوات من البحث والتحقيق حتى ظهرت الصورة النهائية لهذا الكتاب القيّم بعرضه ، والجديد بطرحه ، والبديع في شرحه ، والشائق بأسلوبه ، والمتقن بمضمونه. لقد عاش الإمام حسن البنا محبا للخير طالبا له وقاصدا منتهاه ، ولما وافته المنية في عام ١٩٤٩ ماتت معه افكار ومشاريع لم يقدر لها أن تظهر، ومن أحد مشاريعه هذا التراث الكبير الذي خلفه من كتابات نادرة من أبرزها هذا الكتاب (**مقاصد القرآن الكريم**) . حيث قام بكتابة مقالات فسّر فيها بعض آيات القرآن الكريم وهي آيات مختارة بعناية إذ تناسبت مع أحداث عاشها وظروف أظلت الامة الإسلامية.. وفي هذه المقالات سلّط

الضوء على بعض مقاصد هذه الآيات والتي واكبت الأحداث التاريخية في حينها في عرض لم يسبق أن ناقشه أحد من قبله وبصورة مختلفة عمن سبقه ، ويتضح ذلك في تفسير بعض هذه المقاصد وتطبيقها على وقتنا المعاصر في أسلوب فريد من نوعه لا يكاد يتكرر في هذا الزمان. إذ يعتبر هذا الكتاب نفحة من كنوز الفهم وباب من أبواب العلم فُتح بعد إقفال دام ٥٥ سنة شاء الله له أن يخرج بعد نصف قرن من الزمن ليرى النور ويستفيد منه طلبة العلم والقرّاء وطالبو الحقيقة ودارسو التاريخ.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر قول المصطفى ﷺ: «اذا مات الإنسان انقطع عمله الا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو لهما».

ولقد صدق هذا الحديث الشريف مع الإمام حسن البنا فقد أصبحت كتاباته وأعماله صدقة جارية يحرص على قراءتها آلاف المسلمين في بقاع المعمورة ، كما خلّف من ورائه علما ينتفع به إلى يوم الدين ومن أهمها ما تم جمعه في هذا الكتاب بما فيه من تفسير وبيان لمعاني ومقاصد القرآن الكريم في رؤية فقهية حركية لم يسبقه اليها أحد ، كما رزقه الله بالولد الصالح والنطفة الطيبه الذي عكف على علم أبيه سنين طوال حتى جمع ماكتبه والده ـ رحمه الله ـ من شتات الصحف والمجلات ونسّقه وحقّقه حتى أخرجه للناس واضحاً بيناً.

ولقد نلنا نحن معه ـ بفضل الله سبحانه وتعالى ـ جزءاً من هذا الشرف في مراجعة وتحقيق وتنسيق هذا الكتاب ، في محاولة لإخراجه بصورة متقنة رغم الصعاب التي واجهتنا ، إلا أننا نسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.. وأن يطرح فيه البركة وينفع به المسلمين.. هو ولي ذلك والقادر عليه سبحانه وتعالى.



المقدمة

■ الإمام وتفسير القرآن الكريم

الكتاب الذي بين يديك ـ أيها القارئ الكريم ـ يضم بين دفتيه كل ما كتبه الإمام الشهيد حسن البنا ﷺ في تفسير القرآن الكريم ، ومصادر هذا التفسير محصورة في الدوريات التي أصدرها الإمام وإخوانه ابتداءً من عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م إلى عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م. ومن تيسير الله تبارك وتعالى أن الإمام كان منهجياً مع نفسه ومع القرَّاء: يكتب في العدد الأول من كل مجلة من المجلات التي يصدرها افتتاحية يحدد فيها منهج هذه المجلة ومنهجه فيما يكتب سابقاً بذلك علماء الإعلام الذين لم يكتبوا في فن الافتتاحية ولم يدرِّسوها إلا منذ وقت قريب.

ولعله من الأفضل ـ حتى تكون الصورة واضحة في ذهن القارئ ـ أن نبدأ بذكر هذه المصادر مرتبة ترتيباً تاريخياً وأن نذكر ما جاء بكل منها خاصاً بالتفسير.

١. جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية

وأول هذه المصادر هي جريدة الإخوان المسلمين (الأسبوعية) الصادرة في ١٢ صفر ١٣٥٢هـ/ ١٥ يونيو ١٩٣٣م .. فعلى صفحات هذه الجريدة كتب الإمام افتتاحية رائدة تحت عنوان: (كيف أكتب القسم الديني لجريدة الإخوان المسلمين ؟) أوضح فيها خطته في الكتابة في كل علم من العلوم الدينية وبدأ بالتفسير فذكر ما نصه:

(لما كانت الغاية من تفسير كتاب الله تعالى فيما اعتقد هي: توضيح معاني آياته توضيحاً يجمع للقارئ فهم المراد والتأثر به ومعرفة ما في الآية من أحكام وعِبَر. فَلِكَي يصل القارئ إلى هذه الغاية في الوقت القصير والجهد اليسير سنراعي في كتابة التفسير الأمور الآتية:

١. حل المفردات اللغوية والتراكيب حلاً مجملاً.

٢. سهولة العبارة والتوسط في إيراد المعاني.

٣. التحقيق في الحوادث والقصص فلا نذكر منها إلا ما له مساس بالآية ويؤيده الدليل.

٤. ربط معاني القرآن الكريم بمظاهر الحياة الحديثة: علمية واجتماعية وخلقية.

٥. ذكر أسباب النزول وبيان الرابطة بينها وبين الآيات.

٦. ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بالآية من حيث تأثيرها ومعناها.

٧. استنباط العبر والعظات والأحكام الفقهية التي تحتوي عليها الآية الكريمة.

٨. الاقتصاد في مسائل الخلاف وقفل باب الجدل في التأويل وعدم التعصب إلى رأي من الآراء.

٩. التقفية ببحوث لغوية وأصولية بعد التفسير، حتى يجد فيها المتنورون ما تصبو إليه أفكارهم من تمام البحث وسعة الاطلاع.

١٠. التنبيه على المغالط التي وقع فيها بعض المفسرين ورد الشبهات التي عسى أن يوردها بعض المغرضين على الآية الكريمة.

وقد راعينا في السير على هذه الطريقة أن تكون نافعة لعامة المسلمين فيستطيمون فهم المعنى الإجمالي ومعرفة العبر والأحكام، وأن تكون سارة للمستيرين لما يتلو ذلك من بحوث عالية.

ويعجبنا أن نورد هنا كلمة من وصية قيمة لمصلح كبير أوصى بها بعض إخوانه فقال: (وأدمْ قراءة القرآن وتفهم أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره كما كان يتلى على المؤمنين أيام الوحي، وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ غاب عنك مراد العرب منه أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله، ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه واحمل نفسك على ما يحمل عليه).

وسنرتب اختيار الآيات بترتيب **المقاصد الكلية للقرآن الكريم** ، فنبدأ إن شاء الله تعالى بآيات التعبد وهي الآيات التي تكثر تلاوتها في العبادات ووردت الأحاديث بفضيلة خاصة في تلاوتها كالفاتحة والمعوذتين والكافرون والكهف وتبارك والواقعة ويس ، ثم نُقَفِّي بآيات العقائد والنظر في الكون ، ثم بآيات الأخلاق ثم بآيات الأحكام ، ثم بقصص القرآن الكريم ، وهكذا والله المستعان) انتهى.

وعلى صفحات هذه الجريدة قام الإمام بتفسير موجز لسورة الفاتحة ثم حدث بعد ذلك أن نُقل العالم الجليل فضيلة الشيخ مصطفى الطير إلى عمله بمدينة القاهرة وتولى فضيلته القيام بتحرير باب التفسير ملتزماً بتلك الخطة التي وضعها الإمام في النص السابق رحمه الله رحمة واسعة.

أما الإمام ﷺ فقد انصرف إلى تفسير سورتي الحجرات والمجادلة كما فسَّر عدة آيات منتقاة من سور مختلفة على النحو المبين في الفهرس التاريخي الملحق بهذا الكتاب.. وفي تقديري ـ والله أعلم ـ أن هذا الانتقاء كان تلبية لما يتطلبه بناء الدعوة في تلك المرحلة كما كان توضيحاً لرأي الإسلام بصورة تجريدية لما كان يجري على الساحة من أحداث عالمية وتيارات فكرية.

وقد حرصت على إثبات النص السابق رغم أن الإمام لم يواصل تحرير باب التفسير في هذه الجريدة لما يأتي:

١ . هذا النص يلقي ضوءاً على ما كان الإمام يحرص عليه في تفسير القرآن الكريم.

٢ . أنه يكشف عن خاصَّة فريدة للإمام في كتاباته ألا وهي قدرته الفائقة على التبسيط وكتابة السهل الممتنع ولعله أشار إلى ذلك بقوله: (وقد راعينا في السير على هذه الطريقة أن تكون نافعة لعامة المسلمين ، فيستطيعون فهم المعنى الإجمالي ومعرفة العِبَر والأحكام ، وأن تكون سارة للمستنيرين لما يتلو ذلك من بحوث عالية).

٣. بدا واضحاً من هذا النص تركيز الإمام على بيان المقاصد الكلية للقرآن الكريم كما ذكر وصية الإمام محمد عبده: (وأدمْ قراءة القرآن.. إلخ) وقد عاد الإمام إلى التركيز على هذين المعنيين بعدما يقرب من خمسة عشر عاماً على صفحات مجلة الشهاب.

٤. وأخيراً.. فلعل ما جاء في هذا النص يكون نبراساً للذين يُصدرون الدوريات اليومية أو الأسبوعية حتى يستمتع القارئ بالاطلاع عليها ويحرص على متابعتها ويستفيد منها علماً نافعاً في وقت قصير وجهد يسير.

٢. مجلة النضال

أصدر الإمام وإخوانه هذه المجلة في ١٤ ربيع الأول ١٣٥٧هـ / ١٥ مايو ١٩٣٨م بعد أن توقفت جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية، وقد صدر من هذه المجلة خمسة أعداد فقط إلى أن صدرت بعد ذلك مجلة النذير في ٢٩ ربيع الأول ١٣٥٧ هـ/ ٣٠ مايو ١٩٣٨م.

وعلى صفحات هذه المجلة فسَّر الإمام الآيات من: (١ - ١٦) من سورة التوبة وكان الدافع إلى ذلك كما ذكر الإمام نفسه في نهاية مقاله الأول هو تذكير المسلمين بشرف الإسلام الدولي والمقارنة بينه وبين موقف إيطاليا وبريطانيا من عدوان الأولى على الحبشة غدراً وغيلة ومن تخلي الثانية عنها خيانة ونكراناً.

٣. مجلة المنار

استأنف الإمام رحمه الله إصدار مجلة المنار في غرة جمادى الآخرة ١٣٥٨هـ/ ١٨ يوليو ١٩٣٩م، بعد أن توقفت فترة من وفاة مؤسسها السيد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ في مساء يوم الخميس ٢٢ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ/ ٢٣ أغسطس ١٩٣٥م.

وقد كتب فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفي المراغي شيخ الأزهر في ذلك الوقت تصديراً لمجلة المنار أثنى فيه على مؤسسها السيد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ وقال عن الإمام حسن البنا ما نصه: (لقد علمت أن الأستاذ حسن البنا يريد أن يبعث المنار ويعيده

سيرته الأولى ، فسرَّني هذا ، فإن الأستاذ البنا رجل مسلم غيور على دينه يفهم الوسط الذي يعيش فيه ويعرف مواضع الداء في جسم الأمة الإسلامية ويفقه أسرار الإسلام ، وقد اتصل بالناس اتصالاً وثيقاً على اختلاف طبقاتهم وشغل نفسه بالإصلاح الديني والاجتماعي على الطريقة التي يرضاها سلف هذه الأمة) انتهى.

على صفحات العدد الخامس والثلاثين من مجلة المنار كتب الإمام ﷺ مقالاً عن منهجه الذي سيتبعه في إكمال تفسير المنار معلقاً على تلك العبارة التي كان السيد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ يتخذها شعاراً لتفسيره (تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي) وقال الإمام حسن البنا ما نصه: (بهذه الأوصاف قدم السيد محمد رشيد رضا رحمه الله تفسير المنار للناس ، كما كان يقدمه بأنه التفسير الذي فسَّر به القرآن من حيث هو هداية عامة للبشر ورحمة للعالمين جامع لأصول العمران وسنن الاجتماع وموافق لمصلحة الناس في كل زمان ومكان بانطباق عقائده على العقل وآدابه على الفطرة وأحكامه على درء المفاسد وحفظ المصالح.

ولقد بدأ هذا التفسير حكيم الإسلام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على هيئة دروس يلقيها في الأزهر على نخبة من خيرة الطلاب ، وكان تلميذه السيد رشيد رضا يلخص ما يسمع من هذه الدروس وينشر هذه الملخصات تباعاً في المنار، ثم استقل بعد ذلك بالتفسير مسترشداً بطريقة أستاذه مجتهداً أن يكون تفسيره للقرآن الكريم محققاً لهذه الأوصاف التي صدَّره بها حتى وصل الى قوله تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ يوسف . فكانت آخر آية كتب فيها ثم أدركته الوفاة.

ولقد أتم الأستاذ السلفي المحقق الشيخ بهجت البيطار في الجزأين اللذين صدرا بعد وفاة صاحب المنار بقية سورة يوسف وتوقفت المجلة عن الصدور حتى تعرضت

للنهوض بهذا العبء جماعة الإخوان المسلمين وانتدبني أعضاء مكتب الإرشاد العام لكتابة التفسير مع رياسة التحرير، فلم أر بدأ من النزول على حكمهم والامتثال لرأيهم احتراماً للجماعة وإيثاراً للطاعة رغم المشاغل الكثيرة والأعمال المتراكمة.

سأكتب التفسير في المنار مستمداً من الله تعالى الحول والقوة وسأحاول أن يكون في هذه الحدود المرسومة:

- **سلفياً**: يتجه القصد فيه أول ما يتجه إلى استجلاء روح القرآن واستطلاع مقاصده في بُعْدٍ عن المماحكة اللفظية والمجادلة الشكلية الصناعية كما كان يفهم السلف ـ رضوان الله عليهم ـ كتاب الله.
- **أثرياً**: يستمد من هذه الثروة المباركة التي تركها لنا الرواة الصادقون عن رسول الله ﷺ وعن صحابته الأكرمين ومن تبعهم بإحسان.
- **مدنياً**: يربط قواعد الحضارة الإسلامية التي وضعها القرآن الكريم بالأصول الصالحة لهذه المدنية الحديثة ويُبيِّن فضل الأصول القرآنية على ما ابتدع الناس لأنفسهم من أصول جرَّت عليهم الشقاء والوبال . فليست مدنية هذه العصر شراً كلها ، وليست خيراً كذلك ، والقرآن الكريم خيرٌ كلُّه فعلى ضوئه نتبين الصالح من نظم الاجتماع وغير الصالح.
- **عصرياً**: يصل روح القرآن الخالد بروح هذا العصر ويُقرِّب فكرة القرآن الكريم المشرقة إلى العقل العصري في أسلوب قريب المأخذ سريع الإفادة.
- **اجتماعياً**: يعرض لمشاكل الاجتماع وأصوله النافعة ويبين حلولها وصلاحيتها كما جاءت من لدن الحكيم الخبير.
- **سياسياً**: يصور الأمة المسلمة المثالية والأمة المسلمة الحالية ويكشف عن الفرق بين الحالين ثم يُشخِّص الداء ويصف الدواء للحاكم والمحكوم على السواء.

على هذه الأصول سأكتب تفسير المنار إن شاء الله . فإن وُفقت فمن الله وهو ولي

التوفيق . وإن كانت الأخرى فحسبي أن حاولت أداء الواجب واجتهدت في تحري الفائدة ورجائي إلى القراء الكرام أن يتكرموا ببيان ما يبدو لهم من ملاحظات حتى نتعاون جميعاً على الوصول إلى الكمال الممكن والله حسبنا ونعم الوكيل) انتهى .

وقد فَسَّر الإمام أوائل سورة الرعد من الآية: (١ - ٧) من تلك السورة ثم تعرضت المنار بعد ذلك للتوقف بسبب صدور أمر الحاكم العسكري بإلغاء الترخيص لوفاة صاحب المنار.

٤ . مجلة النذير

في ٢٩ ربيع الأول ١٣٥٧هـ/ ٣٠ مايو ١٩٣٨م أصدر الإمام وإخوانه مجلة النذير، وعلى صفحات هذه المجلة فسَّر الإمام عدة آيات من سورة آل عمران والنساء والنور تفسيراً موجزاً مناسباً للمقام تحت عنوان: (آية الأسبوع).

٥ . مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية

في ١٧ شعبان ١٣٦١هـ / ٢٩ أغسطس ١٩٤٢م أصدر الإمام وإخوانه هذه المجلة وقد صدرت نصف شهرية أولاً ثم تحولت إلى أسبوعية.

وفي السنة الخامسة من عمر هذه المجلة تعرضت الدعوة الإسلامية التي هتف بها الإمام رحمه الله في مصر إلى محنة قاسية دبَّرها الأعداء في الخارج ونفَّذها ضعاف النفوس في الداخل وأعادت إلى الأذهان ذكرى ما لاقاه الرسول ﷺ والرعيل الأول من المسلمين من عنت وإرهاق وغدر ونفاق من المشركين والمنافقين ونزلت على أثره سورة التوبة.

وعلى صفحات العدد الخامس والثلاثين من السنة الخامسة الصادر في ٢١ شوال ١٣٦٦هـ / ٦ سبتمبر ١٩٤٧م كتب الإمام مقالة تحت عنوان: (تأثر) أوضح فيها السبب الذي حدا به إلى تفسير سورة التوبة وهذا نصه:

(مررنا بسورة التوبة في تراويح رمضان ، ولتراويح رمضان فَيْضٌ وللقرآن فيها ضَوْءٌ

وإشراق ، وسورة التوبة سورة نفذت إلى أعماق النفوس البشرية فكشفت عن خباياها، وصوَّرت المجتمعات الإنسانية فأوضحت وقائعها وخفاياها . وأشد الناس شعوراً بهذه المعاني وتأثراً بها أهلُ الدعوات والعاملون لها والمنتسبون إليها ، أولئك الذين يحاولون تحويل النفوس وتبديل الأوضاع وصلاح المجتمعات.

وما أشبه الليلة بالبارحة ، وإنه لحَقٌ قول من قال: إن الإنسانية التي خطت خطوات واسعة في طريق الرقي العلمي والفكري والمادي لم تزل تحبو في طريق التقدم النفسي والإصلاح الاجتماعي.

ولقد كان يخيل إليّ وأنا أتلو آيات الكتاب الكريم من هذه السورة وأتمثل معانيها وما تصوره من دقائق النفوس والجماعات أنها مازالت تتحدث عن العصر الذي نعيش فيه ، وتعالج الداء الذي نعانيه . وتصف الدواء الذي نبغيه.

ولهذا اعتزمت منذ تلك اللحظة مستعيناً بالله تبارك وتعالى على أن أتدارسها من جديد مع القراء الكرام على صفحات مجلة الإخوان المسلمين) انتهى.

وقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتوقف هذا التفسير عند الآية السادسة والستين من سورة التوبة.. وقد أحكم الإمام ﷺ في هذا التفسير إسقاط الآيات القرآنية على الأحداث والظروف التي مرت بها الدعوة الإسلامية آنذاك ، وكان هذا التفسير هو العلاج الناجع لتلك المحنة والقضاء المبرم على آثارها.

٦ . مجلة الشهاب

في غرة المحرم عام ١٣٦٧هـ / ١٤ نوفمبر ١٩٤٧م أصدر الإمام ﷺ العدد الأول من مجلة الشهاب ، وقد خصص باباً من أبوابها للتفسير وكتب في مقدمة هذا الباب هذه الكلمة: (لابد لمثل هذه المجلة أن تتناول تفسير القرآن الكريم وعلومه كأول مصدر من مصادر الإسلام الحنيف وأقدمها وأهمها. ولقد فكَّرت طويلاً في المدخل الذي ألج منه هذا الميدان الفسيح المتشعب النواحي ، وخطر لي أن أتناول تفسير المنار

فأبدأ من حيث انتهى صاحبه السيد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ وخصوصاً وقد بدأتُ بذلك فعلاً حين أُسْنِدَ تحرير المنار وإصدارها إلى الإخوان المسلمين خلال سنة ١٩٣٩ الميلادية . فكتبت في تفسير صدر سورة الرعد، وعُطِّلت المجلة بعد صدور ستة أعداد كانت تمام المجلد الخامس والثلاثين ، ولكني رأيت أن ذلك ليس من حقي الآن ، وعلمت أن بعض حضرات أصحاب الفضيلة من علمائنا الأجلاء على هذا العزم الطيب ، وهم بحمد الله أقدر على تمامه للفسحة في الوقت والتمكن من الأمر أكثر مما أجد ذلك من نفسي ، فعدلت عن ذلك إلى الكتابة في التفسير على نهج كنت جريت عليه من قبل في بعض دروسي ومحاضراتي للإخوان المسلمين ، وذلك بأن أتناول **المقاصد العامة في القرآن الكريم** بحسب ما يلهمني الله إياه من فهم وتدبر وفقه ، وذلك ابتداء من فاتحة الكتاب الكريم إلى خاتمته إن شاء الله ، فأكون بذلك قد جمعت بين الحرص على الترتيب والإفادة من حيث وحدة الموضوع بقدر الإمكان. وإذا أعان الله على هذا العمل وباركه فسيكون عنوانه إن شاء الله (**مقاصد القرآن الكريم**) ورأيت قبل البدء في ذلك أن أمهد له في هذا المقال بهذه المقدمات حول علم التفسير ، ونشأته وتطوراته ، وآراء الناس فيه) انتهى.

وعلى صفحات هذه المجلة كتب الإمام هذا التمهيد الذي أشار إليه سلفاً تحت عنوان مقدمات في علم التفسير ثم فسَّر الإمام فاتحة الكتاب والآيات الخمس الأولى من سورة البقرة وكان هذا هو آخر ما كتبه الإمام في تفسير القرآن الكريم ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومن هنا فإنني حينما شرعت في إعداد هذا الكتاب للنشر حرصت على أن يكون عنوانه هو (**مقاصد القرآن الكريم**) وهو العنوان الذي حرص عليه الإمام منذ أول مقالة له في التفسير سنة ١٩٣٣م ، كما حرصت على ترتيب الآيات كما وردت في القرآن الكريم طبقاً لما ذكره الإمام رحمه الله وأرضاه.

■ أفضل التفاسير وأقرب طرائق الفهم

بعد هذا ألفت نظر القارئ الكريم إلى فقرة وردت في هذا الكتاب تحت عنوان: (**أفضل التفاسير وأقرب طرائق الفهم**) لأن هذه الفقرة توضح منهج الإمام ورأيه في تفسير القرآن الكريم كما أنها ترشد القارئ العادي إلى أسلوب عملي محدد يمرن عليه ويلجأ إليه لفهم القرآن الكريم وما أجلّها من نصيحة ونص هذه الفقرة هو:

(وبعد فقد سألني أحد الإخوان عن: أفضل التفاسير وأقرب طرائق الفهم لكتاب الله تبارك وتعالى ؟ فكان جوابي على سؤاله بهذه الكلمة: (**قلبك**) فقلب المؤمن ولا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى وأقرب طرائق الفهم أن يقرأ القارئ بتدبر وخشوع وأن يستلهم الله الرشد والسداد ، ويجمع شوارد فكره حين التلاوة ، وأن يُلِم مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة ، ويعني بنوع خاص بأسباب النزول وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة ، فسيجد في ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم ، وإذا قرأ في كتب التفسير بعد ذلك فللوقوف على معنى لفظ دَقَّ عليه أو تركيب خَفَي أمامه معناه أو استزادة من ثقافة تُعينه على الفهم لكتاب الله ، فهي مساعدات على الفهم ، والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوؤه في صميم القلب.

ومن وصايا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ لبعض تلامذته: (وأدم قراءة القرآن ، وفهم أوامره ونواهيه ، ومواعظه وعبره كما كان يتلى على المؤمنين أيام الوحي ، وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ غاب عنك مراد العرب منه أو ارتباط مفرد بآخر خَفَي عليك متصله ، ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه ، واحمل نفسك على ما يحمل عليه).

ولا شك أن من أخذ بهذه الطريقة سيجد أثرها بعد حين في نفسه مَلَكَةً تجعل الفهم من سجيته ، ونوراً يستضيء به في دنياه وآخرته إن شاء الله تعالى) انتهى.

وتعليقاً على هذه الفقرة فإنني ألفت نظر القارئ الكريم إلى ما يأتي:

١. لا تعني هذه العبارة الغض من شأن المتقدمين ـ رضوان الله عليهم ـ فقد أثنى الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ على ما خلفوه لنا من تراث غني خصيب فياض بالعلم زاخر بالأحكام ، ولكن هذه العبارة هي النتيجة الطبيعية لتغير المعارف والعلوم في كل عصر عن غيره من العصور، ولعل في الأخذ بها ما يكشف عن إعجاز القرآن الكريم ، وحسبك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) ﴾ النمل.

فقد فسَّرها معظم الأقدمين على أن هذا الحال يكون يوم القيامة ، أما بعد صعود الإنسان للقمر فقد فُسِّرت الآية على ظاهرها وسبحان من أنطق لسان (آرمسترونغ) وهو على سطح القمر بهذه العبارة التي نشرتها الصحف على صفحاتها الأولى: (إنني أرى قمة أفرست الآن تتحرك في الفضاء كما تشاهدون أنتم السحاب من الأرض) وصدق الله العظيم: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ فصلت.

٢. هذا من جانب ومن جانب آخر فإن هذه الفقرة تُعبِّر عن مناصرة الإمام للحرية الفكرية. وهو أمر له جذوره في فكر الإمام رضي الله عنه وأرضاه فقد كان الإمام نصيراً للحرية باعتبارها من أهم حقوق الإنسان ومن كلماته في ذلك: (الإنسانية هي الحرية ولا إنسانية بدونها) و (الحرية هي أساس كل إصلاح) و (أن مهمة الإسلام هي تحرير الإنسان من سلطان الهوى والمال والجاه والحكم حتى تستقيم الوجوه والغايات لله وحده ولا يعبد شيء سواه).

كما أن الإمام كان نصيراً للحرية الفكرية وانتقد بشدة تلك المعتقلات الإجبارية أو الاختيارية التي ابتلى بها العقل وأعلن أن: (القرآن الكريم إنما جاء ليخرج الناس من ظلمات هذه المعتقلات ويحطم عنهم القيود والأغلال حتى ينعموا بنسمات الحرية الروحية والفكرية في ظلال المعرفة الإلهية الربانية) انتهى.

والشرط الوحيد الذي اشترطه الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه الحرية الفكرية والذي التقطناه من ثنايا إحدي مقالاته هو أن تؤدي هذه الحرية إلى أراء تتفق مع الحق ومع الفطرة الإنسانية.

■ **هذا التفسير**

وبعد فإن هذا التفسير نسق فريد بين تفاسير القرآن على اختلاف تصنيفها قديماً وحديثاً ، والحديث عن ذلك يطول وليس هنا مقامه.. ولكن حسبي أن أُذَكِّر القارئ بأن هذا التفسير يحمل في طياته نفحة ربانية ولمسة روحانية يشع نورها بين ثناياه ، فإضافة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد وَهَبَ كاتبه العديد من الملكات العقلية والنفسية التي جعلت منه عَالماً فذاً فريداً وعَلَماً في مختلف المجالات الدينية والاجتماعية والسياسية فإنه سبحانه وتعالى قد أفاض عليه من فضله وصدق فيه قوله: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾ البقرة. أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحداً ، وإلا فكيف يتسنى لشاب لم يبلغ الثالثة والعشرين من عمره ، واستشهد ولما يبلغ الثالثة والأربعين أن يكتب كل هذه الأدبيات بكل هذه الروعة والانضباط.. ؟! إنه فضل الله وكفى.

ولعل هذا ما أشار إليه الإمام حسن البنا في ثنايا تفسيره لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ الأحزاب: ٦ بقوله: (وبعد أيها الأخ: فهذه لوامع بروق تسطع في قلوب المؤمنين حيث تهطل عليهم سحائب فيض الحب النبوي من سماء الحقيقة المحمدية فتهتف بها ألسنتهم وتجري بها أقلامهم ، وإن في القول بعد ذلك لَسعَة ، وإن ما يبدو في مرآة قلوب العارفين لا حد له ، فَسَل اللّه يعطك ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

وما أشار إليه في موضع آخر بقوله: (إن رياضة النفوس ومجاهدتها والمداومة على العبادة وأداءها يرقق حجاب الحس ويقوي سلطان الروح ويقذف في القلب نوراً ينكشف به للسالك مالم يكن يعلم من جمال الكون وجلاله ودقائقه وأسراره وحقائقه ومظاهره ويجد لذلك نشوة في الفؤاد ولذة في المشاعر).

وما أشار إليه في موضع ثالث بقوله: (يا أخي: إن لله مواهب وأسرار يفيضها على لب المتقين من عباده ، فعليك بمجاهدة نفسك وطاعة ربك والإقبال على ذكره والعمل ما علمت من شريعته حتى تتفجر ينابيع الحكمة من قلبك ويرزقك الله علم ما لم تكن علم والله ولي توفيقنا وتوفيقك إلى ما يحبه ويرضاه وصلى الله على سيدنا محمد على آله وصحبه وسلم).

لطائف

حدا بي إلى كتابة هذه اللطائف كثرة الأسئلة التي وجهها إليّ الإخوة الأحباب عن لإمام حسن البنا ، وتقديراً لعواطفهم الكريمة التي أعجز عن شكرها فإني أبادرهم منا بهذه اللطائف:

١ ـ حفظ الإمام نصف القرآن الكريم في قرية المحمودية وفي مدرسة الرشاد لديني والنصف الآخر في المنزل وفاءً لعهد قطعه على نفسه أمام والده حينما ترك مدرسة الرشاد.

٢ ـ نال الإمام الدرجة النهائية في مادة تفسير القرآن الكريم في امتحان ليسانس كلية دار العلوم سنة ١٩٢٧م وكان أول دفعته كما كان دائماً طوال حياته الدراسية.

٣ ـ كان الإمام يختم القرآن الكريم مرة كل أسبوع وكان يحرص على هذا حرصاً شديداً وكان له مصحف مقسم إلى ثلاثين جزءاً مطبوع على ورق خفيف يأخذ عدة اجزاء منه كلما خرج صباحاً أو مساءً.

٤ ـ في شهر رمضان كان الإمام يصلي التروايح مع إخوانه بجزء من القرآن الكريم يومياً وكنت أصلي خلفه.

٥ ـ كان الإمام يدعوني وشقيقتي الكبرى (أم أيمن) حفظها الله ليقرأ علينا القرآن الكريم قبيل الفجر أو قبيل المغرب وخاصة في شهر رمضان ، وكان صوته جميلاً لم اسمع مثله حتى اليوم وكانت قراءته في خشوع تام.. وفهم وتدبر.. وتأثر بما يقرأ..

وكانت عيناه تدمع في بعض الأحيان.. وكنا نتأثر تأثراً قوياً بما نسمع منه.. وكان هذا هو المقصود الأول أما الثاني فكان تعليمنا قراءة القرآن الكريم.

وبعد، فإلى دار الوثيقة للنشر والتوزيع وممثليها الدكتور بدر العازمي والأستاذ سليمان العجمي خالص الشكر والتقدير، لمشاعرهم النبيلة تجاه تراث الإمام، ومتابعتهم وتوثيقهم، وجهودهم الواضحة في اصداره، فجزاهم الله عن ذلك خير الجزاء.

وختاماً.. فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يجمعنا بكاتبه في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.. وإلى روح الإمام حسن البنا في عليائها عهدٌ وميثاقٌ بالصبر والثبات والعمل بكتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ.

يا إمامي هذه روحي فسل روحك عنها
أنت صوت في ضميري يأمر القلب وينهى
لك في الوجدان آيات يشع النور منها
لم أكن من بين جند المصطفى إن لم أصنها

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحمد سيف الإسلام حسن البنا

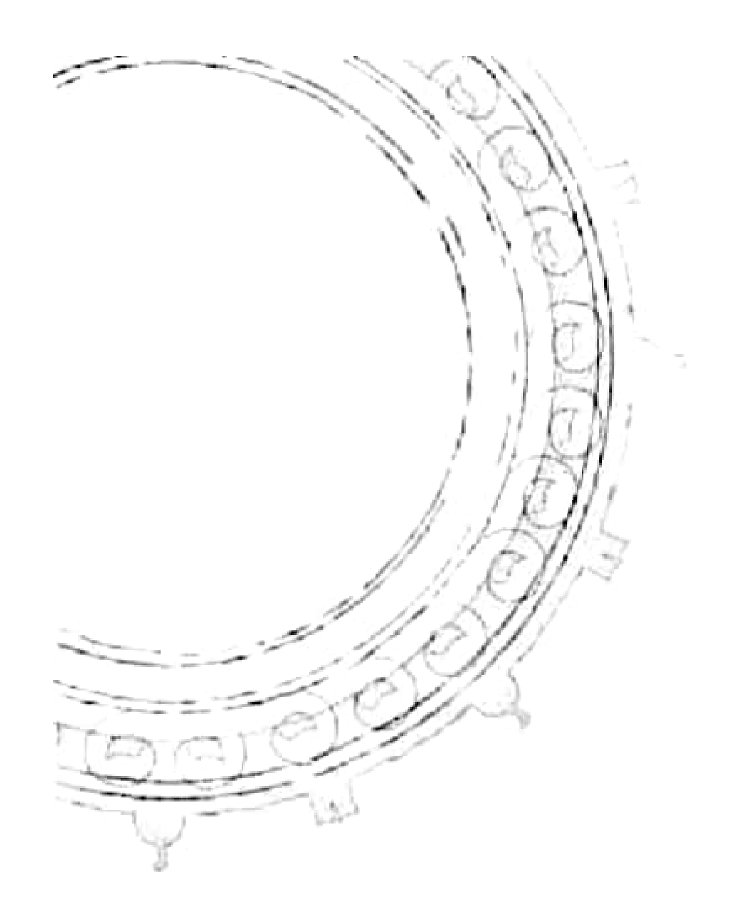
القاهرة في يوم الأثنين

١٧ صفر ١٤٢٥هـ

الموافق ٧ / ٤ /٢٠٠٤م


مقدمات في
علم التفسير





مقدمات في علم التفسير

■ **القرآن الكريم**

«كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأُ مَنْ قَبلكم ، وخَبرُ ما بعدكم ، وحُكمُ ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تَزيغُ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعَّب معه الآراء ، ولا يَشبع منه العلماء ، ولا يَملُّه الأتقياء ، ولا يَخلَقُ على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ، من عَلِمَ علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حَكم به عَدل ، ومن عمل به أُجرَ ، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم». (رواه الترمذي عن عليّ ﷺ مرفوعا) .

ذلكم هو القرآن الكريم ، وقد أنزله الله على نبيه ﷺ ، ليتلوه المؤمنون ، فتنشرح بهذه التلاوة صدورهم ، وتستنير أفئدتهم وقلوبهم ، وينالوا به مثوبة الله يوم القيامة ، وما تقرب أحد إلى الله تبارك وتعالى بمثل كلامه. ثم ليكون بعد ذلك دستور حياتهم ، ونظام مجتمعهم ، يرسم لهم طرائق الحياة السعيدة في هذه الحياة الدنيا وطرائق الفوز والنجاة في العقبى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ النحل . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ طه.

فليس المقصود من القرآن مجرد التلاوة أو التماس البركة - وهو مبارك حقاً - ولكن بركته الكبرى في تدبره وتفهم معانيه ومقاصده ثم تحقيقها في الأعمال الدينية والدنيوية على السواء. ومن لم يفعل ذلك أو اكتفى بمجرد التلاوة بغير تدبر ولا عمل ، فإنه يُخشى أن يحق عليه الوعيد الذي يرويه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه: «يا معشر القُرَّاء استقيموا فقد سَبَقْتُمْ سَبْقاً بعيداً ، وإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً».

■ الحاجة إلى التفسير

ولهذا كانت الحاجة ماسة إلى التفسير المُفْهِم الذي تتضح به المعاني والمقاصد بحسب مدارك البشر وما تتسع له عقولهم، وإن كان القرآن في الحقيقة قد يسَّره الله للناس تيسيراً عجيباً: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ القمر. ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) ﴾ مريم . ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) ﴾ الدخان . ولكنه بعد تَبلبُل الألسنة ، وفشو اللحن ، وانتشار العامية والبعد عن الفصحى ، صار الناس في حاجة إلى تفسير الألفاظ والتراكيب التي قد يغيب معناها عن أذهانهم ، أو يخفي مدلولها عن إدراكهم ، هذا مع أن القرآن الكريم هو دستور الدين والدنيا وقد ضمَّنه الله من علومهما وما يتصل بهما من المعارف ما تتفاوت في إدراكه عقول الناس ، وما لا يزال الزمن والبحث يكشف عن درره وجواهره ، ويبين عن غرائبه وعجائبه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ فصلت . وسُئل عليٌّ - كرم الله وجهه -: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء أهل البيت ؟ قال: لا إلا فهماً أوتيه رجل في كتاب الله ، وما في هذه الصحيفة. وعرض عليهم صحيفة فيها بعض الأحكام.

ومن هنا نشأ علم التفسير بسيطا ثم مازال الناس يتوسعون في شأنه حتى ورثنا مجموعة ضخمة من التفاسير كان بعضها هداية ونورا، وكان بعضها موسوعات علمية فيها كل شئ إلا تفسير القرآن.

■ عناية السلف به

وكان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ يهتمون بتعرف مقاصد القرآن الكريم ، ويرون الفضل لمن علم شيئا من تفسيره . فعن عليٍّ ﷺ: أنه ذكر جابرًا بن عبد الله ووصفه بالعلم . فقال له رجل: جُعلت فداءك ! تصف جابراً بالعلم وأنت أنت.!! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ القصص: ٨٥ . وقال مجاهد: أحب الخلق عند الله تعالي أعلمهم بما أنزل. وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يُعلم فيما أُنزلت وما يعني بها . وقال الشعبي: رحل مسروق إلى البصرة في طلب تفسير آية فقيل له: إن الذي يُفسّرها رحل إلى الشام فَتجهَّز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة في قوله عز وجل: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال ابن عبد البر هو ضمرة بن حبيب . وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ ما يمنعني إلاّ مهابته فسألته فقال: هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً . وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب ، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب . (مقدمة تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن) .

■ التفسير بالرأي

ومع هذا التعظيم لقدر التفسير والمفسرين الذي يعلمون فيما أنزلت الآيات وماذا أريد بها ، فإن السلف ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يَتحرَّون دائماً في التفسير الا تتحكم فيما يفهمون من الآيات أغراضٌ خاصة ، أو أهواءٌ شخصية ، أو ظروف طارئة ولكنهم كانوا يُجرِّدون أنفسهم من كل ذلك حتى يكون القرآن أميراً على تصرفاتهم

ويكون هواهم تبعاً لما جاء به رسولهم ﷺ وهو صريح الإيمان. ومن هنا كان الكثير منهم يتحرج من التفسير ويخاف أن يقول في القرآن برأيه.

قال ابن عطية: وكان جُلّة من السلف الصالح كسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وغيرهما يُعظّمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم.

قال أبو بكر الأنباري: وقد كان الأئمة من السلف الماضي يتورعون عن تفسير المُشكِل من القرآن ، فبعضٌ يُقدِّر أن الذي يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيحجم عن القول ، وبعضٌ يُشفق من أن يُجعل في التفسير إماماً يُبنَى على مذهبه ويُقتَفى طريقه. فلعل متأخراً أن يفسر حرفاً برأيه ويخطئ فيه ويقول إمامي في تفسير القرآن بالراي فلان الإمام من السلف . وعن ابن أبي مليكة قال: سُئل ابو بكر الصدّيق رضي الله عنه في تفسير حرف من القرآن فقال: اي سماء تظلني ، واي أرض تقلني ، وأين أذهب ، وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى ؟.

وروى الترمذي وأبو داود من حديث جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال في القرآن برايه فأصاب فقد أخطاء. (مقدمة تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن).

والمراد بالقول بالراي هنا: أن يقول بغير علم خجلاً أو تورطاً او هروباً من الوصف بالجهل ، أو أن يتحكم الهوى ، وتتغلب الأغراض فتجور بصاحبها عن نهج الصواب ، وتعدل به عن طريق الحق ، فلو أصاب أحدهم مع هذه النية فقد أخطأ وأثم. ولا شك أن الذين يجتهدون في تحري الحق متجردين له من أهوائهم فهم مُثابون ، إن أخطاوا فلهم أجر، وإن أصابوا فلهم أجران إن شاء الله. وبهذا يَجمع بين رغبة السلف في التفسير وتعظيمهم لقدر المفسرين ، وبين خوفهم من القول في القرآن بالرأي وما ورد من النهي عن ذلك.

■ تأثر أسلوب التفسير بالثقافات والعصور المختلفة

ولا شك أن أسلوب التفسير قد تأثر بالتطورات الاجتماعية والثقافية في العصور الإسلامية المختلفة ، فبدأ أول ما بدأ هيّناً يسيراً يتناول بعض الآيات وبعض الألفاظ والوقائع ، لاستغناء الناس عن ذلك بسليقتهم العربية وذوقهم اللساني الذي ما زال متمكناً منهم ، وما زالوا مقيمين عليه ، واكتفاءً بالسنة العملية التي شاهدوها مع رسول الله ﷺ ومع أصحابه والتابعين لهم بإحسان.

وجاء عصر التدوين والقصص فكُتبت في التفسير رسائل لا تعدو أن تكون روايات منقولة وأقاصيص منها ما هو صحيح يتصل بأسباب النزول ووقائع الأحكام ، ومنها ما هو منقول عن أهل الكتاب فيه الغث وفيه السمين ، وعرف بذلك مفسرون ووضعت كتب على هذا الأسلوب الذي يعرف بأسلوب الرواية أو التفسير بالمأثور ولا شك أن من أعظمها وأجلّها وأبقاها وأنفعها وأغزرها مادة تفسير الإمام محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠ هـ واسمه (جامع البيان في تفسير القرآن).

وجاء عصر الترجمة والفلسفة والاتصال بعلوم الفرس واليونان ، ووقع الخلاف بين فلاسفة الإسلام وعلمائه في كثير من الشئون العقدية والفروع الفقهية وما إلى ذلك ، فنحَتْ كتب التفسير نحو هذا الأسلوب ، من حيث تضمنها لكثير من النظرات الفلسفية والاستدلال بالآيات على الآراء والمذاهب العقدية المختلفة ، بل إن كثيراً من المفسرين كان يجتهد أن يستنبط من الآية ما يوافق مذهبه في الفروع وذلك أمر طبيعي ، وكثير من كتب التفسير إنما كان الدافع إليه مجرد الرد على بعض الكتب السابقة ، ويُرى ذلك واضحاً في تفسير الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ والمسمى (مفاتيح الغيب) وفي تفسير الزمخشري المتوفي سنة ٥٢٨ هـ وهو المسمى بـ(الكشّاف) وأضرابهما ويطلق بعض الباحثين على هذا الأسلوب (التفسير بالمعقول).

وكثيراً ما تناول بعض اللغويين تفسير القرآن الكريم فصرفوا وجهتهم إلى النكات البلاغية والتوجيهات اللغوية ، والاستعمالات النحوية وهكذا كما ترى ذلك في تفسير الزجّاج والواحدي وأبي حيان الأندلسي. وما زال بين أيدينا كتاب المفردات للراغب الأصفهاني من رجال القرن السادس الهجري.

واتجهت وجهة كثير من المفسرين العصريين إلى مسايرة النهضة العلمية ، وبيان ما تناوله القرآن وأشار إليه من أصول العلوم الكونية ونواميسها ومظاهرها كما فعل ذلك الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الجواهر.

كما اتجهت وجهة آخرين إلى بيان السنن الاجتماعية وأساليب الهداية النفسية وأسباب التطورات التاريخية ، واستنباط ذلك من آيات القرآن الكريم ليكون حافزاً للمسلمين إلى استعادة مجدهم بالقرآن وربط حياتهم الاجتماعية بتعاليمه وشرائعه ، كما فعل ذلك الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، واقتفى أثره وارثه وتلميذه السيد محمد رشيد رضا ـ رحمهما الله ـ في تفسير المنار.

وهكذا نجد أن أسلوب التفسير يتجدد مع كل مفسر، ومع كل عصر بحسبه ، وذلك أمر طبيعي كما قدمنا ، فإنما يصور المفسرون ما فهموا من كتاب الله ، وأداة فهمهم عقولهم ، ومادة علمهم بيئتهم ومعارف عصرهم ، فكان لزاماً أن يظهر ذلك كله جلياً في نفثات أقلامهم ومعرض آرائهم.

ولا نريد أن نتناول هنا جميع كتب التفسير بالوصف والتحليل فذلك ما لا نقصد إليه ، ولا هو من مواد هذا البحث وحسبنا ما ذُكر على سبيل المثال.

■ مزالق المفسرين

وهذا التأثر في أسلوب التفسير بثقافات المفسرين وعصورهم كثيراً ما يجر بعضهم إلى مزالق الخطأ ، وينحرف بهم عن جادة الصواب في الفهم أو في التعبير، وبخاصة إذا لم يكونوا قد تمرسوا بالدراسات: الشرعية ، واللغوية ، والدينية ، والأدبية

التي تُعين على صحة الفهم ، وإدراك المقصد ، ووضوح العبارة ؛ ولهذا رأينا المستشرقين أفحش خطأً من غيرهم كلما تناولوا الحديث عن القرآن لضعف مادتهم اللغوية وبعدهم عن التمكن من الدراسات الإسلامية الصحيحة ، وهذا في المخلصين للبحث الحر منهم. فما بالك بالمغرضين ؟! ثم يتلوهم الباحثون الذين لم يأخذوا بحظ وافر من هذه الدراسات.

وكثيراً ما يكون مظهر الخطأ الفاحش صياغة العبارة وقصورها عن الوفاء بالمراد، بحيث لو صيغ هذا المعنى في عبارة أدق وأحكم لكان أدل على غرض الكاتب وأوفى بمقصده ، مع تمشيه مع الأدب اللازم في معالجة مثل هذه البحوث ، ومسايرته للحق والمنطق والصواب. ولعل من المفيد أن نلم إلمامة وجيزة ببعض هذه المزالق في أساليب الكاتبين عن مقاصد القرآن المختلفة لعل فيها تحذيراً وتبصرة فهناك:

▪ أ. في القصص والمعجزات

يتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين ويذكر طرفاً من معجزاتهم ، ومن المقرر: أنه ليس الغرض من ذلك استقراء الوقائع ولا تحديد الأزمان ، ولا تناول الظروف والملابسات ، ولا تسجيل مجرد الحوادث والأشخاص ، ولا البحث التاريخي الاصطلاحي الفني ، وإنما الغرضُ من ذلك الهداية والعظة والعبرة ، وتقرير قواعد هذه الهداية في النفوس بذكر هذه القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئين ، والقرآن الكريم يصرح بهذا في وضوح فيقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ يوسف.

ومن المقطوع به كذلك عند كل مسلم أن كل ما ذكره القرآن في هذه الناحية حق لا شك فيه ، وأن علم التاريخ الاصطلاحي لا يمكن أن يأتي بحقيقة تخالف ما جاء في قصة من القصص التي ذكرها القرآن الكريم ، نعم إنه قد يعجز عن أن يصل بوسائله

الفنية المجردة إلى بعض ما ذكره القرآن الكريم ، فيكون ما ذكره القرآن الكريم زائداً عن علم التاريخ المجرد ، وقد يعجز التاريخ المجرد عن أن يجد الدليل بأسلوبه الخاص على ما ورد في القرآن الكريم.

ولكن يجب أن يلاحظ: أن عجز علم التاريخ عن المعرفة أو الاستدلال ليس معناه عدم صحة ما جاء في القرآن ، فليس انتفاء العلم بالشيء دليلا على عدم وجوده.

وهنا المزلق فالمؤرخون قسمان:

• قسم لا يؤمن بالقرآن الكريم ولا يتخذ وحيه ديناً. وهذا يقول: إن القرآن لا يصح أن يكون عنده كتاباً تاريخياً يعتمد عليه في بحوثه الفنية المجردة عن أي اعتبار آخر ، وهو معذور في هذا القول ، ولا يُنتظر منه غيره ، لأنه لم يلتزم التصديق والإيمان بالقرآن من قبل.

• وقسم آمن بالقرآن وقام عنده الدليل على صدقه. وعليه حينئذ واجبان:

أولهما: أن يكون أصدق الأدلة التاريخية عنده وأثبتها ما جاء في هذا القرآن عن الأمم والعصور التي أرّخ لها أو تناولتها آياته.

وثانيهما: أن يرد عنه تكذيب الصنف الأول ـ إن حاولوا ذلك أو أرادوه ـ وأن يقيم لهم الدليل على خطئهم بالأسلوب التاريخي الفني ، ولن يعجزه ذلك متى أراده.

ولكن بعض الباحثين من هذا القسم يحلو له أن يتشبه بأولئك فيجرد من شخصيته المؤمنة بالقرآن شخصية أخرى يدعي أنها تاريخية بحتة لا تهتم بأي اعتبار آخر، ثم يمضي في بحثه متقمصاً هذه الشخصية الجديدة وينسى تماماً شخصيته الأولى فيزل ويهوى ، ولو عاد فذكر شخصيته المؤمنة ، وعَقّب على بحثه المجرد بما يفيد إيمانه بصدق هذا التاريخ القرآني ، ثم ناضل عن ذلك ودعمه بالأسلوب العلمي لقام ذلك عذراً له أمام إيمانه أولاً ، وأمام الناس بعد ذلك ولاستحق الشكر والثناء.

زلَّ الدكتور طه حسين بك في هذا المزلق حين انتحل من قبل ما قاله أحد المستشرقين: (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل . وللإنجيل أن يحدثنا عنهما ، وللقرآن أن يفعل ذلك . ولكن هذا لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي) . وثار الناس عليه وهم محقون، ولو قال بعد ذلك: (ولكني كمؤمن بالقرآن الكريم أُثبت وجودهما التاريخي بهذا الدليل . وإذا كان البحث التاريخي المجرد بأدلته الفنية الخاصة لم يصل إلى إثبات شئ عن إبراهيم وإسماعيل فذلك لقصور قد يكشفه الزمن ، وقد نصل في المستقبل إلى ما عجزنا عنه الآن ، كما يحدث ذلك دائماً . وأخيلةُ الأمس حقائقُ اليوم وأخيلةُ اليوم حقائقُ الغد . وحسب الكتب السماوية أن تضع أيدينا على طرف الحبل وعلينا بعد ذلك تمام البحث . ومن أنكر ذلك من المستشرقين فهو مُتجن على العلم ! فليس توقف العقل عن حكم دليلاً على الاستحالة). لكان محققاً وكان محقاً وكان جامعاً بين تحليل العالم العصري واعتقاد المؤمن القوي . ولما ثار الناس به وثار هو كذلك بالناس.

∴

وهذا الكاتب الجديد صاحب رسالة (القصص الفني في القرآن) التي لم تظهر للناس بعد وإنما ظهر منها طرف تناولته الصحف نحا هذا النحو، ولكن في وادٍ أدبي متصل بالتاريخ ، فهو يريد أن يقول إن رعاية الناحية الفنية عند الأديب المجرد لا تستلزم صدق الرواية ولا صحة الواقعة ، وهذا حق ، بل إنه كثيراً ما يتجلى فن الأديب في المبتكر من الحوادث والمتخيل من الروايات أكثر مما يتجلى في رواية الوقائع الصادقة الحقة ـ بصرف النظر عما يقوله المربون وعلماء النفس في خطر هذا الأسلوب على التكوين الفكري والنفساني للأشخاص ـ ثم هو يريد بعد هذا أن يجرد من نفسه أديباً بعيداً عن كل اعتبار آخر ، ويجرد من القرآن كتاب أدب بعيداً عن كل اعتبار آخر كذلك ، وينظر فيه على هذا الأسلوب بصرف النظر عن صدق هذه القصص ومطابقتها للواقع والتاريخ أو مخالفتها لذلك كله. ولو قال إنه يتخذ هذا البحث وسيلة إلى إثبات سمو الناحية الفنية في كتاب الله وعمقها ، وإنه كمؤمن

بالقرآن الكريم يصدق بأن هذه الوقائع جميعاً لابد أن تكون حقائق تاريخية ، وذلك مما يزيد في روعة التصوير ودقة الفن ولا عجب فهو: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ لو قال هذا لاستراح وأراح ، ونفى عن نفسه وعن الذين يقرؤون له لوثات الزيغ والضلال ، وقل مثل ذلك في مثل هذه المناحى جميعاً.

هذا من حيث التاريخ والأدب مع القصص القرآني والحوادث التاريخية فيه ، أما المعجزات والقصص الغريبة التي لم تأت على حسب مألوف الناس ، ووفق ما يعرفون من النواميس العادية كقصة أهل الكهف ، وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، فذلك بحث آخر سنفرده بالكلام في أول مناسباته إن شاء الله وإنما نقصد إلى التنبيه لمثل هذا المزلق وللاستقراء بعد ذلك موضعه بتوفيق الله.

■ ب . في العلوم الكونية

من المقرر أن القرآن الكريم لم ينزل ليكون كتاب هيئة أو طب أو فلك أو زراعة أو صناعة ، ولكنه كتاب هداية وإرشاد وتوجيه اجتماعي إلى أمهات المناهج الاجتماعية التي إذا سلكها الناس سُعِدُوا في دنياهم وفازوا في آخرتهم ، وهو إنما يعرض للعلوم الكونية ، ولمظاهر الوجود المادية الطبيعية بالقدر الذي يعين على الإيمان بعظمة الخالق جلّ وعلا ، ويكشف عن بديع صنعه ، وعما أودع في هذا الكون من المنافع والفوائد لبني الإنسان ، حتى ييسر لهم بذلك طرائق الاهتداء إلى الاستفادة من هذه الخيرات في الأرض وفي السماء وفيما بين ذلك ، ثم ترك بعد ذلك للعقل الإنساني أن يجاهد ويكافح في سبيل الكشف عن مساتير هذا الوجود والاستفادة مما فيه من قوى ومنافع وحثهُ على ذلك ، وجعل هذا من أفضل العبادة ، وأعلى أنواع ذكر الله: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١٠١) ﴾ يونس. ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ آل عمران.

ولقد ذهب كثير من المؤلفين والمفسرين في القديم والحديث إلى أن القرآن الكريم قد تضمن كل أصول العلوم الكونية ، وحاولوا أن يصلوا إلى ذلك بتطبيق آيات الخلق والتكوين وما إليها على ما عَرَفَ الناس من هذه العلوم ، ومن هؤلاء الإمام الغزالي قديماً في جواهر القرآن ، والشيخ طنطاوي جوهري حديثاً في تفسيره الجواهر، والدكتور عبد العزيز إسماعيل في كتابه عن القرآن والطب ، وأمثالهم. وهو جهد مشكور ولا شك . ولكنه تكليف بما لم يكلفنا الله به قد يصل في كثير من الأحيان إلى التكلُّف ، وخروج بالقرآن عما نزل له من الهداية والإصلاح الاجتماعي وتقرير قواعدهما في النفوس والمجتمعات ، وتعريض لمعاني كتاب الله تبارك وتعالى لاختلاف الآراء ، وتضارب المقررات العلمية ، واختلاف أقوال العلماء. ولهذا كره بعض السلف هذا المعنى وأشار إليه ، كما فعل ذلك الشاطبي في الجزء الثاني من الموافقات وناقشه مناقشة دقيقة خلص منها إلى أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء من هذه العلوم وإن كان قد تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه ، والاستنارة بنوره ، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا.

ومن المقرر كذلك أن القرآن قد تعرض لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونية ، فتناول خلق الإنسان ، وتكوين الأرض والسماء ، وجريان الشمس والقمر ، وتسخير الكواكب والنجوم والأفلاك ، وتراكم السحاب ونزول المطر ، وظاهرة الرعد والبرق ، ونمو النبات وتنوع أصنافه ، وعجائب البحار، وأعلام الطريق والجبال الرواسي على هذه الأرض . وأطوار الأجنَّة في بطون أمهاتها ، إلى غير ذلك مما يتناوله علماء الكون بالتمحيص والبيان وما هو موضوع بحوثهم ومحل عنايتهم وتجاربهم.

وكثيراً ما تختم هذه الآيات بالحث على التعقل والتفكر والنظر والتدبر، إشارة إلى أن القرآن الكريم لم يقصد بهذا التعرض تقرير أصول هذه العلوم ، أو تناول

فروعها ، ولكنه إنما يقصد إلى الهداية ، وتوجيه الأنظار والنفوس إلى ما تدل عليه من عظمة الخالق وفائدة المخلوق.

ولكن الذي لا يمكن أن يكون محل نزاع هو أن القرآن حين أشار إلى هذه النواميس الكونية ، والمظاهر الوجودية المادية ، كان من دقة التعبير وصدق التصوير بحيث لا يمكن أبداً أن يصطدم بما يكشف العقل الإنساني عنه في أطواره المختلفة من حقائق هذه العلوم ومقرراتها ، وخصوصاً إذا لاحظنا أن هذه المقررات العلمية تنقسم إلى قسمين: قسم تظاهرت عليه الأدلة وتوافرت الحجج حتى كاد يلحق بالبديهيات ، وقسم لا زال في طور البحث العلمي وكل الذي بين يدي العلماء الكونيين منه فروض تؤيدها بعض القرائن التي لم تَرْقَ إلى مرتبة الأدلة القاطعة أو الحجج المقنعة.

فما كان من القسم الأول فلا شك أن ما أشار إليه القرآن الكريم منه يوافق كل الموافقة ويطابق كل المطابقة ، ما عرفه العلماء الكونيون ، حتى إنه من الحق أن يقال: إن ذلك من إعجاز هذا الكتاب الذي جاء به أُميٌ لم يتعلم في مدرسة ، ولم يلتحق بجامعة من الجامعات !

ومن أمثلة ذلك إشاراته إلى أطوار الجنين ، وتلقيح الرياح ، وتكون السحاب وصلته بالرياح... الخ.

وما كان من القسم الثاني فمن التجني وظلم الحقيقة أن يوازن بينه وبين ما جاء في القرآن الكريم ، فلننتظر حتى يطمئن العلم الكوني إلى ما بين يديه ، ويؤمن العقل الإنساني بما وصل إليه ، ثم ننظر على ضوء هذا الإيمان إلى النص القرآني ولن نجدهما إلا متعاونين على تثبيت دعائم الحقيقة: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ فصلت.

ومن هذا القبيل ما يتصل بنشأة الإنسان وحقيقة الحياة وبدء التكوين ، وصلة الأرض بالسماء ، على أنه من عجيب أمر هذا القرآن أنه حتى في مثل هذه المواطن يسوق التعبير سوقاً عجيباً معجزاً في مرونة عبارته ودقة إشارته حتى إنه ليساير بحق تطور العقل الإنساني في كل زمان ومكان. وتأمل تصويره لنهاية العالم المادي ووصفه للقيامة وآثارها فيه ، ترى أنه أتي في ذلك بالعجب العجاب !

وهنا المزلق، فإن كثيراً من الكاتبين في هذه المعاني والناظرين إليها يكتبون وينظرون وقد آمنوا إيماناً ـ لا شك فيه ـ بصحة هذه الفروض العلمية ، واعتبروها حقائق بدهية مقررة لا نقض فيها ولا إبرام ، وهم مع هذا الخطأ لا يُكلفون أنفسهم دقة النظر في نصوص القرآن ، ولطف التركيب في عباراته وسر الوضع في ألفاظه ، فيتورطون في الحيرة أحياناً وفي التكذيب أحياناً أخرى. فما دام (دارون) عندهم قد قرر: أن الإنسان لابد أن يكون مشتقاً من حيوان آخر. فليس للقرآن أن يقول: إنه من طين ، أو من صلصال كالفخار حتى لا يصطدم بالكشوف العلمية ، وفاتهم أنهم لم يحيطوا بما قال (دارون) ولم يطالعوا ما كتب خصوم نظريته في هدمها وإبطالها ، وبخاصة في هذه الناحية بالذات وما ذكره بعض العلماء من نظريات تعاكسها تماماً ، كما فاتهم سر تركيب القرآن في قوله: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ السجدة. وفي قوله: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) ﴾ نوح. والحق والإنصاف أن يُسلّموا بصدق هذه الآيات الكريمة تمام الصدق ، وأن ينتظروا ما ينتهي إليه علم الناس ثم ينظروا بعد ذلك: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ ، ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهذه إشارات عابرة إلى الموضوع يأتي تفصيلها في موضعه إن شاء الله.

■ جـ . في السمعيات وصفات الله تبارك وتعالى

ومما يلحق بذلك ويشبهه ما ذكره القرآن الكريم مما يسمى في اصطلاح النظار والمؤلفين بالسمعيات. ومن ذلك الجن ، والملائكة ، وأحوال الموت ، والقبر، والبعث والجزاء ، والجنة والنار... الخ ثم صفات الله تبارك وتعالى. فلقد تناول القرآن الكريم هذه الموضوعات بكثير من الإفاضة والإسهاب. فذكر الجن في عدة مواطن ووصفهم بالفقه والفهم والإيمان ، والقدرة على ما يعجز عنه البشر في كثير من الأحيان ، وذكر الملائكة ووصفهم بأوصاف عدة في كثير من الآيات ، وأفاض في ذكر الموت وأحواله وما بعده من بعث ونشور وحساب وجزاء: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ الزلزلة ، ثم عرض لصفات الله تبارك وتعالى فوصفه بالكمالات كلها ، ونزَّهه سبحانه عن أوصاف النقص جميعاً ، ونفى عنه المشابهة لخلقه والمماثلة لغيره: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ الشورى ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ الإخلاص. كما جاءت الآيات وفيها ذكر الاستواء على العرش واليد والوجه والعين والأعين مضافة إليه سبحانه.

ولا شك أن ما ذكره القرآن من أحوال هذا العالم غير المادي ثم من صفات الباري جل وعلا كلها لا تدخل في حدود نواميس المادة ولا قواعد عالمها . والعقل الإنساني لا زال إلى اليوم عاجزاً عن إدراك ما يحيط بالمادة نفسها من قوى وأسرار فكيف بما هو وراءها.

وهنا المزلق: فكثير من الناظرين في معاني الكتاب الكريم يَعزُّ عليه أن يُسلِّم بوجود شيء لم يصل عقله بعد إلى حقيقته. فما هؤلاء الجن الذين تخفى علينا حقيقتهم ؟ وما هذه الملائكة التي لا ندري كنهها ؟ وما هذا البعث بعد أن تحللت عناصرنا المادية وردت إلى أصولها الأولية ؟ وما هذه الأرواح المزعومة في هذه الأجساد ونحن لا نحس إلا بهذه العوامل المادية تتصرف في أبداننا ؟ فالبرد يؤذينا ، والحر يؤلمنا ، والسم يقتلنا ،

والطعام يُقوِّينا ، والهواء ينعشنا ، وكلها من عالم المادة. وهم أمام هذه النظرة الضيقة يَزِلُّون ، فمنهم من ينكر ذلك جملة ، ومنهم من يتعسف في التأويل فينكر الحقيقة ويذهب إلى أنها تمثيل أو تخييل ، وكلاهما أخطأ الطريق وضل سواء السبيل.

وهم لو أنصفوا لعرفوا أن من خصائص العالم الألمعي أن يعترف بالعجز والقصور فيما لم يصل إليه علمه. وأن ما كشفه العقل الإنساني إلى اليوم بالنسبة إلى ما لم يكشف عنه من أسرار هذا الوجود شئٌ يسير لا يكاد يقام له وزن ، كجزيرة صغيرة في وسط محيط عظيم ، ولقد اعترف بذلك وبأكثر منه أكابر علماء الكون ، وسيمر بنا من ذلك الكثير، حتى إن بعضهم ليقول: (إن من خصائص العَالِم العصري أن يكون متواضعاً وجريئاً: متواضعاً لأنه لم يصل إلى شئ يذكر من أسرار هذا الوجود ، وجريئاً لأن المجهولات التي أمامه من الكثرة بحيث لا يفيد في الكشف عن بعضها إلا الجراة). فالتكذيبُ بمثل هذه السمعيات لمجرد أنها لم تدرك بالحواس البشرية مع دخولها في حيز الإمكان الفعلي ظلمٌ صارخ وضلالٌ مبين . والتأويل تكلف لا مبرر له والإيمان بها مع عدم التكلف في تصور حقيقتها هو الصراط المستقيم . وأما ما أحاط بهذه المعاني في بعض الكتب أو الأذهان من صور خرافية ، ومن أقاصيص خيالية ، وأوصاف روائية لم ترد في كتاب ولا سنة ولا ثبتت من طريق صحيح فليس من هذا البحث في شئ ، ويجب على كل مؤمن الا يقيم له وزناً ولا يرفع به رأسا.

ومن الناس من يحاول أن يُقرِّب هذه المعاني إلى اذهان غيره من المتشككين الذين لم تُشرق بعد أنوار الإيمان على صدورهم ، فيتصرف في الألفاظ ، وَيَتَجَوَّز في التصوير، فعليه إن فعل ذلك أن يردفه بما يفيد تصديقه الكامل بما جاء عن هذه العوالم في القرآن الكريم وأن يصارح بذلك أولئك المتشككين بعد أن يخطو بهم الخطوة الأولى للإفهام والتقريب ، حتى لا يقف بهم أو يقف معهم في وسط الطريق.

وليست هذه الصور جديدة في البحوث الإسلامية الدينية ، بل إنها لتتكرر منذ تُرجمت الفلسفة ، وأُدمجت في علوم الإسلام إلى اليوم ، والموفق من شرح الله صدره للإيمان فهو على نور من ربه.

■ أفضل التفاسير وأقرب طرائق الفهم

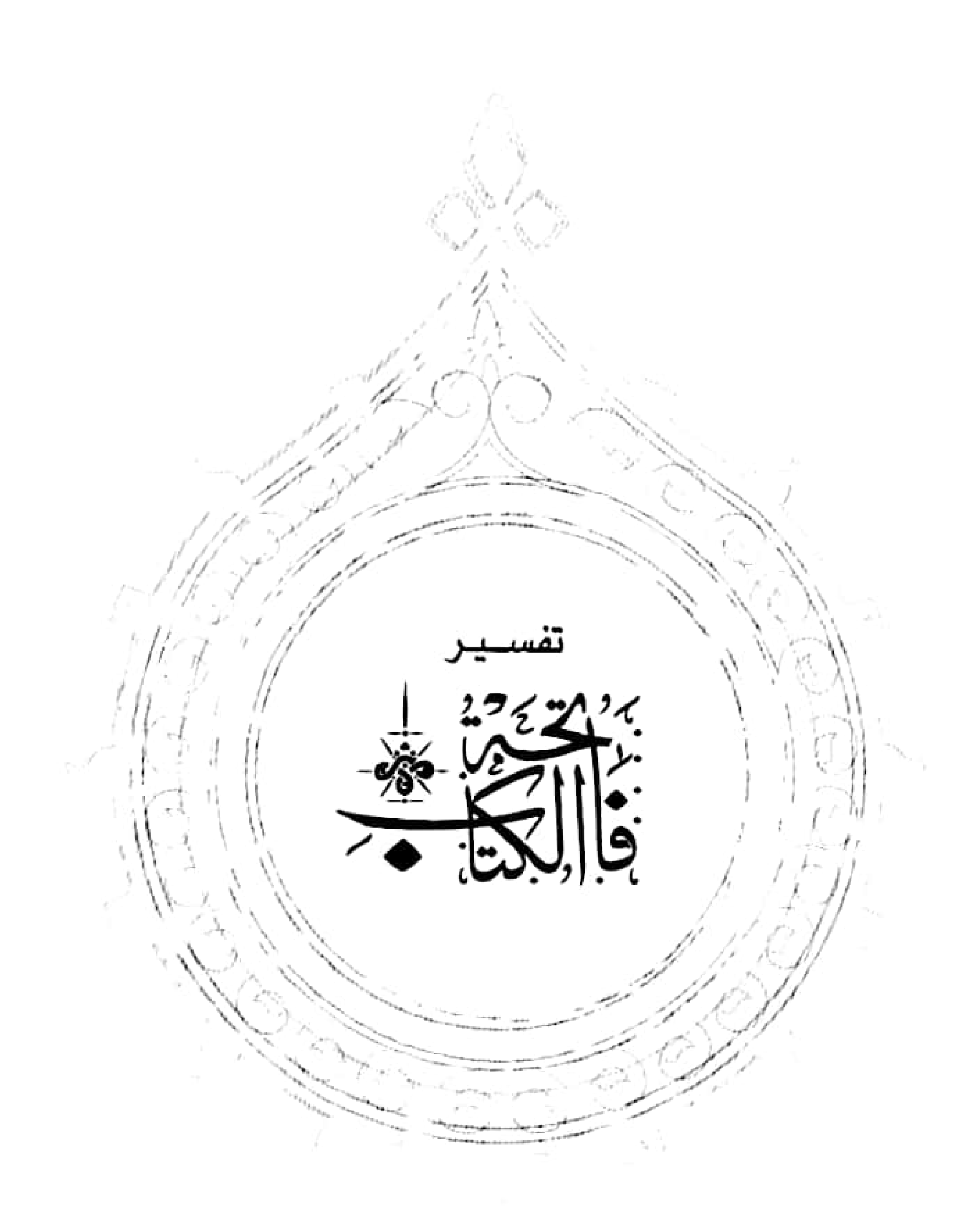
وبعد فقد سألني أحد الإخوان عن: أفضل التفاسير وأقرب طرائق الفهم لكتاب الله تبارك وتعالى ؟

فكان جوابي على سؤاله بهذه الكلمة: (قلبك) فقلب المؤمن ولا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى. وأقرب طرائق الفهم أن يقرأ القارئ بتدبر وخشوع وأن يستلهم الله الرشد والسداد ، ويجمع شوارد فكره حين التلاوة ، وأن يُلم مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة ، ويعني بنوع خاص بأسباب النزول وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة ، فسيجد في ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم ، وإذا قرأ في كتب التفسير بعد ذلك فللوقوف على معنى لفظ دَقَّ عليه ، أو تركيب خَفَي أمامه معناه ، أو استزادة من ثقافة تُعينه على الفهم لكتاب الله ، فهي مساعدات على الفهم ، والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوؤه في صميم القلب.

ومن وصايا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ لبعض تلامذته: (وادمْ قراءة القرآن ، وفهم أوامره ونواهيه ، ومواعظه وعبره كما كان يُتلى على المؤمنين أيام الوحي ، وحاذرْ النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ غاب عنك مراد العرب منه أو ارتباط مفرد بآخر خَفَي عليك متصله ، ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه ، واحمل نفسك على ما يحمل عليه) انتهى.

ولا شك أن من أخذ بهذه الطريقة سيجد أثرها بعد حين في نفسه مَلَكَةً تجعل الفهم من سجيته ، ونوراً يستضيء به في دنياه وآخرته إن شاء الله تعالى.(*)

(*) مجلة الشهاب ـ السنة الأولى ـ العدد ١ في غرة المحرم ١٣٦٧هـ / ١٤ نوفمبر ١٩٤٧م.



تفسير فاتحة الكتاب





﴿ بسم الله الرحمن الرحيم (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾

■ فضلها

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبى سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلّي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجبه حتى صلّيت فاتيته فقال: «ما منعك أن تأتينى ؟» قال: قلت يا رسول الله إنى كنتُ أصلي ، قال: «ألم يقل الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُم ﴾ ثم قال: لأعلِّمَنَّك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد ، قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن. قال: «نعم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». (رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه).

وروى أحمد في مسنده والبيهقي في (الشُّعب) وذكره السيوطي في (الدر المنثور) عن عبد الله بن جابر رضي الله عنه أنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبرك بآخر سورة نزلت في القرآن ؟» قلت: بلى يا رسول الله ، قال: «فاتحة الكتاب وقال: فيها شفاءٌ من كل داء».

وروى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فاتحة الكتاب ، وآية الكرسيّ ، وشهد الله أنه لا إله إلا هو ، وقل اللهم مالك الملك. هذه الآيات معلَّقات بالعرش ليس بينهن وبين الله حجاب». (اسنده ابو عمرو الدانى في كتاب البيان له ، ونقله القرطبى عنه).

■ أين ومتى نزلت ؟

الجمهور على أنها نزلت بمكة لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ والحجر مكية بإجماع ، ولأن الصلاة فُرضت بمكة ، ولم تحفظ في الإسلام صلاة بغير الفاتحة. وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري ونفر: هى مدنية. وجمع بعض العلماء بين القولين بأنها تكرر نزولها فنزلت بمكة ، ونزلت بالمدينة حين حُوِّلت القبلة.

وذهب بعض المفسرين إلى أنها أول آيات القرآن وسوره نزولاً. والجمهور على أن أول ما نزل من القرآن: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ العلق ، وقيل: المدثر. وقد ذكر البيهقى في دلائل النبوة عن أبي ميسرة عمر بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً ، وقد واللهِ خشيتُ أنْ يكونَ هذا أمراً» قالت: معاذ الله ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتُؤدِّي الأمانةَ وتصلُ الرَّحِمَ وتَصْدُقُ الحديثَ. فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثَمَّ ، ذكرت خديجةُ حديثَهُ له. قالت: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل ، فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبوبكر بيده فقال: انطلق بنا إلى ورقة ، فقال: «ومن أخبرك» قال: خديجة. فانطلقا إليه فقصَّا عليه فقال ﷺ: «إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي: يا محمد يا محمد ، فأنطلق هارباً في الأرض» فقال: لا تفعل إذا أتاك فاثْبُت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني. فلما خلا ناداه: يا محمد قل: بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين قل لا إله إلا الله. فأتى ورقةَ فذكر ذلك له ،

فقال له ورقة : أبْشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشّر به عيسى بن مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى وأنك نبي مُرْسَلٌ ، وأنك سوف تُؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، وإن يُدركني ذلك لأجاهدنَّ معك. فلما تُوفِّي ورقة قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القَسَّ في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدَّقني» يعني ورقة. قال البيهقي: هذا منقطع. وهو ليس نصاً في أن الفاتحة أول ما نزل على كل حال. وذهب الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره إلى أنها: أول سورة نزلت من القرآن محتجاً لذلك بأن سنة الله تبارك وتعالى قد جرت بأن يسبق الإجمال التفصيل ، وسورة الفاتحة قد تضمنت مقاصد القرآن الكريم إجمالاً وذلك يقتضي أن تسبق في النزول وأفاض في تفصيل ذلك. وقد يقال: إن هذا يصح علة للترتيب لا للنزول الذي كان يتبع غالباً الحوادث والوقائع.

■ أسماء الفاتحة

وللفاتحة أسماء كثيرة فهي: الصلاة للحديث القدسي: «قَسَّمْتَ الصلاة بيني وبين عبدي» وسيأتي ، وهي الحمد ، وهي فاتحة الكتاب بلا خلاف بين العلماء في ذلك ، وهي أم الكتاب ، وأم القرآن. وكره إطلاق هذين الاسمين عليها أنس وابن سيرين والحديث الثابت ينفي هذه الكراهة.

روى الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أمُّ القرآن وأم الكتاب ، والسبع المثاني». وهي المثاني ، وهي الشفاء وهي الأساس ، وهي الواقية ، وهي الكافية ، وهي الرقية ، وهي القرآن العظيم.

قال القرطبي: سُمِّيت القرآن العظيم لتضمنها جميع علومه وذلك أنها تشتمل على الثناء لله ـ عز وجل ـ بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانته تعالى ، وعلى الابتهال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم ، وكفاية أحوال الناكثين ، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين ، كذا قال رحمه الله.

ويمكن أن يقال إنها تضمنت مقاصد القرآن الكريم إجمالاً ، أو بمعنى آخر هو أن القرآن الكريم إنما جاء لبيان حقوق الخالق على خلقه وحاجة الخلق إلى خالقهم وتنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق ، وهذه هي جملة المقاصد التي جاء بها القرآن بل جاءت بها الكتب السماوية والأديان كلها ، وقد أشارت إليها الفاتحة: فآياتها الأولى بيان لحقوق الله على خلقه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ مع طلب الهداية منه تعالى إلى الصراط المستقيم بيان لحاجة الخلق إلى خالقهم ، والصراط المستقيم هو نظام هذه الصلة بين المخلوقين والخالق ، كما تضمنت الفاتحة كذلك الإشارة إلى الرد على كل طوائف المبطلين الخارجين عن الصراط المستقيم ، وبيان أسباب هذا الخروج وهي لا تتعدى الغضب عليهم أو الضلال منهم ، وبهذا استحقت الفاتحة أن يطلق عليها: أم القرآن بل القرآن العظيم.

■ البسملة في الفاتحة

قال الشوكاني في باب ما جاء في ﴿ بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾: وقد اختلفوا هل هي آية من الفاتحة فقط ، أو من كل سورة ، أو ليست بآية ؟ فذهب ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وطاووس وعطاء ومكحول وابن المبارك وطائفة إلى: أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة غير براءة.

وحكى عن أحمد وإسحاق وأبي عبيد وجماعة أهل الكوفة ومكة وأكثر العراقيين وحكاه الخطابي عن أبي هريرة وسعيد بن جبير ورواه البيهقي في (الخلافيات) بإسناده عن علي بن أبي طالب والزهري وسفيان الثوري وحكاه في (السنن الكبرى) عن ابن عباس ومحمد بن كعب أنها آية من الفاتحة.

وحكى عن الأوزاعي ومالك وأبي حنيفة وداود وهو رواية عن أحمد أنها ليست آية في الفاتحة ولا في أوائل السور.

وقال أبو بكر الرازي وغيره من الحنفية هي آية بين كل سورتين غير الأنفال وبراءة ، وليست من السور بل هي قرآن مستقل كسورة قصيرة ، وحكى ذلك عن داود وأصحابه وهو رواية عن أحمد.

ولا خلاف أنها آية في ثنايا سورة النمل. ولا خلاف في إثباتها خطأ في أوائل السور في المصحف إلا في أول سورة التوبة. وأما التلاوة فلا خلاف بين القراء السبعة في أول فاتحة الكتاب ، وفي أول كل سورة إذا ابتدأ بها القارئ ما خلا سورة التوبة.

وأما في أوائل السور مع الوصل بسورة قبلها فأثبتها ابن كثير وقالون وعاصم والكسائي من القراء في أول كل سورة إلا التوبة ، وحذفها منهم أبو عمرو وحمزة وورش وابن عامر.

احتج القائلون بأنها آية في الفاتحة بكتابتها في المصحف الإمام الذي بعث به الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار بعد مشاورة الصحابة ، وأجمعت عليه الأمة والكتابة أقوى الأدلة ، وبما ورد من الأحاديث الصحاح التي تثبت ذلك:

- ومنها ما رواه البخاري عن قتادة قال: سُئل أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ ؟ فقال: كانت مداً ، ثم قرأ: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ويمدُّ بالرحمن ويمدُّ بالرحيم. وروى عنه الدارقطني من طريقين أن النبي ﷺ كان يجهر بالبسملة.

- وما روى عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها سُئلت عن : قراءة رسول الله ﷺ قالت: كان يقطِّع قراءته آية آية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾. (رواه احمد وأبو داوود بهذا اللفظ وغيرهما).

- وما رواه النسائي وغيره عن نعيم المجمر قال : صليت وراء أبي هريرة فقرأ: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثم قرأ بأمِّ القرآن. وفيه يقول إذا سلَّم : والذي نفسي بيده إني لأشْبهكُمْ صلاةً برسول الله ﷺ . وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال على شرط البخاري ومسلم وأقره الذهبي ، وقال البيهقي صحيح الإسناد وله شواهد.

• وحديث عليٍّ كرَّم الله وجهه: سُئل عن السبع المثاني ، فقال: الحمد لله رب العالمين ، قيل: إنما هي ستٌّ ، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم. رواه الدارقطني وله حديثان آخران عنه وعن عمار بن ياسر في إثبات جهر النبي ﷺ بالبسملة وإن تُكُلِّمَ في سندهما.

• وحديث أنس رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم. رواه الحاكم وقال: ورواته عن آخرهم ثقات ، وأقره الحافظ الذهبي.

واحتج القائلون بأنها ليست آية من الفاتحة بما رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداجٌ » يقولها ثلاثاً ، فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام ، فقال : اقرأ بها في نفسك ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسَّمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال: الله حمدني عبدي ، فإذا قال ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي ، فإذا قال ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال: مجَّدني عبدى ، وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي ، وإذا قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». فهو لم يذكر فيه بسم الله الرحمن الرحيم ولو كانت من الفاتحة لذُكِرَت. وقد يُرَدُّ على هذا بأن البسملة فيها الثناء على الله بما تكرر في الفاتحة ، فلم يكن هناك ما يدعو إلى ذكرها وبخاصة وهي مشتركة في كل السور.

• وبما رُوي عن أنس رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. (رواه احمد ومسلم).

وفي لفظ: صليت خلف النبي ﷺ وخلف أبي بكر وعمر وعثمان فكانوا لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم. (رواه أحمد والنسائي بإسناد على شرط الصحيح).

ولأحمد ومسلم: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا آخرها. وهناك روايات أخرى تدور حول ذلك.

وذكر بعض العلماء أن ما جاء في روايات النفي سببه الإسرار بالبسملة وجمع بين الأقوال بناء على ذلك.

- وروى الطبراني في الكبير والأوسط في سبب ترك النبي ﷺ للجهر بالبسملة في الصلاة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنه ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم وكان المشركون يهزؤون بمُكاء وتصدية ويقولون محمدٌ يذكر إله اليمامة. يشيرون إلى قول مسيلمة الكذَّاب وتسميته حائطه بحديقة الرحمن فأنزل الله: ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ﴾ فتُسمع المشركين فيهزؤوا بك: ﴿ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم. وقال في (مجمع الزوائد): إن رجاله مُوثَّقُونَ. فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم تارة ويُسر بها أخرى ، واختلفت الروايات بناء على ذلك.

وقد أفرد هذه المسألة بالتأليف جماعة من أكابر العلماء ، وجمع فيها الشوكاني رسالة تشتمل على نظم ونثر أجاب بها على سؤال ورد ، وبالغ بعضهم حتى عَدَّهَا من مسائل الاعتقاد ، والأمر أيسر من هذا كله . وحسبنا أن نراها مثبتة في المصحف وقد أجمع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على كتابتها في صدر الفاتحة وتلاوتها حين القراءة ، وأن ما بين دفتي المصحف قرآن نزل من عند الله لنقل إنها آية منه وكفى.

■ **الفاتحة في الصلاة**

اختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة.

فذهب الجمهور إلى وجوبها في كل ركعة للإمام والمنفرد والمأموم ، وحجتهم في ذلك ما روي من حديث عبادة بن الصامت ﵁ فيما رواه الجماعة كلهم أن النبي ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي لفظ رواه الدارقطني بإسناد صحيح: «لا تجزئُ صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وذهب أبو حنيفة والكوفيون إلى أن الفاتحة غير واجبة بل تجب آية من القرآن ، لما جاء من قول النبي ﷺ في حديث المسيء صلاته: «ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن». وأجيب عنه بأنه لا أيسر من الفاتحة ، ولأنه ثبت في رواية أخرى أنه قال له: «ثم اقرأ بأمِّ القرآن». فهذا مفسر لما تيسر ، وأما إذا كان مأموما فلا قراءة عليه مطلقا عند أبي حنيفة محتجاً بما ورد من أن قراءة الإمام قراءة له ، فإن قرأ كره تحريما. وذهب مالك وأصحابه إلى أنها متعينة للإمام والمنفرد في كل ركعة. مطلوبة من المأموم خلف إمامه في صلاة السر فإن تركها فقد أساء ولا شيء عليه ، وأما في صلاة الجهر فلا يقرأ بفاتحة القرآن ولا بغيرها لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ولقول النبي ﷺ في الإمام: «إذا قرأ فأنصتوا». (أخرجه الدارقطني وقال رواه سفيان الثوري وشعبة وإسرائيل بن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى... إلخ. عن عبد الله بن شداد مرسلاً عن النبي ﷺ). وذهب الحسن البصري وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبد الرحمن المدني إلى أن قراءتها واجبة مرة واحدة في كل صلاة اعتماداً على أن من فعل ذلك فقد قرأ بأم القرآن في صلاته وذلك يُجزئه.

والذي تطمئن إليه النفس أن الفاتحة واجبة في الصلاة على كل مصل قادر على تلاوتها ، ولم يثبت أن النبي ﷺ ولا أحداً من خلفائه أو أصحابه أو التابعين لهم بإحسان صلى صلاة بغير قراءة الفاتحة فيها : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

في افتتاح القرآن الكريم عامة وسوره بعد ذلك بهذه الآية الكريمة إرشادٌ لنا إلى أن نستفتح بها كل أقوالنا الطيبة وأعمالنا. وقد جاء في الحديث: «كُلُّ أمر ذي بال لايُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع». وفي رواية أجذم ، وفي رواية أبتر، وكلها بمعنى واحد. (رواه ابو داود وحسَّنه ابن الصلاح). وكأن المقصود بهذا الافتتاح أقرأ مفتتحاً باسم الله الرحمن الرحيم. أو أعمل أو أقول مفتتحاً باسم الله الرحمن الرحيم.

والاسم: ما دل على ذات من الذوات أو معنى من المعانى. ولفظ الجلالة (اللَّه) علم على ذات واجب الوجود وهو آكد أسمائه سبحانه وأجمعها، وما عداه صفات له سبحانه ، وتسند إليه تعالى أفعال هذه الصفات وتضاف إليه مصادرها ويطلق عليها **(الأسماء الحسنى)** وكل اسم منها صفة في المعنى ، وهو يدل على ذات الله تعالى ، وعلى الصفة التي اشتق منها ، واسم الجلالة الأعظم يدل عليها كلها وعلى لوازمها الكمالية وعلى تنزهه سبحانه عن أضدادها ، فهو دال على اتصاف مسماه بجميع صفات الكمال وتنزهه عن جميع النقائص.

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ صفتان لله تعالى مشتقان من الرحمة بالمعنى الذي يليق بجلاله سبحانه. قال ابن القيم: وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى بديع وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، وكأن الأول الوصف والثاني الفعل. فالأول دال على أن الرحمة صفته أي صفة ذات له سبحانه ، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته أي صفة فعل له سبحانه ، فإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ، ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ولم يجئ قط رحمن بهم ، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته ، وقال ـ رحمه الله تعالى ـ: هذه النكتة لا تكاد تجدها في كتاب.

ولكن الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ ذهب إلى عكس ذلك فقال: والذي أقول إن صيغة فعلان تدل على وصف فعلى فيه معنى المبالغة كفعَّال وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان ، وأما صيغة فعيل فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل ، والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين . فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم والإحسان ، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر، ولا يكون الثاني مؤكداً للأول ، فإذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلاً لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً ؛ لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة ـ وإن كان كثيراً ـ فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه ، ويعلم أن لله صفة هي الرحمة التي عنها يكون أثرها ، وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقدم برهاناً عليه. (ملخصا من تفسير المنار). ولعل هذا الرأي الأخير هو الأقرب إلى قواعد اللغة وأساليبها.

وقد ذهب الشيخ محمد عبده في رده على بعض المعترضين عليه وتوجيه كلامه هذا مذهباً لطيفا نورده هنا ملخصاً لجمال إشارته قال:

(إن احتمال التوكيد بذكر الصفتين معاً لنفي التعدد بعيد، لأنه لا علاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة ولم يسبق في التاريخ أن أحداً ذهب إلى أن الرحمن معبود والرحيم معبود آخر حتى يُرَدَّ عليه بأنهما شيءٌ واحد ، ولكن الذي عُرِفَ هو قول النصارى في ابتداء شئونهم باسم الأب والابن والروح القدس وهو في زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد مع أنها واحد ، فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوي على ثلاثة معان: الأول ذات ، والآخران صفتان . فلفظ الجلالة هو الذات وهو يقابل الأب

عندهم والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم وهو يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات ، والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الأقدس وهى التي يرجع إليها الفعل المتجدد وباعتباره يصدر ويتجدد وهو يقابل روح القدس فإنه عندهم الصلة بين الأب والابن ، وإن حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات فأراد الكتاب أن يعلمنا كيف نضع التوحيد مكان التثليث ، ونستبدل بألفاظ التشبيه خيراً منها من ألفاظ التنزيه ، ولا يفوتنا المعنى الذي يحتج بقصده من الأب والابن والروح القدس وهو معنى الرحمة وإفاضة النعمة ، وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة في كل سورة والندب إلى الافتتاح بها في كل عمل ذي بال).

أقول: لو قبل أهل الدين من النصارى هذا التفسير لانحلت أعظم عقدة تباعد بين عقيدتي المسيحية والإسلام.

ومجمل القول: أن جمهور المفسرين على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ، ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها ، وهو توجيه لا دليل عليه أو أنهما بمعنى واحد والثاني تأكيد للأول وهو رأي الجلال والصبّان وبعض المفسرين وهو ضعيف ؛ إذ إن الحق أنه لا توجد في القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود كما قال ابن جرير الطبري ، أو أن أحد الوصفين يدل على صفة الرحمة الثابتة له سبحانه ، والثاني يدل على تجدد الأفعال المتعلقة بهذه الصفة وهو ما ذهب إليه ابن القيم والشيخ محمد عبده ـ رحمهما الله ـ وهو الذي تستريح إليه النفس.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾

﴿ الْحَمْدُ ﴾: الثناء الحسن الجميل ، وهو يكون على مقدار علم الحامد بصفات المحمود ، وكلما كان هذا العلم واسعاً شاملا كان الحامد أصدق حمداً ، ومن هنا وجب على المسلمين أن يجتهدوا في استطلاع أسرار الكون وتعرف ما فيه من قوى وعجائب ليستطيعوا بذلك أن يدركوا عظمة الكون إدراكاً صحيحاً ، فيكون حمدهم إياه وثناؤهم عليه حمداً صادقاً منشؤه الإدراك الحقيقي والشعور القلبي والتقدير العقلي ، لا مجرد

التقليد اللفظي أو التعبد الوراثي. ومن هنا كان أعظم الحمد وأجل الثناء حمده سبحانه لنفسه: «سبحانك لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وحمده سبحانه واجب لذاته لأنه الموصوف بالكمالات كلها المستحق للمحامد كلها وإن أثارت الأسباب معاني هذا الحمد في نفوس عباده. فالجائع يحمد عند الشبع، والظمآن يحمد عند الري، والفقير يحمد مع الغنى، والجاهل يحمد عند العلم، والمحروم يحمد إذا أُعْطِيَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾ إبراهيم. وهذا هو سر الجمع بين استحقاق الحمد وربوبيته سبحانه للعالمين.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال البيضاوي: الرب في الأصل مصدر بمعنى: التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وُصِفَ به للمبالغة ثم سُمِّيَ به المالك؛ لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه، ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً أو مضافاً. وقال الراغب: الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، ولا يقال: الرب ـ مطلقاً ـ إلا لله تعالى.

والعالمين: جمع عَالَم، قيل: المراد به الناس خاصة على حد قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ وقيل: بل أهل العلم والإدراك من الخلق من الملائكة والإنس والجن، وقيل: كل جملة متميزة لأفرادها صفات تقربها من العاقل فهي عالم، ولهذا جمعت على هذا النحو، ومنه عالم الإنسان، وعالم النبات، وعالم الحيوان، ولا يقال عالم الحجر أو الجبال أو نحوها من الجمادات. وقيل: بل المراد بالعالمين جميع أجناس المخلوقات على حد قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤)﴾ الشعراء. ولعل أولى الأقوال بالصواب أن يقال: إن هذه المعاني جميعا تراد بهذا اللفظ بحسب القرينة، والمراد هنا: المعنى الأخير فإنه سبحانه مُربي الخلائق جميعاً.

والتربية الإلهية للخلق جميعاً واضحة في كل مظاهر هذه العوالم دقيقها وجليلها. فالجمادات يربيها الخالق سبحانه بهذه النواميس الكونية التي لا تتخلف من التفاعل والتحليل والتركيب والامتزاج والاتحاد والتحول.

وصنوف النبات يتضح فيها معنى التربية الإلهية بشكل أوضح مما في الجماد ؛ لما فيها من معاني الحياة ومباديها. فالجنين النباتي يظل مستجناً في البذرة حتى يجد التربة الصالحة فينمو ويتحرك ويتغذى بما حوله من المواد الغذائية التي جُهِّزَت لهذا الغرض فتكون له بمثابة الثدي في الحيوان ، حتى إذا نما وكبر تشبث بالأرض وامتص منها غذاءه ونما وازداد في تركيب غريب ووضع دقيق عجيب ، ويظهر على وجه الأرض نبتة تتحول إلى شجيرة فشجرة ذات أغصان وأوراق وثمار تتأثر وتتنفس وتتغذى وتحمل وتنتج الثمرات.

والحيوان على اختلاف فصائله والإنسان يربيهما الخالق جل وعلا في كل أطوار الحياة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل العظمى فالتكوين التام الكامل فالوضع والرضاع والنمو والكبر، مع تيسير أسباب البقاء والمحافظة التامة على صيانة الأجهزة والأعضاء ، والإمداد بعد ذلك بأسباب المعارف والمدركات المتنوعة والعواطف والمشاعر والوجدانات المختلفة ؛ حتى يستطيع أن يميز بين الحسن وغيره ، ويتذوق معاني: الخير والحق والجمال.

ومـا من شيء يظن القـاصـرون أنه ليس بذي بال إلا وله من الحكم الجليلة والفوائد العظيمة ما تتحير معه الألباب ، وهذا الباب من تربية الله تبارك وتعالى للعالمين لا ينتهي مداه ، ولو كتبت فيه المجلدات ، ففيه أسرار الكون ، ودقائق الصنع المتصلة بجميع الخلق ، وغرائب الإبداع في نواميس هذا العالم الذي لم يصل العقل الإنساني في الإحاطة بها إلا إلى النزر اليسير ولا زال أمامه الجم الكثير. وهذه الآية الكريمة من جوامع الكلم ـ ولا شك ـ فقد أشارت واحتملت هذه المعاني كلها في هذه الألفاظ الأربعة اليسيرة.

﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) ﴾

قال في تفسير المنار ما ملخصه: النكتة في إعادة ذكرها ظاهرة ، وهي أن تربية الله للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة ، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه ، وثم نكتة أخرى وهي أن البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر فأراد الله أن يذكرهم برحمته وإحسانه ؛ ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فذكر الرحمن: وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما. والرحيم: الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبداً . فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده ، فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان ليعلموا أن هذه الصفة هي التي ربما يرجع إليها معنى الصفات فيقبلوا على اكتساب مرضاته منشرحة صدورهم مطمئنة قلوبهم . ولا ينافي عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات في الدنيا وما أعده من العذاب في الآخرة للذين يتعدون الحدود وينتهكون الحرمات ، فإنه وإن سُمِّيَ قهراً بالنسبة لصورته ومظهره فهو في حقيقته وغايته من الرحمة ، لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية ، وفي الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم ، وفي الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم ، والوالد الرءوف يُرَبِّي ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان إليه إذا قام به ، وربما لجأ إلى الترهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال ، ولله المثل الأعلى ، لا إله إلا هو وإليه يرجعون.

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾

قُرِئَ: مالك وملك ، ولكل من القراءتين شواهد في كتاب الله: يشهد للأولى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾ الانفطار. ويشهد للثانية قوله تعالى: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ غافر .

والدين: الحساب والمكافاة والجزاء. وهو أنسب المعاني في الآية الكريمة. ويوم الدين هو يوم البعث الأكبر للحساب والجزاء: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ

مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ آل عمران ، ولما كانت الرحمة ليست السبيل الوحيد إلى التربية بل لا بد معها من الجزاء حتى يجتمع الترهيب إلى الترغيب ناسب أن يُذكِّر الله خلقه بدقيق محاسبته بعد أن ذكّرهم بمظاهر رحمته حتى يتمثلوا دائما أن رب العالمين الرحمن الرحيم هو مالك يوم الدين كذلك هو الذي سيحاسبهم ويدينهم بما يفعلون . والبر لا يبلى والذنب لا يُنسى والديان لا يموت اعمل ما شئت فكما تدين تدان. وهو أسلوب القرآن الكريم دائما كما قال تبارك وتعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠) ﴾ الحجر.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾

تفسر العبادة لغة بأنها: الطاعة مع غاية الخضوع . ولكن هذا التفسير اللغوي لا يؤدي المعنى المقصود بالعبادة بالضبط ، ولا يزال المرء يشعر بأنه في حاجة إلى تعريف أوفى وأدق وأشفى للنفس ، فقد يطيع الناس الرؤساء والكبراء طاعة تامة مع غاية الخضوع ولا يقال إنهم عبدوهم بذلك.

والعبادة غير العبودية ولا بد من تفريق بينهما ، يشعر بذلك الذوق السليم والطبع المستقيم . وقد ألمَّ الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسيره بهذا المعنى إلماماً جميلا وصور معنى العبادة تصويرا بديعاً يطمئن به القلب فقال:

(يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلواً كبيراً حتى يفنى هواه في هواه ، وتذوب إرادته في إرادته ، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ، ويبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء ، فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين ، ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة.

فما هي العبادة إذن ؟

تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغٌ حد النهاية ، ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها ، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه. وللعبادة صور كثيرة في كل دين من الأديان ؛ شُرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى الذي هو روح العبادة وسرَّها ، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه ، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة ، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنساناً) . هذا قوله ملخصا وهو كلام بديع ـ كما ترى ـ يجعل حقيقة العبادة مبعث التعظيم في القلب لا صورتها التي تمثلها الجوارح.

والاستعانة: طلب المعونة لإزالة العجز والمساعدة على إتمام ما يعجز المستعين عن أدائه ، أو إتمامه بنفسه ، وهي في الأمور العادية التي تدخل في حيز قدرة الإنسان وتصرفه جائزةٌ بين الناس ، بل هي من القربات التي يتقرب بها المرء إلى الله تبارك وتعالى: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». لأنها من الأسباب المشروعة المسنونة لإتمام الأعمال وأدائها. ولكن الاستعانة في الأمور الخاصة بالله تبارك وتعالى والتي لا يصح أن تطلب من أحد سواه وهي ما يجاوز حد القدرة البشرية كطلب الشفاء بعد استخدام الدواء ، وكطلب النصر على الأعداء بعد إعداد العدة وبذل المستطاع ، وكالاستعاذة بالله من الحوائج والآفات وصنوف البلاء ، إلى غير ذلك مما هو في يد الله وحده ، ولا يقدر عليه إلا مدبّر الأمر في الأرض وفي السماء..

العبادة والاستعانة بهذا المعنى لا تكونان إلا لله وبالله وحده تبارك وتعالى. ولهذا قدم الضمير ﴿ إِيَّاكَ ﴾ ليدل على الاختصاص كما يقول أهل اللغة.

وكل المظاهر التي تدل على العبادة شرعاً ـ حسية أو معنوية ـ لا يجوز أن تكون إلا لله كالصلاة والركوع والسجود والنذر والقربان والحلف والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والمحبة والرغبة والرهبة والتأله والتذلل.. الخ ، كما أن مظاهر الاستعانة التي اختصها الشرع بالله تبارك وتعالى لا يصح أن تصرف لغيره كالدعاء والاستغاثة واستمداد الحول والقوة وطلب قضاء الحاجات.. الخ ، وبذلك يسلم للمؤمن دينه ، ويكمل إيمانه ويقينه ، ويسلم من لوثات الشرك الأكبر والأصغر، ويجتمع له توحيد الألوهية والربوبية معا ، والتوفيق بيد الله.

والآية من جوامع الكلم ؛ لأنها أشارت إلى خلاصة ما جاءت له الرسالات كلها وبعث به الرسل جميعا من حقوق الله وجميل فضله على خلقه ، وليس الدين أكثر من: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الأولى بداية المعرفة والثانية ثمرتها وبينهما منازل ودرجات لا يقطعها إلا المقربون.

ولقد ألَّف الشيخ إسماعيل الهروي رسالة لطيفة أسماها (منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين) ألمَّ فيها ببعض ذلك وأشار إليه ، وشرحها ابن القيم في سِفر كبير أسماه (مدارج السالكين إلى منازل السائرين) وهو من خير ما كتب في علوم الأخلاق وأدب النفوس وتربيتها بأسلوب الصوفية من السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ.

ومن اللطائف اللفظية في الآية الكريمة أن كلمة الاستعانة تشعر بوجوب العمل والأخذ في الأسباب لأن الاستعانة هي : طلب العون من الله على أداء عمل أو إتمامه ، فلا بد للإنسان إذن من أن يأخذ بالأسباب ، ويُجِدّ في الأعمال ، ثم يطلب المساعدة والمعونة من الله تبارك وتعالى ، ومن كلام عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة.

وفي هذا تكريم للإنسان يجعل العمل المتصل به أساسا في كل ما يحتاج إليه. وقد ذهب بعض المفسرين إلى قصر طلب الاستعانة على التوفيق في العبادة ، استئناسا

بقول رسول الله ﷺ حين أخذ بيد معاذ رضي الله عنه وقال له: «والله إني لأُحِبُّك ، أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ دُبُر كل صلاة أن تقول: اللهم أَعِنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». ولكن هذا التخصيص لا معنى له وإن كان أفضل الاستعانة ولا شك ما كان على الطاعة والخير وحسن عبادة الله.

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾

الصراط: الطريق ، والمستقيم: المعتدل. والآية من جوامع الكلم كذلك ، فإن الإنسان في حاجة إلى الهداية إلى الصراط المستقيم في كل قول وعمل وفكرة وخاطرة ؛ لأنه في كل ذلك بين إفراط وتفريط وكلاهما ضار، والنافع المفيد دائما هو الحد الوسط وهو الصراط المستقيم الذي نطلب الهداية إليه من الله تبارك وتعالى بهذه الآية ، وهو من الدين ما جاء به رسول الله ﷺ عن ربه بغير زيادة عليه ولا انتقاص منه ولا انحراف عنه: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ يوسف ، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ الأنعام ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾ الشورى.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً ، على كَتِفَيّ الصراط داران - وفي رواية سوران - لهما أبواب مُفتَّحة ، على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو فوقه ، والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم: فالأبواب التي على كتفي الصراط حدود الله تعالى فلا يقع أحد في حدود الله تعالى حتى يُكشف الستر ، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه». (اخرجه الترمذي).

وفسره رزين في حديث رواه عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أن الصراط هو الإسلام ،

وأن الأبواب محارم الله ، والداعي على رأس الصراط هو القرآن ، والداعي فوقه واعظ الله تعالى في قلب كل مؤمن».

ولقد منح الله الإنسان أربع وسائل للهداية تتدرج مع أفراده ونوعه بتدرج نموهم واستعدادهم.

فالوسيلة الأولى: الوجدان الطبيعي والإلهام الفطرى. وهذا يكون مع الطفل منذ ولادته ، ألا تراه يشعر بالحاجة إلى الغذاء فيلتقم الثدي ويمتصه بحركة آلية فطرية لا تفكير معها ولا تدبير.

والثانية: الحواس والمشاعر التي تنمو بنمو الإنسان من السمع والبصر والذوق والشم والحس ، وهي عرضة للخطأ في كثير من الأحيان.

والثالثة: العقل بقواه المختلفة من الإدراك والفكر والخيال والحفظ والذكر.. الخ وهو مصدر الحكم ومناط التكليف في الإنسان ، وبه تصحح أخطاء الحواس وتدرك حقائق الأشياء في الحسيات والمعنويات على السواء.

والرابعة: الدين والإرشاد الإلهي والرسالات السماوية مع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

هذه الوسائل جميعا قد يضل الإنسان في استخدامها ولا يستطيع الاستفادة منها والانتفاع بها. فقد تقصر حواسه في الإلمام بالمحسات ، وقد يضعف عقله بالعلل والآفات أو الأغراض والشهوات عن الوصول إلى الحقيقة ، وقد ينحرف عن الدين لجهالة به ، أو إعراض عنه ، أو غير ذلك من الأسباب ، ولهذا شرع لنا الله تبارك وتعالى أن نسأله الهداية إلى الصراط المستقيم في هذه الوسائل كلها. فلا تقصر حواسنا ولا تضعف عقولنا ولا نحيد في فهم الدين والفقه فيه عن الحق وجادة الصواب.

واستقصاء مدلول الصراط المستقيم في جميع الأقوال والأفعال غير ممكن لأنه الحد الوسط في كل قول وفعل كما تقدم . وفي هذا الإيجاز منتهى الإعجاز ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧) ﴾

في هذه الآية الكريمة ثلاثة أصناف من الناس هم: الذين أنعم الله عليهم ، والمغضوب عليهم ، والضالون.

قال بعض المفسرين: الذين أنعم الله عليهم: هم المؤمنون من أمة محمد ﷺ أو غيرها من الأمم السابقة.

والمغضوب عليهم: هم اليهود الذين انحرفوا عن هدى التوراة.

والضالون: هم النصارى الذين لم يستمسكوا بتعاليم الإنجيل الصحيح وقد وردت بذلك بعض الآثار.

كما قال بعض المفسرين : المغضوب عليهم بالبدعة ، والضالون عن السنة.

ولا مبرر لهذا التخصيص إلا أن يكون ذلك على سبيل التمثيل فقط ، ولعل أجمع ما يقال في ذلك وأوفاه:

أن الذين أنعم الله عليهم هم الذين عرفوا الحق ووفقهم الله إلى اتباعه فاهتدوا بذلك إلى الصراط المستقيم.

وأن المغضوب عليهم: هم الذين عرفوا الحق ثم أعرضوا عنه من أي دين كانوا وفي أي زمن وجدوا ، ولا شك أن هذا الإعراض دليل غضب الله تبارك وتعالى عليهم.

وأن الضالين: هم الذين غفلوا عن الحق وتاهوا في أودية الضلال ، أو الذين يتلمسون الحق فلا يهتدون إليه من أي دين كانوا وفي اى زمان وجدوا كذلك.

وإن الله تبارك وتعالى أرشدنا إلى أن نسأله الهداية إلى سنن الصنف الأول من الذين أنعم الله عليهم ، وأن نبرأ إليه من الصنفين الآخرين فكلاهما هالك والعياذ بالله.

روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب (فضائل القرآن) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقرأ غير المغضوب عليهم وغير الضالين. وكذلك حكى عن أبى بن كعب رضي الله عنه. وذلك محمول على أنهما كانا يقصدان بذلك التفسير لا التلاوة ، إذ أنه

من غير المعقول أن يخالفا إجماع الصحابة في تلاوة سورة الفاتحة التي تقرأ في كل صلاة وعمر أمير المؤمنين يقرأ بها في صلاته بهم وإمامته إياهم صباح ومساء.

﴿ آمين ﴾

آمين: ليست من الفاتحة بإجماع ، ومعناها: اللهم استجب لنا. ونقل القرطبى عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : سألت رسول الله ﷺ ما معنى آمين ؟ قال: «ربِّ افْعل». وقال مقاتل: هو قوة للدعاء واستنزال للبركة. وقال الترمذى معناه: لا تخيب رجاءنا ، وكلها بمعنى قريب هو طلب الاستجابة. وأبعد قوم النُّجْعَة فقالوا: آمين لفظ غير عربى منحوت من الاسم المصرى القديم آمون ! ولا دليل على ما يزعمون.

وآمين بعد تلاوة الفاتحة في الصلاة وفي غيرها من السنة. عن وائل بن حجر قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ فقال: ﴿ آمين ﴾ يمُدُّ بها صوته. (رواه أحمد وأبو داود والترمذى).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدَّم من ذنبه». وقال ابن شهاب: كان رسول الله ﷺ يقول آمين. (رواه الجماعة إلا الترمذى لم يذكر قول ابن شهاب).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: «آمين» حتى يُسمِعَ من يليه من الصفِّ الأول. (رواه ابو داود وابن ماجه). وقال: حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتجُّ بها المسجد.

وإلى مشروعية التأمين جهراً للإمام والمأموم ذهب الشافعي ومالك في رواية المدنيين ، وقال أبو حنيفة وبعض المدنيين والطبرى لا يجهر بها. وروى ابن القاسم عن مالك وهو مذهب المصريين من المالكية أن الإمام لا يؤمن محتجين بحديث أبى موسى رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خطبنا فبيَّن لنا سُنَّتنا وعلَّمنا صلاتنا فقال: «إذا صليتم فأقيموا

صفوفكم ثم ليؤمَّكم أحدكم فإذا كبَّر فكبروا وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله». (اخرجه مسلم). والسكوت عن ذكر الإمام في التأمين هنا لا ينهض حجة أمام صريح الأحاديث التي جاء فيها ذكر تأمين الإمام.

والتأمين مستحب بعد كل دعاء ، روى أبو داود عن أبي مصبح المقرائى قال: كنا نجلس إلى أبي زهير النميرى ، وكان من الصحابة ، فيحدث أحسن الحديث فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال: اختمه بآمين فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة. قال أبو زهير: ألا أخبركم عن ذلك ، خرجنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فأتينا على رجل قد ألحَّ في المسألة فوقف النبى ﷺ يسمع منه ، فقال النبى ﷺ: «أوجب إن ختم» فقال له رجل من القوم: بأيِّ شيءٍ يختم ؟ قال: «بآمين فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب» فانصرف الرجل الذي سأل النبى ﷺ فأتى الرجل فقال له: «اختم يا فلان وأبشر». ولا جرم أن آمين مقطع في غاية الجمال والحسن وأى شيء أولى بهذا من فاتحة الكتاب والتوجه إلى الله بالدعاء.

■ تناسب وانعام

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ القمر، ولا شك أن من تدبر الفاتحة الكريمة ـ وكل مؤمن مطالب بتدبرها في تلاوته عامة وفي صلاته خاصة ـ رأى من غزارة المعاني وجمالها ، وروعة التناسب وجلاله ، ما يأخذ بلبه ، ويضيء جوانب قلبه. فهو يبتدئ ذاكراً تالياً متيمناً باسم الله الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء ، مستشعراً أن أساس الصلة بينه وبين خالقه العظيم هو هذه الرحمة التي وسعت كل شيء. فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله الرحمن الرحيم ، وذكَّره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله وعظيم آلائه البادية في تربيته للعوالم جميعا ، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له ، ثم تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة ليست عن رغبة ولا رهبة ولكنها عن تفضل ورحمة فنطق لسانه مرة ثانية بالرحمن الرحيم ، ولكن من كمال هذا الإله العظيم أن يقرن

الرحمة بالعدل ، ويذكر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابغة المتجددة سيدين عباده ، ويحاسب خلقه يوم الدين: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)﴾ الانفطار. فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة ، والترهيب بالعدالة والحساب ، وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مُكلَّفاً بتحري الخير والبحث عن وسائل النجاة ، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل ، ويرشده إلى الصراط المستقيم وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه ، فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه ، غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء والنكوص بعد الاهتداء ، وغير الضالين التائهين الذين يضلون عن الحق أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعثور عليه آمين.

فهل رأيت تناسباً أدق أو ارتباطاً أوثق مما تراه بين معانى هذه الآيات الكريمات ؟

وتذكر وأنت تهيم فى أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسى ، الذي أوردناه آنفا: «قَسَمْتُ الصلاة بينى وبين عبدى». وأَدِمْ هذا التدبر والإنعام ، واجتهدْ أن تقرأ في الصلاة أو غيرها على مكث وتمهل وخشوع وتذلل ، وأن تقف على رؤوس الآيات ، وتعطي التلاوة حقها من التجويد والنغمات من غير تكلف ولا تطريب ، أو اشتغال بالألفاظ عن المعانى ، مع رفع الصوت المعتدل في التلاوة العادية أو الصلاة الجهرية ، فإن ذلك يعين على الفهم ويثير ما غاض من شآبيب الدمع ، وما نفع القلب شيء أفضل من تلاوة في تدبر وخشوع.(*)

(*) مجلة الشهاب ـ السنة الأولى ـ العدد ٢ في غرة صفر ١٣٦٧هـ / ١٤ ديسمبر ١٩٤٧م.

تفسير موجز لسورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾

■ **المفردات والتراكيب**

الْحَمْدُ : الثناء والشكر.

رَبِّ الْعَالَمِينَ : مُربى الخلق كلهم وسيدهم.

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : المنعم بجميع النعم صغيرة وكبيرة.

يَوْمِ الدِّينِ : يوم الحساب والإدانة.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ : لا نعبد غيرك ، وتقديم إياك ليدل على اختصاص الله تبارك وتعالى بعبادة الخلق واستعانتهم.

الصِّرَاطَ : الطريق.

الْمُسْتَقِيمَ : المعتدل.

آمين : استجب.

■ **المعنى**

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أبدأ عملى بذكر اسم الله المنعم بكل النعم ، حتى يكون عملى مباركاً ، وقد ورد في الحديث: « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر» ومعناه: أن كل عمل لا يبدؤه فاعله بالبسملة فهو مقطوع البركة. (الحديث رواه ابن ماجه والبيهقي فى السنن).

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الشكر والثناء لله الذي يربى الخلق جميعاً ، فهو الذي يربى الجنين في بطن أمه ، ويربى البذرة تحت الأرض ، ويضم ذرات الجماد بعضها إلى بعض ، ويرعى كل ذلك ويحفظه ، حتى يصل إلى حد كماله ، فهو مربى الخلق وسيدهم أجمعين.

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أكرر الاعتراف بنعم الله تبارك وتعالى تعظيماً لقدرها وتلذذاً بذكرها.

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ الحاكم المتصرف يوم الحساب ، يحاسب كل إنسان بعمله ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ نتوجه بعبادتنا وتعظيمنا وخشوعنا وصلاتنا ونُسكنا لله وحده لا شريك له ، ولا نستعين في قضاء شئوننا وإنجاز مطالبنا بغيره ، ولا نسأل أحداً سواه شيئاً ، لأنه وحده المستحق للعبادة ، القادر على الإعانة.

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أرشدنا إلى الطريق المعتدل في أمور دنيانا ومعاشنا ، وشئون آخرتنا ومعادنا ، والهداية هى أساس النجاح ، فيجب أن تكون أول ما يرجوه العبد من مولاه.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ طريق الذين رضيت عنهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ غير المطرودين من رحمة الله ،

المحرومين من رضوانه ، أو المتخبطين في طريق الضلالة البعيدين عن سبيل التوفيق من الفرق الزائغة وأهل العقائد الفاسدة والآراء الخاطئة.

﴿آمين﴾ استجب هذا الدعاء وتقبله منا.

■ تعليقات

١ . هذه السورة مكية أى أنها نزلت في مكة.

٢ . اختلف العلماء في البسملة هل هى آية من الفاتحة أو من كل سورة ؟ والراجح أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة ، وهو مذهب الشافعى رضي الله عنه وكثير غيره ، وأدلتهم على ذلك كثيرة.

٣ . لهذه السورة الكريمة أسماء منها فاتحة الكتاب ، وفاتحة القرآن ، وأم الكتاب ، وأم القرآن ، والكنز ، والكافية ، والأساس ، وسورة الحمد ، وسورة الشكر ، وسورة الدعاء.. إلخ.

٤ . لهذه السورة الكريمة فضائل كثيرة وردت في الأحاديث الصحيحة ننقل لك بعضها:

أ . روى البخارى عن أبى سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلى في المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أُجِبْه ثم أتيته فقلت: يا رسول الله إنى كنت أصلى فقال: «ألم يقل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: لأعلمنَّك سورة هى أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له: يا رسول الله ألم تقل لى لأعلمنك سورة هى أعظم السور في القرآن ؟ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذي أوتيته ».

(رواه مالك في الموطأ عنه ونحوه عن أبى بن كعب).

ب . وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « بَيْنَا جبريل قاعد عند رسول الله ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه وقال: هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فَسلَّم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أُعطيتَه». النقيض: هو الصوت المرتفع كصوت الباب حين يفتح.

ج . وروى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه من حديث سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: قَسَمْتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال: أثنى على عبدى ، وإذا قال: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال: مجّدنى عبدى ، وربما قال فوّض إلىّ عبدى ، وإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، وإذا قال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل».

٥ . ﴿ آمين ﴾ ليست من الفاتحة ولكن ثبت في الأحاديث الصحيحة إلحاقها بها في التلاوة على أنها دعاء لا على أنها قرآن. (*)

(*)جريدة الإخوان المسلمين الإسبوعية ـ السنة الأولى ـ العدد ٢ في ٢٨ صفر ١٣٥٢هـ/ ٢٢ يونيو ١٩٣٣م.





الآيات من: (١ – ٥)

الآيات من: (١٥١ – ١٥٧)

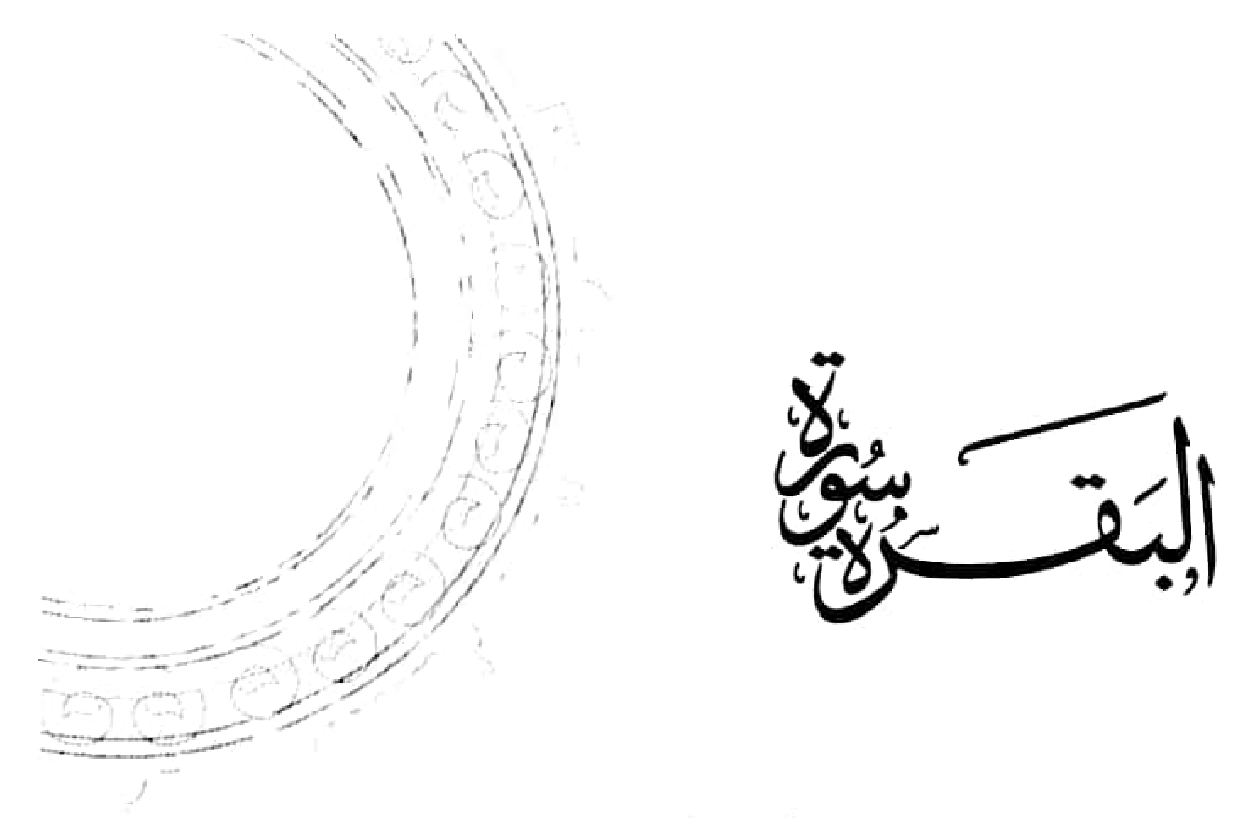
الآيات من: (١٩٠ – ١٩٥)

الآيـــــة: (٢١٤)

الآيات من: (٢٤٦ – ٢٥١)

الآيتـــان: (٢٥٧ – ٢٥٨)





سورة البقرة

وهي مدنية إلا آية ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ فقد نزلت بمنى في حجة الوداع وعدد آياتها ٢٨٦ آية.

■ فضلها

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن».

وروى مسلم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة».

وروى البخاري ومسلم وابن حبان في صحيحه واللفظ له عن أسيد بن حضير رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله بينما أنا أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفي فظننت أن فرسي انطلق، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك» فالتفت فإذا مثل المصباح مدلي بين السماء والأرض ورسول الله ﷺ يقول: «اقرأ أبا عتيك» فقال: يارسول الله فما استطعت أن أمضى، فقال رسول الله ﷺ: «تلك الملائكة تنزلت لسورة البقرة أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب».

وروى مسلم والنسائي والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة».

وروى الترمذي عن أبي هريرة ﵁ قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأ كل رجل منهم ـ يعني ما معه من القرآن ـ قال فأتي على رجل من أحدثهم سناً فقال: «ما معك يا فلان ؟» قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال: «أمعك سورة البقرة ؟» قال: نعم. قال: «اذهب فأنت أميرهم» فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها ، فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقرأوه فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه في كل مكان ، ومن تعلمه فيرقد وهو في جوفه فمثله كمثل جراب أوكئ على مسك».

قال ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول عن البقرة: فيها ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر. وقال خالد بن معدان: هي فسطاط القرآن ، وذلك لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها.

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر: كان لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحسن إسلامه ، وترك قول الشعر في الإسلام وسأله عمر في خلافته من شعره واستنشده فقرأ سورة البقرة ، فقال: إنما سألتك عن شعرك. فقال: ما كنت لأقول بيتا من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران ، فأعجب عمر قوله وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة. وقد قال كثير من أهل الأخبار: إن لبيداً لم يقل شعراً منذ أسلم ، وقال بعضهم لم يقل في الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وفي موطأ مالك أنه بلغه أن ابن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها.

وذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ في كتابه المسمى (أسماء من روى عن مالك) عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعري قال: حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال: تعلَّم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزوراً شكراً لله.

■ حكمة التسمية

قال المفسرون: سميت بهذا الاسم لما ورد فيها من ذكر قصة البقرة ويبدو لي أن الحكمة في هذه التسمية أعمق من هذا الذي ذُكر ، ولعلها لفت النظر إلى هدم هذه العقيدة في نفوس الناس: عقيدة تقديس البقرة وعبادتها من دون الله ، والمقصد الأول من الأديان وبالتالي من إنزال القرآن تقرير وحدانية الله تبارك وتعالى وصرف وجوه عباده وقلوبهم إليه ، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله ، ولقد كانت البقرة أوفر أنواع الحيوان حظاً من عبادة البشر وتقديسهم ، فالتاريخ يحدثنا عن قدماء المصريين وكيف كانوا يبالغون في تقديس هذا الحيوان وعبادته ، ويعنون أشد العناية باختيار العجل (أبيس) بشروط خاصة وكيفيات خاصة حتى سرت منهم هذه العادة إلى الإسرائيليين رغم ما كان فيهم من أنبياء وما أنزل الله عليهم من كتب.

ولقد عرفت عبادة البقر في معظم القارة الآسيوية كذلك بين الآشوريين والبابليين والإيرانيين والهنود ، ولا زالت إلى اليوم معبود الهندوس الأعظم ، وسرى إلى العرب شيء من هذه العقيدة فكان منها السائبة والبحيرة والوصيلة والحامي وما يتصل بها من شعائر. ولقد استمر ظل هذه العقائد الفاسدة ممتداً حتى وصل إلى بعض المجتمعات الإسلامية ، وكنا نسمع إلى وقت قريب عن (عجل السيد) ونظرائه في كثير من البلاد.

ولهذا كان من اللازم أن تُحارب هذه العقيدة ، وأن تُجتث من أصولها ، وأن تسمى أطول سورة في القرآن باسم الجزء الذي تعرض للبقرة منها ، وفيه الأمر بذبحها بأيدي الذين سرى إلى نفوسهم تقديسها ، وتكريمها من بني إسرائيل تقليداً للمصريين ونقلا عن شرائعهم حينذاك .. والله أعلم.

استعراض عام للمقاصد الكلية في السورة الكريمة

من الخير أن نضع بين يدي الناظرين في كتاب الله تبارك وتعالى هذه الصورة المجملة لمقاصد السورة المباركة بأرقام الآيات حتى تكون مفتاحا للتدبر والتفكر حين التلاوة ومعوانا على الدرس والبحث فنقول: بدأت هذه المقاصد في السورة الكريمة بمقدمات عامة خلاصتها:

حكمة الاستفتاح بالحروف المفردة: الآية (١).

ثم عرض الدعوة ممثلة في كتاب حق: الآية (٢).

ثم بيان موقف الناس منها وتقسيمهم: إلى مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، وصفات كل وخصائصه: الآيات (٣-٢٠).

وعموم الدعوة إلى عبادة الله وحده ونفي الشرك به: الآيتان (٢١-٢٢).

والتحدي بإعجاز القرآن للبشر: الآية (٢٣).

وتسجيل جزاء المصدقين والمكذبين: الآيتان (٢٤-٢٥).

وحكمة القرآن في التمثيل وأثر ذلك في الناس: الآيتان (٢٦-٢٧).

وتلخيص أطوار الحياة الإنسانية وخلق الكائنات والصلة بين الإنسان والجن والملائكة وختام هذه المقدمات بتقرير جزاء المهتدين والمكذبين: الآيات (٢٨-٣٩).

ثم عرضت بعد ذلك لناحية تطبيقية، هي استعراض تاريخ الأمة اليهودية استعراضاً تظهر فيه أخلاقها وأعمالها، وتتخلله قواعد ثابتة من سنن الله التي لا تتغير، والحكمة في اختيار قصة بني إسرائيل وكثرة تكرارها في سور القرآن الكريم

واضحة فإن شريعتها هي أقدم الشرائع السماوية المعروفة الآن ، وما زالت هذه الأمة مشكلة العالم الإنساني ومصدر البلاء للبشرية حتى يأتي أمر الله.

وقد بدأ هذا الاستعراض بتذكيرهم بنعمة الله عليهم وعهده عندهم ومطالبتهم بالوفاء وتوعدهم بالجزاء: الآيات (٤٠-٤٨).

ثم تذكير الله إياهم بالنجاة من فرعون وإنزال التوراة وقبول التوبة بعد الخطيئة والحياة بعد الصعق ، والسعة في الرزق ، وهم مع ذلك يأبون إلا العناد والمخالفة والتمرد على الحق والعدوان على أنبياء الله: الآيات (٤٩-٦١).

وتقرير قاعدة التبرير بالإيمان ، وأن الإيمان هو لب الدين وأصل النجاة في كل الشرائع السماوية: الآية (٦٢).

ثم ذكر حادثة الطور والسبت والبقرة والقتيل وقسوة قلوبهم من بعد ذلك كله ، مما يؤدي إلى اليأس من هدايتهم ، ويعزي عن ضلالهم وسوء طويتهم: الآيات (٦٣-٧٥).

ثم تسجيل خلق النفاق والكذب عليهم: الآيات (٧٦-٧٩).

وتقرير قاعدة الجزاء بالعمل لا بالتمني والادعاء: الآيات (٨٠-٨٢).

وبيان أصول شريعة موسى عليه السلام وهي أصول الشرائع عامة: الآية (٨٣).

وخروجهم عليها بعد إقرارهم بها استكباراً وبغياً وحسداً وحرصاً على الحياة: الآيات (٨٤-٩٦).

ثم التعرض لهدم عقائدهم الفاسدة في الملائكة وفي السحر: الآيات (٩٧-١٠٣).

وكشف خبيئة نفوسهم للمؤمنين من الخبث والحسد: الآيات (١٠٤-١٠٥).

وتقرير السنة الإلهية في التذكير بآيات الله وقدرته على ذلك ووجوب التسليم للرسل عليهم الصلاة والسلام: الآيات (١٠٦-١٠٨).

وبيان داء الحسد في نفوس أهل الكتاب ودوائه في نفوس المؤمنين وأعمالهم وتقرير قاعدة أن الجنة إنما تكون جزاء الإيمان بالحقيقة والجوهر لا بالتسمية والمظهر: الآيات (١٠٩-١١٢).

والتنديد بالخلاف الشكلي بين اليهود والنصارى مع بعدهم عن لب الدين وحقيقته وتعطيلهم لشعائر الله وتعصبهم لما هم عليه من الباطل ثم تذكيرهم بنعمة الله وتوعدهم بالجزاء إن أعرضوا يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً: الآيات (١١٣-١٢٣).

ولما كان بنو إسرائيل هم أحفاد إبراهيم عليه السلام وإليه ينتهي شرفهم وتفضيلهم ، تناولت السورة بعد ذلك طرفا من سيرته فيه تقرير إمامته عمليا بالبيت الحرام ونظريا بملته الحنيفية السمحة ، مع بيان أن هذه الحنيفية هي حقيقة اليهودية والنصرانية والإسلام وأنها وصية إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب لأبنائهم الأسباط عليهم الصلاة والسلام ، مع بيان أن الخلاف في القبلة والملة إنما أساسه التعصب مع أن الكثير يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم وأن واجب المؤمنين استباق الخير واستقبال قبلة الحق أينما كانوا: الآيات (١٢٤-١٥٠).

ثم أتبعت السورة هذا التطبيق التاريخي ببيان بعض الأصول التي تقوم عليها الشريعة المطهرة من تقرير مهمة الرسول ﷺ والوصية بالذكر والشكر والصبر والصلاة والجهاد ، وتسجيل سنة الله في القائمين بالدعوات من الامتحان والاختبار، وعقوبة الكاتمين لآيات الله والكافرين به والمنكرين لوحدانيته ، وبيان أن التقليد لا يدفع العقوبة وأن أساس النجاة أكل الحلال الطيب ومخالفة الشيطان: الآيات (١٥١-١٧٦).

كما عرضت بعد تقرير هذه الأصول إلى ما يتصل بها من فروع الأحكام المتعلقة بالأفراد في عقائدهم أو أعمالهم ، كحقيقة البر وحكمة القصاص والوصية والصيام والدعاء والاعتكاف والحج والعمرة والمحافظة على الأموال وتسجيل قاعدة وجوب مخاطبة الناس بما يعقلون: الآيات (١٧٧-٢٠٣).

وتناولت الآيات بعد ذلك بحوثا تحليلية في مواقف الناس بالنسبة للدعوات من حيث اختلاف طبائعهم وترددهم في القبول ، وأن من سنة الله امتحانهم في أنفسهم بالقتال والانتقام وفي أموالهم بالبذل والعطاء ، وأن الجزاء مرتب على النجاح في هذا الامتحان: الآيات (٢٠٤-٢١٨).

وعادت بعد هذا البيان إلى تقرير كثير من الأحكام الفرعية المتصلة بالبيوت والمجتمعات ، فذكرت حكم الخمر والميسر والإنفاق والصدقات وفضل رعاية اليتيم وحكم نكاح المشركين والمشركات وآداب مخالطة النساء وأثر اليمين اللغو والمنعقدة وأحكام الإيلاء والعدة والطلاق بصوره المختلفة ثم الإرضاع والمتعة وعدة الوفاة وصلاة القتال: الآيات (٢١٩-٢٤٢).

ثم أردفت هذا البيان الوافي في الأحكام الشرعية بتقرير سنة الله تبارك وتعالى في نهضات الأمم وأنها إنما تقوم على حب الموت ودوام البذل وتقرير الجهاد وحسن الطاعة واحترام النظام والاعتماد بعد ذلك كله على تأييد الله ، مؤيداً ذلك بقصة طالوت وجالوت وأن ذلك شأن الناس في كل زمان ومكان: الآيات (٢٤٣-٢٥٤).

واقتضى هذا السياق العودة إلى التذكير بالأصل الذي تقوم عليه الشرائع والأديان ، وهو تنزيه الله تبارك وتعالى ومعرفته معرفة طواعية واختيار، وأن الإيمان وحده هو أساس صلة البشر بالله ، وأن سر الحياة لا يعلمه أحد سواه: الآيات (٢٥٥-٢٦٠).

ولما كان المال قوام الحياة ، عرضت السورة الكريمة لجملة صالحة من أحكام الصدقات والأموال من الإنفاق في سبيل الله والزكاة والبيع والربا والقرض والدين والتجارة والرهن: الآيات (٢٦١-٢٨٣).

وكان مسك الختام إعلان التسليم لرب العالمين ، والإيمان بوحدة قواعد الدين ، وتقرير قاعدة دفع الحرج عن المكلفين ، وهذا الدعاء والابتهال في إخبات المؤمنين وخشوع الصادقين: الآيات (٢٨٤-٢٨٦).

﴿ ألم ۝١ ﴾

■ الحروف المفردة في أوائل السور

﴿ ألم ﴾ وما شابهها في أوائل السور القرآنية كثرت فيها أقوال المفسرين وأحقها بالنظر والتقدير آراء ثلاثة:

أنها للفت النظر للاستماع للقرآن حين يتلى ، فهي أداة تنبيه وخاصة للمشركين الذين كانوا يعلمون تمام العلم أن محمداً عليه الصلاة والسلام أميّ لم يقرأ ولم يكتب قبل أن يوحى إليه هذا القرآن ، فنطقُه بهذه الحروف على الهيئة التي لا يحذقها إلا القراء والكاتبون أمرٌ يستدعي الانتباه ويستلفت النظر.

أو أنها إشارة إلى الإعجاز، كأنه يقول لهم إن هذه الألفاظ والجمل والعبارات والآيات قد ركبت من هذه الحروف البسيطة التي تعرفونها جميعا ، ومع ذلك فقد عجزتم عن الإتيان بمثل هذا التركيب مع أن هذه هي مادته الأولية بين أيديكم ، فلا مندوحة لكم بعد هذا من الإقرار بأن هذا الكتاب المركب هذا التركيب من عند الله لا من صنع البشر.

أو أنها إشارة إلى فضل الكتابة وسمو منزلتها والتفاؤل بأنه كما كانت معرفة البشر للكتابة إيذاناً بانتقالهم من طور إلى طور في مدارج الرقي والكمال فكذلك الاهتداء بهذه الرسالة سيكون انتقالاً جديداً إلى درجة أعلى وأكمل في مدارج الحضارة الإنسانية والترقي الاجتماعي ، وقد جاء القرآن حريصاً على إبراز هذا المعنى حتى كانت أول سورة أنزلت منه في أرجح الأقوال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ العلق.

وكل ما عدا هذه الآراء الثلاثة من أقوال المفسرين ظن لا يغني من الحق شيئا. ومن طرائف ما ذهب إليه بعضهم في ذلك استخلاصه هذا التركيب من هذه الحروف في أوائل السور بعد حذف المكرر منها: (نص حكيم قاطع له سر) كأنه يريد أن يقول: إنها وصف للقرآن ولا دليل على هذا القول ولا سند له.

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾

■ القرآن الكريم وأحقيته

والمراد بالكتاب: القرآن الكريم. والريب: الشك. فالآية تقرر أن هذا القرآن من شأنه الحق والصدق فلا يصح أن يخالط أحدا الشك في صدقه وأحقيته، وأنه من عند الله تبارك وتعالى، وأن ما فيه هو الخير والهداية للناس. وقد يقف بعض القراء على: ﴿ لاَ رَيْبَ ﴾ ويستأنف القراءة بما بعدها فيقرأ: ﴿ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وهو توجيه متكلف - وإن صح المعنى - ويُضْعفه ما جاء في فاتحة سورة السجدة: ﴿ الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ إذ لا يحتمل المعنى الاستئناف فيها كما احتمله في الأولى.

وقد تكررت الإشارة إلى أحقية القرآن، وصدقه وفضله وبركته وإعزازه وسلامته في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ فصلت، وقوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ ص، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ فاطر.

كما أشارت الآيات أيضا إلى الأدلة المعقولة المقبولة على هذا الصدق ونفى الريب والشك والظنة في مواضع كثيرة:

• ومن هذه الأدلة استقامة نظمه وانسجام معانيه: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ النساء. وذلك يتضح بإنعام النظر وكثرة التدبر. ومنها إعجازه البالغ المحيط الشامل مع التحدي الثابت الدائم: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ الإسراء. وسنفرد لهذا باباً خاصاً في هذا التفسير إن شاء الله عند أول مناسبة.

• ومنها أنه جاء على فترة من الرسل، وبعد أن بلغ النبي ﷺ السن التي يستبعد معها الكذب والاختلاق والتوهم، وخصوصاً مع من عُرف طيلة شبابه بالصادق الأمين: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ يونس.

• ومنها نزوله على أمّي لم يدخل مدرسة ولم يتعلم في جامعة ولم يقرأ ولم يكتب من قبل: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ العنكبوت.

• ومنها موافقته للعقل والمنطق وغزارة ما فيه من العلم والمعرفة، وصحة ما أشار إليه من نظم الحياة وقواعد الاجتماع، وانطباق ما فيه على الحقائق الكونية الثابتة مهما ارتقى البحث أو تطورت الكشوف والمخترعات: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ فصلت.

والأدلة والشواهد على ذلك كثيرة متضافرة كلها تنطق: بأن هذا الكتاب في نظمه وأسلوبه ومقاصده ومعانيه لا يمكن أن يُلصق به شك أو ريب في أنه من عند الله.

■ الهداية الربانية

الهدى: الإرشاد والدلالة على الطريق المستقيم. وقد جاء هذا الوصف في القرآن الكريم مصاحباً للكتب السماوية جميعاً ، فالقرآن هدى للمتقين ، والتوراة هدى ونور، والإنجيل هدى وموعظة.. الخ.

وقد تقدم في تفسير سورة الفاتحة أن الله تبارك وتعالى منح البشر هدايات: هي هداية الشعور والوجدان والفطرة ، ثم هداية الحواس الظاهرة ، ثم هداية العقل والتفكير، ثم هداية الشرائع والكتب التي تبصر العقل بالخير والشر وترجح أمامه دواعي الخير، وتعظه وتزجره عن وساوس الشر، وقد تكتب هذه الهداية للصالحين من عباد الله تبارك وتعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ الأنعام: ٩٠ ، كما ثبتت بأعلى درجاتها للنبي ﷺ بهذا الإسلام: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) ﴾ الأنعام ، وأمرنا الله تبارك وتعالى أن نسأله إياها في صلواتنا فكان من آيات الفاتحة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾.

■ المتقون وأوصافهم

التقوى والاتقاء بمعنى واحد ، وأصل المادة وقي يقي ومنه الوقاية: وهو ما يحول بين الإنسان وما يكره. وقد ورد لفظ التقوى والأمر بها في القرآن الكريم مضافا إلى الله تبارك وتعالى في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ آل عمران: ١٠٢ ، وقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ التغابن: ١٦ ، وقوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾ البقرة ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) ﴾ البقرة ، وكثيراً ما تُختم الآيات الكريمة وبخاصة التي تتضمن أحكاماً تتصل بالنفس أو بالشئون الشخصية ، أو نحوها من الأمور التي لا تقوم عليها الدلائل الحسية الظاهرة بالأمر بتقوى الله تبارك وتعالى وبيان جزاء هذه التقوى في

الدنيا والآخرة كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) ﴾ البقرة ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾ البقرة ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ﴾ البقرة ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ الطلاق ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ الطلاق ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾ الطلاق ، وسنشير إلى المقصود بهذا الختام عند كل آية إن شاء الله.

كما جاء لفظ التقوى كذلك مضافا إلى النار والمراد التحفظ مما يوقع فيها ، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ البقرة ، ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) ﴾ آل عمران ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ التحريم.

وقد ورد في كثير من الآيات أن مثوبة التقوى الجنة مع النجاة من النار: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ آل عمران ، واعتبرت مقياس الكرامة الإنسانية: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات: ١٣.

قال القرطبي: التقوى يقال أصلها في اللغة: قلة الكلام حكاه ابن فارس. قلت: ومنه الحديث: «التقى ملجم والمتقي فوق المؤمن والطائع» وهو الذي يتقي بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه مما تجعله حاجزاً بينك وبينه، قال الشاعر:

فألقت قناعاً دونه الشمس واتَّقَتْ بأحسن مَوصولين كفٌّ ومِعْصَمُ

وأخرج أبو محمد عبد الغني الحافظ من حديث سعيد بن زربي أبي عبيدة عن عاصم بن بهدلة عن رز بن حبيش عن ابن مسعود قال: قال يوماً لابن أخيه: يابن

أخي ترى الناس ما أكثرهم ؟ قال: نعم ، قال: لا خير فيهم إلا تائب أو تقي ، ثم قال: يابن أخي ترى الناس ما أكثرهم ؟ قلت: نعم ، قال: لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم.

وقال أبو يزيد البسطامي: المتقي من إذا قال قال لله ومن إذا عمل عمل لله.

وقال أبو سليمان الداراني: المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات. وقيل: المتقي الذي اتقى الشرك وبرئ من النفاق. قال ابن عطية: وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق.

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبي بن كعب رضي الله عنه عن التقوى ؟ فقال: هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال: نعم ، قال: فما عملت فيه ؟ قال: تشمرت وحذرت. قال: فذاك التقوى...

والتقوى فيها جماع الخير كله وهي وصية الله في الأولين والآخرين وهي خير ما يستفيده الإنسان. وروى ابن ماجة في سننه عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله».

وقال سهل بن عبد الله: لا معين إلا الله ولا دليل إلا رسوله ولا زاد إلا التقوى ولا عمل إلا الصبر عليه ، ومن أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب.

وقال طلق بن حبيب: التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله.

وكان أبو الحسين الزنجاني يقول: من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربحه.

وقيل: أصل التقوى اتقاء الشرك ، وبعده اتقاء المعاصي والسيئات ، وبعده اتقاء الشبهات.

وقال في تفسير المنار ما خلاصته: معنى اتقاء الله تعالى ، اتقاء عذابه وعقابه. وإنما تضاف التقوى إلى الله تعالى تعظيماً لأمر عذابه وعقابه وإلا فلا يمكن لأحد أن

يتقي ذات الله تعالى ولا تأثير قدرته ولا الخضوع الفطري لمشيئته. فالمتقي هو من يحمي نفسه من العقاب ولابد في ذلك أن يكون عنده نظر ورشد يعرف بهما أسباب العقاب والآلام فيتقيها.

والعقاب الإلهي الذي يجب على الناس اتقاؤه قسمان: دنيوي وأخروى. وكل منهما يتقي باتقاء أسبابه وهي أمران: مخالفة دين الله وشرعه ، ومخالفة سُننه في نظام خلقه.

فأما عقاب الآخرة فيُتقي بالإيمان الصحيح والتوحيد الخالص والعمل الصالح واجتناب ما ينافي ذلك من الشرك والكفر والمعاصي والرذائل ، وذلك مبين في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وأفضل ما يستعان به على فهمهما واتباعهما سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول ﷺ وعلماء الأمصار.

وأما عقاب الدنيا فيجب أن يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله تعالى في هذا العالم ولا سيما سنن اعتدال المِزاج وصحة الأبدان وأمثلتها ظاهرة وسنن الاجتماع البشرى. فاتقاء الفشل والخذلان في القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها واتقاء آلاتها وأسلحتها التي ارتقت في هذا العصر ارتقاءً عجيباً ، كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده.(*)

(*) مجلة الشهاب ـ السنة الأولى ـ العدد ٣ في غرة ربيع أول ١٣٦٧هـ/ ١٣يناير ١٩٤٨م.

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾

■ **الإيمان بالغيب**

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ الإيمان في اللغة: التصديق ويتعدى بالباء واللام ، وفي الشرع: التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها وتسليمها بما أشار إليه حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي ﷺ: فأخبرني عن الإيمان ؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره». وهو مروي بطوله في الصحاح ، وآية الإيمان العمل. وفي كتب العقائد والفِرَق تفصيلات وتفاريع وكلام طويل عن الإيمان وما يتصل به ، وفي آيات القرآن الكريم بيان وافٍ لحقيقة الإيمان الشرعي وعلاماته وكل ما يتصل به سنعرض له في موضعه إن شاء الله تعالى.

والغيب في اللغة: كل ما غاب عنك ، والغيابة: الأجمة وهي مجتمع الشجر يغاب فيه ، ويسمى المطمئن من الأرض: الغيب لأنه غاب عن البصر.

والغيب في الشرع: كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا يقع تحت الحس في عالم الشهادة: كعذاب القبر، والحشر، والنشر، والصراط ، والميزان ، وصفات البارئ - جل وعلا - ونحو ذلك.

والإيمان بهذا الغيب من صفات المتقين ، وهو دليل على حسن استعداد النفوس لتلقي حقائق الدين والتصديق بها والعمل لها ؛ ولهذا جاء في صدر هذه الصفات وهو أفضل أنواع الإيمان وأعلاها.

قال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب النبي ﷺ وما سبقونا به ، فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بيِّناً لمن رآه ، والذي لا

إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ: ﴿ أَلَمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . (وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طرق عن الأعمش، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) .

وروى أحمد وابن مردويه في تفسيره بسنده واللفظ له عن صالح بن جبير قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصاري رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ بيت المقدس يصلي فيه ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة رضي الله عنه فلما انصرف خرجنا نشيعه ، فلما أراد الانصراف قال: إن لكم جائزة وحقاً ، أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ قلنا: هات رحمك الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة ، فقلنا: يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً ؟ آمنا بالله واتبعناك ، قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء ، بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجراً مرتين».

وروى الحسن بن عرفة العبدي قال: حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصي عن المغيرة ابن قيس التميمي عن ابن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أي الخلق أعجب إليكم إيمانا ؟»

قالوا: الملائكة ، قال: «ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟»

قالوا: فالنبيون ، قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟»

قالوا: فنحن ، قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟»

قال: فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إليَّ إيماناً لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها».

قال أبو حاتم الرازي: المغيرة بن قيس البصري منكر الحديث. وقال الحافظ ابن كثير تعقيبا على هذا: لكن قد روى أبو يعلى في مسنده وابن مردويه في تفسيره ،

والحاكم في مستدركه من حديث محمد بن حميد ـ وفيه ضعف ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبي ﷺ بمثله أو نحوه ، وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعا .. والله أعلم.

قال الطبري: (وحدثت عن عمار بن الحسن قال: حدثني ابن أبي جعفر عن أبيه عن العلاء بن المسيب بن رافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال الإيمان: التصديق، ومعنى الإيمان عند العرب: التصديق ، فيدعى المصدق بالشيء قولا مؤمناً به ، ويدعى المصدق قوله بفعله مؤمناً ، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ⑰ ﴾ يوسف ، يعني: وما أنت بمصدق لنا في قولنا. وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل.

والإيمان: كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل ، وإذا كان ذلك كذلك فالذي هو أولى بتأويل الآية وأشبه بصفة القوم أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً ؛ إذ كان جل ثناؤه لم يحصرهم من معنى الإيمان على معنى دون معنى بل أجمل وصفهم به من غير خصوص شيء من معانيه أخرجه من صفتهم بخبر ولا عقل.

كما أورد في معنى الغيب عن ابن مسعود رضي الله عنه وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار ، وما ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ في القرآن لم يكن تصديقهم بذلك ـ يعني المؤمنين من العرب ـ من قِبَل أصل كتاب علم كان عندهم. وعن قتادة قال: آمنوا بالجنة والنار والبعث بعد الموت وبيوم القيامة وكل هذا غيب. وعن الربيع بن أنس: آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ، وآمنوا بالحياة بعد الموت فهذا كله غيب). اهـ.

وليس المراد بالإيمان بالغيب التسليم الأعمى بدون دليل أو نظر أو برهان مما يؤدي إلى اعتقاد الخرافات والتصديق بالأوهام والإيمان بما لا يتفق مع الحقائق العليا التي جاء بها الدين الحنيف ، فقد نُهينا عن مثل هذا الإيمان الضعيف ، وقد

أُمرنا بالنظر في ملكوت السماوات والأرض وتقدير نعمة الله علينا بالإدارك والعقل ، واُعتبر التفكر عبادة من أَجَلِّ العبادات الموصلة إلى معرفة الخالق ـ جل وعلا ـ وكمال الإيمان به ، وجُعل العقل مناط التكليف ، ومدار الثواب والعقاب. وتردد ذكره في القرآن الكريم أكثر من أربعين مرة مقروناً بالحث على استخدامه فيما خُلق له ، فلا يمكن أن يكون معنى ذلك تشجيع الاستسلام للأوهام بدون نظر أو برهان.

ولكن المراد ـ والله أعلم ـ أن طبائع البشر مختلفة فمنها:

الحجري المتصلب المكابر المعاند الذي لا يؤمن إلا بما يرى بعينه ويدركه بحاسته الكثيفة ، وقد تدفعه الأهواء والأغراض الفاسدة إلى المكابرة حتى في هذا المحسوس ، وقد وردت الإشارة إلى هذا الصنف من البشر في كثير من آيات القرآن الكريم من مثل قول الله تبارك وتعالى في بني إسرائيل: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾ البقرة ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ﴾ الأنفال ، وقوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ البقرة ، فهؤلاء وأمثالهم لا يمكن أن تنفع فيهم موعظة أو تشرق أرواحهم بحقائق الإيمان.

كما أن من النفوس البشرية المشرق المستنير اللين المستعد لتلقي الحق ، والإذعان له وهو من الشفافية والصفاء والإشراق بحيث يدرك الحقائق بحاسة أخرى هي فوق الحس والشم والذوق والسمع والبصر، وفي هؤلاء وأمثالهم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ الزمر: ٢٣.

ولا ينكر هذا التفاوت في طبائع النفوس البشرية إلا جاحد مكابر من الصنف الأول فإنه مشاهد ملموس. فالمراد بالذين يؤمنون بالغيب هو هذا الصنف المشرق الشفاف من النفوس الطيبة اللينة الحسنة الاستعداد لتقبل الحقائق وإن جاءتها عن غير طريق الحواس.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ في هذا المقام ما نصه: (وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد ، وقائم على أول النهج لا يحتاج إلا إلى من يدله على المسلك ، ويأخذ بيده إلى الغاية ، فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل وإن كان لا يأتي عليها الحس ، إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السماوات والأرض المستعلى عن المادة ولواحقها ، المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله ، سهل عليه التصديق وخف عليه النظر في جليِّ المقدمات وخفيها ، وإذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التي استأثر الله بعلمها كعالم الملائكة مثلاً ، لم يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة. لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف في مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون في القرآن هدى لهم.

وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس ، ويظن أن لا شيء وراء المحسوسات وما اشتملت عليه ، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده ، وقلما تجد السبيل إلى قلبه إذا بدأته بدعواك ، نعم قد توصلك المجاهدة بعد مرور الزمان في إيراد المقدمات البصيرة والأخذ به في الطرق ، حتى يتم لك منه الأمر، فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه ، ولم يجمل من نفسه وقعه ، فكيف يجد فيه هداية أو منقذاً من غواية ، ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدي الذي لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان وليس له أثر في الأفعال لأنه لم يقع تحت نظر العقل ولم يلحظه وجدان القلب بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذي يسمونه إيماناً لا يفيد في إعداد القلب للاهتداء بالقرآن ، لما كان هذا شأنهم ، مَنَّ الله علينا ببيان يشعر بحقيقة ما أراده الله تعالى من معنى الإيمان فذكر علامات المؤمنين بالغيب الذين ينتفعون بهداية القرآن بالجمل الآتية). اهـ.

■ إقامة الصلاة

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ الصلاة أصلها في اللغة: الدعاء. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا دُعي أحدكم إلى طعام فَلْيُجب. فإن كان مُفطراً فليطعم، وإن كان صائماً فليصلِّ». أي: فليدع على الأشهر.

ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبي ﷺ قالت أسماء: ثم مسحه وصلى عليه. أي: دعا له، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ أي: ادع لهم. وقال الأعشى:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا يارب جنب أبي الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا

أي: مثل الذي دعوت به. ومن هذا المأخذ اشتقت الصلاة شرعاً. وقيل: بل هي مأخوذة من الصلاة وهو عرق في وسط الظهر. وقيل: مأخوذة من اللزوم أو من صليت العود بالنار إذا قومته ولينته بالصلاء. وقيل: هي اسم علم وضع للعبادة المعروفة، فإن الله تعالى لم يخل زماناً من شرع، ولم يخل شرعا من صلاة هكذا قال أبو نصر القشيرى.

ومن معاني الصلاة: الرحمة، ومنه: اللهم صل على محمد، والعبادة ومنه الآية الكريمة ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ﴾ أي: عبادتهم، والقراءة ومنه: الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾.ا هـ. ملخصا من القرطبى.

ويُراد بالصلاة شرعاً: العبادة المعروفة من الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم.

وإقامتها أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها في أوقاتها. قال ابن عباس ويقيمون الصلاة: أي يقيمون الصلاة بفروضها. وحكى الضحاك عنه إقامة الصلاة: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها. وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل ابن حيان إقامتها: المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي ﷺ فهذا إقامتها. وقيل: إقامتها دوامها. يقال: قام الشيء أي دام وثبت، وإلى هذا المعنى أشار عمر رضي الله عنه بقوله: من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

وهناك بحوث طريفة لطيفة نلم بها في اختصار وإيجاز لما فيها من فائدة وتنبيه على دقائق الآيات التي ستمر بنا بعد ذلك متصلة بأحكام الصلاة والله المستعان.

■ **الصلاة في القرآن والسنة**

لم تتعرض آيات الكتاب الكريم لتفاصيل أحكام الصلاة في أوقاتها أو أعمالها وإنما عرضت لذلك إجمالا في عدة مواضع منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) ﴾ البقرة. ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ النساء. ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ هود. ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) ﴾ الإسراء. ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) ﴾ الإسراء. ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) ﴾ طه. ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ العنكبوت. ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ المعارج. ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) ﴾ المدثر. ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ

وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ البينة. ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ الماعون.

ذلك مثل مما جاء في القرآن الكريم عن الصلاة مجملاً ، وخصت صلاة الجمعة بآية مفصلة وصلاة الخوف أو القتال بآية مفصلة كذلك ففي صلاة الجمعة يقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الجمعة.

وفي صلاة الخوف أو القتال يقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ النساء.

كما عرضت الآيات كذلك للطهارة في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ الآية: ٦ .

وقد أورد القرطبي في هذا الموضع إحصاءً لطيفاً فقال: (فهذه جملة من أحكام الصلاة ، وسائر أحكامها يأتي بيانها في مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى ، فيأتي ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات وبعض صلاة الخوف في هذه السورة (أي البقرة).

ويأتي قصر الصلاة وصلاة الخوف في النساء ، والأوقات في هود وسبحان (يعني الإسراء) والروم ، وصلاة الليل في المزمل ، وسجود التلاوة في الأعراف ، وسجود الشكر في (ص) كل في موضعه إن شاء الله). اهـ.

وفَاتَهُ ـ رحمه الله ـ أن يشير إلى صلاة الجمعة في سورة الجمعة ، وسبحان من لا تأخذه سنة ولا نوم.

ويلاحظ أن ذكر الصلاة في كثير من الآيات يجئ مقروناً بالإيمان أولا وبالزكاة ثانيا وقد يقرن الثلاثة بالعمل الصالح وهو ترتيب ووضع طبعي ، فالإيمان أساس وهو عمل القلب ، والعمل الصالح ـ مجملاً ـ دليل صدق الإيمان وهو عمل الحس ، وأول عمل يطالب به المؤمن هذه الصلاة وهي عبادة البدن ثم الزكاة والنفقة وهي عبادة المال وضريبة الكسب.

كما يلاحظ أن الآيات تطالب بإقامة الصلاة لا بالصلاة مطلقاً لأن المقصود ليس أداء الصلاة أداء شكليا ، ولكن المقصود أداؤها أداءً حقيقياً بكمال صورتها الظاهرة وتوفر الخشوع وحضور القلب فيها ، وهذا الحضور هو حقيقتها الباطنة.

أما السنة المطهرة فقد جاءت مفصلة لكل ما أجمله القرآن الكريم من أحكامها فأوقاتها ، وأركانها ، وفرائضها ، وسننها ، ونوافلها ، وكيفياتها ، وكل ما يتصل بها قولاً وعملاً ، كلها مفصلة في السنة وأجمل ذلك رسول الله ﷺ في قوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي». (رواه البخارى).

■ حكم ترك الصلاة في الفقه الإسلامي

وقد أجمع فقهاء المسلمين على أن من ترك الصلاة جاحداً لفرضيتها ومنكراً لوجوبها خارج من الإسلام مرتد عنه ؛ لأنه كذَّب الله ورسوله ، واختلفوا فيمن تركها تكاسلاً وإهمالاً فأما الجمهور منهم فقد ذهب إلى: أنه ارتكب كبيرة من أشد الكبائر، ولكنه لا يكفر بذلك ، وذهب بعض الأئمة إلى: أنه يكفر بهذا الترك. وتفصيل ذلك في موضعه من كتب الفقه ، وإنما ألممنا هنا بهذه الإشارة لبيان ما لهذه الفريضة من منزلة في الإسلام.

■ **كيف فرضت الصلاة ومتى فرضت ؟**

الجمع بين الأقوال الواردة في ذلك يعطينا هذه الصورة: أنها فرضت على ثلاث مراحل:

ففي أول البعثة فرضت ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي وصلاة الليل ، ودليل القائلين بهذا ما نزل من الآيات في مكة ، وفيها الأمر بالصلاة ، وما ورد من أن خديجة ـ رضي الله عنها ـ صلّت مع النبي ﷺ ، وقد ثبت أنها توفيت قبل الإسراء على أرجح الأقوال في وقته وهو قبل الهجرة بسنة ، ونقله العيني عن أبي إسحاق الحربي ويحيى بن سلام قال ويشهد له قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٤١) ﴾ آل عمران ، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) ﴾ المزمل.

ثم زيد عددها في ليلة الإسراء إلى خمس صلوات ركعتين ركعتين إلاّ المغرب فكانت ثلاثا في أرجح الأقوال وقيل بل كانت ثنتين أيضا ، ويشهد له حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ الذي رواه البخاري قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر.

ثم زيدت ركعاتها بعد ذلك في السنة الثانية من الهجرة إلى العدد المعروف في الظهر والعصر والعشاء والمغرب.

وبهذا التصوير يجمع بين كل الأقوال الواردة في وقت فرضية الصلاة وكيفيتها.

■ **أثر الصلاة الروحي**

الإيمان الصادق بالله ـ تبارك وتعالى ـ يُحدث ـ ولا شك ـ في النفس شوقاً ولوعاً وتحرقاً وحنيناً وحباً يصل إلى حد الوَلَه بمناجاته سبحانه وتعالى وذكره ، والتبتل له والتذلل بين يديه ، وليس لهذا كله من مظهر إلا الصلاة التي هي الصلة بين العبد وربه والتي يقول فيها النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدٌ». (رواه مسلم) .

وإذا أكثر العبد من الصلاة مستصحباً هذا الشعور، أحدثت الصلاة في نفسه أثراً عميقاً من التلذذ ، ووجد لها حلاوة في قرارة فؤاده ، وإشراقاً في حنايا قلبه يجعلها ربيع

صدره وقرة عينه ، وكذلك كان الصالحون يقولون وكذلك قال رسول الله ﷺ: «وجُعلت قُرَّة عيني الصلاة». (رواه احمد والنسائي والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن) . « وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة». (رواه احمد وابو داود) . ومن هنا كانت الصلاة ولا شك خير مُهَذِّب للأرواح ، ومُطَهِّر للنفوس من أدران الإثم والفساد: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ العنكبوت.

■ أثر الصلاة الاجتماعي

ولا يقف أثر الصلاة عند هذا الحد الفردي بل إن الصلاة كما وصفها الإسلام بأعمالها الظاهرة وحقيقتها الباطنة منهاج كامل لتربية الأمة الكاملة:

فهي بأعمالها البدنية وأوقاتها المنتظمة خير ما يفيد البدن ، وهي بآثارها الروحية وأذكارها وتلاوتها وأدعيتها خير ما يهذب النفس ويرقق الوجدان ، وهي باشتراط القراءة فيها ـ والقرآن الكريم منهاج ثقافة عالية شامل ـ تغذي العقل وتمد الفكر بكثير من حقائق العلوم والمعارف ، فيخرج المصلي المتقن وقد صَحَّ بدنه ، وَرَقَّ شعوره ، وغذى عقله ، فأي كمال في التربية الإنسانية الفردية بعد هذا ؟

ثم هي باشتراط الجمعة والجماعة تجمع الأمة خمس مرات في كل يوم ، ومرة في كل أسبوع على المعاني الاجتماعية الصالحة من الطاعة والنظام والحب والإخاء والمساواة بين يدي الله العلي الكبير، فأي كمال في المجتمع أتم من أن يقوم على هذه الدعائم ، ويُشيَّد على هذه المثل العالية ؟

إن الصلاة الإسلامية تربية للفرد كاملة ، وبناء للأمة مشيد ، ولقد خطر لي وأنا أستعرض المبادئ الاجتماعية العصرية أن الصلاة الإسلامية أخذت بخير ما فيها وطرحت نقائصها ومساويها:

فأخذت من (الشيوعية) معنى المساواة والتآخي بجمع الناس في صعيد واحد لا يملكه إلا الله وهو المسجد ، وأخذت من (الديكتاتورية) النظام والحزم بإلزام الجماعة اتباع الإمام في كل حركة وسكون ومن شذَّ شذَّ في النار، وأخذت من (الديمقراطية)

النصح والشورى ووجوب رد الإمام إلى الصواب إذا أخطأ كائناً من كان ، وطرحت كل ما سوى ذلك من فوضى الشيوعية ، واستبداد الديكتاتورية ، وإباحية الديمقراطية ، فكانت عصارة سائغة من الخير لا كدر فيها ولا التواء.

■ كمال الصلاة

وكمال الصلاة في ثلاثة أمور: المحافظة على وقتها المحدد ، وإتقان ظاهرها بتجويد الأقوال واستيفاء الأعمال ، وإتقان باطنها بحضور القلب والخشوع ، وهذا في الحقيقة هو المقصود بإقامة الصلاة فمن فعل ذلك فقد أقامها ومن قَصَّر في شيء منها فهو غير مقيم لها.

ويقول بعض المخدوعين: إذا كانت حقيقة الصلاة والمقصود منها عبادة الله وحضور القلب وتزكية النفس ، فما قيمة هذه الأعمال الظاهرة وإنما ينظر الله من عباده إلى قلوبهم ؟

وقد خدع هؤلاء أنفسهم فإن المعاني الوجدانية لابد لها من رموز حسية حتى تظهر في صورتها وتثبت في النفوس بتكرارها: فالخشوع ومحبة الله والإخبات له كلها معان وجدانية تظهر في هذه الأقوال والأفعال التي يأتي بها المصلي والتي جاءت في الصلاة الإسلامية على نحو من الكمال عجيب من التكبير والركوع والسجود والجلوس حتى تشترك الجوارح كلها في هذه العبادة وتصدر عنها على كل الصور والأوضاع الممكنة في تعظيم الله تبارك وتعالى ، وتقديس عظمته وجلاله ، وبتكرار هذه الأعمال الرمزية تثبت في النفس هذه المعاني الوجدانية ، فلابد من ربط الأعمال بالأحاسيس والوجدانات ، ومن قال غير ذلك فإنما يغالط نفسه ويريد أن يفر من أعباء التكاليف وما هي بالحقيقة بأعباء وإنها لكبيرة إلاَّ على الخاشعين.

■ علاج الوسوسة

ويقول بعض آخر: إن جمع القلب في الصلاة على الله تبارك وتعالى يكاد يكون مستحيلاً فإن الخواطر والوساوس تنتاب الإنسان وتتراكم عليه إذا دخل في الصلاة

ويكون التخلص منها من أعسر الأمور وأشقها وأصعبها فهل من علاج نافع في ذلك ؟

والجواب: أن من أنفع ما يفيد في هذا الأمر الاجتهاد في الاستحضار أولاً وجمع القلب عند استقبال القبلة وقبل التكبيرة ، ثم التكبير مع استحضار معناه ، ثم متابعة التلاوة مع استحضار مقاصد الآيات الكلية ، ثم استصحاب معرفة الحكمة في كل قول أو عمل مع الإتيان به ، ومن واظب على ذلك بشيء من الإجهاد أولاً سهل عليه أخيراً ، ووجد لذلك لذة وحلاوة وفائدة محققة إن شاء الله ، وأصبح بتوفيق الله من المقيمين للصلاة.

■ **الإنفاق في سبيل الله**

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ الرزق: العطاء. ورزقناهم: أعطيناهم. وهو من رزقه رزقا بالفتح وهو المصدر وبالكسر الاسم وجمعه أرزاق ، والرازقية: ثياب كتان بيض. والرزق بلغة أزد شنوءة: الشكر. ومنه قوله عز وجل: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي: شكركم، ويقول رزقني: أي شكرني.

والرزق عند الجمهور: ما صح الانتفاع به حلالاً كان أو حراماً ، وذهب بعضهم إلى أن الحرام لا يسمى رزقا ، وأن الرزق مشروط بما يملك. وهو خلاف لا ثمرة له في المقصود من الآيات.

والإنفاق: إخراج المال من اليد ، ومنه نفق البيع: أي خرج من يد البائع إلى المشتري ، ونفق الزاد: فني وفرغ.

واختلفوا في المراد بالإنفاق هنا ، فقيل: الزكاة المفروضة ، وروى هذا عن ابن عباس لقرنها بالصلاة.

وقيل: نفقة الرجل على أهله ، وروى ذلك عن ابن مسعود لأن ذلك أفضل النفقة ، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على

أهلك ، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك». وروى عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله عز وجل ، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله» . قال أبو قلابة: ويدأ بالعيال ثم قال أبو قلابة: واي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفّهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم.

وقيل: المراد صدقة التطوع ، وروى عن الضحاك. نظراً إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة. قال الضحاك: كانت النفقة قرباناً يتقربون بها إلى الله عز وجل على قدر جهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات في براءة. وقيل: هو عام ، وهو الصحيح. (ملخصا من القرطبي).

وأقول: إن الأمر أعمق من التحديد ، والمراد به أولاً ـ والله أعلم ـ بيان أثر التقوى والإيمان الصحيح في النفوس الطيعة المستعدة للخير من زهادة في أعراض هذه الحياة الدنيا ، ومحبة لإشاعة الخير في المجتمع ، ومبادرة إلى الإيثار، والبذل في سبيل إسعاد البشر أو تخفيف آلامهم ، وذلك غير قاصر على وقت أو قَدْر، فالذي تتأثر نفسه بهذه المشاعر ينفق مما رزقه الله على نفسه وعياله وعلى الناس تطوعاً وفريضة بالليل والنهار وفي كل فرصة تتاح له.

- **سياسة القرآن في الإنفاق**

وتدور سياسة القرآن الكريم في الإنفاق على هذه القواعد:

١ ـ الترغيب في الإنفاق في سبيل الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ البقرة: ٢٦١.

٢ ـ الترهيب والتخويف من البخل وكنز المال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ التوبة.

٣ . التحذير من الإسراف والتنبيه إلى التوسط: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ الإسراء. ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الإسراء. ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ الفرقان.

٤ . إيثار الأقرب فالأقرب والأحوج فالأحوج: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ البقرة: ٢١٥. ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ المعارج.

٥ . اللين في الرد عند الاعتذار: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الإسراء.

٦ . التنزه عن المنّ والأذى عند العطاء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ البقرة: ٢٦٤.

٧ . ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى وطيب النفس بالنفقة: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ البقرة. ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ التوبة.

٨ . افتراض الزكاة على القادرين لتنفق في وجوه من ضروريات الإصلاح الاجتماعي: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ التوبة.

٩ . الإشادة بفضل الإيثار والتطهر من الشح: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ الحشر. ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) ﴾ الإنسان.

١٠ . تفضيل السر على العلانية إلا لحكمة: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾ البقرة .

ولا شك أن لهذه السياسة أثرها البالغ في صلاح المجتمع الإنساني وتحقيق معنى التكافل والعدالة واستقامة الأوضاع فيه ، ولا شك أن من لاحظها وأنفق مما رزقه الله في حدود قواعدها مع إقامة الصلاة والإيمان بالغيب فهو من خيار المتقين المهتدين بهداية القرآن الكريم.

■ أفضل نظام اقتصادي

ولا شك أن القرآن بسياسته هذه في الإنفاق قد أقام الاقتصاد الاجتماعي على المزج بين أصلين أساسيين أولهما: الاعتراف بمواهب الفرد وحقه في ثمرات كسبه وعدم الحد من جهوده في هذه السبيل ما دام يكتسب من حلال طيب لا إثم فيه ولا عدوان ، وهذا هو الأساس الذي قام عليه النظام الذي يسمونه في هذا العصر (بالرأسمالية) وهو وحده لا يؤدي إلى صلاح المجتمع أو استقرار الأمور بين الناس على وفاق وصفاء فكان لابد من المزج بينه وبين الأصل الثاني وهو: تقرير حق المجتمع في كسب الفرد ووجوب التكافل بين أبناء الأمة الواحدة وهو الأساس الذي قام عليه النظام الذي يسمونه في هذا العصر (بالشيوعية) وهو وحده لا يؤدى كذلك إلى صلاح المجتمع أو استقرار الأمور فيه بين الناس على وفاق وصفاء فكان لابد من المزج بينه وبين الأصل الأول.

فجاء نظام القرآن بهذا المزج بين أفضل ما في النظامين وقدمه للناس سائغاً في صورة (اشتراكية معقولة) عمادها تقديس الأخوة ، وروحانية العاطفة ، وحب الخير، والإيمان بالجزاء في الدنيا والآخرة ، وليس ذلك فحسب ـ فإن من النفوس من لا تهزه هذه النواحي وحدها ـ بل لاحظ أيضا وجوب تدخل الدولة وحماية هذا السمو بالتشريع بل بالقتال ـ إذا احتاج الأمر عند اللزوم ـ ومن هنا قال الخليفة الأول ﵁: والله لو منعوني عَناقا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

■ **تقريب**

كما لاحظ الإسلام بأوضاعه الاقتصادية الدقيقة في الكسب والإنفاق التقريب بين الطبقات بحيث ضاقت الشُّقَّة بين الثروة والفقر إلى أقصى حد.

فمن حيث الأغنياء: حدد أمامهم أبواب الكسب ، وفتح لهم أبواب الإنفاق ، وفرض عليهم الزكاة وحرم الربا وحيل بينهم وبين مظاهر الترف ولم تعتبر ثروتهم في عرف المجتمع الإسلامي مظهراً من مظاهر التميز والاستعلاء ، وأنذروا بأشد الوعيد في الدنيا والآخرة إذا لم يؤدوا حق الله والناس في المال.

ومن حيث الفقراء: رفع عنهم معنى النقص الاجتماعي بسبب الفقر وفرض عليهم العمل وفتح أمامهم أبوابه وجُعِلُوا عند العجز في ضمان الأقرباء أولاً والأغنياء من الأمة ثانياً ، وبيت مال الدولة ثالثاً ، وتقرر بالتشريع حقهم المعلوم في أموال الأثرياء ، ثم أُلزمت الدولة بعد ذلك بملاحظة هذا التوازن والمبادرة إلى المحافظة عليه كلما عرضت له عوارض الاختلال ، ووضعت في يدها كل السلطات التشريعية والتنفيذية اللائقة لإصلاح الحال ، وليس بعد ذلك زيادة لمستزيد ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.(*)

(*) مجلة الشهاب ـ السنة الأولى ـ العدد ٤ في غرة ربيع آخر ١٣٦٧هـ / ١٢فبراير ١٩٤٨م.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

■ **الإيمان بالكتب**

بعد أن وصف الله المتقين بالإيمان بالغيب وأوضح أمثلته مما يطلق عليه علماء العقائد (السمعيات) وبإقامة الصلاة، وبالإنفاق مما رزقهم الله، أثبت لهم وصفاً رابعاً هو الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل من قبله على أنبياء الله - ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ووصفا خامسا وهو الإيقان بالآخرة.

والذي أُنزل على محمد ﷺ هو القرآن الكريم، ومن أسمائه الفرقان والذكر والنور والشفاء، والذي أُنزل على الذين من قبله كتب كثيرة وصحف متعددة، ذكر القرآن منها: صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، والمعروف في العالم اليوم من الكتب السماوية القرآن وهذه الثلاثة الأخيرة التوراة والإنجيل والزبور بأيدي أهل الكتاب من اليهود والنصارى ويجمعها عندهم (الكتاب المقدس) الذي يتألف من العهدين القديم والجديد.

• ذكر القرآن الكريم صُحف إبراهيم في آية واحدة من سورة الأعلى مقرونة بصحف موسى في قوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾ ﴾.

• وذكر زبور داود في آية من سورة النساء: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾.

• وذكر التوراة وحدها مثنياً عليها بالصدق والخير والهداية والنور في كثير من الآيات منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا

عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) ﴾ المائدة.

• كما ورد ذكر الألواح التي تلقاها موسى من ربه في سورة الأعراف موصوفة بأحسن الأوصاف: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾.

وهل الألواح من التوراة أو هي كتاب غيرها أوحى الله به إلى موسى عليه السلام أيضا ؟

قولان: والأرجح أنها منها ، إذ إن اسم التوراة يطلق على ما أُنزل على موسى عليه السلام من صحف وكتاب ، وإن ورد في بعض الآثار أن الله أنزل على موسى صحفا غير التوراة.

• وذُكر الإنجيل في القرآن وحده أحيانا ومقرونا بالتوراة على أنه مصدق لها أحيانا أخرى ، ومن الأول قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) ﴾ المائدة ، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) ﴾ المائدة.

• كما ذكرت الكتب الثلاثة مقترنة في آية واحدة في مواضع عدة على أنه يصدق بعضها بعضا في الهداية منها فاتحة سورة آل عمران: ﴿ الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) ﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ التوبة: ١١ .

وقد افترض الله على النبي محمد ﷺ وعلى أمته المسلمة الإيمان بكل هذه الكتب السابقة والأنبياء السابقين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - كما قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ البقرة. وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ البقرة: ٢٨٥. وقال في آية ثالثة: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾ الشورى. وفي آية رابعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)﴾ النساء. كما عاب على كثير من أهل الكتاب أنهم يؤمنون ببعض هذه الكتب ويكفرون بالبعض الآخر: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ البقرة: ٩١. وفي سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)﴾.

وجاء في بعض الآثار ذكر لعدد الكتب المنزلة السابقة وبعض ما أنزل منها على الأنبياء السابقين غير هذه الأربعة، فقد روى القرطبي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله كم كتابا أنزل الله؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على: شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان».

وقال القرطبي: أخرجه الحسين الآجري وأبو حاتم البستي ، وقد أورده السفاريني في عقيدته وفي شرحها عن الكلام على الإيمان بالرسل مطولاً عن صحيح ابن حبان ثم قال: وقد تكلم عليه الولي العراقي ، ورد على ابن حبان جماعة من الحفاظ لإدخاله هذا الحديث في الصحيح. ونُقل عن ابن تيمية عن الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يقول: يجب الإيمان بالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والإقرار بهم في الجملة مع الكف عن عددهم. وكذلك ذكر محمد بن نصر المروزي وغيره من أئمة السلف قال: وهذا يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم.

وبما أن القرآن الكريم والسنة الثابتة لم يتعرضا لذكر الكتب بالتفصيل ، كما لم يتعرضا لما في أيدي بعض الأمم والطوائف من كتب: كالبراهمة والبوذية والكونفوشيوسية والزرادشتية وغيرها ، فمن الواجب أن نقف عند ما ذكر الله ورسوله وأن نؤمن بما افترض علينا أن نؤمن به.

∴

ومن تمام الفائدة أن نتناول في بحث موجز (شخصية) كل كتاب من هذه الكتب الأربعة وماذا يراد به في الماضي والحاضر.

■ **القرآن الكريم**

الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ وهو: (المجموع في المصاحف ، المحفوظ في الصدور، المقروء بالألسنة ، المعروف بين الناس).

نزل مفرَّقاً بحسب الحوادث في نحو اثنتين وعشرين سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً على أرجح الأقوال ، وكان تنجيمه مثار الاعتراض من المشركين وقد ذكر القرآن ذلك ورد عليه فقال في سورة الإسراء: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ

عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) ﴾ وقال في سورة الفرقان: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾.

وكان أول نزوله بمكة في غار حراء واستمر ينزل بمكة من رمضان سنة ٤١ إلى ربيع الأول سنة ٥٤ من ميلاده ﷺ ونسبة ما نزل منه في هذه الفترة يساوي ١٩/٣٠ من مجموعه ويسمى هذا القسم المكي لذلك ، ونزل الباقي بالمدينة من ربيع الأول سنة ٥٤ إلى ذي الحجة سنة ٦٣ من ميلاده ﷺ وهي السنة العاشرة من الهجرة وما نزل من القرآن في هذه الفترة يسمى المدني لذلك.

وأول آياته نزولا على أرجح الأقوال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ العلق ، وقد نزلت في رمضان بغار حراء وسميت ليلة النزول ليلة القدر: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾ ووصفها القرآن بالبركة والرحمة في سورة الدخان: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) ﴾ ولا خلاف في أنها كانت في رمضان لقول الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ البقرة: ١٨٥، ولأن رمضان هو الشهر الذي اعتاد الرسول ﷺ قبل البعثة أن يعتكف فيه بالغار ويتحنث ويتعبد ، روى ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبيد ابن عمير بن قتادة الليثي قال: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء في كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية ؛ ثم قال: حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته من السَنَة التي بعثه الله تعالى فيها وذلك الشهر هو رمضان ، خرج رسول الله ﷺ إلي حراء كما كان يخرج لجواره.. الخ ، فهو ينص على أن هذا الشهر هو رمضان.

وأما تحديد الليلة ففيه خلاف كثير كخلافهم في ليلة القدر، ويرجح ابن إسحق أنها كانت ليلة السابع عشر من الشهر مستأنسا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ الأنفال: ٤١ ، والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم التقاء المسلمين والمشركين ببدر، وقد كان يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وحكى القسطلاني في شرحه على البخاري خلاف العلماء في تحديد هذه الليلة على أقوال كثيرة ومنها القول الذي رجحه ابن اسحق ، وقال إنه رواه ابن أبي شيبة والطبراني من حديث زيد بن أرقم.

وآخر آياته نزولا في أرجح الأقوال قول الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣. حكى الطبري أن ذلك يوم عرفة عام حج النبي ﷺ حجة الوداع ، ولم ينزل على النبي ﷺ بعد هذه الآية شيء من الفرائض ولا تحليل شيء ولا تحريمه وأن النبي ﷺ لم يعش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة ، وروى ذلك عن ابن عباس والسدي وابن جريج.

وروى الشيخان عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنكم لتقرؤون آية لو أنزلت فينا لاتخذناها عيداً ، فقال عمر: إني لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت: أنزلت يوم عرفه ، وأنا والله بعرفه في يوم جمعة. يعني ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾. وروى النيسابوري في تفسيره عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية ومعه يهودي فقال اليهودي: لو نزلت علينا في يوم لاتخذناه عيداً ، فقال ابن عباس: إنها نزلت في عيدين اتفقا في يوم واحد في يوم جمعة وافق يوم عرفة.

ومجموع القرآن ١١٤ سورة ، أولها الفاتحة وآخرها الناس ، وعدد آياته في قول المكيين ٦٢١٩ وفي قول الكوفيين ٦٢٣٦ وفي قول البصريين ٦٢٠٤ وفي قول أهل الشام ٦٢٢٦ أو ٦٢٢٥ وسبب الخلاف في الآيات الخلاف في بعض مواضع الوقف ، وعدد كلمات القرآن في قول عطاء بن يسار ٧٧٤٣٩ كلمة ، وعدد حروفه فيما رواه سلام أبومحمد الحماني ٣٤٠٧٤٠ حرفا.

روى الحماني أن الحجاج بن يوسف جمع القُرَّاء والحُفَّاظ والكُتَّاب فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو ؟

قال: وكنت فيهم ، فَحَسَبْنَا فأجمعنا على أن القرآن ٣٤٠٧٤٠ حرفاً.

قال: فأخبروني إلى أي حرف ينتهي نصف القرآن ، فإذا هو في الكهف ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ في الفاء.

قال: فأخبروني بأثلاثه ؟

فإذا الثلث الأول رأس مائة من براءة ، والثلث الثاني رأس مائة وواحدة من ﴿ طسٓمٓ ﴾ الشعراء ، والثلث الثالث ما بقي من القرآن.

قال: فأخبروني بأسباعه على الحروف ؟

فإذا أول سبع في النساء: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ في الدال ، والسبع الثاني في الأعراف: ﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ ﴾ في التاء ، والسبع الثالث في الرعد: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ في الألف من آخر أكلها ، والسبع الرابع في الحج: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ في الألف ، والسبع الخامس في الأحزاب: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ في الهاء ، والسبع السادس في الفتح: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ في الواو، والسبع السابع ما بقي من القرآن. قال سلام أبو محمد عملناه في أربعة أشهر.

وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربعاً ، فأول ربعه خاتمة الأنعام ، والربع الثاني في الكهف ، والربع الثالث خاتمة الزمر، والربع الرابع ما بقى من القرآن. قال القرطبي بعد أن نقل هذه العبارات وفي هذه الجملة خلاف مذكور في كتاب البيان لأبي عمرو الداني من أراد الوقوف عليه وجده هناك.

وإنما أطلنا في نقل هذه الأرقام والأقوال لندل على مبلغ عناية المسلمين بالقرآن الكريم، والتدقيق في كل ما يتصل به بما أنه أصل دينهم وأساس حياتهم الدنيوية والأخروية.(*)

(*) مجلة الشهاب ـ السنة الأولى ـ العدد ٥ في غرة جمادى أول ١٣٦٧هـ/ ١٢مارس ١٩٤٨م.

من وظائف القائد

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾

تسير البشرية قُدُماً نحو الكمال الذي كتبه الله لها يوم شاء أن يستخلف الإنسان في الكون وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً. والبشرية في محاولتها هذه أحياناً تستوحي الشعر والخيال وتستلهم منه صوراً رائعة جميلة وإن كانت بين الخطأ والصواب وأحياناً تستوحي الفكر والعقل فيرشدها إلى تجارب في تكوين الأمم، وتربية الشعوب كثيراً ما تكون طويلة المدى، وكثيراً ما تنزع بها المماكسات العاطفية ونحوها إلى جهة الخطأ، فتصبح عقيمة النتائج فاسدة الآثار.

لهذا اقتضت حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ ورحمته بالناس وهو ربهم البر الرحيم أن يشد أزر العقل والقلب بنواميس. ونظم إلهية تقرب على الإنسانية المدى وترشد البشرية إلى مدارج الكمال الذي كتب لها.

وجاء الرسل الكرام بهذه النواميس وتلك النظم فكان كل منهم الزعيم الرباني لأمته الذي يصلها بأسباب السماء ويصف لها نظم الحياة في الأرض، تسمع عن زعماء الشعر وقادة العواطف، وتسمع عن أساطين العلم والأدمغة الكبيرة، وتسمع عن زعماء الأمم في السياسة والاجتماع والثورات الفكرية أو العملية، وتسمع عن قادة الحروب وبناة الدول، فتصف أولئك جميعاً بالزعامة وترى فيهم رؤوساً تنهض بالإنسانية نحو الكمال.

فاعلم أن النبي ﷺ في أمته زعيم رباني جمع الله له مظاهر الزعامة جميعاً ، فهو يخاطب القلوب والعقول ، ويختط سبل الإصلاح الاجتماعي والسياسي ، ويحدث في أمته وبها ثورة فكرية عملية تدفع الإنسانية إلى الأمام عدة مراحل.

والفرق بين الزعامتين: الزعامة المستمدة من قوى البشر، والزعامة المستمدة من إمداد الله ، أن الثانية صواب كلها لا خطأ فيها وأنها أدوم أثراً وأبقى على الزمن وأنها أعم وأشمل في نواحي الحياة كلها.

والفرق بين الزعماء الربانيين وهم الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في القديم ، وبين الزعيم الأخير سيدنا محمد ﷺ أن أحد أولئك ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ إنما كان يأتي للأمة الواحدة أو الأمم المتجاورة ، وهو ﷺ إنما بعث للناس كافة بشيراً ونذيراً . وأن الشرائع السابقة كانت عرضة للتبدل أو التغير، أما الشريعة الختامية فقد كفلت بالحراسة الإلهية ، وبقيت في كنف قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجر.

إذا تقرر هذا علمنا أية نعمة على البشر ينعمها الله تبارك وتعالى بالأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وعلمنا الارتباط بين الآية الكريمة: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ ﴾ وبين ما قبلها من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

∴

أما وظائف الرسول ﷺ فقد أجملتها الآية الكريمة في هذه العناصر المباركة:

- ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ يصلكم بالحق ويبلغكم دستور السماء ، ويتلو عليكم نظام الله الذي إن تمسكتم به سعدتم ، وإن هديتم بهديه رشدتم ، فوظيفة الرسول ﷺ الأولى تبليغ دستور الله لعباد الله.

• ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ يطهر أخلاقكم ويصفي نفوسكم ويطبعها على الخير ويغسلها من أدران الرذائل حتى تستعد لفقه هذا الدستور وتنشط للعمل به وتحرص على حمايته. فإذا كانت الوظيفة الأولى إيصال الدستور من السماء إلى الأرض ، فإن الوظيفة الثانية إمداد النفوس وتقوية الأخلاق وتدعيم القلوب لتحفظ هذا الدستور وتحرسه.

• ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ فإذا تطهرت النفس وصفا القلب واستعدت الفطرة جاء دَور العلم وتلاه دَور الحكمة ، والعلم تلقي المعلومات ودراستها ، والحكمة إلقاء المعلومات وفيضانها وانتزاعها من النفس والروح ، فأنت في مركز العَالم منفعل وفي مركز الحكيم فاعل وشتان ما بينهما وأولاهما من وسائل الثانية: فإذا فقه الإنسان المعلومات الحاضرة وقويت ملكته العلمية ، استدل بهذا الذوق العلمي على الكشف والتحقيق ، فعلم ما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيماً.

∴

أرأيت التدرج في هذا النسق البديع ؟ يوضع النظام من السماء فتصقل النفوس لتلقيه فتفقهه وتتعلمه فتتذوقه وتفيض به فتكشف المساتير وتبني المستقبل على أساسه ، إن هذا لهو الفضل العظيم.

أورأيتَ بعد ذلك كيف يجدد الزعيم الرباني أمته تجديداً قوياً ثابتاً ؟ وكيف يسير هذا التجديد في خطوات متناسقة مأمونة العثار ؟ إذا عرفت هذا فإن القائد لا يزال وسيظل قائماً والخطوات مرسومة وما بقى إلا وظيفة الأمة وذلك ما سنتحدث عنه إن شاء الله(*).

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ٩ في ١٩ ربيع أول ١٣٥٥هـ / ٩ يونيه ١٩٣٦م.

من وظائف الأمة الناهضة

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) ﴾

قد علمت في الكلمة الأولى الإشارة في الآية الكريمة إلى وظيفة القائد وهنا ترى الإشارة إلى واجب الأمة.

تحتاج الأمة المجاهدة إلى قوانين لا بد منها لتنجح في مهمتها وتنتصر في جهادها. تحتاج إلى الإيمان القوي المتين المرتكز على قواعد ثابتة من روحها وفطرتها المستند إلى نبع فياض من قلبها ووجدانها. وتحتاج إلى قوة مادية يتشكل بها هذا الإيمان فيعرب للناس عن وجوده ويبرهن للخصوم على قوته وثباته.

ومن الناس من ينصرف إلى القوة الروحية في الأمة ويراها كل شيء، ومن الناس من ينصرف إلى المادة وحدها ويرى أنه لا حاجة إلى ما سواها. وكلا النظرتين يرى النهضة من جانب واحد، والمصلح إنما ينظر إليها من كل ناحية: لا بد من الجانب الروحي الذي يستند إلى الإيمان والخلق وهو أول وأولى بالعناية، وهو الدعامة التي تستند عليها القوة المادية. فإذا قويت روح الأمة وأخلاقها، تبع ذلك حتماً دوام التفكير في وسائل القوة المادية وتلا ذلك التفكير القوة نفسها، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في نظامه الحكيم الذي وضع لحياة الأمم ونهوضها، فها أنت تسمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ الرعد: ١١، إلى جانب

قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ الأنفال: ٦٠ .

وأساس القوة الروحية كما علمت الإيمان بالمثل الأعلى والتفاني في سبيل الوصول إليه ، وكلما سما هذا المثل سمت نهضة الأمة ، وتوفرت لها وسائل القوة ، وأي مثل أسمى من (سبيل الله) الذي تفنى أمامه الماديات والأهواء والمطامع والمنافع الشخصية ولا يجد النفعي ولا الوصولي ولا الدسّاس ولا المغرض إليه سبيلاً ، لهذا كان المثل الذي وضعه القرآن الكريم لأمته وجعله أساس نهضتها الإيمان بالله أولاً ، ومن هذا الإيمان:

تستمد الأمة سيادتها في قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ آل عمران: ١١٠ .

وتستمد عزتها في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المنافقون: ٨.

وتستمد التأييد والهداية في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ البقرة: ٢٥٧.

وتستمد القوة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ المدثر: ٣١.

وتستمد في النهاية النصر في قوله تعالى: ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ الحج ، وهذا معنى خاص تتفرد به النهضة المستندة إلى جانب الله والإيمان به وسلوك سبيله لا يكون في غيرها من النهضات أبداً وتأمل قول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ النساء: ١٠٤.

وعلى ضوء هذا البيان نتفهم الآية الكريمة ونعرف منها وظائف الأمة وواجباتها في النهضة:

- ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ *فالواجب الأول ان تستذكر الأمة دائماً مثلها الأعلى وتجعله القائد في نهضتها والهادي في حيرتها ، فيكون جزاء ذلك تأييد الله وتسديد الخطط ونجاح الغايات.*

• ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ ***والواجب الثاني ان تتعرف الأمة خطواتها ومدى نجاحها. وإذا كانت حقيقة الشكر استخدام النعمة فيما خُلقت له ، فعلى الأمة ان تجعل النصر سبيلاً إلى نصر آخر، ولا تقف عند حد النصر الأول ، فإن مهمة المسلم ان يسير بالدنيا إلى منتهى الكمال الممكن لها ، لا يلهيه نصر عن نصر ولا يشغله واجب عن واجب*** ، وبذلك تنجو الأمة من دور الاستغلال والانتفاع الذي يلي غالباً دور النصر والنعمة ، وما تزال الأمة بخير ما دامت مجاهدة ، فإذا انقلبت مستغلة فتلك أولي بوادر الانهزام.

• ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ ***والواجب الثالث من واجبات الأمة ان تحتمل التضحيات وتصبر على المشاق في كفاحها ونضالها وأن تستروح روح النصر بالصلاة لما فيها من الصلة بالله ـ تبارك وتعالى ـ واستمداد فيضه واستعادة ما فقدته الروح من مضائها وقوتها بهذا النضال.***

فالصلاة امتلاء الروح بالقوة المعنوية ، والصبر هو المحافظة على هذه القوة واستخدامها بأكبر قدر مستطاع ، حتى إذا أضناها الجهد وأمضَّها الجلاد تجددت مرة أخرى بالصلاة ، وهذا تلازم غريب بينهما يدركه من صفت نفسه وقويت روحه.

وفي الصبر وحقيقته وآثاره ومعناه كلام واسع لعلنا نعرض له في كلمة أخرى إن شاء اللّٰه ، فإذا استعانت الأمة في جهادها بالصبر والصلاة كان اللّٰه معها وأدركها نصره وتأييده وظلت في كنفه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

• ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ ***وهنا نرى الواجب الرابع من واجبات الأمة وهو واجب هام إن ادته الأمة لم تسقط راية الجهاد من يدها أبداً ، ولم يتطرق إليها الضعف يوماً من الأيام. ذلك الواجب أن تعتبر الأمة التضحية والفداء مغنماً ، لا مغرماً ، ونصراً لا هزيمة ، وتجارة رابحة لن تبور، وأن تعتقد أن الموت في ميدان الشرف هو حياة الخلود ، وأن الفناء في سبيل الواجب هو عين***

البقاء. وهذا المعنى إن تشبعت به الأمة فهي لا شك منصورة مهما كان في سبيلها من عقبات وانظر إلى الكتيبة الأولى كيف استولت عليها هذه العقيدة فكانت سر نجاحها.

أو لست تَشِيمُ بوارق النصر من قول عمير بن الحمام في بدر:

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد

أو من رجز الأنصار بين الصفوف:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما حيينا أبداً

الا إن أعذب الأناشيد في أذن المجاهد المؤمن وأحلاها على قلبه ذلك الهتاف العالي المجيد: ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ البقرة: ١٥٤ .

ولقد جمعت هذه الآية الكريمة في نسق واحد أركان النهضة ، وهي المثل الأعلى في قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾.

والقوة المعنوية في قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾.

والقوة المادية في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾.

واعلم أنهما سبيلان لا ثالث لهما أولهما ما علمت وما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ وهو سبيل البقاء والمجد وثانيهما ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ الحشر: ١٩، وهو سبيل الفناء والتدهور فأي سبيل من السبيلين تختار أمتنا ؟ (*).

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ١٠ في ٢٦ ربيع أول ١٣٥٥هـ / ١٦ يونيه ١٩٣٦م.

من وسائل إعداد الأمة

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

يقول المربُّون إن أعظم مظاهر القوة في الإنسان أن يتغلب على ما يحيط به وأن يُخضع الصعاب لإرادته ، وإذا وصلت الأمة إلى هذا الحد فلم تتأثر بالحوادث ولم تبال بالعقبات وكان عندها من المناعة الطبيعية ما يحول بينها وبين تسرب الوهن إليها ، كانت خليقة بأن ترث الأرض وتسود الدنيا وتُحسن الخلافة في الكون.

والآية الكريمة تشير إلى (التدريبات) الربانية التي تُنشئ في الأمة هذه المناعة وتطبعها بطابع القوة الحقيقية وتجعلها أسمى من ظروفها وأقوى مما يحيط بها ، ويجمع هذه التمرينات الابتلاء أو الاختبار الذي يبتلي الله به الناس لتصفو به نفوسهم وتتطهر من الأدران أرواحهم ويعتادوا مقاومة الصعاب وتحمل الصدمات ، فإنْ صَبَرَ العبد على اختبار الله إياه وشغلته الغاية عن ألم الوسيلة ، كانت العاقبة خيراً وأبدله الله بهذا الصبر قوة في الدنيا وثواباً في الآخرة وكان مثله كمثل من يصبر على مرارة الدواء أملاً في الشفاء ، وإن جزع وتألم أفسد على نفسه العلاج وكان الاختبار وبالاً عليه.

وأساس الصبر على الابتلاء الإيمان بالله والاشتغال بمراقبة عظمته والتسليم لحكمة تصرفه ولهذا ورد في الأثر: (الصبر شطر الإيمان) وفي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ العنكبوت ، ومن ذلك ترى

أن الاختبار كما يكون تدريباً على المقاومة يكون دليلاً على الإيمان والتسليم ، فإذا صبر العبد وسلَّم كان ذلك دليل إيمانه فيرفع الله درجته ويعلي منزلته وكان الابتلاء وسيلة إلى رفع الدرجات وإعلاء الرتب ونوال الفضل ، وربما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ⑩ ﴾ الزمر.

والتمرينات التي ذكرتها الآية الكريمة أنواع منها:

• الخَوف وإنما بدأ القرآن به لأنه غريزة مستقرة في النفس لاصقة بالفؤاد تُولد مع المرء منذ ولد وتتحرك لأدنى مؤثر وتتولد عنها الأوهام والخرافات ، فإذا استطاع الإنسان أن يكبح جماحها وألا يتأثر بمثيراتها خمدت وسكنت وذهب من نفسه ما تولد عنها من الجبن والوهم والخرافة وصار شجاعاً قوى النفس بعد أن كان رعديداً خائر العزيمة ، وبذلك يحسن استعداده النفسي وتكون الصدمات التي تلي هذه الصدمة أقل منها أثراً وأضعف خطراً.

• يلي ذلك الجُوع وإنما ثنى به القرآن لأنه أَلَم الجسم فإذا تعود الإنسان مقاومة دواعيه والصبر على حرارته فقد قوى جسمه وصلب عوده وانضمت قوة جسمه بمقاومة الجوع إلى قوة روحه بمقاومة الخوف فكان إنساناً كاملاً جسماً وروحاً.

• يأتي بعد هذين التدريب الثالث في قوله تعالى: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ وهو الصبر على مفارقة المألوفات من مظاهر البيئة القريبة إلى الشخص ، الحبيبة إلى النفس ، وللألفة على القلب سلطان ولها في النفس منزلة ، ورحم الله أبا الطيب إذ يقول:

خلقت ألوفاً لو رحلت إلى الصبا   لفارقت شيبي موجع القلب باكياً

هذه المألوفات التي تعُوق الإنسان عن العظائم وتحول بينه وبين الجد في المطالب ، يريد القرآن أن يعوِّد الأمة الصبر على مفارقتها وعدم الركون إليها حتى يتحرر الإنسان حرية كاملة وحتى لا يقف شيء من دون وصوله إلى الغاية.

فإذا دَرَّبت نفسه الصبر، وقويت روحه بمقاومة الخوف ، وقوى جسمه بمقاومة الجوع ، وتحرر من أغلال البيئة وقيود المألوفات ، تحقق له قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ

الصَّابِرِين ﴾ يبشرهم بحسن الأجر وجزيل الثواب في الدنيا بالمناعة التي تخفف وقع المصائب، وفي الآخرة بالنعيم المقيم.

ولما كان أعظم شيء يساعد على الصبر ويتقوى به الإنسان على مرارة هذه التدريبات اللجوء إلى الله تبارك وتعالى وتذكر الغاية السابقة وتمثل المثل الأعلى: (وقد يهون على المستتجع العمل) لهذا كان أحسن شعار للمبتلى عند الابتلاء أن يضع مراقبة الله نصب عينيه وأن يهتف من أعماق قلبه مسترجعاً وأن يحقق معنى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ *وفي هذا التركيب العجيب من لطائف اللطائف وعوارف المعارف ما يدقّ ويرقّ وما هو بهذا النظام اليق واخلق. وحسب الإنسان ان يذكر في محنته ان لله بداه ولله نهايته ليكون لله ما بينهما:* ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾.

أما البشرى فقد أشارت إلى مضمونها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ سمعها عمر رضي الله عنه فقال: نعم العدلان ونعمت العلاوة.

والصلاة من الله على عبد: الثناء والتشريف والتكريم والرحمة والعفو وإغداق النعم ظاهرة وباطنة.

فالأولى إشارة إلى اللطائف الروحية ولهذا عبر عنها بلفظ الصلاة.

والثانية إشارة إلى اللطائف الحسية ولهذا عبَّر عنها بلفظ الرحمة ، ومن جمع الله له هذه الصفات في الدنيا وهذه المنح في الآخرة فقد هدي إلى صراط مستقيم ، ولنا في الصبر وثوابه والدوافع إليه كلمات أخرى إن شاء الله.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ١٣ في ١٨ ربيع الثاني ١٣٥٥هـ / ٧ يوليو ١٩٣٦م.

في سبيل الكرامة (١)

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾

■ مشروعية القتال في الإسلام

في الآية الكريمة مشروعية القتال في الإسلام وأسباب هذا القتال والضمانات التي وضعها الشارع ليكون هذا القتال خيراً لا شر معه.

فأما مشروعية القتال في الإسلام ، فإن الإسلام يفرض المسلم جندياً لأول إيمانه بصحة تعاليم الدين واعتناقه إياها ، وما ذُكر الإيمان في موطن إلا وذُكر الجهاد معه في أغلب الأحايين ، وإن القرآن الذي يقول: كتب عليكم الصيام هو القرآن الذي يقول: كتب عليكم القتال ، وفي كل تشريعات الإسلام تحضير لطبع النفس المسلمة بطابع الجهاد في سبيل الله ، فليس في الدنيا نظام يطبع متّبعيه على روح الجندية الصحيحة كما يطبع الإسلام نفوس أبنائه عليها ، والقول في ذلك يطول ، وإن أفضل القربات إلى الله أن يخرج الإنسان لله وشريعته عن نفسه وماله ، لا يختلف في ذلك اثنان من المسلمين ، وإذا كان ولا بد من أن نستخدم الاصطلاح الفقهي ، فالجهاد فرض كفاية لنشر الدعوة الإسلامية ، وفرض عين لرد عدوان غير المسلمين على أرض الإسلام وبلاد الإسلام.

إذن فالجهاد فريضة ، وإذن فالجهاد قُربة بل أفضل قُربة ، ولهذا كانت الشهادة في سبيل الله أقرب الطرق إلى الجنة ، وكانت الجنة تحت ظلال السيوف ، وكان للشهيد مميزاته في الدنيا والآخرة ، وليس بين الموتين فارق إلا أن الشهيد ينجو من فتنة الموت إذْ فُتِنَ ببارقة السيوف وينجو من السكرات إذ رآها رأى العين ، أما غيره فيذوق هذه السكرات وتعترضه الفتن ، ولذا كان الجهاد أولاً وأخيراً يلي الإيمان في فرائض هذا الدين ويحتل منها ذروة السنام وكفى.

أَفَلَسْتَ بعد ذلك ترى أن المسلم جندي بطبعه ، وترى الافتراض واضحاً صريحاً في قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والأمر للوجوب.

قال قوم منهم أبو جعفر الرازي: إن الفريضة في هذه الآية قتال من قاتلنا فهي فريضة دفاعية ، وأن سورة براءة زادت على هذه الآية أن نقاتل للدعوة فأتت بالفريضة الهجومية أيضاً ، واستدل لرأيه هذا بظاهر لفظ الآية: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾.

وقال غيره: كلا بل الأمر في الآية الكريمة عام يشتمل الدفاع والهجوم معاً وأن قوله تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ إغراء وتهييج وذِكْر لبعض أسباب القتال ، وأن ما جاء في براءة وغيرها مؤكِّدٌ لهذه الأسباب لا مجدد لحكم زائد.. ومهما يكن من شيء فقد اتفق الطرفان على أن القتال واجب في الدفاع وفي الهجوم متى توفرت أسبابه الشرعية.

إلى هنا نقول لمن يريدون طبع الأمم على التربية العسكرية هذا حظكم الذي تنشدون ، ولن تجدوا تشريعاً يساعدكم على تحقيق غايتكم كهذا التشريع الذي يجعلها فريضة لا فكاك منها ، فضلاً عما يمتاز به من قداسة ونور وبرهان.

■ ولماذا يقاتل المسلم ؟

أيقاتل المسلم طلباً للعسل واللبن كما قاتلت الجنود الصليبية في القرون الوسطى ؟

أم يقاتل طلباً للبترول والفحم والأسواق والخبز والمأوى كما تقاتل جنود الغرب الآن ؟

أم يقاتل تجبراً وطغياناً وخُيَلاءَ كما حارب نابليون بجنوده قيصر الروس ؟

كلا.. المسلم لا يقاتل لهذه الأغراض أبداً ، ولكن المسلم حين يقاتل يقاتل للّه ، سُئل رسول اللّه ﷺ: عن الرجل يقاتل شجاعةً ويقاتل حَمِّيةً ويقاتل رياءً ، أي ذلك في سبيل اللّه ؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه».

يقاتل المسلم لغايات نبيلة وأغراض سامية أشارت الآية إلى بعضها.. يقاتل المسلم دفاعاً عن كرامته وذياداً عن وطنه وحفظاً لدمه ، والقتل أنفى للقتل ، وموضع ذلك في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾.. ويقاتل دفعاً للفتنة ودرءاً للشر وانتصاراً للضعفاء الذين يريد الأقوياء أن يفتنوهم عن عقائدهم بما لهم من قوة وجبروت ، *ولأَنْ تبقى الفضيلة على الأرض خيرٌ من أن تعيش الأجسام على أنقاضها ، فإذا دار الأمر بين الفضيلة بثمن من الدماء والأرواح وبين الجسوم والدماء بغير فضيلة ولا حرية ولا كرامة فأجدى على العالم أن تهرق الدماء وتقتل النفوس من أن تنهار مبادئ الحق وتَنْدَكَّ معالم الفضائل* ، وموضع هذا المعنى من الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾.

ويقاتل المسلم نشراً للعدل وتعميماً لمبادئ السمو والنور، وتبليغاً لرسالة اللّه التي كلَّفه إبلاغها ، فإن رسول اللّه ﷺ بُعث إلى الأمم كافة فبلَّغ من عاصره ، والمسلمون من بعده نُوَّابه في إبلاغ دعوته ، أمناءُ عليها إلى يوم القيامة مأمورون بتبليغها حتى لا يبقى في الأرض كافر واحد ، وموضع ذلك في الآية الكريمة قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾.

فإذا قبل الناس هذه المبادئ واعتقدوها فقد انتهى الخلاف بينهم وبين المسلمين ، وقد سوى الإسلام بين الجميع وأظلهم تحت راية عَلَم خافق من العدل والإنصاف والحرية والمساواة: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللّه» ذلك إلى مغفرة من

الله ورضوان وثواب وإحسان ، وموضع هذا المعنى من الآية الكريمة: ﴿ فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ هذا وحشي قاتلُ حمزة سيد الشهداء يُسلم فإذا له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وهذه هند بنت عتبة آكلة الكبد تُسلم فيسامحها رسول الله ﷺ وينسى لها سالف عدائها ، والإسلام يَجُبُّ ما قبله.

ما أسمى الغاية التي يقاتل لها المسلم ، وما أجلَّها ، وما أحوج الإنسانية في عصرها هذا إلى سيف من سيوف الله يحمي فيها مبادئ العدالة العامة ، ويقيم ميزان الإنصاف الذي أمالته الأغراض والأهواء وقضت عليه مظاهر الرياء.

■ وإذا قاتل المسلم فكيف يقاتل ؟

أينتهك الحرمات ، ويخرق المعاهدات ، ويعبث بالقوانين ، ويوغل في الفتك والتدمير، ويستخدم كل سلاح حتى الغازات الخانقة والسامة والمشوِّهة كما يفعل ذلك متمدينو القرن العشرين ؟

كلا.. إن المسلم الجندي بطبعه الذي يقاتل لأسمى غاية لا يلجأ إلى مثل هذه الوسائل أبداً ، إنه نبيل في خصومته بقدر ما هو شريف في غايته ، وهل ترى أنبل في الخصومة من هذا القانون الذي يمليه رسول الله ﷺ على قادة جيوشه: «اخرجوا باسم الله ، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، لا تعتدوا ولا تَغُلُّوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع». (رواه احمد ومثله لأبى داود).

وفي الحديث الآخر: «إياكم والمُثْلة ولو بالكلب العقور». وفي وصية أبي بكر رضي الله عنه لجيشه: لا تَغدروا ولا تغلُّوا ولا تُمثلوا ولا تَتبعوا مُدبراً ولا تُجهزوا على جريح ولا تقتلوا طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تعقروا بعيراً إلا للأكل ، وستمرون على قوم ترهَّبوا في الصوامع فدعوهم وما فَرَّغوا أنفسهم له.

أي تعاليم هذه ؟! وأي قانون دولي جمعها هذا الجمع ولخَّصها هذا التلخيص ؟! وأيةُ أمة التزمتها كما التزمها جنود الإسلام الفضلاء حتى إذا تم للمسلم الغلب وواتاه النصر، فهو في نصره نبيل كريم كما هو في غايته وحربه ، يستعمر للتعليم والإرشاد

والتحرير والإسعاد ، ويقول حذيفة رضي الله عنه ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً فقال: «إن قوماً كانوا أهل ضَعف ومسكنة قاتَلَهُم أهل تَجَبُّر وعَدَد ، فأظهرَ اللهُ أهلَ الضَّعف عليهم فعَمَدوا إلى عَدُوِّهم فاستعمَلُوهُم وسَلَّطُوهُم فأَسْخَطُوا الله عَلَيهم إلى يوم يَلْقَوْنَه».

هذا مثل يجمع فيه رسول الله ﷺ بين إحياء الأمل وإرشاد الأمم ، أمة ضعيفة غزتها أمةٌ قوية فنصر الله الضعيفة على عدوتها فلما انتصرت ظلمت القوية التي ضعفت ، فغضب الله عليها بذلك حتى ولو أن هذه المظلومة كانت معتدية ، فانظر كيف يحيى رسول الله ﷺ آمال الضعفاء ويلزمهم العدالة إذا صاروا أقوياء.

فالمسلم حين يحارب لا يخرق قانون الفضيلة ، الفضيلة الناصعة البيضاء التي تمليها الأرواح الصافية والإنسانية الكاملة ، لا الفضيلة الصناعية التي يمليها الرياء السياسي في صحف المعاهدات حتى إذا فتشت عنها لم تجدها شيئاً. والمسلم إلى جانب هذا يحترم المقدسات ولا يمسها إلا إن أصابه منها العدوان ، واستخدمت في غير ما وضعت له وموضع ذلك كله من الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

ما أحوج العالم في ظرفه هذا الدقيق إلى كتيبة إسلامية تؤمن بهذه المبادئ الربانية السامية علماً وعملاً ، فتتخلص من قيود هذه البيئة الفاسدة ، وتدعم السلام في العالم بالقوة الفاضلة ، وتقضي على هذا الاضطراب بسيف من سيوف الله(*).

(*) جريدة الإخوان المسلمين الإسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ٥ في ٢١ صفر ١٣٥٥هـ / ١٢ مايو ١٩٣٦م.

في سبيل الكرامة (٢)

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

قال عكرمة عن ابن عباس والضحاك والسدي وقتادة ومقسم والربيع بن أنس وعطاء وغيرهم: لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة ، حبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة - وهو شهر حرام - حتى قاضاهم على الدخول من قابِل ، فدخلها في السنة التالية وأَقَصَّهُ الله منهم ، ونزلت الآية الكريمة.

وقال الإمام أحمد رحمه الله بسنده عن جابر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى ، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ . ولقد حاصر الرسول ﷺ المشركين من هوازن فأتى عليه ذو القعدة وهو محاصرهم بالمنجنيق فلم ينصرف عنهم إلا بعد مضي أيام من شهر ذي القعدة ثم اعتمر وانصرف إلى المدينة.

هذا الذي رويناه لك يؤيد ما تقدم من احترام المسلم المجاهد للمقدسات فلا يعتدي عليها حتى يبدأه أهلها بالعدوان ، وهو حين يقف هذا الموقف يلتزم فيه حدود رد العدوان فقط ولا يكون معتدياً ، هذا الروح العادل واضح جليٌّ في قول الله تعالى: ﴿ الشَّهرُ الحَرَامُ بِالشَّهرِ الحَرَامِ وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعتَدَى عَلَيكُم فَاعتَدُوا عَلَيهِ بِمِثلِ مَا اعتَدَى عَلَيكُم ﴾ وبدهي أن مقابلة العدوان بمثله ليست عدواناً ، ولكن الآية

الكريمة عبرت عنها بكلمة: ﴿ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ تأكيداً للمماثلة والمشابهة حتى في الألفاظ ، وبياناً لأن رد العدوان مطلوب حتى ولو استدعى ذلك أن نقابل عمل العدو بعمل آخر يدفعه وإن لم يكن شبيهاً له في الصورة ثم أكدت الآية الكريمة هذا الروح النبيل العادل ببيان أن المجاهد إذا التزم هذا الحد واتقي العدوان وبعد عنه كان اللّٰه معه يحوطه ويؤيده بنصره.

∴

ومن الجهاد جهادٌ بغير النفس وهو الجهاد بالمال ، وقد نَدَبَ الإسلام إليه في كثير من آياته ومن أحاديث الرسول ﷺ وحسبنا قول اللّٰه تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ الحديد: ١٠، والآيات والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصر، ومنها الآية الكريمة التي نحن بصددها ، ولهذا كان السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ من أسخى الناس بأموالهم في سبيل اللّٰه.

كانت أموال أبي بكر رضي الله عنه اربعين ألفاً ، أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً على الدعوة ، وجاء ذات مرة بكل ماله ، فقال له الرسول ﷺ: «وما أبقيت لعيالك يا أبا بكر؟» فقال: أبقيت لهم اللّٰه ورسوله. وجاء عمر بنصف ماله ، وجهَّز عثمان جيش العُسْرة واشترى بئر رومة وجعلها صدقة للمسلمين ، ودفع عبد الرحمن بن عوف نصف ماله ، ودفع معه الأراشِيُّ صاعاً من تمر هو نصف أجره ذلك اليوم ، فتقوَّل المنافقون ولمزوهما بالرياء ، فأنزل اللّٰه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ يعنى عبد الرحمن بن عوف وأمثاله: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ يعنى الأَرَاشِي وأمثاله: ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ التوبة . والآثار في ذلك كثيرة وهم ـ رضي الله عنهم ـ فوارس هذا الميدان امتثالاً لأمر اللّٰه وبذلاً في سبيله ، وإيثاراً لما عنده، فذلك أثر قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

ولقد أراد قوم بعد أن فتح الله على المسلمين ونَشَر دعوتهم أن يركنوا إلى السكينة ويدَعُوا الجهاد ويبخلوا بالنفقة ويقيموا في الأموال والزروع اكتفاء بما فتح الله عليهم ، فأنزل الله الآية الكريمة وفيها: ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ إلى الهلاك بالإخلاد إلى الراحة وترك الجهاد.

قال الحسن: ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ هو: البخل ، وقال آخرون: بل الإلقاء باليد إلى التهلكة أن يذنب الرجل فلا يتوب من ذنبه. وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾. قال: يذنب الرجل الذنب فيقول لا يغفر له فأنزلها الله. (رواه ابن مردويه) ، وقال غيرهم: بل نزلت في القوم يخرجون إلى الجهاد بغير نفقة فيجوعوا أي يكونون عالة فأوصاهم الله بالتزود للخروج.

وأياً ما كان سبب نزول هذه الآية أو محملها فليس المقصود بالإلقاء باليد إلى التهلكة الاستبسال في لقاء العدو ولا طلب الموت في سبيل الله ولا المسارعة إلى الشهادة ولا أن يلقى الرجل الجيش فلا يرهبه ، بل إن ذلك مما يرضى الله تبارك وتعالى ويدل على قوة الإيمان وثبات اليقين والفناء في الغاية وتقدير ثواب الجهاد في سبيل الله ، وهذا ما فهمه السلف ـ رضي الله عنهم ـ من الآية الكريمة وإليك المثل من ذلك:

١. عن أسلم بن عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا: صَحِبْنا رسول الله ﷺ وشَهِدْنا معه المشاهد ونُصرنا ، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحبباً ، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وقد آثرناه على الأهلين والأموال ، وقد وضعت الحرب أوزارها ، فلنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ فكانت

التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. (رواه أبو داود والترمذي والنسائي وعبد بن حميد في تفسيره وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحافظ أبو يعلى في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه) . ولفظ أبي داود فيه: فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصففنا لهم ، فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ثم خرج إلينا ، فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب: يا أيها الناس ، إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل ، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه وكثُر ناصروه قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها فأنزل الله هذه الآية.

٢. وقال أبو بكر بن عياش عن أبي اسحاق السبيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب: إن حملتُ على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة ؟ قال: لا ، قال الله لرسوله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ إنما هذه (أي: التهلكة) في النفقة ، وفي رواية: ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب ولا يتوب.

٣. وعن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ليس ذلك في القتال ، إنما هو النفقة أن تمسك يَدَكَ عن النفقة في سبيل الله.

وهكذا نرى الإسلام الصحيح يقتضي المسلم نفسه وماله وهل أعز من النفس والمال ؟ وها أنت ترى أن الآية الكريمة لا تصلح حجة للمتقاعدين المثبِّطين الذين يجبنون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى المجاهدة في سبيل الله ، فإذا اعترضهم معترض احتجوا بالآية الكريمة ولاذوا بها ، وهي عليهم لا لهم ، ثم خُتمت الآية الكريمة بقول الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فمن امتثل فقد أحسن ، ومن أحسن أحبه الله ، ومن أحبه الله سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، فاللهم أسعدنا بمحبتك ، واجعلنا فداءً لشريعتك(*).

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ٦ في ٢٨ صفر ١٣٥٥هـ / ١٩ مايو ١٩٣٦م.

من سنن الله في تربية الأمم

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾

قال قتادة والسدي: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجَهْد وشدة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الأذى. وقيل: نزلت في حرب أحد. وقال عطاء: لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة اشتد عليهم الضر، لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين وآثروا رضا الله ورسوله ، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله وأسرَّ قومٌ النفاق ، فنزلت الآية الكريمة تطييباً لقلوب المسلمين.

وأيًا ما كان سبب النزول ، فإن الآية الكريمة تقرر سنة من سنن الله في حياة الأمم. ذلك أن كل أمة بين طَوْرين لا ثالث لهما يخلف كل منهما الآخر متي توفرت دواعيه وأسبابه ، هذان الطوران هما طور القوة وطور الضعف:

فالأمة تقوى إذا حددت غايتها وعرفت مثلها الأعلى ورسمت منهاجها وصممت على الوصول إلى الغاية وتنفيذ المنهاج ومحاكاة المثل مهما كلفها ذلك من تضحيات إذا صدقت عزيمة الأمة وقويت إرادتها في ذلك ، فقد قويت قوة مطردة لا تزال تزداد حتى تتسنم غوارب المجد ، ولا يمكن لأية قوة في الأرض أن تضعف هذه القوة أو تنال من تلك الأمة وهي على هذا الحال.

ولا تزال الأمة كذلك بخير حتى تنسى الغاية وتجهل المثل وتضل المنهاج وتؤثر المنفعة والمتعة على الجهاد والتضحية وتهن العزائم وتضعف الإرادات وتنحل الأخلاق، ويكون مظهر ذلك الإغراق في الترف والقعود عن الواجب، وحينئذ تأخذ الأمة في الضعف ويدب إليها دبيب السقم الاجتماعي ولا تزال تضعف حتى تتجدد أو تبيد: وسبيل التجدد أن يتيح الله لها الطبيب الماهر فيهتدي إلى الدواء الناجع وتتبعه الأمة في تناول هذا الدواء فتموت جراثيم المرض وتعود إليها القوة.. وتلك مهمة المصلحين والقادة مصابيح الهدى وشموس النهضات بهم تنجلي كل فتنة عمياء.. وسبيل الإبادة أن تسدر الأمة في غيها وتظل هائمة على وجهها لا تصيخُ لناصح، ولا تسمع لمرشد حتى تحين فيها ساعة الفناء.

∴

هذه السنة الربانية في بناء الأمم تقررها هذه الآية الكريمة، فلابد للمصلحين المجاهدين في سبيل إحياء الأمم وإعادة قوتها ومجدها أن يصمدوا لكل خَطْب ويحتملوا آلام الجهاد حتى تتحقق غايتهم، فيكون جزاؤهم النصر، ألا إن نصر الله قريب، ولم تتخلف هذه السنة أبداً في قديم ولا حديث حتى مع أفضل الرسل وخير الأنبياء وصفوة الخليقة سيدنا محمد ﷺ وأصحابه الغر الميامين والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ ﴾ العنكبوت.

وفي الصحيح أن هرقل حين سأل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ قال: هل قاتلتموه ؟

قال: نعم.

قال: فكيف كانت الحرب بينكم ؟

قال: سجالاً، يُدال علينا ونُدال عليه.

قال: كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة.

وفي الصحيح عن خَبّاب بن الأَرَتّ رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله ﷺ ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال: «والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حَضْرَمَوْت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون».

ولقد تمت نبوءة رسول الله ﷺ فتم الأمر وظهر الدين وقويت الأمة وأدال الله للمسلمين من أعدائهم. وفي حديث عتبة بن غزوان رضي الله عنه لقد رأيتُني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا الدقل وحَسَك السَّعْدان حتى تقرحت أشداقُنا ، ولقد شققت نَمِرَةً (أي: عباءة) بيني وبين سعد ، وهأنذا أنظر فلا أرى منا إلا أميرَ قُطْرٍ أو مِصْرٍ.

إن في ذلك لعبرةً لأمم الإسلام في نهضتنا الحالية ـ لو أرادت أن تعتبر ـ ولا مجال لليأس وهذه سبيل القوة ، حددوا الغاية واعرفوا المثل وارسموا المنهاج واصبروا على الجهاد وأعدوا له عدته ، والنصر من وراء ذلك إن شاء الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾ الأعراف(*).

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ٧ في ٥ ربيع أول ١٣٥٥هـ / ٢٦ مايو ١٩٣٦م.

صفحة من الوطنية في كتاب الله (١)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾

(١)

كان موسى في بني إسرائيل هادياً مرشداً يقودهم إلى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويبلغهم أمر الله ، فكان نعم الزعيم لهم ، ونعم الباني لأمتهم: حررهم الله على يده من خصومهم وردَّ عليهم ملكهم ووطنهم وأعادهم أمة مجيدة كما كانوا من قبل.

وذهب موسى وقضى هارون فدب إليهم داء الأمم: شاخت الأمة وكبرت وتَلَهَّتْ عن الحق فضعفت ، فسلط الله عليها أعداءها يقضون على حريتها ويخرجونها من ديارها وأبنائها. تركت بنو إسرائيل التوراة وأحكام التوراة وتشريع التوراة فغزتهم العمالقة واقتحموا ديارهم واستعمروا أوطانهم واستأثروا بها دونهم ، فانظر كيف يكون جزاء الأمم إذا أهملت شأنها ، وخرجت على مقوماتها.

(٢)

أخذ العقلاء من الشعب يفكرون في شأنهم ماذا يكون موقفهم ؟ أيقرون الذل أم يرضون بالضيم ؟ أيتركون هذه البلاد نهباً مقسماً للغاصبين وطعمة سائغة للمستعمرين، ملكَهم ومجدَهم ووطنَهم وديارَهم كل هذه ينسونها ويغفلون عنها ؟ كلا إن الشعب الحي لا يرضى بالمذلة ، وإذن فلا بد من تخليص الوطن.

وبم نخلص الأوطان من أيدي الغاصبين، نتحدث إليهم ! نرجوهم ! نتملقهم ! لا لا.. إن الغاصب لا يفهم لغة الحق ولا يُذْعِن لصوت الإنصاف ، وإن حرية الأمم والشعوب لا تنال بالكلمات ، فلا بد إذن من العمل.. وما العمل ؟ لا بد من القتال.. لا بد من الجهاد في سبيل الحق المغصوب والمجد المسلوب ، وهكذا رأى زعماء بني إسرائيل أنه لا نجاة للوطن إلا بالقتال في سبيل الوطن.

وهنا لجأوا إلى نبيهم ، وهو المرجع إذا لجَّ بهم الأمر، وهو الزعيم الروحي الذي يتنزل عليه أمر السماء ، رجعوا إلى نبيهم فقصُّوا عليه القصص وطالبوه أن يختار لهم زعيماً عسكرياً يقود جمعهم ويرأس كتيبتهم. وهنا نرى صورة واضحة من وجوب تعاون قوى الأمة في سبيل دَرْءِ الخطر، وكيف يجب أن ينهض كل إنسان في الأمة بالناحية التي يحسنها حتى تتناسق النهضة ، وتؤتي أُكُلَها.

كان في وسع نَبيِّ بني إسرائيل أن يدَّعي لنفسه القيادة الحربية أيضاً ، ولكنه علم أن مهمته روحية: يشير ويرسم الخطط ويلهب الحماس ويغذي النفوس ويصلح الأرواح ، أما الميدان والقتال والكَرّ والفَرّ فهناك آخرون يجب عليهم أن يقوموا بنصيبهم فيه.

(٣)

ونبي بني إسرائيل عليه السلام وهو شمويل أو شمعون على الخلاف في اسمه أياً كان ـ فإنما يريد القرآن أن يعرض علينا الصورة من حيث هي بعيدة عن الأشخاص

والأزمان لتكون نموذجاً يطبق على العصور وينتظم جميعَ الأمم - هذا النبي الكريم يعلم نزوات النفوس ، ويعلم البعد الشاسع بين الكلام والتنفيذ ، ويعلم سعة الهُوَّة بين القول والعمل ، ويعتقد أن الحماس الوقتي شيء والإيمان الثابت القوي شيء آخر، وكثير من الناس يتحمسون في الرخاء ويهربون في العناء ، فأراد أن يستوثق منهم ويستثير عزيمتهم فقال: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وذكروا في حَمَاس وَحِدَّة ذلك السبب الذي أهاج نفوسهم وأثار حماستهم ، وهو تخليص الوطن والأبناء ، ثم يذكر الله تبارك وتعالى صدق فراسة ذلك النبي الكريم وكيف أنهم حين جد الجد وكتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ، ووصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء الفارين بأنهم ظلموا أنفسهم وهو عليم بهذا الظلم ، فلا يدعه لهم وسيؤاخذهم عليه أشد المؤاخذة. ألا فليستوثق المجاهدون وليعلموا أن الجهاد جهد وعناء ، فهل هم مستعدون ؟

(٤)

قُضِيَ الأمر ودَوَّى النفيرُ ونادى منادي الجهاد وبقي الزعيم. ***والزعيم والزعامة صخرة تتحطم أمامها الجماعات وتحيا عندها المطامع ، وتتمرد لها النفوس ، وتدب عقارب الغايات والأغراض ،*** ممن يا ترى سيكون زعيم الجماعة المجاهدة في سبيل الوطن المغصوب. أخذ الأشراف يُعدُّون أنفسهم للزعامة المنتظرة ، ولكن الزعامة في ساعة الخطر أسمى من المواريث والتقاليد وفوق العرف والعادات ، إنها المواهب وكفى. استعد الأشراف بحكم منزلتهم ومنصبهم لتلقي راية القيادة من النبي الكريم ، ولكن النبي الكريم عدل بها إلى رجل من عامة الناس ، إنه أعطى الراية طالوت وما طالوت إلاَّ سقَّاء أو دَبَّاغ من سِبْط بنيامين الذين لم يتشرف من قبل بالملك ولا بالنبوة ، وهنا وقع ما ينتظر من تقلب النفوس ، وتحرك الأهواء ، فهب الأشراف والنبلاء ينكرون على طالوت حقه المكسوب ، ويقولون في عزة وإباء: أنَّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟ يا سبحان الله حتى في ساعة الخطر لا يريد

الناس أن يتحرروا من الأوهام ! ولكن النبي الكريم ـ أجابهم في هدأة وسكون ـ: إن الله اختاره لكم لموهبته ، إنه أقواكم جسماً والجهاد في حاجة إلى القوة ، إنه أوسعكم علماً والجهاد في حاجة إلى العلم ، لهذا اصطفاه الله عليكم ولهذا آثره الله بالملك ، ولهذا أيَّدهُ اللهُ لأول أمره بأن أعاد إليكم التابوت والتوراة وما فيهما من خير تركه آل موسى وآل هارون...

أيتها الأمة المجاهدة: اختاري الرجال للقيادة ، واجعلي الأساس المواهب والرجولة ودعي ما سوى ذلك من المقاييس ، واعلمي أن أساس النهضات قوة وعلم أو عقل وجسم يمدهما إيمان ثابت ويقين راسخ وشعور فيّاض ، فهل أنتم سامعون ؟

وبذلك ينتهي الدور الأول من أدوار تكوين الأمة المجاهدة: فنرى جماعة اتَّحدت على المطالبة بحقها ، وتعاونت قوتها الروحية والعملية في سبيل الوصول إلى هذا الحق ، ووجد القائد الذي ترتكز بيده الراية ومن خلفه الجنود يرقبون ساعة الجهاد ، وسنرى بعد ذلك من أمرهم ما سيكون ؟ (*).

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ٣ في ٧ صفر ١٣٥٥هـ / ٢٨ إبريل ١٩٣٦م.

صفحة من الوطنية في كتاب الله (٢)

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ (٢٥١)﴾

ها هي الأمة المجاهدة قد سوَّت صفوفها وأعدت كتائبها ووقفت مع قائدها تنتظر الأمر وترقب النصر، ولكن هل هذا يكفي ؟ هل مجرد دعوى المدعين ترفعهم إلى صفوف المجاهدين ؟ وهل كل من زعم أنه بطل شجاع وعامل مجد يكون كذلك إذا جد الجد ؟

ذلك ما تثبت التجربة خلافه ، وذلك ما ينقضه تاريخ نهضات الأمم ، وذلك ما يعلم الله أن نفوس البشر لم تطبع عليه. ***ووجود الأدعياء في صفوف المجاهدين خطر على كتيبتهم إذ ينهزمون لأول معركة فيسري الخَوَرُ منهم إلى الشجعان المغاوير، وإذن فمن الواجب في بناء الكتيبة الأولى ان تكون سليمة اللبنات قوية الأسس ثابتة الدعائم ، وإذن فلابد أن يخرج من بين افرادها ضعاف النفوس ومجاهدو الأقوال والألسن ، وإذن لابد من الاختبار والابتلاء حتى تتمحص الكتيبة ولا يبقى في مواجهة العدو إلا الثابتون المخلصون ، وذلك ما كان.***

سار الجيش في مفازة قاحلة واجتاز صحراء مقفرة ، فأخذ العطش من الجنود كل مأخذ وأخذوا يعللون النفس بالماء يروون به الظمأ وينقعون به الغُلّة ، حتى إذا ما تراءى لهم النهر من بعيد ورأوا الماء يلمع كأنه المرآة المجلوة وأخذوا يتهيأون للرِّيّ ، وإذا بأمر القائد العام ألاّ تشربوا ولا يباح لكم من هذا الماء إلا غرفة واحدة لمن شاء ، فمن خالف فليعتزل كتيبتنا وليقعد في بيته ، وكانت تلك أول معركة بين الجنود وبين أنفسهم أولاً ، حتى إذا انتصروا على النفوس ووثقوا بالعزائم كان ذلك عربون النصر على الأعداء.

بدأت المعركة فلم يثبت فيها إلا القليل وصرع الظمأُ الأدعياء فذابت عزائمهم أمام حرارته فانخذلوا عن الكتيبة ، وبقى المجاهدون الثابتون وقليل ما هم. ***لا يضر الكتيبة قلة العدد ما دامت كثيرة الإيمان.***

وقف خالد في حروب الردة أمام جيش مسيلمة ، وفي جيش خالد أخلاط من أهل القرى والبوادي يُكثر بهم السواد وتذهب مع كثرتهم النجدة ، فلما طال به الأمد ميَّز الناس فلم يُبق إلا المؤمنين الصادقين من الأنصار والمهاجرين ، فكانت النصرة وكان التأييد ، ***ذلك ان اللّه لا ينصر بكثرة عدد ولا كمال عدة وله سبحانه وتعالى جند السماوات والأرض ولكنه ينصر بالثبات والصبر.***

بقى القلائل الثابتون من جيش طالوت وجاوزوا النهر وعزموا على مناجزة عدوهم ، وهم يعلمون أن عدوهم كثير العدد كامل العدة شديد البأس وعلى رأسه جالوت القوي الشجاع ، ونظر جيش طالوت إلى قلة عدده ، فقال بعضهم لبعض: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. كادت هذه العاطفة اليائسة تسري بين الجنود فتقتل معنويتهم وتقضي على ثباتهم.

وكيف.. وهم المنتخبون المختارون ؟!

وكيف.. وهم البقية الباقية من المجاهدين في سبيل الوطن المغصوب ؟!

وهنا علا صوت الإيمان من قلوب أهل الإيمان ، وهنا ظهرت العقيدة الصادقة تُفصح بأجلى بيان ، وهنا يظهر الفارق البعيد بين المؤمنين والمأجورين ، قال الذين يظنون ويعتقدون بنصر الله إياهم وتأييده لهم وأنه من ورائهم وأنهم لا شك ميتون ، فموت *في ساحة الشرف خير من موت على فراش الذلة* ، قال هؤلاء: ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وإذن فلا قنوط ، وإذن فلا معنى لليأس ، وإذن فَلْيَسِر الجيش المجاهد على بركة الله.

تراءت الفئتان: فهذا الغاصب المعتدي المعتز بقوته وجبروته وصولته وجنوده ، وهذا المؤمن المدافع عن دينه وعرينه يستمد النصر من الله ويلجأ إليه في كل أحواله: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ فلم يكن إلا رَجْعُ الطَّرْفِ حتى نصر الله كتيبته وأعلى كلمته وأيَّد جنده ، فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت ملك العمالقة وورثه في ملكه وأفاض الله عليه الحكمة وشرفه بالنبوة وعلمه مما يشاء.

وبعد .. فهي عبرة للشرق اليوم والتاريخ يعيد نفسه ، وإن داود الشرق لرابض بالمرصاد لجالوت الغرب لو وجد الأنصار المؤمنين.. فهلاَّ ؟ (*).

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ٤ في ١٤ صفر ١٣٥٥هـ / ٥ مايو ١٩٣٦م.

ظلمة ونور

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾

يريد العقل البشري أن يبحث ويجول ويتغلغل في أعماق الوجود ويَستكْنِهَ حقائق الأشياء ويُشرِّع ويحكم ويُهيمن ويسيطر ويُنزلَ الدنيا على حكمه والناسَ على شرْعَته ومنهاجه ، وذلك من حقه إذ أن هذه فطرته التي فطره اللّه عليها ، وإذ أنه شعاع النور الكشاف الذي تسير الإنسانية على ضوئه وتدرك الحقائق بنوره.

ولكن هذا العقل المفطور على البحث المشرق بنور اللّه رغم ما يزعم له الزاعمون من تحرر مطلق من القيود ، لا يستطيع أن يتملص منها أبداً ، فهو مقيد بالبيئة مقيد بالعاطفة مقيد بالميول والأهواء ، مقيد بالقصور الطبْعي الذي هو من صفة كل كائن قابل للرقي والنماء. فأنّى له أن يجد الحرية المطلقة أو يتخلص من أعباء القيود والظروف والحادثات.

هذا العقل هو النور المشرق لا يزال بخير ما لزم حده وسلك مسلكه إلى كماله واستمد من مصدره الأول واتصل صلة وثيقة (باللّه) واللّه نور السماوات والأرض. فإذا جمح به الغرور أو استبد به الكِبْر والعُجْب ، انطفأ نوره وذهب ضياؤه وانقطع مدده وخبط خَبْطَ عَشْواء وكان كالمصباح فنى زيته وانقطع عن مصدر نوره.

وإذا ما كان التشريع للإنسانية جميعاً وللعصور جميعاً وللدنيا والآخرة وللروح والمادة ، كانت مهمة العقل فيه أقصرَ من أن تستوعبه ، وجب أن يُسَلِّم العقل الصغير للمشرع الكبير فقد جاءه ما لا قبل له به.

∴

على ضوء هذه المقدمة الموجزة تستطيع أن تضع أمام عينيك التشريع الوضعي والتشريع السماوي أو تشريع العقل الأرضي وتشريع مدبر الأمر في الكون كله ، فتخرج من هذا الوضع بهذه النتيجة المسجلة في الآية الكريمة: اللّه ولي الذين آمنوا به وصدقوه واتبعوا تشريعه يخرجهم من الظلمات في شئون دنياهم وأخراهم إلى النور في معاشهم ومعادهم ، والذين كفروا بهذا النور الكلي ووقفوا مع عقولهم القاصرة وأهوائهم الجائرة ، أولياؤهم ما اتبعوا من أهواء ، وما غلبهم من شهوات فخرجوا من نور الهداية إلى ظلمات الغواية ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

لا أفسر لك هذه الآية الرائعة بل هذا الناموس الحكيم بأكثر من هذه الكلمات القلائل ، ولكني ألفتك إلى ما جاء بعد هذه الآية من تلك المناظرة الطريفة بين إبراهيم وصاحب المُلك في عصره ، لترى قوة الارتباط العجيب بين السياقين ، وكيف جاءت هذه المناظرة الواقعية دليلاً مثبتاً للقضية الأولى النظرية.

وقف إبراهيم يدعو إلى اتباع النور الكلي واعتز (نمروذ) بمُلكه وتصرفه ، فلفت الخليل نظره إلى أن من شئون الحياة ما يخرج عن دائرة علمه وملكه وتصرفه ، ولهذا يجب أن ينزل الملك الصغير على حكم الملك الكبير، وضرب له مثلاً بالحياة والموت ، فغالط نمروذ وكابر، فدفعه الخليل بما لا يستطيع فيه مكابرة ولا مغالطة وضرب له المثل بمشرق الشمس ، فبُهِتَ الذي كفر وكان على مَلِك الأرض أن يَذِلَّ لملك السماء.

يا أخي: ألا إن إبراهيمَ هذا العصر كتابُ اللّه وشرعُه ودينُه ، ونمروذُه ما وَضَعَ الناسَ لأنفسهم من أوضاع ، وحجتنا البالغة ذلك الاضطراب البالغ الذي أحدثه غرور

الأمم بما وضعت لأنفسها حتى عمَّتها الفوضى واندلعت فيها نار الثورات ، فهل لم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه وما نزل من الحق .. ؟

فتتحقق لهم ولاية اللّه .. ويخرجهم من الظلمات إلى النور.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ٢٩ في ١١ شعبان ١٣٥٥هـ / ٢٧ أكتوبر ١٩٣٦م.

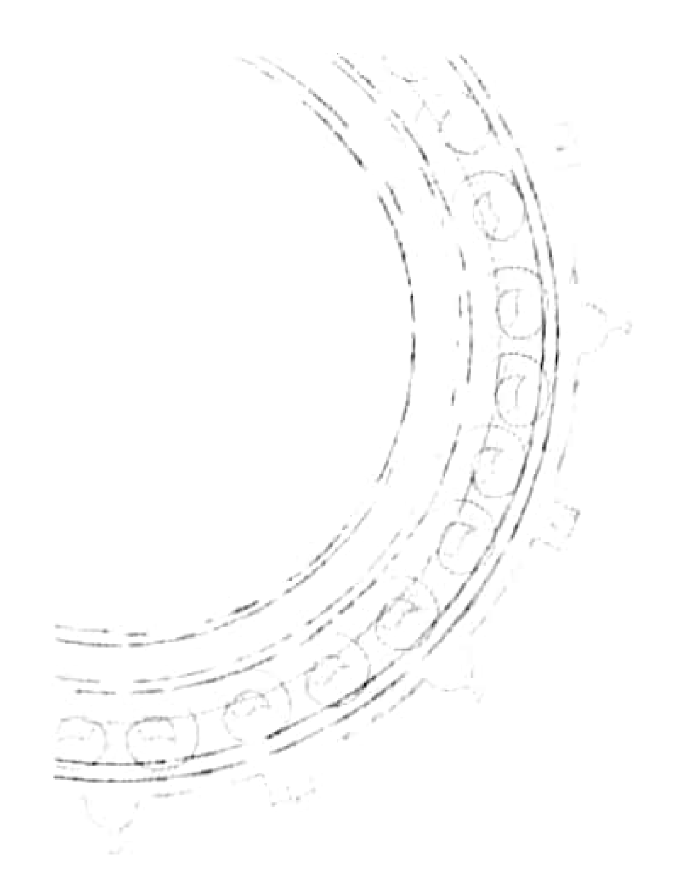


الآيات من: (٥ – ٨)

الآيات من: (١٠٠ – ١١٠)

الآية: (٢٠٠)







﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) ﴾

المحكم: هو الظاهر المعنى الواضح الدلالة الذي يصل العقل البشري إلى إدراك كنه حقيقته والمقصود به من آيات كتاب الله.

والمتشابه: ما ليس كذلك من كل ما يقف العقل البشري أمامه موقف التسليم والتفويض لا موقف الجحود والإنكار والاستحالة.

وهذا التقسيم طبيعي متدرج ، فإن العقل البشري قاصر وهو يترقي دائما ولا

يستطيع الوصول إلى كل الحقائق ، ولا سيما ما يتصل فيها بغير هذا العالم الحسي الذي نعيش فيه ، فإذا ذكر الحق تبارك وتعالى ما يدل على قدرته وعظمته وحمل الناس على الإيمان واليقين. من حقائق هذا الكون التي لم يصل إليها العقل بعدُ ، أو من حقائق الأكوان الأخرى التي لا يرقى إليها بحث هذا العقل الإنساني ، لم يكن ذلك متنافيا مع حكمة التشريع التي جاء لها القرآن أساسا من جهة ، وكنا ملزمين بالإيمان والتصديق مع التفويض والتسليم من جهة أخرى. وبذلك ينتفي اعتراض من يقول وما حكمة ورود المتشابه في القرآن ، وفي المحكم والمتشابه أقوال كثيرة تراجع في المطولات والنفس تطمئن لما ذَكَرتُ لك.

وقد يقال: إن آيات القرآن وصفت بأنها محكمة في سورة هود: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ ووصفت بأنها متشابهة في سورة الزمر: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ ووصفت هنا بأن منها المحكم والمتشابه فما وجه هذا ؟

والجواب: أنها جميعا محكمة في المقاصد والغايات ، ومتشابهة في الجمال والحسن والقداسة ، ومنها المحكم والمتشابه باعتبار وضوح المعنى أو دقته عن العقل البشري فلا خلاف ولا تضارب.

■ **يا أخي**

هذان قسمان في خطاب الله: محكم تؤمن به وتعمل بمقتضاه ، ومتشابه تؤمن به وتفوض علم حقيقته إلى الله ، والرسوخ في العلم أن تفوّض فذلك هو الظاهر من الآية. ومن أَبَى إلا الجَدَلَ والمراء في حقائق هذا المتشابه ، فهو زائغ يبغي الفتنة. والأَولى بالناس صرف بحوثهم إلى ما ينفع ويستطيعون إدراكه من غرابة صنع الله في الكون وفي أنفسهم مع الإلحاح بالدعاء أن يهدي الله قلوبهم وأن يثبتها على الإيمان.

وآيات الله وأحاديثها من الاستواء واليد والعين والأعين ونحوها كلها من المتشابه ، وقد ثار الجدل والخلاف بين الناس فيها ، فاحذر أن تخوض في هذا

الخلاف أو تقتحم ميدان هذا الجدل ، فالأمر أكبر من عقول البشر وتفكيرهم ، فلا تُشبِّهْ ولا تُعطِّلْ وقل آمنت بذلك كما جاء عن الله ورسوله ، وفقنا الله وإياك لخير ما يحب ويرضى(*).

(*) جريدة النذير الإسبوعية ـ السنة الثانية ـ العدد ٢٠ في الاثنين ١٥ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ / ٣ يوليو ١٩٣٩م.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾

■ ما أشبه الليلة بالبارحة

روى زيد بن أسلم قال: مرَّ شماس بن قيس اليهودي ـ وكان شيخا عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين ـ بنفر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية.

وقال: قد اجتمع بنو قَيْلَة ـ وهو لقب الأنصار قبل الإسلام بهذه البلاد ـ والله ما لنا معهم من قرار إذا اجتمعوا ، فأمر شاباً من اليهود كان معه أن يجلس إليهم ويذكّرهم يومَ بُعاث ـ وهو يوم القتال بين الأوس والخزرج ـ ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا وتنادوا إلى السلاح وتداعوا بدعوى الجاهلية ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون ، حتى جاءهم ، فقال: «يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُرِكُم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألَّف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا ؟ الله الله !!».

فعرف القوم أنها نزغة الشيطان وكَيدٌ من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا واعتنق بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله عز وجل الآيات.

أرأيت أيها الأخ المسلم: كيف تغيظ وحدةُ المسلمين عدوَّهم فيعمل على تمزيقها ، وما حصل بالأمس قد تكرر اليوم ، فإن خصوم الإسلام من المستعمرين والغاصبين والملاحدة رأوا وحدة المسلمين في ديارهم وأقطارهم ، ورأوا شدة تمسكهم بدينهم ، فعملوا على تمزيق هذه الوحدة بالتجزئة والتقسيم وإثارة القومية الموضعية بين الأقطار الإسلامية ، وبالحزبية بين أفراد الأمة الواحدة ثم دفعوا المسلمين بعد ذلك إلى طاعتهم وتقليدهم في كل شيء: في نظام الحكم ، في القانون ، في التعليم ، في العادات ، حتى كادت تنقطع صلة المسلمين بالإسلام ويرجعون كفاراً يضرب بعضهم وجوه بعض.

فهل ننتبه ونصغى لهذا التحذير فنتقي الله حق تقاته ونؤْثرُ رابطةَ الإسلام وصلِةَ الإسلام ؟ (*).

(*) جريدة النذير الإسبوعية ـ السنة الثانية ـ عدد ١٨ في الإثنين غرة جمادى الأولى سنة ١٣٥٨هـ / ١٩ يونيو ١٩٣٩م.

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾

اعتصموا: تمسّكوا.

حبل الله: تعاليمه وطريقه الموصلة إليه.

شفا حفرة: جانب حفرة.

في الآيات السابقة وقف المسلمون على مفترق الطريق بين أهل كتاب يدعونهم إلى الفرقة والخلاف ، وبين منهاج الله الذي يدعوهم إلى الوحدة والخير العظيم في الدنيا والآخرة ، فأخذ الله بأبصارهم وقلوبهم وأيديهم وانقذهم وأرشدهم إلى سلوك طريقه وحده ، والإعراض عن كل ما سواه فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ آل عمران.

ثم بين في هذه الآيات الكريمة بعض تفاصيل طريقه وإرشاداته المنجية في الدنيا والآخرة فإذا هي:

١. الاعتصام بالمنهاج الرباني ، وهو القرآن الكريم حبل الله المتين والنور المبين: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾.

٢. الوحدة وعدم الفرقة والاختلاف: ﴿ وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾.

٣. تذكُّر نعمة الله في الوحدة والإخاء والتمسك بعُرْوَتِهما والتشبث بهما وأداء حقوقهما ، فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمُه للظلم. وهذا التمسك بالإخاء هو القوة في الدنيا والنجاة من النار في الآخرة: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾.

٤. دوام التناصح والتذكير والدأب على الدعوة إلى الخير بين المسلمين حتى لا يجتاحهم دعاة الشيطان ، فيتركوا طريق الله إلى طريق الشر والفساد، والمثابرة على الدعوة سبب الفلاح: ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ثم خُتمت الآيات الكريمة بمعانٍ سامية وعبر جليلة منها لفت نظر المسلمين إلى ضرر المخالفة والفرقة والخلاف لغيرهم من الأمم ، ومنها أن هذا التعليم هو إرشاد الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وإليه يرجع الأمر كله ، ومنها تذكير المسلمين بمنزلتهم من الأمم وأنهم الذؤابة والذروة فلا يصح أن يتركوها إلى مرتبة تقليد غيرهم بل عليهم أن يشرعوا طرق الخير للناس.

أيها الأخ المسلم: كرر هذه الآيات الكريمة في تدبُّر وتفكُّر واطمئنان ، وتَذوَّقْ حلاوتَها ثم ألفِتْ إليها أنظار الناس(*).

(*) جريدة النذير الأسبوعية ـ السنة الثانية ـ العدد ١٩ في الإثنين ٨ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ / ٢٦ يونية ١٩٣٩م.

الصبر

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾

وعدتك سابقاً أن أتحدث إليك عن الصبر.

فالصبر خلق كريم يُقوِّم النفس فتحتمل المشاقَّ وتغالب المصاعب وترضى بمقاومة الميول والعواطف والأهواء ، وهم يقولون: الصبر في مواطن كثيرة فمنها: الصبر على الشدائد والنكبات ، ومنها الصبر على أداء الواجبات ومزاولة الطاعات ، ومنها الصبر على الحرمان من لذائذ المعاصي والبعد عن تناول الشهوات ، ومنها الصبر حين البأس وقد التقى الجمعان وحَمِيَ الوَطِيس وكشَّرت الحربُ عن نابها وشمَّرت عن ساقها ، وهو في كل هذه المواطن خلق كريم. وليس منه أن تصبر على الإهانة تنال من أُمَّتكَ أو تُنقِصَ من كرامتك أو تهتك من سِتْرِك أو تمسَّ عِرْضَكَ ، فقد وصف الله المؤمنين فقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٥) ﴾ الشورى.

والصبر الذي عَلِمْتَهُ آنفاً وليد الإيمان وثمرة معرفة الله تبارك وتعالى وتفسير الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِن أَمرِهِمْ﴾ الأحزاب: ٣٦، وهو الذي حدا بمؤمن آل فرعون أن يقول: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ (٤٤) ﴾ غافر.

وهو أيضاً قرينُ الرجولة الصادقة وخِدْنُ الإبَاء والشَّمَم ، فكم من مصيبة صغَّرتها الرجولة ، ونائبة تضاءلت أمام عَظَمَةُ الإبَاء ، ومقامُ ضيق فرجته الأَنَفَةُ من

الجزع. ولقد ضاق الأمر بأحد القُوَّاد وَهَمَّ بالفرار وعَظُمَ عليه الأمرُ في أحد المواقع فما ثبَّته إلا أبيات ابن الأطنابة:

أَبتْ لي همتي وأَبَى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيح

وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامةَ البطلِ المُشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مَكانَكِ تُحْمَدِي أو تستريحي

لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بَعدُ عن عِرْضٍ صحيح

والصبر من لوازم العقل ومن نتائج حسن النظر في الأمور، فما دام الجزع لا يرد فائتاً ولا يحيى ميتاً ولا يغيّر من الواقع شيئاً فأخلق بالعاقل أن يتحمل ويتجلد ، وإليه الإشارة بقول رسول الله ﷺ في كتاب له إلى معاذ بن جبل يعزيه في ابن له توفى ما معناه: «إن ابنك كان من عوار الله المستودعة لديك وقد استرد الله وديعته ، وكتب لك إن صبرت عظيم الأجر فلا تجمعنَّ عليك مصيبتين فَقْدَ الابن وفَقْدَ الأجر».

والعارفون يرون الصبر وسيلة إلى رفع الدرجات وامتحاناً ينتقل به الصابر من منزلة إلى أخرى أرقى منها وأعظم ، فهم لا يعرفون الجزع ولا يدركون معنى الفزع.

لا تهتدي نُوَبُ الزمان إليهم ... ولهم على الخَطْبِ الشديد لجام

وهم يرون البلايا والمحن والفاقات ، وسائل العطايا والمنن ورفع الدرجات ، ويعتقدون أنها أقل من أي برهان يعرب به المحب عن حسن استعداده للقرب، ويقول قائلهم في ذلك: يُخَفِّفُ ألم البلاء عليك علْمُكَ بأنه تعالى هو المبتلِي لك ، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي أشهدك حسن الاختيار وما أحسن قول منشدهم:

تلذ لي الآلام إذا أنت مُسْقِمي ... وإنْ تمتحِنِّي فهي عندي صنائع

وبعدُ .. فالصبر مفتاح من مفاتيح الخير تتنزل به كنوز الأجر الجميل ، وسحابة من سحائب الرحمة تمطر الثواب الجزيل ، وقرضٌ جزاؤه أجمل العوض وما

عندكم ينفد وما عند الله باق. وإليك شواهد ذلك من حديث رسول الله ﷺ:

١. عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مصيبة تصيب عبداً فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللَّهم أْجُرْني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ، إلا أجَره الله في مصيبته واخلف له خيراً منها» ، قالت أم سلمة: فلما توفى أبو سلمة عَزَمَ الله لي فقلت: اللَّهم أجُرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ، فأخلف الله لي رسولَ الله ﷺ.

٢. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصِبْ منه».

٣. عن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن أبي هريرة رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم نَصبٌ ولا وصَبٌ ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكةَ يُشاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه».

٤. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة بها لممٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع الله لي أن يشفيني ، قال: «إن شئتِ دعوتُ الله أن يشفيك وإن شئتِ فاصبري ولا حساب عليك» قالت: بل أصبر ولا حساب عليّ.

٥. عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أعظم الجزاء عند الله مع عِظَمِ البلاء ، فإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط».

٦. عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً للمؤمن إن أصابه خيرٌ حَمِدَ اللهَ وشكر، وإن أصابته مصيبةٌ حَمِدَ الله وصبر، فالمؤمن يؤجر في كل أمره ، حتى يؤجر في اللقمة يرفعها إلى فيِّ امرأته».

٧. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقى اللهَ وما عليه من خطيئة».

وحسبك في هذا المعنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

∴

لهذا - أيها الأخ الكريم - كان أسلافنا - رضي الله عنهم - أعظم الناس صبراً في كل حال ، يصبرون عند الشدائد ، وعند إحراز الوقائع ، وعند لذائذ الشهوات ، وعلى متاعب الواجبات.

وفي حديث أم سليم وعروة بن الزبير والخنساء بنت عمرو وصفية بنت عبد المطلب وما أُثِرَ عن الجميع من محاسن الصبر واحتمال الضُّرِّ ما يكشف عن جمال هذه الخلائق الغُرّ.

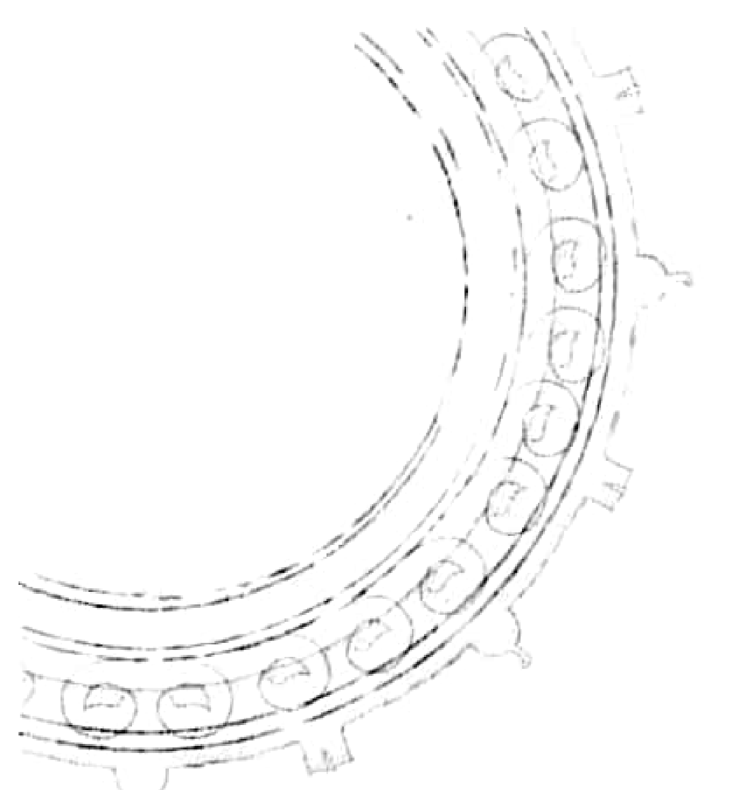
وإذا علمتَ أن الصبرَ أولُ اللَّبِنات القوية في بناء الأمم الناهضة علمتَ السرَّ في أن اللَّه تبارك وتعالى فرضه على المؤمنين وأمرهم به وأثابهم هذا الثواب الجزيل عليه ، ***فلا نهوض إلا بعزيمة ولا نصر إلا مع الصبر.***

وليس يكفي المؤمن أن يكون صابراً فحسب ، بل عليه أن يُصابر، والذي يلوح لي في المصابرة أن اللَّه - تبارك وتعالى - يُوَجِّه الأمةَ المسلمةَ أن تكون أشد الأمم تمسكاً بهذا الخلق وألا تغلبها أمةٌ عليه أياً كانت فبرود الإنكليز ومثابرة الألمان بعض ما يدخل في معنى المصابرة التي يجب أن يتصف بها المؤمن بحكم قوله تعالى: ﴿وَصَابِرُوا﴾ أفهمتَ أيها العزيز؟ أما المرابطة فذلك شأنه هو التمرين التطبيقي العملي على الصبر الخلقي النفساني ، وفقنا اللَّـه وإياك إلى العلم والعمل(*).

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية - السنة الرابعة - العدد ١٤ في ٢٥ ربيع ثان ١٣٥٥هـ / ١٤ يوليو ١٩٣٦م.



الآيـات مــن: (٦٥ – ٦٨)



سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) ﴾

في صدر هذه الآية الكريمة أمرٌ من الله للمؤمنين أن يقوموا بالطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر منهم الذين يشاركونهم إيمانهم ، ويحرسون دينهم وعقيدتهم ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإلا انتفت عنهم صفة الولاية إذا خالفوا هذه القواعد لأنهم حينئذ لا يكونون من المؤمنين. ثم بيّن تبارك وتعالى أن الخلاف إذا وقع بين الراعي والرعية أو بين ولي الأمر والمأمور رُدَّ ذلك الخلاف إلى الله ورسوله.. إلى القانون العام.. إلى الدستور الخالد الذي تركه فينا رسول الله ﷺ إلى كتاب الله وسنة محمد ﷺ ثم كان الحكم في ذلك الخلاف لذلك الدستور فإذا قُضيَ لأحد الفريقين لزمه القضاء.

هذه هي القاعدة المنطقية التي يجب أن يُسَلِّم بها كل مؤمن اعتقد صدق الرسول ﷺ وأحقية القرآن سواء أكان حاكما أم محكوما.

ولكن قوماً مرضى القلوب من المنافقين أبوا هذا التسليم ولجأوا إلى أحكام الجاهلية وتمردوا على حكم رسول الله ﷺ بينهم واعترضوا عليه، فعاتبهم الله عتابا مُرّاً، وبيَّن أن ذلك لا يتفق مع الإيمان فذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ النساء: ٦٠، وبيَّن أن ذلك هو النفاق الذي يؤثر الصدودَ على الهدى، وبيَّن أنهم إنما ينزلون على حكم الله ورسوله إذا كان مفيدا لهم موافقا لأهوائهم، أما إذا كان فيه كبح جماح شهواتهم فلا.

ثم أرشد الله رسوله ﷺ إلى ما يجب حيال هؤلاء وأمثالهم من عدم الاهتمام بهم مع النصيحة لهم والتمسك بما أوحى إليه، ثم بيَّن أن مهمة الرسول تستلزم طاعته، واقسم - تبارك وتعالى - بذاته مضافا إلى رسوله ﷺ تعزيزاً وتكريماً أن الإيمان لا يتحقق لأحد حتى يجعل الرسول أميرا على نفسه. يحكم فيما شجر بينه وبين غيره، ويتقبل حكمه بالرضاء التام والتسليم المطلق بغير حَرَجٍ في الصدر ولا غَضَاضَةٍ في النفس. حتى ولو كان هذا الحكم قتلاً لنفسه أو هجراً لوطنه وبلده في سبيل الله، وإن كان لا يصبر على ذلك إلا القليل من المؤمنين، ولقد قال عمرُ وعمارُ وابنُ مسعود وناس من أصحابه ﷺ: والله لو أمرنا لفعلنا. وكذلك يكون الإيمان، ثم بَيَّن - تبارك وتعالى - أنهم لو أطاعوا وفعلوا لظفروا بالأجر العظيم والهداية إلى الصراط، ولكان ذلك خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً.

ليقرأ إخواننا الذين يعترضون على المطالبة بأحكام الله في أمة تَدَّعِي الإسلام ثم يوردون الشبهات على حدود الله التي أمر بها زجراً عن المعصية ومحاربةً للجريمة، هل هم لا يزالون بعد هذا مُصِرِّين على دعوى الإيمان(*).

(*) جريدة النذير الأسبوعية - السنة الثانية - العدد ٢١ في الإثنين ٢٢ جمادى الأولى ١٣٥٨ هـ / ١٠ يوليو ١٩٣٩م.



الآيـــات مـــن: (١ - ١٦)

الآيـــات مـــن: (١ - ٦٦)

الآيـــات مـــن: (٣٨ - ٤١)

الآيتـــــــان: (١١١ - ١١٢)







هي التوبة وهي براءة وهي المُقَشْقِشَة. قال ابن عمر: لأنها تُقَشْقِشُ من النفاق ، اي تُبْرِئُ منه. وهي المبعثِرة: لأنها تبعثر أخبار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها ، والفاضحة: لأنها فضحت المنافقين. عن سعيد بن جبير قال: قلنا لابن عباس: سورة التوبة فقال: بل هي الفاضحة مازالت تقول ومنهم ومنهم.. ومنهم.. حتى ظنوا ألا يبقى أحدٌ إلا وذُكِرَ فيها. وهي سورة العذاب لأنها تتوعدهم به ، وهي المُخْزِية لأن فيها خِزْيَهُم ، وهي المُدَمْدِمَة لأنها تُدَمْدِمُ عليهم بالهلاك ، وهي المشرِّدة لأنها شَرَّدت جموعَ المنافقين لما كشفت من دسائسهم ومؤامراتهم ، وهي المثيرة لأنها أثارت مخازيهم وكشفت عن أحوالهم وهتكت أستارهم. فهذه عشرة أسماء لهذه السورة ولها بعد ذلك أسماء أُخَر وكلُّها تشير إلى ما تضمنته من تصوير النفوس والمجتمعات.

■ ترك البسملة في أولها

قال محمد بن الحنفية قلت لأبي (يعني عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه): لِمَ لم تكتبوا في براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال: يا بني إن براءة نزلت بالسيف وإن بسم الله الرحمن الرحيم أمان.

وسئل شعبان بن عيينه عن هذا فقال: لأن التسمية رحمة والرحمة أمان وهذه السورة نزلت في المنافقين.

وسئل أُبَيٌّ بن كعب عن هذا فقال: إنها نزلت في آخر القرآن وكان رسول الله ﷺ يأمر في كل سورة بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم ، ولم يأمر في براءة بذلك ، فضمت إلى الأنفال لشبهها بها.

وعن ابن عباس قال: قلنا لعثمان ما حملكم إلى أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال ما حملكم على ذلك ؟

قال عثمان: كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فقال: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفالُ من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءةٌ من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتُها شبيهةً بقصتها وظننتُ أنها منها وقُبِضَ رسولُ الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها من أجل ذلك قَرَنْتُ بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتُها في السبع الطوال. (اخرجه ابو داود والترمذي وقال حديث حسن).

أيَّة دقة كان يتحراها سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ في كل ما يتصل بكتاب الله !!

جزى الله بالخيرات عنا أئمة   لنا نقلوا القرآن عذبا وسلسلا

. . .

والسورة مدنيةٌ بالاتفاق. قيل إلا قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١١٣)﴾ لما رُوي في الحديث المتفق عليه لنزولها في النهي عن استغفار النبي ﷺ لعمه أبي طالب.

وقد يجاب عن هذا بجواز أن يكون نزولها تأخر عن ذلك ، كما زعم ابن الفرسي وابن الجوزى أن الآيتين الأخيرتين منها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ مكيتان ،

ويرده ما رواه الحاكم وأبو الشيخ في تفسيره عن ابن عباس من أن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن ، وقول الكثيرين أنها نزلت تامة.

■ سبب النزول

سورة التوبة آخر سورة نزلت كاملة من كتاب الله وقد نزلت بعد عودته ﷺ من غزوة تبوك ، وهي آخر غزواته ﷺ ودعوته بالذين لم يؤمنوا بها من المشركين ، وتكشف عن خفايا المندسّين بين صفوف هؤلاء المؤمنين من المنافقين العابثين ، والإسلام شريعة واضحة صريحة تواجه الواقع وتطوعه ولا تخادع ولا تخاتل ، وقد حيَّر المشركون رسول الله ﷺ ، وقاسي العناء الشديد من غدرهم ونقضهم مواثيقهم بعد الحديبية تارة وبعد الفتح وتبوك تارة أخرى ، كما صبر ﷺ على مؤامرات المنافقين ومداوراتهم صبراً طويلاً جميلاً ، حتى أصبح استمرار هذا الصبر ضاراً بالدعوة وبالمجتمع الإسلامي الجديد ، فلم يبق بعد ذلك إلا أن يُفَاصِلَ هؤلاء وأولئك ، وكانت سورة التوبة سورة المفاصلة ، وكان إعلانها على رءوس الأشهاد ويوم الحج الأكبر سنة تسع من الهجرة.

بعث بها رسول الله ﷺ أولاً أبا بكر رضي الله عنه وقد أمّره على الموسم ، ثم أردفه بـ (عليّ) وأمره أن يكون هو مبلغ الرسالة ، وقد أراد قوم أن يستدلوا بذلك على تفضيل عليّ كرم الله وجهه على أبي بكر رضي الله عنه ، ولا دليل في ذلك على شيء من هذا ، فإنما جرى فيه رسول الله ﷺ ، على سُنَّة العرب وتقليدهم ، إذ كان من عادتهم أن يُعلن العهد أو ينقض الموثق زعيمُ القوم أو أمسُّ الناس رَحِماً. ولا شك أن علياً - كرَّم الله وجهه - أمسَّ رحماً برسول الله ﷺ من الصِّدِّيق رضي الله عنه ولا يقتضي ذلك الأفضلية كما يقولون ، ومن الخير للناس ألا يخوضوا في هذه الأحاديث فقد أفضى كلّ إلى ما قَدَّمَ ، والفضل بيد الله يرفع درجات من يشاء.

وقد أدى عليٌّ - كرَّم الله وجهه - رسالةَ رسول الله ﷺ بإذن من أبي بكر رضي الله عنه. فقد قام أبو بكر رضي الله عنه فخطب الناسَ وحدثهم عن مناسكهم ثم التفت إلى عليٌّ فقال: يا

عليّ قم فأدِّ رسالةَ رسول الله ﷺ ، فقمتُ فقرأتُ أربعينَ آيةً من براءة ثم صَدَرْنا حتى رميت الجمرة فطفِقْتُ أتتبع بها الفساطيط أقرؤها عليهم لأن الجميع لم يكونوا حضروا خطبة أبي بكر رضي الله عنه. وقال يزيد بن تلبعة: سألنا علياً بأي شيء بعثت في الحجة قال: بعثتُ بأربع.. لا يطوف بالبيت عُريان ، ومَن كان بينه وبين النبي ﷺ عهدٌ فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهدٌ فأَجلُه أربعة أشهر، ولا يدخل الجنةَ إلا نفسٌ مؤمنةٌ ، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في حج.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة الخامسة ـ العدد ٣٥ في ٢١ شوال ١٣٦٦هـ/ ٦ سبتمبر ١٩٤٧.

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤ ﴾

بعد ان أيَّد الله نبيه واظهر شريعته وأعلى كلمته وفتحت مكة وبدئ في غزو الروم ، كان لا بد أن يستتب الأمن ويستقر الأمر في الجزيرة العربية لهذا الدين القيم وتلك الدعوة الجديدة ، حتى يسير الراكب من أقصاها إلى أقصاها لا يخشى إلا الله والذئبَ على غنمه كما قال رسول الله ﷺ. وكان الذين لم يدخلوا في هذا الدين من المشركين والمنافقين بالنسبة لصلتهم به ثلاثة أقسام:

أولاً: قسم كانت بينه وبين رسول الله ﷺ عهود ومواثيق فلم يحفظوها وانتهزوا فرصة اشتغاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالغزوات الكبرى كتبوك ونقضوا عهدهم وأخذوا يشيعون قالة السوء ويذيعون الأراجيف بالباطل ، وكان أمد هذه العهود يمتد إلى أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها ، فكان من الطبيعي أن يأمر الله نبيه بنقض عهودهم ومواثيقهم وأن يَنْبِذَ إليهم بالخصومة والعداء والحرب وأن يمنحهم هذه الفرصة إذا كانت عهودهم تنتهي قبل أربعة أشهر تفضلاً منه وكرماً. قال البغوى: لما خرج النبى ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم.

ثانياً: وقسم كان بينه وبينه ﷺ عهود ومواثيق فوفّى بها وحافظ عليها كبنى دمره وبنى مدلج وبنى خزيمة بن عامر من بنى كنانة، وهؤلاء أمر الله نبيَّه ﷺ أن يُتِمَّ إليهم عهدهم إلى مدتهم.

ثالثاً: القسم الثالث أولئك الذين لم يتصلوا برسول الله ﷺ ولم يؤمنوا بدعوته ولم يربطهم به عهدٌ ولا مَوْثِق ، وهؤلاء أغلب ما يكونون مثار فتنة ومبعث إرجاف ، ومن الخير كل الخير للدعوة الجديدة ألا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، ولهذا آذَنَ اللهُ ورسولهُ هذا القسم بأن يحدد صلته بالدعوة ، وأمامه هذه الفرصة المحتومة أربعة أشهر ليختاروا ويحددوا موقفهم فذلك قول الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآيات.

البراءة والتبَرّي: التقصّي والبُعد والمجَانَبَة. واختلف المفسرون في المقصود بالحج الأكبر فقيل: هو يوم عرفة ، ورُوِيَ هذا القول عن عمر وعثمان وابن عباس وطاووس ومجاهد وهو مذهب أبى حنيفة وبه قال الشافعى ، واستدلوا بحديث مخزمة أن النبى ﷺ قال: «يوم الحج الأكبر يوم عرفة».. وقيل: هو يوم النحر، واختاره الطبرى وَرُوِيَ عن على وابن عباس أيضاً وابن مسعود وابن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة لما روى ابن عمر: أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر في الحجة التي حج فيها فقال: «أىّ يوم هذا ؟» فقالوا: يوم النحر، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر». (اخرجه ابو داود).. وقال ابن أبي أوفى: يوم النحر يوم الحج الأكبر يُهْراقُ فيه الدمُ ويوضع فيه الشَّعَرُ ويلقى فيه التَّفَثُ وتَحِلُّ فيه الحُرَمُ ، وهو مذهب مالك ،.. وقيل: الأكبر أيام منى كلها ، وذهب إليه الشورى وابن جريج ،.. وعن مجاهد: أيام الحج كلها ،.. وقال ابن سيرين يوم الحج الأكبر: العام الذي حج فيه النبى ﷺ وأشبه الأقوال بإسلوب القرآن الكريم أن يقال: إن هذا الوصف إنما أريد به تعظيم شأن الحج فكل حج أكبر، وهذه الأقوال كلها تفصيلٌ لذلك.

وفى الآيات الكريمة دعوة ضمنية وإغراء للمشركين بأن يتوبوا وأن يدخلوا في هذا الدين فهو خير لهم ، وتهديد بأنهم إن لم يفعلوا ذلك فلن يُعْجِزوا الله تبارك وتعالى ، بل إنه قادر على أن ينتقم منهم في الدنيا ويعذبهم العذاب الأليم في الآخرة ،

فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كما أن في الآيات كذلك إشارة إلى فضل المحافظة على العهد والميثاق ، وأن ذلك من شرائط الإيمان وعلامات التقوى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.(*)

(*) مجلة (الأخوان المسلمون) الاسبوعية ـ السنة الخامسة ـ العدد ٣٦ في ٢٨ شوال ١٣٦٦هـ / ١٢ سبتمبر ١٩٤٧م.

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ⁽٥⁾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ ⁽٦⁾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ⁽٧⁾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ⁽٨⁾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⁽٩⁾ لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ⁽١٠⁾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⁽١١⁾ ﴾.

■ غاية المسلم من القتال

انسلخ الشهر: انتهى وانقضى. والأشهر الحرم المقصودة هنا: هي الأربعة التي مُنِحَتْ لهم في أغلب أقوال المفسّرين وأوضحها تمشياً مع السياق ، وقيل: هي الأشهرُ الحُرُمُ المعروفةُ: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، والأول أدق وألصق بالمقصود.

وقد أَذِنَ الله بهذه الآية للمؤمنين بقتال خصومهم بعد انتهاء مدة الهدنة ، وأباح لهم بها ما تقتضيه الحرب من القتل أينما وجدوا ومن الأَسْر ومن الحصار والتضييق ومن المراقبة وتَعرُّف أحوالهم وتَبيُّن مواطن الضعف والقوة منهم ، حتى توضع خطط قتالهم على ضوء هذه المراقبة.

ثم تعرضت الآية الكريمة بعد ذلك للغاية من هذا القتال وأنها ليست غاية مادية من اتساع ملك ، أو طلب سلطان ، أو استعباد شعب ، أو الحصول على الخامات والمواد الأولية ، أو فتح الأسواق والميادين للتجارة وتصريف المصنوعات إلى غير ذلك من أغراض الحرب المادية والاقتصادية ، ولكنّ الغايةَ تأمينُ الدعوة في جزيرة العرب تأميناً كاملاً بحيث لا يكون فيها إلا مسلم حتى تقوم الدعوة على أمة مُوَحَّدة العقيدة وعلى دولة محَّددة الهدف ، فإذا كان هؤلاء المشركون سيذعنون للدعوة ويدخلون فيها وآية دخولهم توبتهم بالندم على ما مضى من كفران والمسارعة بالدخول فيما دخل فيه أهل الإيمان وإثبات ذلك عملياً بالشعيرة الروحية العبادية وهي الصلاة ، وبالشعيرة الاجتماعية المالية وهي الزكاة ، فحينئذ تحققت الغايةُ المقصودةُ ولا يصح أن يُقاتَلوا أو يُحارَبوا ، ولهذا أمر الله المؤمنين بأن يُخلوا سبيلهم ولا يؤاخذوهم بما مضى من أعمالهم ، والإسلام يَجُبُّ ما قبله إن الله غفور رحيم ، ومن هنا يتضح سمو الغاية التي يقاتل من أجلها المسلم وهي حماية الحق بالقوة.

وقد أطال كثيرٌ من المفسرين في الاستدلال بالآية على كفر تارك الصلاة ، واستطرد بعضهم إلى مدلول الإيمان وهل يدخل فيه العمل أم هو مجرد الاعتقاد ، ودخلوا في تفاصيل وتفاريع تضيّع وضوحَ القصد الأهم في ثناياها ، ولهذا لم نشأ أن ندخل معهم فيها، وحسبنا أن نعلم أن المسلم لن يكمل له معنى الإسلام ولن يكون في عداد المؤمنين الصادقين إلا إذا تطهر وجدانه بالتوبة والعقيدة الثابتة ، وظهر ذلك في أعماله التي أظهرُها الصلاةُ والزكاةُ.. وحَسْبُكَ من القِلادةِ ما أحاط بالجيد.

■ حق الأمان

ولكل مشرك أن يطلب الأمان ليتفقه في الدين وليسمع الدعوة من كتاب الله تبارك وتعالى ، وعلى المؤمنين أن يتقبلوا هذا الطلب منه وأن يجيروه ويُسْمِعُوه ولا يَمسُّوه بأذى ثم عليهم بعد ذلك أن يصلوا به إلى مأمنه مطمئناً معافى ثم تُجرَى عليه بعد ذلك أحكام غيره من الناس.

ومن وُجد في أرض الإسلام من الحربيين أو التجار مثلاً فَقُبض عليه فاعتذر بأنه جاء ليطلب الأمان ، أو بأنه لم يكن يعرف أن التجار يعاملون معاملة المحاربين ، أُمضى له هذا الأمان ، إلا أن يثبت عليه غير ذلك من تجسس أو مكيدة حرصاً من المشرع الإسلامي على استبقاء النفوس واستمالة الأفئدة إلى الدعوة التي هي المقصود الأول والأخير في الحرب والسلم.

والأمان من حق الإمام أو نائبه بلا خلاف ، وفي إعطاء هذا الحق لغيره تفصيل طويل حتى ذهب بعض الأئمة إلى أن الأمان من حق كل مسلم حر رجلاً كان أو امرأة أو صبياً بلغ سن التمييز واحتمل تكاليف القتال ، أخذاً من قول رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأُ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يَدٌ على مَنْ سواهم». وللعبد المسلم أن يُعطى الأمانَ ، وأمانُه نافذ عند قوم بلا شرط وعند آخرين بشرط أن يُجيزَه سيدُه أو يوافق الإمامُ على هذا الأمان ، وليس بعد ذلك تكريمٌ لإنسانية الإنسان أو تقديرٌ لوحدة الجماعة وحق الفرد فيها ، كما أن لها في دمه وماله إذا هددها شيءٌ كلَّ شيءٍ وذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. . . ﴾ الآية.

■ لمن نَفِي ؟

لا وفاء إلاّ لمن وفّى ، وهؤلاء المشركون الذين ستأتي أوصافهم وقيمة العهود والمواثيق ، عندهم لا عهد لهم عند الله وعند رسوله إلا قبائل من بني بكر عاهدوا رسولَ الله ﷺ عند المسجد الحرام عام الحديبية ، ونقضت قريش وحلفاؤها عهدهم ولكنهم ثبتوا فكافأهم الإسلام بأن حافظ كذلك على عهدهم ، وأمر المؤمنين أن يستقيموا لهم ماداموا مستقيمين على عهدهم إن الله يحب المتقين.

■ العهد عند المشركين

العهد عند المشركين مَصُون محفوظ ما داموا في ضعف وخوف ، فإذا أحسوا بشيء من معاني القوة والظهور لم يرقبوا في مؤمن عهداً ولا ذمة ولا موثقاً.

والإل: العهدُ واليمينُ والمَوثِق، وخدعوا المؤمنين بالألفاظ المعسولة والأقوال الكاذبة ، وتأبى ذلك قلوبُهم المريضة وأنفسهم العليلة المملوءة بالغيظ والحقد على الإسلام والمسلمين ، وأكثرُهم مطبوع على الخروج عن طاعة الله ومخالفة أمره ، وكما كان هذا الوصف في المشركين ، فهو كذلك في كثير من الكتابيين الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا بآياته ثمناً قليلاً وتخلقوا بأخلاق أهل الشرك والجهالة فصاروا هم الآخرون لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ، واعتدوا بذلك على حدود الله التي عرفوها فلم يقفوا عندها.

هذا على أن الآية الأولى في المشركين ، والثانية في اليهود الكتابيين وهو قول حسن ، وإن كانتا الاثنتان في المشركين ، فالثانيةُ توكيدٌ للأولى وهو مألوفٌ في الأسلوب العربي حين يراد المبالغة في الكشف والبيان.

ومع هذه الصفات في المشركين ، أو في المشركين والكتابيين فإن مدار معاملتهم متوقفٌ على صلتهم بهذه الدعوة وليس ما يمنعهم من أن يدخلوها فيصونوا بذلك دماءهم وأرواحهم إلا بحقها وحسابهم على الله ، ويَثبت لهم فيمن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة حقُّ أُخُوَّة أهل الإيمان ، وإنه لحق عظيم وسنبين في الكلمة الآتية ما يترتب على نقض هذه المواثيق من جزاء إن شاء الله. (*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة الخامسة ـ العدد ٣٧ في ٥ ذو القعدة ١٣٦٦هـ/ ٢٠ سبتمبر ١٩٤٧م.

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾.

■ **حرب جزاء**

للمشركين مع المسلمين حالان:

حال المسالمة والمعاهدة والوفاء بالمواثيق ، وواجب المسلمين حينئذ الوفاء كذلك: ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾.

وحال الغدر ونكث الأيمان أو الاعتداء والطعن في الدين والوقوف في وجه الدعوة ، وجزاؤهم حينئذ القتال والحرب: ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ ولا علاج إلا القتال ، فإن الغدرَ يُفْقِدُ الثقة ، والاعتداء يثير الحفيظة ولا علاج إذا فُقِدَتْ الثقة ولا شفاءَ إذا ثارت الحفيظةُ إلا بالقتال، وآخرُ الدواء الكيّ.

وتلك أحكام عامة تطبق في كل زمان ومكان ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولقد طَبَّقها رسول الله ﷺ مع قريش حين نقضت عهدها بعد الحديبية واعتدى

حلفاؤها من بني بكر على حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة فناصرتهم وآزرتهم ولم تزجرهم ولم تردعهم مما دعا عَمْرَو بن سالم الخُزاعيّ أن يلجأ إلى النبي ﷺ يستنصره ويستمده بهذه الأبيات المثيرة:

لا هم إني ناشدٌ محمدًا	حِلْفَ ابينا وابيه الأتْلَدا
كنت لنا أبا وكنا ولدا	ثُمَّتَ اسلَمْنا ولم نَنْزِعْ يدا
فانصُر هداك الله نصراً أبدا	وادْعُ عبادَ اللهِ يأتوا مددا
فيهم رسولُ اللهِ قد تَجَرَّدا	في فَيْلَقٍ كالبحرِ يَجري مُزْبِدا
أبيض مثل الشمس يسموا صعدا	إنْ سيم خَسْفاً وجْهُه ترَبَّدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقَكَ المؤكَّدا
هم بَيَّتونا بالهجير هُجَّدًا	وقتلونا رُكَّعاً وسجَّدًا
وزعموا أنْ لستَ ترعى احدا	وهم أذَلُّ واقلُّ عَددا

فقال رسول الله ﷺ : «لا نُصِرتُ إن لم أنصركمْ» ، وتجهز سنة ثمان من الهجرة وكان الفتح ، وقد أقر النبي ﷺ قتل من طعن في الدين ونال منه عليه الصلاة والسلام ، وأهدر دم المقتول ، فقد روى عن الدارقطني أن رجلاً أعمى كانت له جارية وكان له منها ولدان فنالت من النبي ﷺ فما صبر عليها وقتلها وذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا اشهدوا أن دمها هدر».

■ حكم الطعن في الدين والتعرض لرسول الله ﷺ

أكثرُ العلماء على أن من طعن في الدين أو نال من رسول الله ﷺ بسب أو شتم فجزاؤه القتل ، وقد روىَ أنَّ رجلاً قال في مجلس عليٍّ كرم الله وجهه: ما قُتل كعب بن الأشرف إلا غدراً ، فأمر عليٌّ بقتله. وقال آخر مثل ذلك في مجلس لمعاوية فقام محمد بن مسلمة فقال: أيقال هذا في مجلسك وتسكت ؟! والله لا أساكنك تحت سقف أبداً

ولئن خلوتُ به لأقتلنه. والذمي إذا طعن في الدين فحكمه كذلك وانتقض عهده بهذا الطعن ، إلا عند أبي حنيفة والثوري فإنهما قالا: يستتاب فإن تاب ، وإلا عُزِّر وأُدِّب ولايقتل ، فإنَّا لم نعطه الذمة أو العهد على هذا ، وما أتوا عليه من الشرك أعظم. وإذا أسلم هرباً من العقوبة أُمضيَ له إسلامه عند الجمهور ونجا من العقاب لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله.

■ عَودٌ إلى موقف المشركين من المؤمنين

إن المشركين نكثوا أيمانهم ونقضوها ، والنكث: نقض الحبل وتفكيك خيوطه. وهموا بإخراج الرسول ﷺ ، فأهل مكة تآمروا عليه ليقتلوه أو يخرجوه أو يُثْبِتُوه فأنجاه الله من ذلك كل ، ويهود المدينة ائتمروا به ﷺ كذلك أرادوا أن يَمُدُّوا إليه أيديهم بالأذى ، فَكَفَّ أيديهم عنه وَرَدَّهُم خائبين ، وقال قائلهم: ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ ، فكان رسولُ الله ﷺ الأعزَّ وكانوا الأذلِّين ، وقضى عليهم وعلى أمثالهم بالبلاء والجلاء ، ولولا أن كَتَبَ الله عليهمُ الجلاءَ لعذَّبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذابُ النار.

وبدأ أهل مكة المسلمين بالقتال في بدر وفي أحد وفي الخندق ، فلقد خلصت لهم العير في بدر وهم ماخرجوا إلاّ من أجلها. ولكن جهالة أبي جهل أبت عليهم إلا أن يتَحدُّوا محمداً ﷺ ويتحرشوا به وينالوا منه ومن أصحابه ثأر بن الحضرمي ، وأوقدها المُغْرِضون من قريش ناراً ، ولم يستمعوا إلى قول حكيمهم وشيخهم عتبة بن ربيعة الذي أراد أن يحمل عنهم عارها إن كان فيها عار، ويعصبوها برأسه إن أرادوا ، فأبت إلا البَطَرَ والرياءَ والحربَ ، فكانوا البادئين وكانوا لها وقوداً والبادي أظلم. ومن كانت هذه خلائقهم فلن يقيم مُعْوَجَّهُم إلا الحربُ.

الناسُ إن ظلموا البرهانَ واعتَسفُوا فالحربُ أَجْدَي على الدنيا من السِّلْم

■ تحريض

ولهذا كان تحريض الحق لعباده على قتال هؤلاء المتمردين تحريضاً نافذاً مثيراً ، يذيب القلوب الجامدة ، ويدفع الهمم الخامدة ، أتخشونهم.. ؟ أتخافون منهم

وهم لا شيء والله بيده كل شيء.. ؟ ومادمتم مؤمنين بقدرة الله العلي الكبير وانفراده بالتصرف في ملكوت السماوات والأرض ففيم خشية الناس إذن.. ؟ لاتخافوهم وخافوا الله وحده فذلك مقتضى الإيمان إن كنتم مؤمنين.

وإن الله ليَعِدُ المؤمنين إن هم فعلوا ذلك - وهم فاعلون - أن يُعذِّبَ المشركين بأيدي المؤمنين فتكون الغلبة لهؤلاء والهلاك والنكال لأولئك ، وتَحِلُّ بهم الهزيمة والخزي ، ويكون للمؤمنين الفوزُ والنصرُ عليهم ، وبذلك تثلج صدورهم وتهدأ نفوسُهم ويذهب غيظ قلوبهم. ومن بقي بعد ذلك منهم وآمن فبابُ التوبةِ مفتوح ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم بالتوبة الصادقة النصوح ، حكيم في قبول هؤلاء التائبين المنيبين إليه ليعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

■ تكرير للتقرير

وإن القارئ ليلمح في هذه الآيات الكريمة الإسهاب والإطناب وتكرير المعاني والألفاظ ، وقد يقال: إن الإطالة ليست من الإعجاز والتكرار ليس من البلاغة ، وهذا خطأ في الحكم عظيم ، فإن البلاغة مراعاة مقتضى الحال ، والإعجاز نفاذ المعاني إلى النفس واستقرارها فيها بصورة لا يصل إليها أسلوب آخر.

والمقام هنا مقام تكوين وتأسيس وإنشاء للأمة الإسلامية الجديدة التي أذن الله لها أن تحمل إلى الإنسانية بأجمعها رسالته الشاملة الخالدة الباقية وتكوين خير أمة أخرجت للناس ، وذلك لا يتم إلا بتخليصها من كل عناصر الفتنة والضعف والشغب والفساد والتهدم مهما كانت التضحيات في هذه الوسائل ؛ حتى تصير نقية قوية خالصة صالحة ، فاقتضى المقام الإطناب في صفات المشركين والمنافقين ، والتطويل في واجبات المؤمنين والمجاهدين ، ليهلكَ من هلك عن بَيِّنَة وَيَحْيَى من حيَّ عن بَيِّنَة والله سميع عليم ، فهو تكرير للتقرير والـمُكَرَّرُ في هذا المقام أحلى وحكمة الله أجلُّ وأعلى.

■ **تصفية وتخليص**

ولهـذا أهـاب الحق تبـارك وتعـالى بـالمؤمـنين بعـد هـذا البـيـان الشـافي بأن يستمسكوا بأمرين: الجهاد الحقّ في سبيله والنُّصرة الكاملة والبعد التام عن إيذاء الله ورسـوله ، وألا يتـخذ مـؤمنٌ وليـجـةً وصلةً ومـودةً ورابطةً بينه وبينهم أبداً من دون الله ورسوله والمؤمنين ، وهو تبارك وتعالى خبيرٌ بخلجات النفوس عليم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور، وبيّن أن تلك سنته الماضية في امتحان أهل الإيمان في كل عصر وزمان، وأنها تطبق عليهم كما طبقت على غيرهم ، وأن يُتركوا حتى يعلمَ اللهُ صدقَ ذلك منهم والله خبيرٌ بما يعملون.

■ **القضاء والقدر**

ولقد أدار المفسرون جدلاً عنيفاً ونقاشاً طويلاً حول أفعال العباد بمناسبة ماورد في الآيات الكريمة: ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾.

ولهذا الجدل موضعٌ آخر وبحثٌ خاصٌّ مستفيضٌ يتجلى به وجه الحق في هذا البحث ، والآيات الكريمة إنما تشير إلى أن مَرَدَّ كلِّ شيءٍ إلى الله تبارك وتعالى ، وذلك لا ينافي اختيارَ الإنسانِ ولا ما وَهَبَ له الله من إرادةٍ وتصرفٍ هما مَناطُ الثواب والعقاب ولا شك.. والله أعلم.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة الخامسة ـ العدد ٣٨ في ١٢ ذي القعدة ١٣٦٦هـ/ ٢٧ سبتمبر ١٩٤٧م.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾

■ إلغاء الامتيازات

معلوم أن أمر الكعبة والمسجد الحرام انتقل من إسماعيل وذريته من بعده حتى انتهى إلى قريش ومنها إلى عبد المطلب وبنيه حتى ظهر الإسلام ، وفي هذه الفترة أدخل العرب على أعمال الحج من مظاهر التوحيد التي قام من أجلها البيتُ الحرام أعمالاً من الشرك وضروباً من عبادة غير الله حتى كان فوق الكعبة نفسها أكثر من ثلاثمئة صنم وكانت تلبيتهم: (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تَمْلِكُه وما مَلَك) وهي كما ترى تلبية تتأرجح بين صفاء التوحيد وكدورة الإشراك بالله العلي الكبير.

استمرت قريش تقوم على المسجد الحرام ، وتمتاز بذلك على سائر العرب حتى بعث الله نبيه بالإسلام وكتب له الفوز والنصر، وآذن أولئك المشركين جميعاً بالخصومة إلا أن يؤمنوا والإسلام دين التوحيد ، والكعبة والمسجد الحرام رمز هذا التوحيد ، فكان

طبعياً أن يُحرَم المشركون امتيازاتهم السابقة وأن يُحظَر عليهم حظراً باتاً أن يعمروا مساجد الله التي لم تقم إلا لتوحيده وحسن عبادته ، وكان طبعياً أن يكون هذا الحرمان أول ثمرة من ثمرات الخصومة والمقاطعة التي أعلنها عليهم الإسلام بعد انتهاء فترة الهدنة: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

وشهادتهم على أنفسهم بالكفر معلومة عملاً بما يأتون من مظاهره كعبادة الأصنام ودعائها ، والحَلِف بها ، والنَّذْر لها ، واعتقاد النفع والضر فيها ، وقولاً بنطقهم بألسنتهم: فأنت حين تسأل أحدهم: ما دينُك ؟ يجيبك: غير الإسلام. وهي شهادة صريحة منه على نفسه بالكفر، وإن بعضهم ليسجل هذه الشهادة على أبنائه بتسميتهم بأسماء الأصنام فيقول: عبد اللأت ، عبد العُزَّى ، عبد مناة.. إلخ ، وكل ذلك داخلٌ في نفس شهادتهم على أنفسهم بالكفر.

ومن كانت هذه حاله فقد حَبط كل عمل له في الدنيا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾ إبراهيم. وجزاؤهم يوم القيامة الخلود في النار التي وقودها الناس والحجارة.

■ **انتقال هذه الخصائص للمؤمنين**

وبعزل المشركين عن هذه المهمة وإقصائهم عنها ، تسند إلى أحق الناس وأعرفهم بحقها من المؤمنين الصادقين الذين كملت فيهم شرائط الإيمان الظاهرية والباطنية والقولية والعملية.

فالقولية: من التصريح بكلمة الإيمان بالله واليوم الآخر.

والعملية: من إقامة الصلاة وهي العبادة الباطنية القلبية ، وهي كذلك أغلى ثمرات الإيمان وأظهر الأدلة على استقراره في النفوس واستيلائه على الجوارح والقلوب ، فهؤلاء الذين توفرت فيهم هذه الصفات هم الذين اهتدوا بنور الله وتوفيقه إلى الصراط المستقيم ، وهم أحق الناس بعمارة المساجد والقيام عليها.

■ من أحكام عمارة المساجد

وعمارة المساجد صنفان: عمارة ببنائها وتشييدها وترميمها.. إلخ وهي العمارة الحسية ، وعمارتها بالمواظبة على أداء العبادات فيها وقصدها للذكر والدعاء وإحياء شعائر الله ، وكلا الصنفين من خصائص المؤمنين لا ينهض به غيرهم ولا يؤتمن عليه سواهم.

وهل إذا بنى غيرُ مسلم مسجداً أو تبرع بشئ من ماله في بناء مسجد أو تعميره.. الخ يُرَدّ عليه ذلك أخذاً من هذه الآية الكريمة ؟ والجواب: لا يرد عليه ذلك ، ويقبل منه ما يتطوع به ما دام قد خرج من ملكه لهذه الغاية ، وما دامت ليس له من وراء ذلك غاية تضر بالمسلمين ، ومادام غيرَ محارب لدينهم أو دعوتهم ، أما المحاربون أو ذوو الغايات والمقاصد السيئة فلا يتقبل منهم شيءٌ أبدا ، فلو أرادت دولة أجنبية أو مؤسسة يهودية مثلاً أن ترمم المسجد الأقصى أو توسعه أو تقوم بشيء من عمارته وجب على المسلمين جميعاً منعها من ذلك وعدم تمكينها منه بحال ، لأنه ليس أكثر من ذريعة لمآرب سياسية لا يقرها الإسلام.

وقد ورد في عمارة المساجد بهذين المعنيين السابقين أحاديث كثيرة فمما ورد في المعنى الأول قول رسول الله ﷺ من حديث عثمان وقد لامه الناس لمّا وسّعَ مسجد رسول الله ﷺ وجدد بناءه ، قال: إنكم أكثرتم عليّ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بني لله مسجداً يبتغي به وجه الله بني الله له بيتاً في الجنة». وروى أحمد عن ابن عباس وغيرهما: «من بني لله مسجداً ولو كمفْحَص قَطَاة لبيضها بني الله له بيتاً في الجنة». وفي الصحيحين أن امرأةً كانت تَقُمُّ المسجد وتنظفه فماتت فسأل عنها النبي ﷺ فقيل له ماتت فقال: «أفلا كنتم آذنتموني بها دُلُّوني على قبرها فأتى قبرها فصلى عليها».

وقد ورد في المعنى الثاني قول رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان: «صلاة الجميع ـ وفي رواية الجماعة ـ تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمساً

وعشرين درجة ، فإن أحدكم إذا توضأ وأحسن الوضوء وأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة ، وحط عنه خطيئة حتى يدخل المسجد ، وإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه وتصلّي عليه الملائكة ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه: اللهم اغفر له اللهم ارحمه ما لم يُحْدِث». وروى أحمد وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وغيرهم من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجدَ فاشهدوا له بالإيمان». ذلك ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ الآية.

■ الإيمان والجهاد وأفضل عمل للإنسان

روى مسلم وأبو داود وابن حبان أن النُّعمان بن بَشير رَضِيَ الله عَنْهُ قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه ، فقال رجل منهم: ما أبالي ألاّ أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج ، وقال آخر: بل عمارةَ المسجد الحرام ، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خيرٌ مما قلتم. فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صَلَّيتُ الجمعةَ دخلْتُ على رسول الله ﷺ فاستفتيتهُ فيما اختلفتم فيه ، فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فأنزل الله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وروى عن ابن سيرين قال: قَدِمَ عليٌّ مكة فقال للعباس: أيْ عمِّ ألا تهاجر؟ ألا تلحق برسول الله ﷺ ؟ فقال: أَعْمُرُ المسجدَ وأَحْجُبُ البيتَ ، فأنزل الله الآية: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾. وروى ابن أبى حاتم عن طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال العباس حين أُسرَ يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد ، فقد كنا نَعْمُرُ المسجد الحرام ونسقي الحاجَّ ونفُكُّ العاني ، فأنزل الله الآيه الكريمة: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾.

وروى ابن جرير عن كعب القرظي قال: افتخر طلحة بن شيبة ـ من بني عبد الدار ـ والعبّاس بن عبدالمطلب وعلي بن أبي طالب فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفتاحه ولو أشاء بتُّ في المسجد ، وقال العباس: وأنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بتُّ في المسجد ، فقال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما أدري ما تقولون لقد صليتُ إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد ، فأنزل الله الآية الكريمة: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾.

وسقاية الحاج: هي مهمة نقل الماء للحجاج في الموسم وتوزيعه عليهم بلا مقابل وكانت للعباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال الأرزقي في تاريخ مكة: السقاية حياض من أَدَم ، أي: جلد توضع بفناء الكعبة بعد أن تُملأ من الآبار العذبة بظاهر مكة ، وكانت على عهد قُصَيّ بن كلاب ثم جعلها لابنه عبد مناف وآلت إلى العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والمكان لا زال معروفا الآن بمكة ويسمى سقاية العباس في جهة الجنوب من بئر زمزم.

والرفادة: ضيافة الحجيج وإطعامهم ، كانت مهمة هاشم بن عبد مناف أيضا وورثها بنوه من بعده، وفيه يقول القائل:

عمرو العلا هَشَمَ الثريد لقومه وبطون مكة مُسْنِتُونَ عِجافُ

والحجابة: سدانة البيت والقيام على مفتاحه وبابه ، وكانت لبني عبد الدار ومنهم لبني شيبة وما زالت فيهم إلى اليوم (والشيخ عبد الله الشيبي صاحب المفتاح حالياً) هو من هذه السلالة ، وفي المثل: المفتاح لا يخرج من بني شيبة.

والآيات الكريمة والأحاديث والآثار المروية في أسباب نزولها تدل جميعا على أمر واحد ، هو أن هذه الأعمال مع جلالة قدرها وعظيم أثرها واتصالها بالبيت العتيق والمسجد الحرام لا تساوي ولا تصل إلى فضل الإيمان بالله والجهاد في سبيله ، فإن صدرت عن المشركين فلا قيمة لها بعد الإيمان ، وإن قام بها المؤمنون فلا غَنَاءَ لهم بها عن صدق الإيمان وتدعيم هذا الصدق بالجهاد في سبيل الله بالنفس والمال ، ومن حَكَمَ بغير هذا فقد ظلم الحقَّ وظلم نفسه بهذا الظلم والله لا يهدي الظالمين.

وحتى يتأكد هذا المعنى ويتقرر صرح الحق تبارك وتعالى بأفضلية المجاهدين فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

ثم أبان عن معنى هذا الفوز ومظاهره فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فهذا الفوز فوزان: فوز معنوي برحمة الله ورضوانه ، وفوز حسي بالجنات ذات النعيم المقيم ، والأول أعلى وأَجَلُّ ، والثاني فضلٌ من الله لا يزهد فيه أحدٌ.

روى الشيخان عن أبي سعيد الخُدْرِيُّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهلَ الجنة. فيقولون: لبيك ربَّنا وسَعْدَيكَ ، فيقول: هل رضيتم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

ومن ذلك تعلم أن أفضل عمل العبد الإيمان بالله والجهاد في سبيله..

والله أعلم.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة الخامسة ـ العدد ٣٩ في ١٩ ذو القعدة ١٣٦٦هـ/ ٤ أكتوبر ١٩٤٧م.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

- **التجرد**

كانت الآيات الأولى تحديداً لصلة غير المسلمين بالمسلمين ، وجاءت هذه الآيات تبياناً لواجبات المسلمين في مجتمعهم الجديد ، أو القواعد الأساسية التي يجب أن يقام عليها هذا المجتمع. وأول هذه الواجبات (التجرد) التجرد للفكرة التي آمنوا بها والتضحية في سبيلها بكل شيء ، بولاية الآباء وهم أقرب الناس إلى القلب ، والإخوة وهم السناد في هذه الحياة ، ومن هنا اشترط الله على المؤمنين أن يبرؤوا من الآباء والإخوة إذا وقفوا في طريق الدعوة واستحبوا الكفر على الإيمان. فإذا لم يحقق أحد المسلمين هذا الشرط ، فقد ظلم نفسه بادعاء الإيمان وظلم الحق في هذه الدعوى غير الصادقة.

ومن لطف الله بعباده أن يشترط للتبرِّي أن يَستحبَّ الآباءُ والإخوةُ الكفرَ على الإيمان فلو وقفوا محايدين أو مُكْرَهين لكان لأبنائهم وإخوتهم أن يوالوهم إن شاءوا تقديراً للرحم وإبقاءً على الصلات الاجتماعية بين الناس.

وهذا المعنى أوضح ما يكون في الآية التالية ، فقد جمع القرآن الكريم مباهج الحياة ومجامع زينتها وقوام شئونها ـ من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والمتاجر والمساكن وليس في الدنيا إلا هذه الثمانية ـ في كفَّة واحدة ووضع قبالها حُبَّ الله ورسوله والجهاد في سبيله ، فأيّما مؤمن رَجَحَ عنده حُبُّ الله ورسوله على هذه المحبوبات فهو قوي صادق الإيمان قوي اليقين ، وأيما رجل كانت هذه الثمانية مجتمعةً أو كان بعضُها أَحَبَّ إلى نفسه وأقرب إلى قلبه من حُب الله ورسوله كان ناقص الإيمان ضعيف العقيدة والله لا يهدي القوم الفاسقين.

ومن جميل لطف الله أنه لم ينف أصل الحب فتلك غريزةٌ في البشر لا يمكن التخلي عنها ، ولكنه إنما نفى تقديمَ حُبِّ هذه الأمور على حُبِّ الله ورسوله ، ويظهر أثر ذلك فيما لو تعارض الحُبَّان فهذا كَسْبٌ يُغضِبُ اللهَ ولكنه كثيرٌ، وهذا ربح قليل ولكنه يُرضي اللهَ ، فمن آثر الأول فقد فسق ، ومن آثر الثاني فهو من المؤمنين الصادقين.

وهذه أرض طيبة ومساكن جميلة رحبة ولكن المقام فيها على ضيم وذل واستكانة في الدنيا واستهانة بالدين ، وهذه هجرة مُتعبة ولكنها ترضي الله ورسوله ، وبحسب ما يختار العبد تكون منزلته من الإيمان أو الفسق ، وهل الإيمان إلاّ الحبُّ والبغضُ ؟

■ **فضل محبة الله ورسوله**

ولا يمكن أن يتم إيمانُ عبد أو يتحقق إلا إذا أَحَبَّ اللهَ ورسولَه من كل قلبه وظهرت آثار هذا الحب في تصرفاته والله يقول: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ويقول: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وقد روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه عن

النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعودَ في الكفر كما يكره أن يُقذَفَ في النار» ورويا من حديث أنس أيضاً: «لا يؤمن أحدُكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين». وروى البخاري من حديث عبدالله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذٌ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسولَ الله لأَنت أَحب إليّ من كل شيء إلا نفسي التي بينَ جنبيَّ ، فقال النبي ﷺ: «لا ، والذي نفسي بيده حتى أكونَ أحبَّ إليك من نفسك» فقال له عمر: فإنه الآن ، والله لأَنت أحب إلي من نفسي ، فقال له النبي ﷺ: «الآن يا عمر».

والطريق إلى محبة الله تبارك وتعالى ومحبة رسوله ﷺ واضحة مستنيرة: أن يكثر المؤمن من التفكير في مصنوعات الله تعالى مع دوام ذكره ، والإكثار من الصلاة والسلام على رسوله ﷺ ، وتقدير الهداية العظمى التي جاء بها هذا النبي العظيم عن ربه عز وجل في رسالة الإسلام الحنيف ، والبحث عن أسرارها ووقائعها ، مع دوام طاعة الله والتحرز عن معصيته ، ***فالطاعة للإيمان كالزيت للمصباح والماء للنبات ، والمعصية سم قاتل وظلام محيط يذهب بنور القلب وسعة الصدر وبهاء الوجه وإشراقة الإيمان***. وفي الحديث القدسي: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه» (رواه البخاري).

كما أن الاتباع والمواظبة على السُّنَّة أقرب الطرق إلى هذه المحبة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

▪ يوم حُنَين: الوقائع

لما بلغ هَوازن فتح مكة جَمعَهم مالك بن عوف من بني نصر بن مالك وكانت الرياسة في جميع المعسكر إليه ، وساق مع الكفار أموالهم ومواشيهم ونساءهم

وأولادهم حتى تشتدَّ شوكتهم في القتال دفاعاً عن أهليهم وأموالهم ، وكانوا ثمانية آلاف من هَوازن وثقيف فيما يرويه الحسن ومجاهد، ونزلوا بأَوْطاسَ ـ وهو واد في ديار هوازن ـ وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلَمي عيناً له فأتاه وأخبره بما شاهد منهم ، فعزم رسول الله ﷺ على قَصْدهم ، واستعار من صفوانَ بن أُمية دروعاً قيل مائة درع وقيل أربعمائة ، واستلف من ربيعة المخزومي ثلاثين ألفاً أو أربعين فلما قدم قضاه إيّاها ودعا له بخير فقال: «بارك الله لك في أهلك ومالك إنما جزاءُ السلَف الوفاءُ والحمدُ».

وخرج رسول الله ﷺ في اثني عشر ألفاً من المسلمين ، منهم عشرة آلاف صحبوه من المدينة ، وألفان من مُسْلمَة الفتح وهم الطُّلقَاء إلى من انضاف إليهم من الأعراب من سليم وبني كلاب وعَبْس وذبيان ، واستعمل على مكة عَتَّاب بن أُسيد ، ومن الطرائف أن بعض الأعراب رأى في طريقه شجرة خضراء ، وكان لهم في الجاهلية شجرة معروفة تسمى (ذات أنواط) يخرج إليها الكفار يوماً معلوماً في السنة يُعَظِّمونها ، فقالوا يارسول الله: اجعلْ لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط فقال عليه السلام: «الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال: إنكم قوم تجهلون ، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ ، حتى أنهم لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه».

ونهض رسول الله ﷺ حتى أتى وادي حنين ـ وهو من أودية تهامة ـ وكانت هوازن قد كمنت في جانبيه ، وذلك في غَبَش الصبح ، فحملت على المسلمين حين توسطوه حملةَ رجل واحد ، وكانوا قوماً رُماة ، فانهزم جمهورُ المسلمين لهول المفاجأة ، وتساقط النَّبْلُ كأنه رَجْلٌ من جراد ، وثبت رسول الله ﷺ وأخذ يدفع بغلته إلى الأمام ويترنم بقوله: «أنا النبيُّ لا كذب أنا ابنُ عبد المطلب» وثبت معه نفرٌ من أصحابه قيل ثمانون وقيل عشرة والجمع بين القولين ميسور، فالثابتون بجواره عشرة والثابتون بعدهم بقية العدد ، ومن الثابتين: أبو بكر وعمر والعباس وأبوسفيان بن الحارث وابنه جعفر وأسامة بن زيد وربيعة بن الحارث والفضل بن عباس وأيمن بن عبيد وهو ابن أم

أيمن حاضنته ﷺ واستشهد يومئذ ، وفي ذلك يقول العباس:

نَصرْنا رسولَ الله في الحرب تسعة وقد فر من قد فر عنه وأقشع

وعاشِرُنا لاقي الحمَامَ بنفسه بما مَسَّهُ في الله لا يتوجع(*)

∴

وثبتت أم سليم في جملة من ثبت مُحْتَزِمةً مُمْسكةً بعيراً لأبي طلحة وفي يدها خنجر، وفي صحيح مسلم عن أنس: قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكُفُّها إرادةَ ألا تسرع ، وأبو سفيان بنُ الحارث آخذٌ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس نادِ أصحابَ السَّمُرَة» فقال العبّاس وكان رجلاً صَيِّتاً فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرَة ؟ قال: فوالله لكأن عَطفَتْهم حين سمعوا صوتي عطفةَ البقر على أولادها ، فقالوا: يا لبيك يا لبيك. وكَرُّوا عليهم كَرَّةَ رجل واحد ، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم يَروها ، وعذَّب الذين كفروا بالهزيمة الماحقة وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ممن أسلم منهم ، وقد أسلم عامتُهم بعد ذلك وجاءوا إلى النبي ﷺ تائبين مستغفرين والله غفور رحيم.

■ **اللواحق**

١. شماتة المنافقين: ولما وقعت الهزيمة تكلم رجال من المنافقين حديثو العهد بالإسلام بما في أنفسهم من الظن والريبة ، وأخذوا يتندرون بذلك فقال بعضهم: لاتنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال آخر: ألا قد بطل السحر اليوم ، حتى أن رجلاً من المشركين رد على هذا القائل بقوله: اسكت فوالله لإن يَرُبَّني رجلٌ من قريش أحب إلى من أن يَرُبَّني رجلٌ من هوازن. وذلك شأن هؤلاء الضعفاء في كل زمان ومكان.

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة الخامسة ـ العدد ٤٠ في ٢٦ ذي القعدة ١٣٦٦هـ/ ١١ أكتوبر ١٩٤٧م.

٢. إسلام شيبة بن عثمان الحجبي: قال شيبة: لما كان عام الفتح ودخل رسول الله ﷺ مكة عنوة ، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى إن اختلطوا أن أُصيبَ من محمد غرَّةً فأثأرَ منه فأكون أنا الذي قمتُ بثار قريش كلِّها ، وكنت أظن أنه لو لم يبق من العرب والعجم أحدٌ إلا اتبع محمداً ما اتبعتُه أبداً ، وكنت مُرْصداً لما خرجت له لايزداد الأمر في نفسي إلا قوةً ، فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته ، فأَصْلَيتُ السيفَ ودنوتُ أريد ما أريد منه فرُفع لي شُواظٌ من نار كالبرق يكاد يَمْحَشُنِي فوضعتُ يدي على بصري خوفاً عليَّ ، فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ فناداني: «يا شَيبُ ادْنُ مني» ، فدنوتُ منه ، فمسح صدري ثم قال: «اللهم أَعِذْهُ من الشيطان» قال: فوالله لَهُوَ كان ساعتئذ أَحبُّ إليَّ من سمعي وبصري ونفسي ، وأذهب الله ما كان في نفسي ، ثم قال: «ادْنُ فقاتِلْ» فتقدمتُ أمامه أضربُ بسيفي ، الله أعلم أني أحب أن أَقِيَهُ بنفسي من كلِّ شئ ، ولو لقيتُ تلك الساعة أبي لو كان حيّاً لأَوقعتُ به السيف ، فجعلْتُ ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون فَكَرُّوا كَرَّةَ رجل واحد وقربت بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها وخرج في إثرهم حتى تفرقوا في كل وجه ، ورجع إلى معسكره فدخل خباءه فدخلت عليه ما دخل عليه أحدٌ غيري حباً لرؤية وجهه وسروراً به ، فقال: «يا شيبُ أحْمَد الله الذي أراد بك خيراً مما أردتَ لنفسك» ثم حَدَّثني بكلِّ ما أضمرت فى نفسي مما لم أكن أذكره لأحد قَطّ. قال شيب: قُلت: أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ثم قلت: استغفر لي ، فقال ﷺ: «غفر الله لك».

٣. وفد هوازن: وانصرف رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجِعِرَّانَةَ وبها السَّبْيُ والغنيمة ، وقدم عليه بها وفد هوازن مسلمين وفيهم تسعة نفر من أشرافهم فقالوا يا رسول الله: إنّا أهلٌ وعشيرةٌ قد أصابنا من البلاء ما لم يَخْفَ عليك فامْنُنْ علينا مَنَّ اللهُ عليك ، وقام خطيبهم زهير بن صُرَد فقال: يا رسول الله إن اللواتي في الحظائر من السبايا خالاتك وعماتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفُلْنَكَ وأنت خيرُ مكفول. وأنشد أبياته المشهورة التي أولها:

امنن علينا رسولَ الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندَّخر

وإنما يريد بخالاته وعماته ـ عليه الصلاة والسلام ـ قرابة الرضاع فقد استُرضع في بني سعد بن بكر عند (حليمة السعدية) وهي من هوازن وكان في السبايا أخته الشيماء وقد أكرمها وَحَبَاهَا ﷺ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «سأطلب لكم ، وقد وقعت المقاسم ومعي من ترون ، وأَحَبُّ الحديث إليّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال ؟ فقالوا: خَيَّرتنا يا رسول الله بين الحسب والمال ، فالحسب أحب إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير. فقال رسول الله ﷺ: «أما الذي لبني هاشم فهو لكم ، وسوف أُكَلِّمُ لكم المسلمين» فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين ، وإني قد رأيتُ أن أردَّ إليهم سبيهم ولقد رددت الذي لبني هاشم عليهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون له حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فلْيقُلْ» فقال الناس: قد طَيَّبْنَا ذلك يا رسول الله ، وَرَدُّوا عليهم ما كان لهم من سبي.

٤ . قسمة الغنائم: روى أحمد والبخاري ومسلم من عدة طرق من حديث عبدالله بن عبد العزيز بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا إذْ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: «يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنّ ، قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله كلما قال شيئاً ؟» قالوا: الله ورسوله أمنّ ، قال: «لوشئتم قلتم جئتنا كذا وكذا». وهو تأدب من الراوي ـ فَسَّرَتهُ رواية ابن سعيد ـ فقال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم فصَدَقْتم وصُدِّقْتم ، أتيتنا مُكَذَّباً فصدّقناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك». وفي رواية من حديث أنس: «أفلا تقولون: جئتنا خائفاً فأمّنّاك ، وطريداً فآويناك ، ومخذولاً فنصرناك» فقالوا: بل المن علينا لله ورسوله ، ثم قال ﷺ: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة

والبعير، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشِعْباً لسلكْتُ وادىَ الأنصار وشِعْبَها ، الأنصار شعارٌ والناس دثارٌ، إنكم ستلقون بعدي أثَرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» فبكى القوم حتى اخْضَلَّت لحاهم بالدموع وقالوا: قد رضينا يا رسول الله.

٥. المؤلفة قلوبهم: روى أحمد ومسلم من حديث رافع بن خديج قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كلَّ إنسان منهم مائة من الإبل يتألف بها قلوبهم ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس:

أيجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع

فما كان بدر ولاحابس ... يفوقان مرداس في مجمع

وما كنتُ دون امرئٍ منهما ... ومَن تخفِضِ اليومَ لا يرفع

فأتم له رسول الله ﷺ مائة. وروى البخاري أن رجلاً رأى ما أخذ هؤلاء وغيرهم فقال: ما أُريدَ بهذه القسمة وجهُ الله ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر». وروى الواقدي أن القائل معتب بن قشير بن عوف وكان من المنافقين. ونقل الحافظ بن حجر في الفتح أسماء المؤلفة قلوبهم الذين أُجزِل لهم العطاءُ فبلغوا أربعين ونَيِّفاً.. والله أعلم.

■ **الحكم**

وقد تجلت في غزوة حُنَينَ حِكَمٌ جليلةٌ منها:

١. التوجيه الرباني: ذلك أن الجيش الإسلامي الظافر حين دخل مكة المكرمة وهي معقل الأمة العربية ، وموطن قريش قادة الناس ، سبق إلى بعض الظنون أن ذلك كان بمحض قوته وعدده وكثرته ، فأراد الحق تبارك وتعالى أن يُوَجِّه عباده إلى الطريق القويم والصراط المستقيم ويلفت الأنظار إلى أن الإعداد سببٌ ولكن

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) ﴾

■ نجاسة المشرك

الكفر ضد الإسلام ، ومن اتخذ من دون الله نداً ولم يؤمن بالكتب ولا بالأنبياء فهو المشرك. ومن آمن بكتاب نزل ونبيٍّ سبق فهو كتابيٌّ وقد يوصف بالشرك أحياناً. وقد يطلق القرآن وصف الكفر على الفريقين.

والنجاسة نوعان: حسية ومعنوية ، أو هي لغوية وشرعية ، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المشرك نجس نجاسة حسية ومعنوية ، وحكى هذا القول عن ابن عباس والحسن البصري ومالك وعن الهادي والقاسم والناصر من أئمة المعتزلة وهو مذهب جمهور الظاهرية والشيعة الإمامية ، وبناء على هذا الرأي فإن من صافح مشركاً وجب عليه أن يطهر يده من نجاسته.

وجمهور أئمة المسلمين على خلاف هذا الرأى ، ومنهم أهل المذاهب الأربعة ، وقد حملوا الآية على النجاسة المعنوية ، والسنة تؤيد ذلك ، وأحكام الإسلام العملية تعززه ، فمن المعلوم أن المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ، ويخالطونهم ولا سيما بعد صلح الحديبية ، وكانت رسل المشركين ووفودهم ترد على النبي ﷺ ويدخلون مسجده ، وكذلك أهل الكتاب ، كنصارى نَجْران واليهود ، ولم يعامل أحداً منهم معاملة الأنجاس ، ولم يأمر بغسل شيء مما أصابته أبدانهم ، بل ورد أنه ﷺ توضأ من مَزادة مشركة ، وأكل من طعام اليهود ، وربط ثمامةَ بن أثال وهو مشرك بسارية من سواري المسجد ، وروى أحمد وأبو داود من حديث جابر بن عبد الله قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فنصيب من آنية المشركين وأسقيتهم فنستمتع بها، ولايعيب ذلك علينا .

هذا هو رأى جمهور أئمة المسلمين ، على أننا سنأخذ بالرأى الأول عملياً ، إذا ما استمر عدوان دولهم وشعوبهم على حرياتنا وخيرات بلادنا ، والإسلام صالح لكل زمان ومكان وحال.

وكالسيف إنْ لاينْتَهُ لان مَتْنُه وحَدّاه إنُ خاشنْتَه خشنان

■ **الكفار فى دار الإسلام**

خلاصة أقوال الفقهاء في ذلك أن بلاد الإسلام بالنسبة للكفار ثلاثة أقسام:

١ . الحرم: فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال ، ذميا كان أو مستأمنا لظاهر الآية ، وبه قال الشافعي وأحمد ومالك ، فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام في الحرم فلا يأذن له في دخوله ، بل يخرج إليه ، أو يبعث له من يسمع رسالته ، وأجاز أبو حنيفة للمعاهد دخول الحرم بإذن الإمام أو نائبه.

٢ . الحجاز: وهو ما بين تِهامةَ ونَجْد وتَبُوكُ منه ، لا يمنح الكفار فيه حق الإقامة ، ويباح دخوله لضرورة. روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، فلا أترك فيها إلا مسلماً». وفي رواية لغير مسلم أنه ﷺ أوصى فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» فلم يتفرغ لذلك أبو بكر رضي الله عنه وأجلاهم عمر في خلافته ، وأَحلَّ لمن قَدمَ إليه تاجراً ثلاثاً . وعن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب». أخرجه مالك في الموطأ مرسلاً ، وحد الجزيرة من أقصى عدن إلى ريف العراق طولاً، ومن جدة وما إليها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضاً .

٣ . سائر بلاد الإسلام: فيجوز للكافر أن يقيم فيها إن كان معاهداً كالأجنبي الذي بين حكومته وبين الحكومة الإسلامية عهد ، أو مستأمناً وهو الذي يدخل بأمان : كالرسل ، أو ذمياً وهو الذي يتبع الحكومة الإسلامية . ولكنهم لا يدخلون المساجد إلا بإذن من مسلم. (انتهى ملخصاً بتصرف من تفسير المنار عن البغوي والخازن) .

■ **نموذج من الامتثال**

ومن المعلوم أن أرزاق أهل الحرم وقوام معايشهم وفودُ هؤلاء الزوار والحجاج والمعتمرين إليهم ، وأكثرهم حين ذاك لازال مشركاً ، فتحريم دخول الحرم عليهم حرمان كبير، ومع ذلك فقد صبروا عليه صبر الكرام امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى ، وإيثاراً لما عنده ، ولم يدعهم الحق تبارك وتعالى فريسة الوساوس ، بل طَمْأَنَهُم بقوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ وقد صدقهم الله وعده وأغناهم من فضله وفتح عليهم أكناف الأرض وجُبيَت إليهم ثمراتُ كلِّ شيء.. والله عليم حكيم.

■ **من أحكام القتال والجزية**

ولما كانت الآية اللاحقة تتضمن أحكام قتال أهل الكتاب بما يتبعها من تفاصيل أحكام الجزية ، وفي ذلك كلام طويل فموعدنا العدد القادم أن شاء الله. (*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة الخامسة ـ العدد ٤٢ في ١١ ذي الحجة ١٣٦٦هـ/ ٢٥ أكتوبر ١٩٤٧م.

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾

■ حكم القتال في الإسلام

وقد قال الفقهاء، وتظاهرت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة: إن القتال فَرْضُ عَين إذا ديست أرض الإسلام أو اعتدى عليها المعتدون من غير المسلمين. وهو فرض كفاية لحماية الدعوة الإسلامية وتأمين الوطن الإسلامي، فيكون واجباً على من تتم بهم هذه الحماية وهذا التأمين.

وليس الغرض من القتال في الإسلام إكراه الناس على عقيدة أو إدخالهم قهراً في الدين والله يقول: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ كما أنه ليس الغرض من القتال كذلك الحصول على منافع دنيوية أو مغانم مادية: فالزيت والفحم والقمح والمطاط ليست من أهداف المقاتل المسلم الذي يخرج عن نفسه وماله ودمه لله بأن له الجنة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ التوبة، والغنيمة بعد ذلك خير ومكافأة دنيوية يسوقها الله للمقاتلين في سبيله مع النصر والأجر ولكنها ليست من مقاصدهم، ولا من أهدافهم.

والمقاتل المسلم أرحم المقاتلين وأبرُّهم بخصومه محاربين أو أسرى وهذه وصية رسول الله ﷺ وخلفائه من بعده لقواد الأجناد: «لا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تقتلوا امرأة ولا

طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا تتبعوا مُدْبراً ولا تُجْهزوا على جريح ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تَعقروا بعيراً إلا للأكل ، وستمرون على أقوام تَرهّبوا في الصوامع فدَعُوهم وما فَرَّغوا أنفسَهم له».

■ حكم قتال أهل الكتاب

وأهل الكتاب يُقاتَلون كما يُقاتَل المشركون تماما إذا اعتدوا على أرض الإسلام أو حالوا دون انتشار دعوته. وكل ما هنالك من فرق:

أن المشركين من العرب لا يقبل منهم حين يقاتلون إلا الإسلام حتى لا يكون في الجزيرة العربية دينان وهي دار الإسلام الدينية الخالدة.

وأما أهل الكتاب فقد ترخص الإسلام في أمرهم وأجاز الاكتفاء بأخذ الجزية منهم ، فمتى تعهدوا بأدائها ورضوا بها فقد وجب أن يُرفعَ عنهم السيفُ ، ومثلهم في ذلك المجوس والصابئون والمشركون من غير العرب والوثنيون كذلك في أرجح الأقوال. وفي المسألة خلاف بين الفقهاء وأرجحها وأولاها بالتطبيق ما ذكرنا هنا إن شاء الله.

■ أوصاف أهل الكتاب في الآية

وقد وصفت الآية أهل الكتاب وهم في عرف الإسلام اليهود والنصارى بثلاث صفات: بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وبأنهم لا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ، وبأنهم لا يدينون دين الحق ، وذلك معلوم من سيرتهم ومن كُتبهم.

- فهم وإن اعترفوا بالألوهية من حيث هي فهم يخلطون في صفات الله تبارك وتعالى وأفعالهم تخليطا عجيبا ، وهم وإن آمنوا بالجزاء والدينونة واليوم الآخر بمعناه الأعم فإنهم لا يتصورون فيه نعيماً حسياً ولا عقاباً مادياً.
- وقد قعدت بهم العقائد المشبوهة عن تحقيق القسم الثاني من الدين وهو القسم العملي ، واستشهدت الآية على ذلك بأنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

وهل المقصود بعدم التحريم أنهم استحلوا بعض ما ورد تحريمه عن أنبيائهم السابقين ، أو أنهم استحلوا ما ورد على لسان رسول الله سيدنا محمد ﷺ ؟

قولان: والثاني أظهر، فهم يُخاطَبون بهذا الدين لعموم بعثته عليهم فإنْ آمنوا فهم ناجون ، وإن أعرضوا فقد هلكوا.. وذُكر التحريم واكتفي به عن ذكر الناحية المقابلة وهي فعل الفرائض والمأمورات لبيان أنهم غير حريصين على ما فيه فائدتهم ، فإن حكمة التحريم ظاهرة وهي الضرر، فإن كانوا يُقْدمون على ما يجلب عليهم الضرر عناداً وتحدياً فهم على القعود عما يجلب عليهم النفع أجرأ تحدياً وعناداً كذلك ، ومن استحل الحرام فمن باب الأَوْلَى لن يفعل الحلال.

- وبهاتين الصفتين تحققت الصفة الثالثة ، وهي أنهم لا يدينون دين الحق وهو الإسلام: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ ، ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ آل عمران: ١٩﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ آل عمران. وبهذا تكون الآية قد كشفت عن أوصاف أهل الكتاب ، وهذه الأوصاف فيها بالبيان الواقع.

- وقد ذهب بعض العلماء: إلى أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يحرم ما حرم الله ورسوله عليه في كتبه التي هو مخاطب بها مكلف باتباعها وأنهم بذلك يَدينُون دين الحق في عُرفهم ، وعلى هذا لا تجب مقاتلتهم إلا إذا غَيَّرُوا وبَدَّلُوا واستحلوا ما حرم الله عليهم على لسان أنبيائهم ، فاعتبر الأوصاف شروطا في وجوب القتال. والنتيجة العملية واحدة لأنه من المقطوع به أنهم غيّروا وبدّلوا وأنهم لا يدينون دين الحق الذي جاء به أنبياؤهم الذي فيه البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه والذي جاء به محمد ﷺ وهو الإسلام.

■ أحكام الجزية

الجِزْيَة: ضريبةٌ من الخَراج تُضرَب على الأشخاص لا على الأرض. والكلمة عربية مُشْتَقَّة من الجزاء كأنها تدفع جزاءً لحقن الدم ، أو للحماية والمَنعَة والتمتع بحقوق أهل الإسلام ، أو هي جزاء الإعفاء من ضريبة الدم والجندية في القتال.

وقال شمس العلماء الشيخ شبل النعماني الهندي رحمه الله: إنها فارسية مُعَرَّبةٌ وأصلها (كزيت) ومعناها: الخَراج الذي يستعان به على الحرب. وأطال في الاستدلال على ذلك في رسالة خاصة نشرت في المجلد الأول من مجلة المنار، ومما استأنس به في ذلك أن التاريخ يثبت أن كسرى هو أول من وضع الجزية ، فالجزيةُ نظامٌ فارسيٌّ وليس مبتكراً من الإسلام.

ولقد كان يخطر ببالي ويهمس في نفسي دائما أن الجزية إنما وضعت (كبدلٍ نقدي)عن الجندية ، وأن الإسلام إنما لجأ إليها وأوجبها على غير المسلمين من باب التخفيف والرحمة وعدم الحرج حتى لا يُلْزِمهُم أن يقاتلوا في صفوف المسلمين فَيُتَّهم بأنه إنما يريد لهم الموت والاستئصال والفناء والتعريض لمخاطر الحرب والقتال ، فهي في الحقيقة (امتياز في صورةٍ ضريبة) هذا في الوقت الذي يتخذ منها الإسلام أيضا احتياطاً لتنقية صفوف المجاهدين من غير ذوي العقيدة الصحيحة والحماسة المؤمنة البصيرة.

وكان يخطر لي أن مقتضى هذا أن الإمام إذا رأى من مصلحة الوطن الإسلامي أن يجند غير المسلمين سقطت عنهم الجزية بهذا التجنيد. ولقد ناقشني في هذه الخواطر بعض الفقهاء الصالحين مستدلا بنصوص بعض المذاهب في هذا المعنى ، ولم أشأ الاسترسال في الجدل إذ لم يكن بين يدي حينذاك من الشواهد والأدلة التاريخية العملية ما يدعم هذه الخواطر التي تتوارد على نفسي ، ثم رأيت بعد ذلك تفسير المنار قد ألَمَّ بهذه القضية وذهب إلى ما كان يدور بنفسي ودعَّمه بكثير من هذه الشواهد والأدلة ، وإليك تلخيصُ ما قاله في ذلك:

ولعلك تطالبني بإثبات بعض القضايا المنطوية في هذا البيان أي إثبات أن الجزية ما كانت تؤخذ من الذميين إلا للقيام بحمايتهم والمدافعة عنهم ، وأن الذميين لو دخلوا في الجند أو تكلفوا أمر الدفاع لأُعفوا من الجزية ، فإنْ صَدقَ ظني فاصْغِ إلى هذه الروايات التي تعطيك الثَلَج في هذا الباب وتحسم مادة القيل والقال:

فمنها: ما كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وأوغل فيها وهذا نصه: (هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه أني عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا) كُتبَ سنة اثنتى عشر في صفر.

ولقد ردَّ الأمراء بأمر أبي عبيدة ما كانوا أخذوه من الجزية من أهل حِمْص وما إليها حين جلوا عنها ليتجمعوا لقتال الروم ، وقالوا لأهل البلاد: إنما رددنا عليكم اموالكم لأنه قد بلغنا ما جُمع لنا من الجموع ، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك الآن ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إنْ نصرنا الله عليهم. فكان جواب أهل هذه البلاد: رَدكُم الله علينا ونصركم عليهم ، فلو كانوا هم لم يَرُدُّوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء ، لَولايَتُكم وعدلكم أحب إلينا مماكنا فيه من الظلم والغشم ولَنذُمَّنَّ جندَ هرقل وأَغلَقوا الأبوابَ وحرسوها. وكذلك فعل أبو عبيدة مع دمشق ، وذلك حين كان يتجهز لليرموك.

ومنها: ـ وهو وما بعده يدل على أن أهل الذمة إذا لم يشترطوا الحماية أو شاركوا في الجندية لا يطالبون بالجزية ـ كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرف أحد قادة عمر ـ رضي الله عنهما ـ لرزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان ونصه: (هذا كتاب سويد بن مقرف لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان: إن لكم الذمة وعلينا المنعة ، على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه (أي جزيته) في معونته عوضا عن جزائه ، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شئ من ذلك). شهد سواد ابن قطبة وهند بن عمر وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس ، وكتب في سنة ١٨هـ.

ومنها: كتاب عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب وهذا نصه: (هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها

وحواشيها وشغارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة، ومن أقام فله مثل من أقام من ذلك) الطبري.

ومنها: العهد الذي كان بين سراقة عامل عمر وبين شهر براز وقد كتب به سراقة إلى عمر، فأجازه واستحسنه وهذا نصه: (هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان أعطاهم امانا لأنفسهم وأموالهم وملّتهم الا يضاروا ولا تنقضوا وعلى أرمينية والأبواب الطراء منهم (أي الغرباء) والقناد (أي المقيمين) ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر نابَ أو لم يَنُبْ رآه الوالي صلاحا على أن يوضع الجزاء (أي الجزية) عمن أجاب إلى ذلك ومن استغنى عنه منهم ، وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء فإن حشروا (أي جُنِّدُوا) وضع ذلك عنهم). شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير بن عبدالله وكتب مرضي بن مقرن وشهد.

ومنها: ما كان من أمر الجراجمة فيما ذكره البلاذري فقال: حدثني مشايخ من أهل أنطاكية أن الجراجمة من مدينة على جبل لكام عند معدن الزاج فيما بين بيامن وبوقا يقال لها: الجرجومة ، وأن أمرهم كان في استيلاء الروم على الشام وأنطاكية إلى بطريرك أنطاكية وواليها ، فلما قدم أبو عبيدة إلى أنطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم ، فلم يَنْبَه المسلمون لهم ولم يَنْبَهُوا عليهم ، ثم إن أهل أنطاكية نقضوا وغدروا فوجه إليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلم الفهري.. ففزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح فصالحوه على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ولم يؤخذوا بالجزية ، ثم إن الجراجمة مع أنهم لم يوفوا ونقضوا العهد غير مرة لم يؤخذوا بالجزية قط ، حتى إن بعض العمال في عهد الواثق بالله العباسي ألزمهم جزية رؤوسهم فرفعوا ذلك إلى الواثق فأمر بإسقاطها عنهم.

وهذا الكلام واضح كما ترى في أن الجزيةَ مقابل المَنعَة إن اشترطوها ، وفي حق الإمام في إسقاطها عنهم إذا اقتضى الأمر تجنيدهم ، ونحن نضعه أمام أنظار السادة الفقهاء الأجلاء والعلماء الفضلاء ليقولوا كلمتهم فيه والحقيقة بنت البحث. (*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة الخامسة ـ العدد ٤٣ في ٢٥ ذي الحجة ١٣٦٦هـ/ ٨ نوفمبر ١٩٤٧م.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾

■ دعوة النبوة في الأديان السابقة

عزير هو الذي يسمى عند اليهود: عزرا ، وله عندهم المنزلة العليا ، إذ يعتبر عصره من أزهى عصور اليهود الدينية ، وله فضل عظيم عندهم إذ ينسبون إليه أنه جَدَّدَ التوراة بإلهام من الله بعد أن أحرقت نسخها في عهد بَخْتُنَصّر أو (نَبوخَذْ نَصّر).

قال كليمص اسكندريانوس: أن الكتب السماوية ضاعت فألهم عزرا أن يكتبها مرة أخرى. ثم هم يقولون: أن ما كتبه عزرا قد أحرق هو الآخر عندما استولى انطيوكس ملك سوريا على أورشليم وأمر أن من يوجد عنده نسخة من كتب العهد العتيق يقتل وتعدم تلك النسخ.

ولفظ (ابن الله) أطلق في كتب اليهود والنصارى عدة إطلاقات:

- أطلق على آدم كما جاء في نسب المسيح في آخر الفصل الثالث من إنجيل لوقا (ابن شيث ابن آدم بن الله).

• وأطلق على يعقوب كما في الفصل الرابع من سفر الخروج (٤-٢٢ هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر).

• وأطلق على افريم كما في سفر أرميا (٩-٣١ لأني صرت أنا وأفريم هي بكري).

• وأطلق على داود كما جاء في مزامير (٢٦-٨٩ هو يدعوني أبي أنت إلهي وصخرة خلاصى. وفي مزامير ٢٧: أنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من كل ملوك الأرض).

• وأطلق على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين في مواضع كثيرة من كتب العهدين القديم والجديد.

ولا شك أن المراد بالبنوَّة في كل هذه الإطلاقات معان مجازية من التكريم أو الرحمة أو نحو ذلك ، وتخصيص ما ورد في هذه الكتب نحو عزير وعن المسيح من حيث وصفهما بهذه البنوة بأن المقصود به الحقيقة اللغوية أمر عجيب لا مبرر له من هذه النصوص نفسها.

ولهذا رد القرآن هذه الدعوى التي لم ينهض عليها دليل وأظهر أن مصدرها ما تسرب من أفكار الأمم السابقة ، فقد كان الهنود والفرس والصينيون والرومان وغيرهم ينسبون إلى آلهتهم الأبناء من ملوكهم أو عظمائهم ، وهذه من معجزات القرآن ، فما كان العرب يعرفون شيئا عن معتقدات الأمم السابقة وآرائها التي كشف عنها البحث الحديث وأفاض في ذكرها والموازنة بينها علماء الغرب في هذه الأيام ، كما أنهم لم يكونوا يعرفون كذلك مبلغ مشابهتها لما يردده أهل الكتاب، ومع هذا فإن القرآن يقول: ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾.

■ ربوبية الأحبار والرهبان

الأحبار: جمع حَبْر وهو العالم بالدين.

والرهبان: جمع راهب وهو المتبتل المنقطع للعبادة.

والمقصود باتخاذهم أربابا أحد أمرين والله أعلم:

أولهما: التعظيم الزائد عن الاحترام المعتاد الذي يؤدي إلى اعتقاد أنهم مصدر نفع أو ضرر، كما يلاحظ ذلك في غلاة التلاميذ أو المريدين بالنسبة لأشياخهم.

وثانيهما: اعتقاد أن لهم حق التشريع والتحريم والتحليل وفق أهوائهم، فالحلال ما أحلُّوه، والحرام ما حرَّموه، بغير سلطان أتاهم أو حجة من الله بين أيديهم.

وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين، روى الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في السنن، وغيرهم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. فقال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرموه».

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير عن عدي: أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فأُسِرَتْ أُختُه وجماعةٌ من قومه، ثم منَّ رسول الله ﷺ وأعطاها، فعزم على القدوم على النبي ﷺ، فقدم على المدينة - وكان رئيساً في قومه طئ وأبوه حاتم المشهور بالكرم - فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وألقى ﷺ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى إنهم حَرَّموا عليهم الحلال وأَحَلُّوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي ما تقول؟ أيضرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله؟ ما يضرك؟ أيضرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام، وشهد شهادة الحق. قال هذا فرايت وجهه استبشر.

وكلا المعنيين نهى الإسلام عنه وحذر منه، وهذا رسول الله ﷺ نهى أشد النهي عن أن يتمثل له الرجال قياما أو أن يقولوا عنه أكثر من أنه عبدُالله ورسولُه، ثم هو بعد ذلك ليجهر بأنه لا يُحل ولا يُحرم ولا يأمر ولا ينهى إلا بما أوحي إليه: ﴿ وَإِذَا

تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ يونس. فكيف بغيره من العلماء أو العباد.

أما أن أهل الكتاب قد أُمرُوا بعبادة الله وحده على لسان موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ فذلك بنص كتبهم ، فلقد جاء بسفر الخروج في أول الوصايا العشر: (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تضع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما في السماء من فوق ولا مما في الأرض من تحت ولا مما في السماء تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور). وجاء في إنجيل يوحنا قوله: (٧: وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك ، أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته).

فذلك أمر الله إياهم: ألا يعبدوا غيره سبحانه عما يشركون.

■ كيد أعداء الدين للدين

ولقد دأب أعداء النور الرباني من هداية الله التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم على مقاومة هذا النور ومحاولة إطفائه ، فأخذ اليهود منذ بعثة الرسول ﷺ يناوئون هذه الدعوة الربانية: بالمجادلة الباطلة تارة ، ثم بالغزوات والحروب الفاشلة تارة أخرى ، ثم بعد ذلك بالدسائس والمؤامرات والمكائد وإدخال البدع والخرافات والأفكار الفاسدة المفرقة تارة ثالثة ، وهاهم اليوم لا زالوا يحلمون بالدولة اليهودية التي يريدون من وراء إنشائها تمزيق وحدة الإسلام والمسلمين ، ولن يصلوا إلى شئ من ذلك بإذن الله. وها هو الغرب المسيحيُّ صورةً ، يحاول بكل الوسائل أن يفرق جماعة المسلمين ويقضي على نهضتهم باحتلال أرضهم والاستيلاء على مقدرات أوطانهم ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ولكن الله تبارك وتعالى تكفل لهذا الدين بالحفظ والظهور، وتكفل للمؤمنين الصادقين بالفوز والنصر، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

■ ما يُرجى من ظهور الإسلام

ولقد وعد الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة بتأييد كلمة الإسلام وإعزاز أهله فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ النور: ٥٥ ، وكما جاء في هذه الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

وقد ذهب قوم إلى: أن ذلك الظهور قد تم ووقع وانتهى أمره. وذهب آخرون: إلى أنه لا يتم إلا على يد المهدي وعيسى عليه السلام في آخر الزمان. وقعد آخرون عن العمل لمجد الإسلام يأساً ، وقعد الآخرون عن ذلك انتظاراً ، وكلا الفريقين غير محق ، والصوابُ ـ والله أعلم ـ أن هذا الوعد وعدٌ دائمٌ متجددٌ باق وأنه سنَّةٌ من سنن الله تعالى التي لا تتخلف والتي تقررت بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ الرعد: ١٧ ، وبقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ الأنبياء: ١٨، وقد جرت سنة الله تبارك وتعالى أن إرادته تتحقق بأخذ العباد في الأسباب ، وكل شيء له سبب ، فإذا أخذ المسلمون في أي عصر من العصور بأسباب القوة ، فإن ذلك ولا شك إيذان من الله تبارك وتعالى بظهور دينه على كل الأديان ، وعلو شريعته على كل الشرائع في هذا العصر، ولو كره ذلك المشركون الذين يخلطون بنظم الله وأديانه وشرائعه غيرها مما كسبت أيديهم ومماً يكتبون..

والله أعلم.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة السادسة ـ العدد ١ في ٢ محرم ١٣٦٧هـ/ ١٥ نوفمبر ١٩٤٧م.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾

■ فتنة المال

الأحبارُ: علماءُ اليهود.

والرهبانُ: عُبَّادُ النصارى.

والصنفان خيارُ أهل الكتاب الذين تغالى كثير منهم في تقديسهم حتى اتخذوهم أرباباً من دون الله كما تقدم. ومع هذا فقد فَتَن المالُ الكثيرَ منهم فانزلقوا عن قدسية الزهادة في الدنيا والعزوف عن زينتها وتهافتوا على جمع الثروة وطلب الغنى وكنز المال وأكله بالباطل.

وفي التعبير بالكثير دون التعميم عدلٌ وإنصافٌ يلازمان دائما أحكام القرآن الكريم، ولا تجد أعدل حكماً ولا أكثرَ نَصَفَةً من أحكامه حين يصدرها حتى على مخالفيه والذين لا يؤمنون به، وذلك واضح في كل مواضعه، وتأملّ قولَه في موطن آخر عن عيسى عليه السلام وأتباعه: ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ الحديد، تَرَ أعدلَ وأوضحَ وأدقَّ تلخيصٍ لتاريخ الرهبنة ونتائجها في المسيحية.

وأَكْلُ أموال الناس بالباطل له صور شتى عند أهل الكتاب وعند الأحبار والرهبان وغيرهم ، والحديث وإن كان فيهم إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ـ كما يقولون ـ فهو توجيهٌ للناس جميعا . ومن هذه الصور:

١. تقديم القرابين والهدايا والضرائب لرؤساء الأديان كالأحبار والرهبان عند أهل الكتاب وشيوخ الطرق عند المسلمين ويسمونها (العوائد) فهذه العوائد حرام ، وهي من أكل أموال الناس بالباطل ، حتى ولو قدمت في صورة هدايا فإن الغرض منها والدافع إليها معلوم ، وكذلك النذور والهدايا للأضرحة ونحوها إنما يتقاسمها ذوو الغنى والثراء من سَدنَتِها ، مع أنها تقدم من أفقر طبقات الأمة وممن هم أحوج إليها ممن يتقاسمونها.

٢. ومنها ما كان يقدم للأحبار والرهبان لقاء مغفرة الذنوب وضمان الجنة والمثوبة ، وقد تبجَّحوا بذلك حتى جعلوها صكوكاً مكتوبة كانت سبباً في ثورة الإصلاح الديني في أوربا على ما هو معروف في التاريخ.

٣. ومنها الربا يتعامل به هؤلاء الناس ويستغلون سلطانهم الروحي على اتباعهم الفقراء أو الأغنياء على السواء ، ويحللون لهم ذلك بنصوص وتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان.

٤. ومنها المكافآت على الفتاوى الباطلة ، والزُّلْفَى لدى الكبراء والأمراء والأغنياء بتهوين أمر الطاعات والمعاصي لديهم ومسايرتهم على ما هم فيه من باطل وعدم إزعاجهم عنه بالأمر المعروف والنهي عن المنكر، بل بتصوير المنكر معروفا لديهم حتى لا يصطدم برغباتهم وأهوائهم. وقد أخذ الله العهد والموثق على أهل الكتاب أن يُبَيِّنُوه ولا يكتموه وأن يقوموا به في الناس ويجعلوه ميزاناً فيما بينهم وبين غيرهم ، فما أحله أحلوه وما حرمه حرموه. وبخروجهم عن هذه القاعدة لُعِنُوا على لسان داوود وعيسى بن مريم: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾ المائدة.

■ **من أساليب الصد عن سبيل الله**

كما ذكرت الآية الكريمة أن من أخلاق هذا الكثير من الأحبار والرهبان أنهم يصدون عن سبيل الله ، ولذلك مظاهر عدة وأساليب كثيرة في القديم وفي الحديث منها:

١. تغريرهم بأتباعهم وإفهام هؤلاء الاتباع أن زمام التشريع في أيديهم وأن سلطة الله قد انتقلت إليهم ، فما أحلُّوه في الأرض أحلَّهُ الله في السماء ، وما حرَّموه في الأرض حرَّمه الله في السماء ، ومن غفروا له فقد غفر الله له ، ومن حرَمُوه ملكوت السماء فقد حَرُمَتْ عليه الجنة ، وهكذا.. وهم بذلك يصدونهم عن أن يتوجهوا إلى الله العلي الكبير ويسلكوا سبيله القويم بمبرر من إيمانهم ، وقريب من هذا ما يفعله بعض الشيوخ من مثل هذه المزاعم يموهون بها على أتباعهم ، والحلال والحرام حكم الله ، والمغفرة والعذاب بيد الله ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم.

٢. تكذيبهم برسالة رسول الله ﷺ مع معرفتهم إياه كما يعرفون أبناءهم ووضوح دلائل نبوته في كتبهم ، حتى كان ابن صدريا الحبر اليهودي بالمدينة يقول: والله إني لأعرف محمدًا كما أعرف ابني ، ولكنّ أتذهب النبوةُ من بنى إسرائيل ؟

٣. ومن هذه الأساليب في العصر الحديث انتشار إرساليات التبشير في كل مكان من أرض المسلمين وغيرهم ـ تحميها الدول وتمدها الهيئات بالمال الوفير ليَفتنُوا المسلمين عن دينهم وَلَيَحُولُوا دون انتشار الاسلام في الأرض المتعطشة لِريِّه والأقطار المتشوقة لنوره ـ وافتتاح المدارس ، وإنشاء المشافي ، ودور العلاج ، وإقامة الملاجئ ، وغير ذلك من الأعمال التي في ظاهرها الرحمة وخدمة الانسانية وفي باطنها العذاب والصد عن سبيل الله.

٤ . ومن هذه الأساليب في العصر الحديث محاولة الصهيونية الاستيلاء على الأرض المقدسة ، وتمزيق وحدة العرب والمسلمين والحيلولة دون قيام رابطتهم وإغراء الضعفاء منهم بالمال والشهوات ، وفي ذلك أكبر الصد عن سبيل الله.(*)

■ **عاقبة كنز المال والبخل به**

وبما أن المال وسيلة لا غاية والمقصود من جمعه واكتسابه إنفاقه في الخير واستخدامه فيما ينفع صاحبه ويعود على الناس جميعا بالفائدة ، حرَّم الله كنزه وتعطيله ، وتوعد الذين يكنزونه بهذا الوعيد الشديد: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفي التعبير بالتبشير هنا تَهكُّمٌ لاذعٌ ، وَلفتُ نظر شديد إلى ألم العذاب ومرارته.

وهل الآية الكريمة خاصة بأهل الكتاب أو هي عامة تشملهم وتشمل المسلمين معهم ؟

ذهب معاوية إلى الأول ، وذهب أبو ذر إلى الثاني وكان الخلاف بينهما حول ذلك ، والأخلق بعموم رسالة القرآن وشمول مقاصده أنها صفة عامة لكل كائن من أهل الكتاب أو غيرهم.

واختلف العلماء في نفس الكَنْز، فقال أبو ذر: إنه ادخار ما فوق الحاجة مهما كان قليلاً. روى أبو يعلى بإسناد فيه ضعف عن ابن عباس قال: استأذن أبو ذر على عثمان فلما دخل قال له عثمان: أنت الذي تزعم أنك خير من أبي بكر وعمر؟ قال: لا ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أحبكم إليَّ وأقربكم منِّي من بقى على العهد الذي عاهدته عليه» وأنا باق على عهده ، قال: فأمره أن يلحق بالشام ، وكان يحدثهم ويقول: لا يَبِيتَنَّ عند أحدكم دينار ولا درهم إلا ما ينفقه في سبيل الله أو يعده لِغَرِيم ، فكتب معاوية إلى عثمان: إن كان لك بالشام حاجة فابعث إلى أبي ذر، فكتب إليه عثمان أن أقدم فقدم.

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة السادسة ـ العدد ٢ في ١٦ محرم ١٣٦٧هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م.

وروى البخاري ومسلم عن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملأ من قريش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلم ثم قال: بَشِّر الكَانِزِينَ برَضْف يُحْمَي عليهم في نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نفض كتفه ويوضع على نفض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل ، ثم وَلَّى ، فتبعته وجلست إليه وأنا لا أدري من هو ، فقلت: لا أدري القوم إلا قد كرهوا الذي قلتَ ، قال: إنهم لا يعقلون شيئاً ، قال لي خليلي ، قلتُ: ومن خليلُك ؟ قال النبيُّ ﷺ : «يا أبا ذر أتبصر أُحُداً ؟ » قال فنظرتُ إلى الشمس ما بقى من النهار وأنا أرى أن رسولَ الله ﷺ يرسلني في حاجة له ، فقلت: نعم ، قال ﷺ: «ما أحب أن لي مثل أُحُد ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير» إن هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون الدنيا ، والله ما أسألهم دنيا ولا أستعينهم في دين حتى ألقى اللهَ عز وجل.

ووجه إليه صهيب بن سلمة وهو أمير بالشام ثلاثمائة دينار وقال: استعن بها على حاجتك فَردَّها ، وقال لرسوله: ارجع بها إليه أما وجَدَ أَغرَّ بالله منا ؟ ما لنا إلا الظلُّ نتوارى به ، وثلاثةٌ من غنم تروح علينا ، ومولاةٌ لنا تَصدَّقُ علينا بخدمتها ، ثم إني لأتخوفُ الفَضْل.

وذهب الجمهور إلى أن المراد بالكنز: إدخار المال مع عدم إخراج زكاته فإذا خرجت الزكاة فقد طهر بها وخرج صاحبه من وعيد الكانزين. أخرج بن أبي شيبة في مسنده وأبو داود والحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي في شُعَبه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ كَبُرَ ذلك على المسلمين وقالوا: وما يستطيع أحدٌ منا لولده مالاً يبقى عنده ؟ فقال عمر: أنا أُفَرِّجُ عنكم ، فانطلق واتبعه ثَوبانُ فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يا نبي الله إنه قد كَبُرَ على أصحابك هذه الآية ؟ فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّبَ بها ما بقى من أموالكم وإنما فَرضَ المواريث من أموال تبقى بعدكم» فَكبَّر عمرُ رضي الله عنه ثم قال له النبيُّ ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يُكْنَزُ ؟ المرأةُ الصالحةُ إذا نَظَرَ إليها سَرَّته ، وإذا أمرها أطاعَته ، وإذا غاب عنها حَفِظَته». وأخرج مالك والشافعي وابن أبي شيبة وغيرهم عن ابن عمر أيضا قال: ما أُدِّيَ زكاتُه فليس بكَنز وإن كان تحت سبع أرضين ، وما لم تُؤَدَّ زكاتُه فهو كَنْزٌ ولو كان ظاهراً.

والأخلق بشريعة القرآن الكريم أن يقال ـ والله أعلم ـ أن ما ذهب إليه أبوذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو شريعةُ الزاهدين وعزيمةُ الأقوياء من المتقشفين ، وما ذهب إليه الجمهورُ هو التشريع العام للناس جميعاً في أموالهم العادية ، فإذا استدعت مصلحة الجماعة نفقة زائدة عن الزكاة المفروضة وجب على الأغنياء بَذْلُها ، فإذا قَصَّروا كانوا من الكانزين الكنز المذموم واستحقوا هذا الوعيد حتى ولو استغرقت حاجةُ الجماعة ومصلحتُها كلَّ أموالهم بعد الكَفاف ، فالحكم على هذا يدور مع مصلحة الجماعة وحاجتها، وحَدُّه الأدنى الزكاة وحَدُّه الأعلى الكفاف.. والله أعلم.

■ أسلوب العذاب

وقد صورت الآية العذاب الأليم للكانزين تصويراً هائلاً، فهو أن يُحْمَى على هذه الكنوز، وليس بلازم أن تكون أعيانها ، بل بما هو يقدرها في نار جهنم حتى تصير حميماً مذاباً ، ثم تُكوى بها جباهُهم التي كانوا يرفعونها استعلاء بالمال والثروة ، وجنوبُهم وظهورُهم التي كانت تتقلب على فُرُش النعيم وتتحرفُ لطلاب الحاجات ، ويقال لهم مبالغة في التوبيخ: هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون.

روى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعاً: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جُعِلَ له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبُه وجبهتُه وظهره». وفي البخاري والنَّسائي عنه مرفوعا كذلك: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعٌ أقرعٌ له زَبيبتان يُطَوَّقه يوم القيامة فيأخذ بلِهْزِمَتَيه يقول: أنا مالُك أنا كنزُك» ثم تلا الآية الكريمة: ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

ولو أخذ الناس بهدى القرآن الكريم في الادخار والإنفاق ، لما كان في الدنيا جائعٌ ولا عريانٌ ولا مهضومٌ ولا مظلومٌ ، ولأَقْفَرَتِ الجفونُ من المدامع ، واطمأنتِ الجنوبُ في المضاجع ، ولمحَتِ الرحمةُ الشقاءَ من المجتمع كما يمحو نورُ الصبح ظلامَ الليل.

فيا أيها السعداء: امحوا دموعَ الأشقياء وارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة السادسة ـ العدد ٢ في ٢٣ محرم ١٣٦٧هـ/ ٦ ديسمبر ١٩٤٧م.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾

■ مناسبة

بعد أن بَيَّن القرآنُ طرَفاً من أحوال المشركين في أول السورة وطرفاً من أحوال أهل الكتاب ، وكان ختام هذا البيان ذكر ما تشترك فيه الأمم جميعا في كثير من الأحيان ـ بدافع حب المال ـ من أكل أموال الناس بالباطل وكنز الذهب والفضة وعدم إنفاقها في سبيل الله ، ناسَبَ أن يذكر بعد ذلك تقدير الوحدة الشرعية في عرف القرآن وهي (العام) وبيان أقسامها ووجوب تحرى العمل الصالح فيها ، ثم ما عرض عليها من تغيير وتبديل للأغراض الدنيوية الزائلة ، ووجوب التزام نظام ثابت في ذلك تتحرى فيه مصالح الدنيا والآخرة. فذكر عدة الشهور والقاعدة فيها ، وتحريم أربعة منها وما يترتب على ذلك من أحكام ، وعرض لعادة المشركين التي جروا عليها في جاهليتهم من التغيير والتبديل اتباعا للعرب ورغبة في القتال والمغانم الحرام ، وعابها عليهم ونهى عنها المؤمنين أشد النهي ، وهي عادة النسيء الذي وصفته الآية الكريمة بأنه: زيادة في الكفر.

▪ حكمة إيثار الشهور القمرية

وللشهور حسابان أساسيان ، فالحساب الأول: تابع لحركة الشمس والحساب. والثاني: تابع لحركة القمر. وتحديد الوحدة بعام شمسي أو قمري إنما جاء بطبيعة انتهاء الدورة خلال هذا الزمن ، والتقسيم إلى اثنى عشر شهرا إنما جاء بطبيعة البروج والمنازل ، فبروج الشمس إثنا عشر ومنازل القمر اثنا عشر كذلك ، وذلك التقسيم قائم منذ تم تكوين هذه المجموعة ، فهو في كتاب الله بحكم التكوين منذ خلق الله السماوات والأرض ، ومعنى (الكتاب) على هذا الفهم التقدير الإلهي التكويني.

ويرى بعض المفسرين: أن هذا التقسيم بحكم الشرع فمعنى (الكتاب) إذن التقييد الإلهي التشريعي السابق في علم الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ولعل الأول أولى وأدق وأوفى بالغاية من تأكيد هذا التقسيم وإنه لا يمكن أن يخالف بحال.

وإنما آثر الإسلام الحساب بالشهور القمرية لا الشمسية فالصوم والحج والأعياد والمواسم كلها تتبع هذا الحساب ، لحكمة بالغة هي بساطة هذا الحساب وسهولة إدراكه للناس جميعا ، لأن ظهور الهلال علامة لأول كل شهر، فيستطيع كل إنسان أن يدرك وأن يحسب وأن يؤدي شعائر الله المرتَّبة بهذا التوقيت من غير حاجة إلى الحاسبين أو المتحكمين من رؤساء الأديان أو علماء الفلك أو أدعياء التنجيم والتوقيت ، فبساطة هذا الحساب وفطرته تتمشى مع سهولة الإسلام ويسره ، كما أن من الحكم كذلك أن تقع العبادات في أوقات وفصول مختلفة من السنة فيستفيد الإنسان بمزاياها جميعاً ويستقبلها كلاً بطاعة الله.

▪ لطيفة

ولعل من اللطائف في الآية الكريمة التنصيص على عدد الشهور بهذا الوضوح وتأكيد هذا العدد بهذه القوة مع التسليم بصحته ، فقد ظهر في هذا الزمان من يزعم

أن الشهور تسعة عشر، ويحسبها حسابا لا قاعدة له ، ولا أساس يستند إليه ، ويدعى أن هذا دين ورأي سديد ، وما هو إلا خرافة ووهم ، فكأنما سبقت الآية بالرد على مثل هؤلاء قبل أن يظهروا في عالم الوجود ، وهي من دقائق القرآن الكريم ومعجزاته ولا شك.

■ الأربعة الحُرم

والأربعة الحُرم هي ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب. روى الشيخان وغيرهما من حديث أبي بكر ﵁ عن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا فيها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورَجبُ مُضَرَ الذي بين جُمادى وشعبان».

ومعنى استدارة الزمان الواردة في الحديث ـ والله أعلم ـ أن الشهور قد عادت إلى حسابها المعتدل بعد أن غيَّرها العرب بالنسيء كما سيأتي ، ووقع حج النبي ﷺ في ذي الحجة على وضعه الأول منذ قسمت الشهور. وروى الطبراني عن بعض السلف أنه اتفق في حجة الوداع حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد هو يوم النحر من هذا العام ، فإذا صح كان بشارة وإشارة إلى ما جاء به الإسلام من جمع كلمة الناس جميعا على شرع واحد هو هذا الدين القيم.

﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ في الأربعة الحرم باستحلال القتال فيها بعد أن أكد الإسلام حرمتها وحرَّم فيها القتال أو في الشهور كلها بأن يستخدم الوقت في العبث أو العصيان فيظلم الإنسان نفسه بصرف وقته في غير ما خلق له من طاعة الله وأداء حقوقه وقد خلق الله الموت والحياة وجعل العُمَر بينهما ابتلاءً وامتحاناً للناس ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) ﴾ هود، قولان ولعل الثاني أشمل وأفضل .. والله أعلم.

■ من أحكام القتال

وهل يجب على المسلمين جميعا قتال المشركين جميعا كما هو ظاهر الآية الكريمة: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ ؟ نعم وذلك هو الشأن ابتداءً ، فالمشركون أهلُ باطل والمؤمنون أهلُ حق وما التقى الباطل والحق إلا اصطرعا جميعاً ، ويُديلُ الله للحق من الباطل ويقذف به عليه فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكن الأمور لا تجري دائما على هذا الوضع النظري بل قد يقاتل بعض المشركين بعض المسلمين وحينئذ يكون القتالُ فَرْضَ عَين على مَن ندَبهُم الإمامُ له وفَرْضَ كفاية على الأمة كلِّها ، وإذا أُعلِنَ النفيرُ العام فقد وجب القتالُ على الجميع.

■ أحكام النسيء

والنسيء في اللغة: التأخير، وعملاً تغيير الشهور عن أوضاعها وتأخير حرمة بعضها تعجيلا في القتال والغارة. وكانت الصورة الغالبة فيهم بعد أن ينتهوا من الحج أن يقف أهل بني كنانة ممن وكل إليهم النسيء ـ وقد انتهى ذلك قبيل الإسلام إلى أبي تمامة القلمي بن أمية بن عوف ـ فيقول: إني لا أُحابي ولا أُعابُ ولا يُرَدُّ ما قضيتُ به وإني قد أخرجتُ حرمةَ المحرم وجعلتُها في صفر فيمضي الأمرُ بينهم على ذلك ويقتتلون في المحرم ويتهادنون في صفر مع بقاء كل شهر على اسمه.. وقد تتغير هذه الصورة فيطلق على صفر اسم المحرم وتتغير أسماء الشهور كلها بذلك التغيير ويجعلون السنة ثلاثة عشر شهرا أو اثني عشر شهر وعشرين يوما تسمى النسيء.. أو يضيعون حرمة الشهور كلها ويحلون فيها القتال كما كانت تفعل طئ وجثعم ، وكان صاحب النسيء يحل دماءهم مع تأخير حرمة الشهر.

وقد سمى القرآن الكريم هذا النسيء: زيادةً في الكفر ووصفه بأنه ضَلالٌ وإضْلالٌ للناس ، وأنه عمل سيِّئٌ زُيِّن لفاعليه ، مع أنه لا خير فيه ولا هداية.. والله لا يهدي القوم الكافرين.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة السادسة ـ العدد ٤ في ٣٠ محرم ١٣٦٧هـ/ ١٣ ديسمبر ١٩٤٧م.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

■ غزوة تبوك

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة استنهاضُ همم المسلمين لينفروا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك وهي آخر غزواته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد كانت في ساعة عُسْرَة والناس في قَيظ وحَرٍّ وجَدْب كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في الآية الأخرى: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ التوبة: ١١٧ .

كانت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة وكان السبب فيها ما ذكره ابن سعد وغيره: أنه قد بلغ المسلمين من الأنباط الذين يَقْدمون من الشام إلى المدينة أن الروم قد جمعت جموعاً وضمت إليها قبائل لخم وجذام وغيرهم من مُتَنصِّرة العرب ووصلت مقدمتهم إلى البَلْقاء ، فلم ينتظر النبيُّ ﷺ وصولهم إلى المدينة وعاجلَهم بالخروج إليهم وندب الناس إلى غزوهم رغم ما كانوا فيه من عسرة.

وروى الطبراني من حديث عمر أن ابن حصن قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل تخبره خبر النبي ﷺ وتقول: إن هذا الرجل الذي خرج يَدَّعي النبوة ضَعُفَ وأصابت قومه سنون أهلكت أموالهم ، فبعث أحد قواده ومعه أربعون ألفا ، فتجهَّز لهم رسول الله ﷺ وقصد إليهم قبل أن يصلوا إليه.

وروى ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم: أنه لما أمر الله تعالى أن يُمنَع المشركون من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره ، قالت قريش: لتنقطعنَّ عنا المتاجر والأسواق أيام الحج وليَذهبنَّ ما كنا نُصيب منها ، فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يُسْلموا أو يُعطُوا الجزيةَ عن يد وهم صاغرون ، قال ابن كثير فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم من الإسلام وأهله وقد قال الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٢٣) ﴾ التوبة ، وأقول: إن الرأي الأول أشبه بالصواب.. والله أعلم.

ولما أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيُّؤ لغزو الروم ، كان ذلك في زمان عُسْرَة من الناس وشدة من الحر وجَدْب من البلاد ، فكان أحب شئ إلى الناس المقام في ثمارهم وظلالهم. وكان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى غزوة وَرَّى عنها بغيرها إلا ما كان في هذه الغزوة فإنه بيَّنها للناس لبعد الشُّقَّة وشدة الزمان وكثرة العدو ليتأهبوا لذلك أُهْبَتَهُ فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم وحثهم على النفقة والحمل في سبيل الله ، فجاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه فصبها في حجر النبي ﷺ فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم». وقال عثمان: يا رسول الله هذه مئتا بعير بأحلاسها وأقتابها ، فقال ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض». وتبارى المسلمون يجهزون جيش العسرة وقال رسول الله ﷺ: «من جَهَّز جيش العسرة غفر الله له».

وعاتب الله من تخلف عن تبوك بغير عذر من المنافقين والمقصرين ولامهم وَوَبَّخهم وقرَّعهم أشد التقريع وفضحهم وأنزل فيهم قرآنا يتلى ، وأمر المؤمنين بالنَّفْرِ على كل حال فقال تعالى: ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾ التوبة ، ثم الآيات بعد وسنمر بها - إن شاء الله -.

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جَهازه ذلك للجدِّ بن قَيس أحد بني سلمة: «يا جدُّ هل لك العام في جلاد بني الأصفر ؟» فقال: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عُجْباً بالنساء مني ، وإني أخشى إنْ رأيتُ نساء بني الأصفر ألا أَجْسُرَ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أَذِنْتُ لك» ففي الجدِّ أنزل الله هذه الآية: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) ﴾ التوبة.

وقال قوم من المنافقين بعضُهم لبعض: أتنفروا في الحر..؟ زهادةً في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً بالرسول ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾ التوبة.

وجاء البكَّاؤون إلى رسول الله ﷺ ليحملهم حتى يصحبوه في غزوته فلم يجدوا عنده من الظَّهْر ما يحملهم عليه فرجعوا وهم يبكون تأسفا على ما فاتهم من الجهاد في سبيل الله ، وكانوا سبعة نفر منهم أبو يعلى وعبد الله بن مغفل - رضى الله عنهما - وقد لقيهما رجل من المسلمين يبكيان فقال: ما يبكيكما ؟ فقصا عليه القصص فرَقَّ لهما وأعطاهما راحلةً وزودهما شيئا من تمر فخرجا مع النبي ﷺ ومنهم عتبة بن زيد

رجع يبكي ثم خرج من الليل فصلى ما شاء الله أن يصلي ثم بكى وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغَّبْتَ فيه ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض ، ثم أصبح مع الناس. فقال رسول الله ﷺ: «أين المتصدق هذه الليلة ؟» فلم يقم أحد ، قال: «أين المتصدق فليقم ؟» فقام إليه فأخبره. فقال رسول الله ﷺ: «أبشر والذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبَّلة». وأنزل الله فيهم: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) ﴾ التوبة.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة السادسة ـ العدد ٥ في ١٤ صفر ١٣٦٧هـ/ ٢٧ ديسمبر ١٩٤٧م.

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) ﴾

العَرضُ القريب: الفائدة والمنفعة القريبة المتناول.

والسَّفَر القاصد: السفر القريب غير البعيد.

والشُّقَّة: المسافة والجهة.

وهذا بيان لصنف كثير في الناس يريدون الحصول على الفوائد والمنافع بأقل التضحيات ، فإذا طُلِبَ إليهم أن يعملوا ليصلوا وأن يجاهدوا ليغنموا تعللوا بالمعاذير وأكدوا فعلتهم الكاذبة بالأيمان الفاجرة: لو استطعنا لخرجنا معكم.. والله يعلم أنهم لكاذبون ، ثم هم يبالغون في المكر والخبث فيستأذنون في القعود والتخلف.

ولقد جُبلَ رسول الله ﷺ على حسن الخلق ورقة الطبع وجميل المعاملة للناس وستْر نقائصهم وعيوبهم والرحمة بهم وهو رحمة الله للعالمين ، فهم يعتمدون في خلقه

الكريم على هذه الصفات ، ولهذا يستأذنون وهم مطمئنون ، ولقد أذن لهم رسولُ الله ﷺ فعاتبه ربُّه هذا العتاب الرقيق: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ فيثق الناس بهم: ﴿ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فَتَحذَرَهُم وتحذرَهم الأمة وفي ذلك حماية لها وتأديب لهم. ومن هنا كان من الواجب على أصحاب الدعوات ألا يجاملوا أحداً على حساب مصلحة الدعوة أبداً ، وأن يُظْهِرُوا الناس على خفايا الكائدين والمنافقين ليحذروهم.

■ تعرض لعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

ولقد أطال المفسرون بمناسبة هذه الآية في موضوع عصمة الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ والإجماع منعقد على عصمتهم الكاملة فيما يبلغون عن الله ـ عز وجل ـ وفيما يتصل بصميم الرسالة من قول أو فعل ، أما ما يتصل باجتهادهم فجائز عليهم الخطأ والصواب فيه ، وفي ذلك معنى عال من معاني القدوة في التشريع ورفع عقيدة التأليه ، وقد رجع رسول الله ﷺ عن رأيه في أُحُد لرأي أصحابه ، وفي بدر لرأي الحُباب بن المنذر، وفي تأبير النخل لقول أهل الخبرة ، وعوتب في الإعراض عن الأعمى ، وفي أخذ الفداء من الأسرى ، ولا يقال في هذا كله أنه ارتكب إثماً أو قارف أو فعل ما يتنافى مع العصمة ، ولكنه اجتهادٌ إن وافق الصواب ففيه أجران وإلا فيه أجرٌ واحد.

وفي الصيغة من أدب الخطاب ما يأخذ باللب ويدل على عظيم منزلة الرسول ﷺ عند ربه إذ قدم العفو على المؤاخذة فقال: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ ويبين وجه الأمر فقال: ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾.

■ المجاهدون والقاعدون

ثم بَيَّن القرآن الكريم أن الناس قسمان: مجاهدون وقاعدون.

فالمجاهدون: يترقبون النفير حتى إذا سمعوه طاروا إليه لأنهم يؤمنون بالله

فيجاهدون في سبيله ، ويؤمنون باليوم الآخر فيترقبون الجزاء فيه ، ويعلمون أن الله سيعوضهم خيرا مما أنفقوا أو فقدوا من نفس أو مال ، وأنهم بهذا الجهاد يَتَّقُون عذاب الله تبارك وتعالى ، فهم يبذلون رغباً ورهباً ابتغاء مرضاة الله عز وجل. روى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من خير معاش الناس لهو رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله ، يطير على متنه كلما سمع هَيْعَةً أو فَزعةً طار عليه يبتغي القتل والموت». والله عليم بالمتقين.

وأما القاعدون: فهم أولئك الكسالى الذين يتمحّكون في الاستئذان وينتحلون الأعذار الواهية فيكون ذلك دليلاً على أنهم لم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر وأن الشك والريب لا زال كامنا في أنفسهم. فلا يحمل الإنسان شيء على الجهاد كالإيمان ، ولا يُقعده عنه شيء كالشك والريبة ، فهم في رَيبهم يترددون.

ومن آية ترددهم أنهم لم يُعُدُّوا عدتهم ولم يأخذوا أهبتهم ، ولكنهم ظلوا مترددين ، يسيرون أم يتخلفون حتى غلب على أنفسهم الجبن والضعف فقعدوا ، وفي قعودهم خير كبير للمجاهدين فلن يُضعفَ قوة المجاهدين كهؤلاء الضعفاء الرِّعاديد ، ولهذا كان من توفيق الله لعباده أن صرفهم عن الخروج والجهاد في سبيله.

ولو خرجوا ما زادوا المسلمين الشجعان إلا خَبالاً بالدسائس والمكائد والتوهين وضعف الجَلَد ، ولمشوا في صفوفهم بالفتنة وبالكلمات الموهنة المؤلمة وبمعاني التخذيل والانقسام ابتغاء تمزيق الوحدة حتى يعود الجميع جبناء ولا ينفردون هم بهذا الوصف. وفي الناس من يستمع إلى القول ومن يؤثِّر في نفسه الحديث فيظنه صدقا وما هو بصدق ، ولكنه يحيك في صدره وينال من نفسه ، ويظهر أثره في فعله ، ولقد ظهر هذا التوهين منهم يوم أُحُد ، فقد أشاع عبدالله بن أبيّ رأس المنافقين الفتنة في الناس وهم قادمون على عدوهم وأخذ ينفث في صدورهم السحر، ويقول: ما كان لنا أن نخرج ، لقد أطاع محمد الولدان والصغار وعصاني ، فيم هذا القتال ولا فائدة لنا من ورائه ؟

ولقد أثَّر قوله بعض الشيء ، حتى همَّ بنو سلمة وبعض الخزرج بالفشل لولا أن ثَبَّتهم الله وفيهما نزلت الآية الكريمة: ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ آل عمران: ١٢٢، ولم يلبث عدو الله مع هذا أن عاد أدراجه.

وأمثال هؤلاء في الجيوش أو الدعوات أخطر عليها من ألَدِّ أعدائها وخصومها ، وهم دعاة الهزيمة والطابورالخامس الذي يجب أن يستأصل ويُباد ، والله عليم بالظالمين ، ولكن هذا لن يؤثر في الدعوة أو يحول دون النصر وإن كان له خطره وضرره ، وترى أمثال هؤلاء يُسَرُّون بهزيمة أصحابهم ويكرهون لهم الفوز والظهور، وقُتِلَ الإنسانُ ما أكفره ، ومن الخير كل الخير للجيش والجماعة أن تتخلص من هذه الأشكال. ولقد ورد أن خالداً في غزو اليمامة استبطأ النصرَ فصاح به أحدُ الصحابة: مَيِّزْنا يا خالدُ فقد أهلكت الناس واحمل بالأنصار والمهاجرين. ففعل وميَّز أهلَ السابقة وهم ثلاثة آلاف وترك الباقين وهم أضعافهم ثم حمل فانتصر: ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) ﴾ التوبة ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾ يوسف.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة السادسة ـ العدد ٦ في ٢٧ ربيع الأول ١٣٦٧هـ/ ٧ فبراير ١٩٤٨م.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

وهذا طَرفٌ من أخلاق المنافقين ومرضى القلوب الذين لم يتمكن الإيمان في نفوسهم ولم يتغلغل في أعماق قلوبهم ، عرضته الآيات الكريمة هذا العرض الواضح المستنير؛ ليكون فضحا للمخادعين الكاذبين وعزاء للمؤمنين الصادقين.

• فمن أخلاقهم: تَعلُّلهم بالمعاذير واختلاق الأكاذيب ليهربوا من تبعات الإيمان وواجبات الجهاد ، وهذا الجدُّ بن قيس أحد هؤلاء المرضى يقول له الرسول ﷺ فيما يروى في الصحيح في غزوة تبوك: «يا جدُّ هل لك في غزو بني الأصفر؟» فيقول: إني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن أفتتن فائذن لي ولا تفتني. أخذ يغالط ويدَّعي أن نساء بني الأصفر يفتننه ويَشغلن لُبَّه عن القتال ، وما درى هذا المسكين المغالط أنه بهذا التخلف قد ترك القتال جملة ، فسقط في الفتنة إلى الحضيض ، ولهذا كان الرد عليه ﴿ أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ وإن جزاء من سقط في الفتنة جهنم ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾.

• ومن أخلاقهم: أنهم يحزنون للخير يصيب المؤمنين ويفرحون للمصائب تنزل بهم ، ويُسرُّون هذا الشعور في أنفسهم فلا يظهرونه إلا بعد ظهور النتائج ، ويظلون قبل ذلك يُرجفُون بالقول الكاذب ويختلقون المفتريات والأباطيل ، فإذا انكشف الأمر عن حسنة تصيب المؤمنين تَمعَّرَتْ لذلك وجوهُهم وظهرت آثار الحزن على أساريرهم ، وإذا واجهت المؤمنين الصادقين إحدى المصائب فرحوا واستبشروا وصرحوا بمكنون النفاق وفخروا بأنهم قد أعدوا للأمر عدته من قبل ولم يتورطوا فيما تورط فيه هؤلاء المؤمنون المصابون وقالوا: ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾. وظهر مصداق هذا الخُلُق من هؤلاء المنافقين في غزوة تبوك أيضا ، فقد قعدوا خلف رسول الله ﷺ يختلقون الأباطيل ويشيعون قَالَة السوء. روى ابن حاتم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا في المدينة يخبرون عن النبيِّ ﷺ أخبارَ السوء ، ويقولون: إن محمداً وأصحابَه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا ، وبلغهم تكذيب خبرهم ومعاتبة النبي ﷺ وأصحابه فساءهم ذلك ، فأنزل الله فيهم: ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ الآية. وهؤلاء هم دعاة الهزيمة والتردد والطابور الخامس ، وهم أخطر وأنكى أثراً من الأعداء السافرين. ولكن المؤمنين الحقيقيين لا يهمهم ذلك في شيء ، وأمرهم كله لهم

خير، فإن أصابتهم النعماء شكروا وكان خيرا لهم ، وإن أصابتهم الضراء صبروا ورضوا واحتسبوا فكان خيرا لهم وعليهم ، فالأسباب والنتائج بيد الله: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وقُصارى أمر المؤمن أن يموت في سبيل الله ، وهي أمنيةٌ من أمانيه لأن بعدها الجنة والحياة الباقية حياة الخلود: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ العنكبوت ، وهذا إذا لم ينتصر ويحقق الله ما وعده إياه من نصر مبين وفتح قريب ، فهو ينتظر دائماً إحدى الحُسْنَيين: النصر والسيادة أو الموت والشهادة وكلاهما خير.

والكافر والمنافق على العكس من ذلك ، إن عاش أحدهما عاش معذباً مهزوماً، وإن مات مات خاسرا مذموما: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾.

• ومن أخلاقهم الرياء والنميمة ذلك أساس تصرفاتهم جميعا ، وهم لهذا يحاولون أن يستروا كفرهم وجحودهم ونفاقهم بمال يبذلونه ويساهمون به في بعض أعمال المؤمنين متظاهرين بأنه عن طواعية واختيار، والله يعلم أنهم إنما فعلوا ذلك عن خبث وكراهية واضطرار، ولهذا فضحهم القرآن الكريم وكشف عن خبيئة نفوسهم وأعلن أن ذلك لن ينفعهم بشئ في الدنيا ولا في الآخرة ، وأنه لن يُتَقبَّلَ منهم بحال: ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . وبيَّن السبب في هذا الحرمان والخذلان ورفض نفقاتهم وعدم قبول صدقاتهم وتبرعاتهم ، وهو أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى متغافلين ولا ينفقون إلا كارهين مضطرين ، وليس ذلك من أخلاق المؤمنين في شيء ، ولن تغني عنهم في الدنيا ولا في الآخرة كثرة الأموال أو الأولاد ، لأنها ستكون وبالاً عليهم يتعذبون بفقدانها في الغنائم والقتال ، ثم يتعذبون مرة ثانية إذا ماتوا على الكفر وحقَّت عليهم كلمةُ العذاب: ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾.

• ومن أخلاقهم التي يدفعهم إليها رياؤهم وخبثهم وخبث طَوِيَّتهم أنهم يتسترون كذلك بالأيْمان الكاذبة: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) ﴾ المجادلة ، فهم يجرأون على الحلف بأغلظ الأَيْمان أنهم من أَخْلَص أهل الإيمان وما هم منهم في قليل ولا في كثير، ولكن يحملهم على ذلك الخوف والجبن ، ولو وجدوا مهرباً من ملجأ حصين أو كهف عميق أو سرب ضيق لفروا إليه بأقصى سرعتهم وهم يجمحون.

• ومن أخلاقهم أنهم ينتهزون الفرصة لينفذوا إلى الطعن في القادة بالباطل والنيل من نزاهتهم بغير الحق ، ولا يجدون فرصة أسنحَ من قسْمة مال أو تَصرُّف في غنيمة ، فتنطلق ألسنتُهم بالطعن والوقيعة واللمز والغمز وإشاعة التهم والأباطيل.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم قَسْماً إذ جاءه ذوالخويصرة التميمي فقال: اعْدلْ يا رسول الله فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ائذن لي فأضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن له أصحاباً يَحْقرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّميَّة». (رواه البخاري) . قال أبو سعيد فأنزل الله الآية الكريمة: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾.

روى ابن مَرْدَوَيْه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لمَّا قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين سمعت رجلاً يقول: إن هذه القسمةَ ما أُريدَ بها وجهُ الله ، فأتيتُ النبيَّ ﷺ فذكرتُ له ذلك فقال: «رحمةُ الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر». ونزلت: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾.

∴

وهكذا تتكرر هذه المآسي في كل عصر ويخرج من بين الطوائف والجماعات من لا يجد إلا أمثال هذه الاتهامات يوجهها إلى رؤسائها والقائمين بأمرها ، وهم ليسوا

مخلصين في ذلك النقد ولا مُتَحَّرين الحق أو الخير في هذا الاتهام ، ولكنهم إنما يريدون منفعةً ذاتيةً لأشخاصهم فإن أُعطُوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، مع أنهم بذلك يخسرون كل شئ حتى هذا المطمع ، فلو أنهم رضوا وسلَّموا وصبروا وانتظروا ما يأتي به المستقبل: ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ لتحقق لهم ما يريدون ، ولكن هكذا كانوا ، وهم في كل زمان ومكان .. ولله في خلقه شئون.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة السادسة ـ العدد ٧ في ٤ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ/ ١٤ فبراير ١٩٤٨م.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾

وحين عَرضت الآيات الكريمة لهذا الخُلُق من أخلاق المنافقين وهو الطعن في القادة والتشكيك في نزاهتهم وانتهاز فرصة تقسيم الأموال لأن ذلك عند الناس هو نقطة الخيانة والطمع ، وخصوصاً إذا لم ينالوا من هذه الأعطيات ما يرضى مطامعهم ، نَاسَب بعد ذلك أن تُقَرِّر أحكام الصدقات وبيان مصارفها حتى يكون في هذا التقرير قطع ألسنتهم وتسجيل براءة من يتهمونهم بالباطل ، فجاءت هذه الآية الكريمة تقرر مصارف الصدقات.

والصدقاتُ قسمان: قسم هو الفريضة الواجبة وقسم تطوع وتبرع ، والأول هو الذي أطلق عليه في العرف الفقهي الزكاة والثاني هو ما غلب عليه اسم الصدقة وإن كان كلاهما في الواقع صدقة وأطلق عليهما هذا اللفظ في كتاب الله تبارك وتعالى معاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ البقرة: ٢٧١ .

■ **متى فرضت الزكاة ؟**

فرضت الزكاة مع الصلاة في أول الإسلام بمكة بدليل اقترانهما في كثير من الآيات المكية ولأن الصلاة هي مظهر الإسلام البدني العملي والزكاة هي شعيرته المالية ، والأولى صلة بين الخالق والمخلوق ، والثانية صلة بين المخلوقين بعضهم وبعض ، والعقيدة أساسهما معاً ، وما جاء الإسلام إلاّ لهذين المقصدين الجليلين. ولكن الزكاة كانت حينذاك مجرد صدقة أو نفقة يتقدم بها المؤمن بحسب ظروفه والفائض

من ضرورياته لتنفق على إخوانه المحتاجين ولم يكن لها قدر محدد ولا مصرف محدد كذلك ، وفي السنة الثانية من الهجرة حدد مقدارها ومصارفها ونظمت جبايتها ، فسبق إلى ذهن الكثير أنها إنما فرضت في السنة الثانية من الهجرة. وكان هذا التدرج في التشريع طبيعيا ، فإن جباية الزكاة من مهمة الحاكم أولاً ولم يكن ثَمَّ حاكم إسلامي بمكة حتى استقر الأمر في المدينة وقامت فيها الحكومة الإسلامية الأولى ، وكان طبيعيا أن يكون من تمام مهمتها أن ينظم الله هذه الناحية الهامة للناس.

■ **مصارف الزكاة**

وتُصرف الزكاة لثمانية أصناف هم هؤلاء:

● وهما صنفان لجنس واحد هم أهل الحاجة: الفقراء ، والمساكين ، هم المحتاجون وذوو الفاقة ، إلا أن الفقير: هو الذي تكون حاجته وفاقته عن ضيق وسائل الأرزاق ، وقلة الموارد ، وندرة أبواب العمل والكسب. والمسكين: هو الذي تكون حاجته عن ضعف في بدنه يحول بينه وبين العمل والسعي.

وبهذا التوجيه تندفع كل الاعتراضات ونخرج من الخلاف الطويل بين الفقهاء بأحسن المخارج ويكون التوفيق بين الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على أفضل وجوهه ، فضلا عما في ذلك من التنبيه على دقة التصور في الآية واستيعابها لذوي الحاجات ، فإنك لا تكاد تجد فرقا في أوصاف الفقير أو المسكين في الآيات الواردة من حيث الاحتياج أوالتعفف أو غفلة الناس عن التفطن إليهم وتكاد الصفات من هذه الوجوه كلها تكاد تكون واحدة في الآيات والأحاديث فالآية تقول في الفقراء: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ البقرة: ٢٧٣، والحديث يقول في المساكين: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذي يتعفف ، اقرءوا إن شئتم: ﴿ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾.

وفي لفظ: «ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطَنُ له فيُتَصدَّقُ عليه ولا يَقوم فيسألُ الناس». (والحديث متفق عليه). وكون المسكين ذا متربة لا ينافي ما قلناه ولا يشير إلى الفرق بينه وبين الفقير بشيء ، وغاية ما فيه الإشارة إلى أن حاجته قد ألصقته بالتراب لشدتها ، بل لعل في هذا ما يشير من طرف دقيق لطيف إلى معنى العجز البدني ، كما أن مادة اللفظ تشير إلى ذلك أيضا فالمسكنة من السكون وأكثر ما يكون السكون عن مثل هذا العجز، ولعل هذا الذي ذهبنا إليه أفضل ما يقال في هذا الموضوع ، والله أعلم بالصواب.

- والعاملين عليها وهم الصنف الثالث ممن يستحقون الزكاة والمراد بهم: القائمون بجبايتها وحسابها والإشراف على صرفها... الخ ، وبالعرف المصري: الموظفون في ديوان الزكاة من جُباة ومحاسبين ومشرفين.

قال الفقهاء: ولا تجوز العمالة لمن تَحرُمُ عليهم الصدقةُ من آل رسول الله ﷺ وهم بنو هاشم بالاتفاق وبنو عبد المطلب ، لأن الفضل بن عباس والمطلب بن ربيعة بن عبد المطلب سألا النبي ﷺ أن يؤمِّرهما على الصدقات بالعمالة كما يؤمِّر الناس ، فقال لهما: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد إنما هي أوساخ الناس». وفي لفظ: «لا تبتغي بدلا من لا تَحِلّ». (رواه احمد ومسلم).

الذي يظهر لى أن المحرم هو أخذ العمالة لا الإمارة نفسها ، فإذا وجد من أهل البيت من يتطوع بالعمل في الصدقات بدون مقابل ، فليس ما يمنع من تأميره عليها ، وحَسْبُهُ سهمُه من بيت مال المسلمين.. والله أعلم.

أما من غير أهل البيت فليس ما يمنع من أخذهم العمالة. روى أحمد والشيخان عن بشر بن سعيد أن ابن السعدي المالكي قال: استعملني عمر على الصدقة ، فلما فرغت منها وأديتها إليه أمر لي بعمالة ، فقلت: إنما عملت لله ، فقال: خذ ما أُعطِيتَ فإني عملتُ على عهد رسول الله ﷺ فقلتُ مثلَ قولك فقال لي رسول

الله ﷺ: «إذا أُعطيت شيئاً من غير أن تسأل فَكُلْ وتَصدَّقْ». والظاهر من الآثار كلها قَصْرُ المعنى على الجُباة ، ولكن عموم اللفظ يستغرق مَن عداهم من المحاسبين والمشرفين على التوزيع ، فهم يدخلون في العاملين عليها بهذا العموم ، والله أعلم بالصواب.

• والمؤلفة قلوبهم: وهم الصنف الرابع من مصارف الزكاة وقد ذكر الفقهاء لهم أنواعا منها:

الأول: رؤساء المسلمين الذين يرجى بإعطائهم دخول غيرهم من نظرائهم الكفار في الإسلام ، كما أعطى أبو بكر رضي الله عنه عَديَّ بن حاتم والزبرقان بن بدر مع حسن إسلامهما يتألف بذلك قلوب أمثالهما من رؤساء القبائل والعشائر والذين كانوا يظنون أن دخولهم في الإسلام سيؤدي بهم إلى الفاقة والفقر.

والثاني: رؤساء مطاعون في قومهم يرجى بإعطائهم تقوية صلتهم بالجماعة الإسلامية ومناصحتهم في الجهاد لإعزازها وتقوية وحدتها ، كبعض الطُلَقاء من أهل مكة الذين أغدق عليهم النبي ﷺ من غنائم حُنَين.

والثالث: المُعَرَّضُون للفتنة من أهل الإسلام المجاورين لأهل الكفر يرجى بإعطائهم حمايتهم من فتنة المال والوقوع في مغريات الأعداء ورشاويهم وهداياهم ليتخذوا منها ذرائع لاحتلال أرض الإسلام وبسط سلطانهم عليها والدخول في حمايتهم ورعايتهم.

والرابع: الرؤساء غير المسلمين الذين يرجى بحسن معاملتهم استمالة قلوبهم للإسلام ، كما فعل رسول الله ﷺ مع صفوان بن أمية وقد كان أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية ، منحه رسول الله ﷺ إبلاً محملة تملأ وادياً فسيحاً فقال: هذا عطاء من لا يخشى الفقر ، وألَّف الله بذلك قلبه ، فقال: والله لقد أعطاني النبي ﷺ وإنه لأبغض الناس إليَّ فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ. وقد أسلم بعد ذلك وحَسُنَ إسلامُه.

والخامس: من يُخْشَى شَرُّهُ فيعطَى لكفِّ شره أو يرجى بذل نفوذه لخدمة الدعوة الإسلامية فيعطى ليفعل ذلك.(*)

قال ابن عباس: إن قوما كانوا يأتون النبي ﷺ إن أعطاهم مدحوا الإسلام وقالوا هذا دين حسن ، وإن منعهم ذموا وعابوا ، وكان منهم عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، وَورد أن سهمَهما قد اعترض عليه عمر وقطعه في خلافة أبي بكر رضي الله عنه في قصة لطيفة دقيقة المآخذ جمة الفوائد. جاء عُيَينةُ والأقرع إلى أبي بكر رضي الله عنه يطلبان منه أرضا فكتب لهما خطاً بذلك ، فحرقه عمر رضي الله عنه وقال: هذا شيء كان يعطيكموه رسول الله ﷺ تأليفاً لكم ، فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم ، فإن ثَبتُّم على الإسلام وإلاّ فبيننا وبينكم السيف ، فرجعوا إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: أنت الخليفةُ أم عمر ؟ بَذلتَ لنا الخطَّ وَمزَّقَه عمر، فقال أبو بكر: هو إنْ كان شاء ، وأقرّه على ما فعل ، ولم يعترض عليه في ذلك أحدٌ من الصحابة.

• وفي الرقاب: وهم الصنف الخامس والمصرف الخامس من مصارف الزكاة ، فللدولة أن تنفق من الزكاة سهما في سبيل تحرير الرقيق بشرائها وإعانة المكاتبين على أداء ما ضرب عليهم ، كما أن لدافع الزكاة أن يدفعها لهم لهذا الغرض. وقال ابن عباس: لا بأس بأن يعتق من زكاة ماله. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دُلَّني على عمل يقربني من الجنة ويبعدني من النار. فقال: «اعتق النسمة وفك الرقبة» فقال: يا رسول الله أو ليسا واحداً ؟ قال: «لا ، عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين بثمنها». (رواه أحمد والدارقطني).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح المتعفف». (رواه الخمسة إلا أبا داود).

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة السادسة ـ العدد ٨ في ١١ ربيع الأول ١٣٦٧هـ/ ٢١ فبراير ١٩٤٨م.

والمأثور عن عليٍّ بن أبي طالب وسعيد بن جبير والليث والثوري والعترة والحنفية والشافعية وأكثر أهل العلم صرف المعنى إلى: أن المكاتبين يُعانُونَ من الزكاة على المكاتبة (والمكاتبون هم: الأرقاء الذين اتفق معهم مالكوهم على أن يشتروا حريتَهم بجُعْل معلوم من المال). والمأثور عن ابن عباس والحسن البصري ومالك وأحمد بن حنبل وأبي ثور وأبي عبيد وإليه مال البخاري وابن المنذر صرف المعنى إلى: الشراء. والمأثور عن الزهري أنه: يجمع الأمرين، ولعل هذا هو الأخلق بعموم الآية.

وليس معنى ذلك اعتراف الإسلام بالرق اعترافاً مطلقاً، بل معناه مقاومة الرق ومحاولة القضاء عليه، والإسلام هو أول شريعة أعلنت حريات الإنسان وقدَّستها ودافعت عنها وحاربت الرق وحرمته وابتكرت أفضل الوسائل للقضاء عليه وهذا بحث طويل نستوفيه في مناسبة أخرى إن شاء الله.

• والغارمين: وهم الصنف السادس من مصارف الزكاة، وهم الذين عليهم غرامة مالية بديون لزمتهم وتعذر عليهم أداؤها، ويشترط الفقهاء بأن تكون الاستدانة بغير معصية إلا أن يكون قد تاب، وفي غير إسراف أو سفاهة إلا أن يكون قد رشد. ولا شك أن في هذا التشريع الكريم أخذ بمكارم الأخلاق وإشارة إلى تكافل المجتمع أمام مطالب الحياة وضروراتها.

وقد كان من عادة العرب وكرم أخلاقهم قبل الإسلام أن الأشراف منهم يتحملون أعباء الضعفاء وبخاصة في المآزق الحرجة، كتحمل ديات القتلى حين الحرب فيعينهم الأغنياء على حَمَالتهم. هذا وأقر الإسلامُ هذه المَكْرُمَة وجعلها سهماً من سهام الزكاة، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لا تَحلُّ المسألةُ إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غُرْم مُفْظع، أو لذي دَم مُوجع». (رواه أحمد وأبو داود).

وعن قَبيصَة بن مُخارق الهلالي قال: تحملت حمالةً فأتيتُ النبيَّ ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» ثم قال: «يا قَبيصَة إن المسألةَ لا تحل إلا

لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة ، فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحةٌ اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قَواماً ـ أو قال سَداداً ـ من عيش ، ورجل أصابته فاقةٌ حتى يقولَ ثلاثة من ذوي الحِجَا من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة فحلَّتْ له المسألةُ حتى يصيب قَواماً أو قال سداداً من عيش ، في سواهن من المسألة يا قبيصة فسُحْتٌ يأكلها صاحبها سحتاً». (رواه أحمد والنسائي وأبو داود) .

• وفي سبيل الله: وهو الصنف السابع من مصارف الزكاة ، ومن المراد به بالإجماع الغزو في سبيل الله من إعانة الغزاة والمجاهدين وتجهيزهم والإنفاق عليهم وشراء العُدَّة والسلاح لهم ، قال مالك ـ رحمه الله تعالى ـ : سبيل الله كثيرة ولكن لا أعلم خلافاً في أن المراد بسبيل الله ههنا الغزو من جملة سُبل الله.

وهل يشترط في الغازي الذي يأخذ الصدقة أن يكون فقيرا أم أنه يأخذ منها ولو كان غنيا ؟ قولان ، والثاني أرجح بحجة أنه يأخذ ليستعد بوصفه غاز في سبيل الله ، كما يشترط كذلك ألا يكون مقيداً في ديوان السلطان أي جندياً محترفاً.

وقال بعض العلماء: إن سبيل الله عامٌ فلا موجب لتخصيصه ولا يجوز قَصْرُه على نوع خاص ويدخل فيه جميع أبواب الخير ووجوهه ، وهو مروي عن ابن عمر وأحمد وإسحاق. والأصح بالتحقيق أن يقال: إن سبيل الله عامة ولكن أولى وجوهها هنا الغزو وما يستلزمه ، فإن كان الجيش المنظم مكفيا بديوان السلطان ، أنفق من الزكاة في الإعداد ، وإن كان مال السلطان لا يكفي حاجة الغزاة صرف لهم من هذا السهم كذلك ، وإن كان هناك من وجوه الخير ما هو في حاجة إلى أن ينفق عليه من مال الله ، وهو الزكاة فكذلك .. والله أعلم.

• وابن السبيل: الصنف الثامن والأخير من مصارف الزكاة ، وقد اتفقوا على أنه المنقطع عن بلده في سفر لا يتيسَّر له فيه شيء من ماله ، إن كان له مال فهو غَنيٌّ في

بلده فقيرٌ في سفره ، وهذا من عناية الإسلام بالسياحة والضرب في الأرض. واشترطوا أن يكون سفره في طاعة أو في غير معصية على الأقل ، واختلفوا في السفر للأمور المباحة كالتنزه والأولى أن تدخل في المقصود هنا كذلك.

تلك هي فريضة الله تبارك وتعالى في المال افترضها لتكون تطهيراً للنفوس وتأميناً للمجتمعات وتوثيقاً للروابط ، والله عليم بما يؤدي إليه ذلك ، حكيم في أوامره ونواهيه وشرائعه.

وهل لا بد من تعميم الصدقة على الموجود من الأصناف الثمانية ؟ قال الشافعي: نعم ، وقال الجمهور: يجتهد ما أمكنه ذلك وكلما عمها كان نفعها أعظم ومثوبتها أجزل.. والله أعلم.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة السادسة ـ العدد ٩ في ١٨ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ/ ٢٨ فبراير ١٩٤٨م.

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾

بَيَّنت السورة الكريمة فيما مضى طرفا من أخلاق المنافقين ، وتتعرض الآيات الكريمة بعد ذلك لطرف آخر من هذه الأخلاق.

فالمنافقون في الدعوات وفي الجماعات في كل عصر ومكان ، من أخلاقهم التشكيك في القادة وتَلمُّس العيوب والمطاعن للرؤساء حتى تتفكك وحدة الجماعة. وقد أشارت الآيات السابقة إلى مغمزهم الباطل للنبي ﷺ في تصرفاته في الصدقات ، وتشير هذه الآية الكريمة إلى أن لمزهم هذا لم يقف عند انتقاد التصرفات بل تعدى ذلك إلى انتقاد الأخلاق والطباع ، فهم يحاولون أن يشيعوا أنه: ﴿ أُذُنٌ ﴾ أي: كثير الاستماع وسريع التأثر بوشايات الواشين وأكاذيب المتملقين ، شأنه في ذلك شأن الرؤساء والمتعاظمين من أهل الدنيا.

روى السدي قال: اجتمع ناس من المنافقين فيهم جُلاسُ بن سُوَيد بن صامت ومخش بن حِمْيَر ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ فنهى بعضُهم بعضاً: نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم ، وقال بعضُهم: إنما محمد أُذُنٌ نحلف له فيصدقنا ، فنزل: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ الآية.

وقد ردَّ القرآن عن الرسول ﷺ هذه التهمة ، تهمة الإصغاء إلى الأباطيل والتأثر بالوشايات ، وقرر أنه ﷺ يستمع حقا ولكن إلى الخير عن الله تبارك وتعالى وعن المؤمنين ، وأن في استماعه هذا رحمة للذين أظهروا الإيمان منهم ، إذ أنه لو أخذ ينقّب عن بواطن أمورهم ويُفتّش عن دقائق أحوالهم ولم يعاملهم بظواهر حالهم ، لكان في ذلك حرجاً شديداً عليهم ، واستماعه هذا رحمة لهم ولا شك ، والذين لا يدركون هذه الحقائق ويُصرُّ على إيذائه ﷺ بالأقوال الباطلة لهم عذاب أليم.

كما أن من أخلاق هؤلاء المنافقين الجرأة على الأيْمان الباطلة والحلف الكاذب ، فهم يدرأون عن أنفسهم بذلك ويستجلبون به مرضاة الناس. روى ابن أبي حاتم عن قتادة قال: ذُكر لنا أن رجلا من المنافقين قال في شأن المتخلفين في غزوة تبوك الذين نزل فيهم ما نزل: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقا لهم شَرٌّ من الحُمُر، فسمعها رجلٌ من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمدٌ لحَقٌ ولأنتَ أَشرُّ من الحِمار، وسعى بها الرجلُ إلى نبي الله ﷺ فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه ، فقال: «ما حملك على الذي قلت ؟» فجعل يلتعن (أي: يلعن نفسه) يحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صَدِّق الصادقَ وكَذِّب الكاذبَ فأنزل الله في ذلك: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي مثله وسمَّى الرجل المسلم عامر بن قيس الأنصاري ، وكان من الخير لهؤلاء أن يُرضُوا الله ورسوله فإن الناس لا يملكون لهم من الله شيئا والله خير وأبقى.

ووحدة الضمير في (يُرضوه) إشارة إلى أن مرضاة رسول الله ﷺ مرضاة لله لأنها تأييد لرسالته وهي من عند الله عز وجل ، وليس هناك تركيب آخر يعبر عن هذا المعنى أبدا إلا هذا التعبير البليغ: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ إن كانوا يعلمون الأمور على وجهها الصحيح ، فإن أصروا على إيذائهم لرسول الله ﷺ والاستتار بالأيمان الباطلة كانوا بذلك محاربين لله ولرسوله واستحقوا بهذا نار جهنم خالدين فيها وذلك هو الخزي العظيم والخسران المبين.

والعجيب أن هؤلاء المنافقين كانوا يعلمون ويعتقدون أن محمداً يوحي إليه ولا تخفى عليه من أمرهم خافية ، فهم يحذرون أن يطلع من أعمالهم وأقوالهم على ما يكره ، ولكن تأصل الكفر والنفاق يتغلب عليهم في كثير من الأحيان فيخوضون فيما يحذرون الخوض فيه أملاً في التعلل بعد ذلك بالمعاذير مستهزئين بالدعوة وصاحبها ويحذرهم انكشاف أمرهم وافتضاح نفاقهم وكفرهم.

فنزلت الآيات الكريمة تصور أدق تصوير هذه الخوالج النفسية وتكشف عن هذه المؤامرات الخفية العملية وتتوعدهم بالفضيحة وسوء الجزاء فذلك قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ومع ذلك يصرون على الهُزْء والسخرية: ﴿ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ فإذا انكشف أمرهم قالوا: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ مع أن الموضع موضع جد لا موضع لهو وعبث: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾. ومن هنا سجل عليهم الوصف الذي يستحقونه ورد عليهم اعتذارهم الواهي فقال: ﴿ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾.

ولما كان فريق منهم قد تاب وحسنت توبته سجلت الآية الكريمة عفو الله عنهم كما سجلت مؤاخذته للمُصرِّين على الجريمة منهم. وإن نَعْفُ عن طائفة منكم بتوبتهم نُعَذِّبْ طائفة بأنهم كانوا مجرمين وما زالوا على جريمتهم. أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ

وابن أبي حاتم عن قتادة قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين ، قالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح الله له قصور الشام وحصونها هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه على ذلك فقال النبي ﷺ: «احبسوا عليّ هؤلاء الركب» ، فأتاهم فقال: «قلتم كذا قلتم كذا» قالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في رهط من المنافقين من بني عمرو بن عوف ، فيهم وديعة بن ثابت ورجل من أشجع حليف لهم يقال له فحش بن حمير، كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم ، والله كأنا بكم غداً تُقادون في الحبال ، قال فحش بن حمير: لوددت أني أقاضي على أن يُضربَ كلُّ رجل منكم مائة على أن ننجوا من أن ينزل فينا قرآن ، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فَسلْهُم عما قالوا فإن هم أنكروا وكتموا فقل بلى قد قلتم كذا وكذا» فأدركهم فقال لهم فجاءوا يعتذرون فأنزل الله: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ الآية. فكان الذي عفا الله عنه فحش بن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل اللهَ أن يُقتلَ شهيداً لا يُعلم بمقتله فَقُتل باليمامة لا يعلم بمقتله ولا يُرى له أثرٌ ولا عينٌ.(*)

(*) مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ـ السنة السادسة ـ العدد ١٠ في ٩ جمادى الأولى ١٣٦٧هـ/ ٢٠ مارس ١٩٤٨م.

من دستـــور السمـــاء

تفسير للآيات من: (١ - ١٦)

شــرف الإســلام الــدولــي (١)

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ ﴾

■ **ألفاظ وتراكيب**

أذان من الله: إعلام وإخبار.

ويوم الحج الأكبر: يوم عرفه عن عكرمة عن ابن عباس ويروي عن ابن عمر وابن اليزيد وهو قول عطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن المسيب ، أو هو يوم النحر يرويه عليٌّ بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ فيما أخرجه الترمذي وفيه أقوال كثيرة وأرجحها أنه يوم النحر.

وبشر الذين كفروا بعذاب أليم: التعبير بالتبشير في الآية تهكماً بهم وتأنيباً لهم.

■ قصة الآية ومجمل المعنى

عاهد رسول الله ﷺ قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس. ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخل بنو بكر في عهد قريش ، ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح ، فلما تظاهرت قريش وبنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم ، خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله ﷺ وقال:

لا هُمَّ إني ناشدٌ محمدا	حِلْفَ أبينا وأبيه الأَتْلَدا
كنتَ لنا أباً وكنا ولدا	ثمت أسلمْنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أَيِّدا	وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	في فيلق كالبحر يجري مُزْبِدا
أبيض مثل الشمس يسموا صعدا	إنْ سيم خسفاً وجهه تَرَبَّدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزَعَمَتْ أن لَسْتَ تنجي أحدا	وهم أذل وأقل عددا
هم بَيَّتونا بالوتير هُجَّدا	وقتلونا رُكَّعاً وسُجَّداً

فقال رسول الله ﷺ: « لا نُصرتُ إن لم أَنصُرْكُم» وتجهز إلى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة ، وكان هذا النقض سبب الفتح ، وصدق موعود الله لنبيه وعباده المؤمنين. فلما كانت سنة تسع من الهجرة أراد رسول الله ﷺ أن يحج بالناس ، فقيل له: أن المشركين يحضرون ويطوفون بالبيت عراة ، فقال: «لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك» فبعث أبا بكر أميراً على الموسم ليقيم للناس الحج.

وفي هذه السنة أراد الله تبارك وتعالى أن يتم إظهار دينه وإعزاز كلمته في الجزيرة العربية ، فأنزل صدر سورة براءة هذه إيذانا منه تبارك وتعالى ومن رسوله ﷺ

إلى المشـركين كـافـة أن الهـدنة بين الرسـول ﷺ وبينهم أربعـة أشـهـر مـن أول يوم الحج الأكبر، يحل لـه بعدها دماء من لم يدخل في الدين منهم ممن لم يكن بينه وبين الرسـول ﷺ عهد بأربعة أشهر، ومن كان بينه وبين الرسول ﷺ عهد أقل من أربعة أشهر فالهدنة تزاد إليها ، ومن كان عهده مع الرسول ﷺ أكثر من أربعة أشهر فهو على مدته ، كبني ضمرة من كنانة مثلا بقي من عهدهم حين نزول الآية الكريمة تسعة أشهر فأتمها لهم ﷺ إذ لم يأت النقض من جانبهم.

وقد بيَّن الحق تبارك وتعالى أن هذه الهدنة ليست لعجز ولا لضعف من جانب المسلمين ومعهم تأييد ربهم الذي لا يُعجزُه شيء ، ولكنها فترة رحمة بالمشركين حتى يستعدوا إن شاءوا للقتال أو يفكروا في هدوء إن أرادوا الإسلام ، فإن كانت الأولى فلهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، وإن كانت الثانية فلهم الخير العميم في الدارين كذلك.

■ تعليقات

أرأيت أيها الأخ هذا الشرف الدولي بين رسول الله ﷺ وبين خصومه ، وكيف كان صريحاً معهم كلَّ الصراحة واضحاً في معاملتهم كلَّ الوضوح رحيماً بهم منتهى الرحمة ، إن أراد الحرب آذنهم بالخصومة ، وإن أراد السلم ذكَّرهم بما فيه من فائدة ، وإن قطع العهد أتمَّه إلى مدته ، وإن نكثوا أخذهم بهذا النكث ولم يقعد عن نُصْرَة حليفه. تَذكَّرْ ذلك وضَعْ إلى جانبه مواقف الساسة في دول القرن العشرين ، وتذكر كيف تتقلب الدولة في اليوم الواحد عشرين مرة بحسب المصالح فقط. اتفق موسوليني مع النجاشي وأخذ يداوره ويحاوره وهو يُعد له العدة ويُدبر له الكيد حتى إذا سنحت الفرصة انقض عليه فالتَهَم بلاده دون سابقة إنذار ولا إعلان حرب ، وقطعت إنجلترا على نفسها ألف عهد وعهد لدول الشرق ثم تحللت منها جميعاً بالقوة والقهر لا لشيء إلا الأَثَرَة والأنانية وحب المصلحة الشخصية ، وحالفت الحبشة ووعدتها بالخير وما

زالت تغرر بها ولا تعينها ولا تَخف لنصرتها بغير الكلام حتى نال منها عدوها ما يريد ، وهكذا تستعرض أعمال هؤلاء الساسة جميعاً في يوم فلا ترى إلا التلوُّنَ والمخادعة والختل والغدر والأكاذيب والمفتريات ، وبعد ذلك يقولون إنها مدنية وإنها حضارة ونريد أن ننفذ مدنية القرن العشرين !!

جزى الله الإسلام عنا خيراً .. (*)

(*) مجلة النضال ـ السنة الأولى ـ العدد ١ في ١٤ ربيع الأول ١٣٥٧هـ / ١٥ مايو ١٩٣٨م.

شرف الإسلام الدولي (٢)

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾

هكذا يحتم الإسلام على المسلمين أن يكونوا أوفياء بعهودهم متمسكين بما قالوا لا يغدرون ولا ينقضون عهداً ولا موثقاً ما تمسك خصومهم بعهودهم وما وقفوا عند شروطهم. فإذا نقض هؤلاء الأعداء الشروط الموقعة فأخلُّوا ببعضها ، أو أعانوا غير المسلمين على المسلمين وألّبوهم عليهم ، فالمسلمون في حلٍّ من أن يقابلوا النقض بنقض مثله وأن يواجهوا العدوان بعدوان يرده. وذلك هو العدل القوي المنصف الذي لا يعرف الضعف ولا يمتد إلى حدود الظلم والعسف ، ثم بيَّن القرآن أن هذا من التقوى ، والتقوى في الإسلام منزلة لا ينالها إلا المقربون: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ المائدة ، فالتقوى شرط القبول وسبب لمحبة الله التي هي أسمى غاية المؤمن ، والوفاء بالعهد والتزام الموثق صنف من هذه التقوى الحبيبة إلى المسلمين جميعاً.

فإذا انتهى الأجل المضروب بين المسلمين وبين خصومهم وانقضت شهور الهدنة ، فهنا يظهر المسلم العزيز بأكمل معاني العزة ، القوي بأتم مظاهر القوة ، جندي شجاع لا يبالي في سبيل الغاية ماذا يُفعل به أو بعدوه ، ولا يرهب أن يقع على الموت أو أن يقع الموت عليه ، يلقي خصمه بكل صنوف الكفاح: يقتل ويأسر ويحاصر ويتربص بخصمه الدوائر ويقعد له كل مرصد وكل ذلك في سبيل الله.

أتدري لم ذلك كله ؟

أفي سبيل اللبن والعسل كما كان الصليبيون من قبل يحلمون في المشرق ؟

أم في سبيل الفحم والحديد والخامات والمواد الأولية كما تريد أوربا من مستعمراتها ؟

اسمع إذن صوت الحق يفصح عن الغاية: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ هذه هي الغاية يا صاح: المبدأ ، العقيدة ، الفكرة ، والصلاح والفلاح ، الدين الحق ، الإسلام الحنيف ، التقرب وحسن الصلة بالله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، تلك هي الغاية ولا غاية سواها ، أن تخفق رايةُ الإسلام في كل مكان ، وأن يسعد بجمال الإسلام كلُّ إنسان ، وأن يسطع نوره في أفق كل روح وجنان ، فإذا تم ذلك ، فالناس إخوة والسلام شامل والسبيل مُخْلاةٌ والجميع سعداء والله غفور رحيم ، وهكذا ترى المسلم القوي جندي الحق وشرطي العدالة وجيش الخلاص والإنقاذ. وهو في أشد حالات قوته وفي أظهر مظاهر عزته ، لا يظلم ولا يفجر ولا يعتدي ولا يغدر ولكن يفي وينصف وينفذ أوامر الله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (٨)﴾ المنافقون.(*)

(*) مجلة النضال ـ السنة الأولى ـ العدد ٢ في ٢ ربيع الثاني ١٣٥٧ هـ / أول يونيو ١٩٣٨م

شرف الإسلام الدولي (٣)

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قد علمت أن القرآن الكريم هادن المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض مطلقي الحرية ، ثم هم بعد الهدنة محاربون يُقتلون ويُؤْسَرون إلا أن يسلموا ويعودوا إلى الحق ويدخلوا فيما دخل فيه أهل الإسلام. وقد علمت أن الإسلام شدَّد على المسلمين أن يحافظوا على موثقهم هذا وألا ينقضوه وأن يكون ذلك شأنهم في كل موثق وعهد طالت مدته أم قصرت متى قالوا كلمة الوفاء.

وانت هنا أمام مظهر رائع جديد من مظاهر الوفاء أيضاً ، ومن مظاهر التسامح والاعتماد على الاقناع وحده في إيصال هذا الدين الحنيف إلى قلوب من شاءوا أن يعتنقوه ، ومن مظاهر الغاية التي جاء لها هذا الإسلام والتي لا تعدو هداية الناس وإرشادهم إلى الخير.

هذا مشرك لا يعلم عن الإسلام شيئاً وقد انتهت مدة الهدنة بين قومه وبين المسلمين ، فأصبح حلالَ الدم مُهدرَ الكرامة فقيد الحرية ، فماذا يفعل ؟

أيسلم نفسه لخصومه فيقتلونه ؟

أم يقف حيث هو فيُحرم الهداية ويُحال بينه وبين الإيمان ؟

لا هذا ولا ذاك ، ولكن يَستأْمن فيُعطَى الأمان ، ويقدم على الأمير فيعلمه ويلقنه ويقرئه القرآن ويدله على جمال الإسلام ومحاسنه ، فإن قَبلَ فهو مسلم له حق المسلم الكامل بين المسلمين ، وإن أبى ولم يشرح الله صدره ولم يكتب له الهداية ،

فـأميـر المسلمين مُكَلَّف من قبل الحق تبارك وتعالى وبنص القرآن أن يحميه من كل عدوان وأن يصل به إلى حيث يأمن على نفسه وحريته ، ثم ليقاتل بعد ذلك مع قومه إن شاء ، وذلك بأنهم قوم لم يتعلموا الإسلام فهم في حاجة إلى الأمان حتى يتعلموه.

أما مدة مهادنته حتى يتعلم فقد اختلف في تحديدها الأئمة من فقهاء الإسلام وتشريعه ، وقال الشافعي: إنها أربعة أشهر ، ولعل أولى الأقوال في ذلك قول من قال: إنها متروكة لرأي الإمام.

وأما هذا الأمان الفردي فهو من حق كل مسلم ولا شرط له إلا الإسلام والتكليف ، فيجوز أن يستأمن هذا المشرك لنفسه من أي مسلم كان رجلاً أو امرأةً أو عبداً أو حراً أو صالحاً أو فاسقاً ، ويسري هذا الأمان على كل المسلمين ويتقيد به الأمير أيضاً. أرايت ما في هذا من جمال الوحدة أيضاً ، ألم يقل ﷺ: «يسعى بذمتهم أدناهم». يروي سعيد بن جبير أن رجلاً من المشركين سأل علياً فقال: إن أراد الرجل منَّا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله أويأتيه لحاجة ؟ قال: لا.

وعن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت أَجَرْت رجلين من أحمائي ، فقال ﷺ: «أمنَّا منْ أمَّنتِ». هذا الأمان ينعقد بكل لفظ مفيد للغرض كقوله: أَجَرتُكَ أو أَمَّنتك أو لا تَخَف ، أو كناية كقوله: كن كيف شئت أو أنت كما تحب ، وينعقد كذلك بالكتابة وبالرسالة ، بل بالإشارة المفهمة. روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: والذي نفسي بيده لو أن أحدكم أشار بإصبعه إلى مشرك فنزل على ذلك ثم قتله لقتلته.

أتدري من القائل ذلك إنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أشد الناس تشدداً في دين الله، هذه مبادئ لا تحتاج إلى تعليق طويل أو قصير وحسبنا أنها الإسلام وتعاليم الإسلام وكفى..(*)

(*) مجلة النضال ـ السنة الأولى ـ العدد ٣ في ١٦ ربيع الثاني ١٣٥٧ هـ / ١٥ يونيو ١٩٣٨م.

شرف الإسلام الدولي (٤)

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾

انتهيت إلى أحكام الأمان في الإسلام ، وكيف أن المؤمنين عُدُول بعضهم على بعض يسعى بذمتهم أدناهم ، فإذا أجار أنفذوا ، وكان ذلك شرفاً لم تطمع الدنيا بمثله ولم ير العالم له نظيراً من قبل. والآن يفيض علينا القرآن طرفاً من أخلاق أهل الشرك فيقول إنهم لا عهد لهم ولا أيْمان ، ولا يخافون العار ، ولا يخشون النكث والكذب ، ولا يبالون بالحرمات أن تنتهك وبالمؤمنين أن ينالوا منهم إذا قدروا عليهم ، فهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة.

ما أخلدَ القرآن وما أشبه الليلةَ بالبارحة ، ولقد كان مشركو مكة ـ وهم الذين نزلت فيهم الآيات ـ أنبل وأوفى من كفارنا في هذه الأيام ، لا زال الناس يذكرون وعود الإنجليز للعرب ولمصر وللعراق ولغيرها من البلاد بالمساعدة والتحرير والمعونة والاستقلال ، فماذا كان من أمرهم ؟ لم يرقبوا في مؤمن إلاً ولا ذمة ، ولا زال الناس

يذكرون وعود هذه الدول بعضها لبعض ، وها هي جميعاً قد مزقتها يد القوة وبطشت بها صولة المصالح والأغراض، وهكذا يَعدُون ويُخْلِفُون ، ويعاهدون ويَنقُضون ، شِنْشِنَةٌ نعرفها من أخزم ، وسبيلٌ اشترك في سلوكها والاتّصاف بها الكافرون في كل زمان ومكان.

ليس هذا بعجيب فليس بعد الكفر ذنب ، ولكن العجيب أن ينخدع بهذا اللغو ساسة المؤمنين وزعماؤهم ، فيمزقوا وحدتهم بأيديهم ، ويتحدوا مع الكافرين على إخوانهم ، ويحاربوا في صفوفهم وينقذوهم وقت الشدة ويركنون إليهم وهم المخادعون ، حتى إذا تكشفت الأغطية ، صاح صائحهم: إنما أُكلْتُ يوم أُكلَ الثورُ الأبيضُ.

ومع هذا كله يوصي القرآن أبناءه بوصيتين:

أولاهما: فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم.. الله أكبر.. حتى مع هذه الأوصاف والأخلاق يقول القرآن فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. هذا كلام لا يحتاج إلى بيان وكل شرح ينقص من قيمته ويحجب من روعته وبهجته ورونقه.

وثانيتهما: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ وهنا تتجلى لك الغاية التي يقاتل لها المسلم والتي يحبّ لها ويبغض لها والتي يقف عليها المال والروح والدم والحياة. ليست المادة وليس المال والجاه ، ولكنها أن يدخل الناس في دين الله أفواجا ، أن يهتدي العالم بهذا القرآن ، وأن يؤمنوا به إيماناً عميقاً منتجاً ، فيقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويتآخوا مع الناس في سبيل الله.

ذلك حكم الله ، وتلك آياته ، فهل يتدبرها المسلمون ويهتدوا بهدي الإسلام وفي ذلك سعادة دنياهم وآخرتهم ؟ اللهم.. إن الأمر بيد الله. (*)

(*) مجلة النضال ـ السنة الأولى ـ العدد ٤ في ٣ جمادي الأولى ١٣٥٧ هـ / ١ يوليو ١٩٣٨م.

شرف الإسلام الدولي (٥)

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

تقدم لك أن المسلم حين يقاتل لا لمال ولا لجاه ومنصب ولا لغرض من أغراض الحياة الدنيا ، ولكن لتكون كلمة الله هي العليا ولكي يدخل الناس في دين الله أفواجا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويكونوا إخواناً في دين الله. هذا هو الوجه الإيجابي في مشروعية القتال ، وثَمَّ وجهٌ آخرُ هو أن يكون هذا القتال دفاعاً عن الحق وانتصاراً له وانتصافاً من أهل الباطل ، فإذا نكث الكفار عهودهم أو تحرشوا بالمسلمين في أرضهم أو نالوا من دينهم ومقدساتهم أو بدأوا المسلمين بعدوان أيّ عدوان ، حينئذ يوجب الإسلام على أبنائه وجنوده أن يكونوا أسودَ وَغَي وأحلافَ قتال وجهاد حتى يردوا المعتدي ويثأروا للحق من المبطلين ، وهنا يكون القتالُ فَرْضَ عَين لا يتخلف عنه أحدٌ ولا يقعد عنه إلا من استثنى الله.

لا عذر للقاعد في هذه الحالة ، حالة اعتداء أهل الكفر على أهل الإسلام ، فإن خشية المسلم تكون لله وحده ولن تكون لغيره أبدا ، فعليه أن يقاتل مهما كلفه ذلك ، وقد تكفَّل الله له إنْ فعلَ بأن يعذِّب عدوَّه بيده وبأن يُخزيَهُ وبأن يكتب النصر لعباده وبأن يَشفي صدورَ المؤمنين ويُذهبَ غيظَ قلوبهم وبأن يتوبَ على كثير من الناس بذلك ، فمن هؤلاء: المستضعفين الذين يتخلصون بانتصار المسلمين من أذى الكافرين ، ومنهم الأسرى الذين يقذف الله في قلوبهم الهداية والنور ، ومنهم العصاة الذين يغسلون بالدماء أوضار الذنوب ، ومنهم.. ومنهم.. فالجهاد كله خير وبركة لو عقل المسلمون.

هذا هو امتحان الله لعباده لا بد منه حتى يتميز الشجاع المؤمن من الجبان المنافق ، ولن يُتركَ الناسُ هكذا ، بل لا بد من التميُّز ، ولا يكون التميز إلا بالشدائد والاختبارات فلا يحس الناس أنه يكفيهم دعوى الإيمان حتى يقيموا عليها الحجة والبرهان فيخلصوا لله ولرسوله ولدعوة الحق ويجاهدوا في سبيلها ولا يتخذوا المشركين والمنافقين أصدقاءَ ولا أحباءَ ولا إخواناً.

أيها المسلمون: أرأيتم من هو المسلم في ميدان الجهاد..؟ إنكم ذَلَلْتُم يوم خشيتم الناس وتركتم هذه التعاليم وقنعتم منها بترديد الألفاظ ، وهؤلاء المستعمرون الغاصبون قد نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراجكم من أوطانكم وهم يبدأونكم كلَّ وقت بالعدوان ، فماذا أنتم فاعلون..؟ أتخشونهم..؟ والله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويُخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم. (*)

(*) مجلة النضال ـ السنة الأولى ـ العدد ٥ في ١٧ جمادى الأولى ١٣٥٧ هـ / ١٥ يوليو ١٩٣٨م.

صوت النفير العام

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾

أَخْلِ بنفسك من شوائب المادة ، واحصُرْ تفكيرَك في هذه التعاليم الروحية ، واستجمع لها روحك وقلبك ، واستمع لها كما يستمع الجنديُّ المطيعُ أوامر القائد المحبوب الحازم المطاع ، فإنك ستفهم منها فلسفة رائعة في تكوين الأمم وأعلام الجهاد ودعائم النصر ، وتستطيع أن تلخص مقاصد هذه الآيات الكريمة في هذه الجمل:

١. على المؤمن بالدعوة أن يعمل لها.

٢. أجر العمل أفضل من حرمان القعود.

٣. إذا قصَّر المؤمن في الجهاد عوقب واستُبْدِل به غيره.

٤. حَسْبُ المجاهد ثواباً أنْ رضيه ربُّه لهذا الميدان.

٥. في واقعة الهجرة العملية آيةُ ذلك ودليلُه.

٦. لا عذر لقاعد عن نصرة الحق مهما كان ، فإنما هو النفير العام.

■ **واليك بيان ذلك :**

(١)

من الناس من أحاطت به ظروف جعلت عبء حياته على غيره ، فهو في أمن ودعة وهدوء وراحة ، ومنهم من أحاطت به ظروفٌ جعلته يحمل عبء سواه ، فهو في كفاح دائم وفي نضال مستمر وفي عمل لا ينقطع. وكذلك الأمم في حياتها تتقلب بها الحادثات وتتنابها عواملُ الاجتماع ، فهي أحياناً وادعةٌ هادئةٌ ، وأحياناً كادحةٌ مجاهدةٌ ، وإنما يحمل عبء الجهاد فيها أصحابُ الدعوات الخالصة والمبادئ السليمة ورجالُ الإصلاح الصحيح الذين آمنوا بوجوب العمل واعتقدوا ضرورة الحاجة إلى الجهاد ، هؤلاء النفر من بناة الأمم ودعاة الحق ودعائم الإصلاح ، لابد أن يجاهدوا ولا بد أن يستعدوا لكفاح طويل لا نهاية له ، فإن حاجات الأمم أطول من أعمارهم مهما طالت ، وعليهم الا يُقَصِّروا أوْ يَنوا في أداء المهمة التي كان من حظهم أن يحملوا عبئها وينتدبوا أنفسهم للقيام بها.

(٢)

وهم إذا فعلوا ذلك فقد أعد الله لهم أعظم الأجر لقاء هذا التعب ، وهم إذا حرموا أنفسهم لذائذ حقيرة في حياة قصيرة ، فقد أعد الله لهم في خلد جنته ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطرَ على قلب بشَر ، فإن سَمَتْ أنفسُهم عن المعاوضات وجاهدت لأنها اعتقدت وجوب الجهاد ورأت في لذة العمل وفي سعادة النجاح وفي إسعاد المجتمع ثوابَ عملها وجهادها ، فبها ونعمت ولن يضيع الله أجرها بل سيضاعفه لها ، وإن كان ولا بد من معاوضة ، فشتان بين ما يفنى وما يبقى وبين لذائذ هذه الحياة الدنيا ولذائذ الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، ولَموضعُ سَوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها.

(٣)

فإذا أبى المجاهدون إلا القعود واستسلموا للضعف وسلَّموا الراية وخانوا الأمانة ، فهناك العذاب الأليم والجزاء الوفاق ، ولن يَدعَ الله الرايةَ بغير حَمَلَة ، ولن يترك الدعوةَ بغير أنصار ، بل يُديلُ الله منهم ويستبدل قوماً غيرهم ، ويكون إثم المقصرين القاعدين الذين مَلُّوا العمل وسئموا الكفاح على أنفسهم ، والضرر حائقٌ بهم ، ولن يضروا الله شيئا فإن الله هو الغني الحميد.

(٤)

وعلى المجاهد أن يعلم أنه شرف عظيم وفضلٌ كبير أن يختارَه ربُّه لحمل أمانته ونصرة دعوته. ولو لم يكن له من الثواب إلا هذا التكريم ، لكان فيه فوق الكفاية ، فإن الله لا يختار لهذا الشرف إلا من أحبَّهم ، وماذا يرجو مؤمنٌ بعد أن يكون لربه حبيباً ومن رسوله قريباً ؟ فلْيشكر الله على هذه المنَّة ولا يرى لنفسه فضلا في شيء: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾ الحجرات.

(٥)

ولقد تجلَّت قدرة الله العظيم واستغناؤه تبارك وتعالى عن الأسباب والمخلوقات في حماية أوليائه ونصرة أنبيائه وإظهار كلمته في مواطن كثيرة ، منها يوم الغار: إذ خرج رسول الله ﷺ ليس معه إلا صاحبه الكريم ، يملأ قلبيهما الإيمان وتظلهما العقيدة الصادقة بجنود لا قِبَل لأحد بها ولا سلطان لمخلوق عليها ، فكان عاقبة ذلك تأييد الله ونصره لهما وخذلان أعدائهما ، وردَّهم على أعقابهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ، وأنزل الله سكينته على رسوله وأيده بجنوده وأعلى كلمته وأحبط مكيدة الكافرين. فانظر إلى هاتين العبرتين: صدْقُ عقيدة من المجاهدين ، يقابله تأييد ومناصرة من رب العالمين ، لا دخل فيه لأحد من المخلوقين. وهما صنْوان لا يفترقان أبداً: صدْقُ الإيمان ، وفَخْرُ النصر.

(٦)

وإذا كان ذلك كذلك ، فمفروض على كل مؤمن أن يكون جنديا في سبيل العقيدة التي آمن بها يذود عنها ، ويعمل لها ، ويجاهد في سبيلها بنفسه وماله ، ولا عذر لأحد في ذلك.

• قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فقال: أرى ربَّنا استنفرنا شيوخا وشبانا ، جهزوني يا بَنِيَّ. فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأَبَى فركب البحر ومات مجاهداً.

• وشهد أبو أيوب الأنصاري مع رسول الله ﷺ بدراً ثم لم يتخلف عن غزوة للمسلمين إلا عاما واحدا ، وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ فلا أجدني إلا خفيفا أو ثقيلا ، وما زال رضي الله عنه المجاهدَ القويَّ ، والجنديَّ الفتيَّ ، حتى قَضَى ابنُ يثربَ وحليفُ الشيح والقيصوم وربيبُ الصحراء على أسوار القُسْطَنْطينية ونام شهيداً سعيداً قريرَ العين هادئ النفس على ضفاف البسفور.

• وحدَّث أبو راشد الحرَّاني قال: وافيتُ المقداد بن الأسود جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمْص ، وقد فَضُلَ عنه لسمَنه وعظَمه وهو يريد الغزو ، فقلت له: قد أعذر الله إليك ، فقال: أتت علينا سورة البعوث: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾.

• وقال ابن جرير: حدثني حبان بن زيد الشرعي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان واليا على حمص إلى الجراجمة ، فرأيت شيخا كبيراً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلت إليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك ، فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي استنفرَنا اللهُ خفافاً وثقالاً ولم يعذر أحداً.

• وقال ابن أبي نُجَيح عن مجاهد: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ قالوا: فإن فينا الثقيل وذا الحاجة والضيعة والشغل والمتيسر به أمره ، فأنزلها الله وأبى الله أن يعذرهم دون أن ينفروا مهما كانت ظروفهم وعلى ما كان منهم.

وبعد .. فإلى من يريدون تكوين الأمم على روح الجندية الصحيحة: هل رأيتم نفيراً عاماً كهذا النفير؟ فإن كنتم جادّين فخذوا على هذا الدَّرْب ، ودعوا العبث واطرحوا التجارب الفاشلة.. ***وانتم ـ ايها الإخوان المسلمون ـ اسَمِعْتُم نفيرَ الله في كتابه ؟ إن كنتم جادين في دعوتكم فاستعدوا فما يومُ الجهاد ببعيد ، وقل: عسى أن يكون قريبا ، وحينئذ احذروا أن تثّاقلوا إلى الأرض وأن تغفلوا بالحياة الدنيا عن الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.***(*)

(*)جريدة الإخوان المسلمين الإسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ١ في٢٢ محرم ١٣٥٥ هـ / ١٤ إبريل ١٩٣٦م.

العسكرية : عهد

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾

يومَ أراد اللَّه تبارك وتعالى أن يُسعِدَ الإنسانيةَ وأن يعم العالم برحمته ويقدم للناس كافة أجمع نظام كامل يضمن لهم سعادة الدارَين ، بعث إليهم رسوله ﷺ وأنزل عليه كتابه ومنحه أستاذية الدنيا جميعا ، وجعل كلَّ مسلم معه أو بعده ﷺ حارساً على هذا الكَنْزْ ووارثاً لهذه الأستاذية الكبرى وقائماً بحق هذه المهمة العظيمة.

فليس عجيباً بعد ذلك أن يعقد الحق تبارك وتعالى بينه وبين هؤلاء الحراس من المؤمنين ذلك العقد المحكم ، فيكون هو المشتري وهم البائعين ، والسلعة النفس والدم والروح ، والجزاء الجنة ، وكيفية التسليم جهاد في سبيل الحق وفناء في أداء هذه الحراسة القدسية للكنز الثمين. وهل تؤدِّي مهمةُ المؤمن الحق بأقل من هذا الثمن ؟ كتب هذا العقد المحكم على صفحات التوراة والإنجيل والقرآن وشهد عليه عيسى وموسى ومحمد وجبريل ، وليس أحد أوفى بعهده من اللَّه. فما أَربَحها من تجارة ، وما أجزَله من ثواب ، وما أقدَسها من بُشرَى: ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

قالوا إن هذه الآية حين نزلت فرح بها عامةُ الصحابة فرحاً شديداً ، ووجد خاصتُهم في أنفسهم شيئاً: إذ قالوا أيشتري الله منا ما هو ملك له..؟ وكيف يشتري المالكُ مِلْكَهُ ..؟ أوَقَدْ غلب علينا العقوق حتى لا نسلم للّه وديعته إلا بثمن.. فما أغلى هذا المشهد.. وما أسمى هذا المقام.

قال محمد بن كعب القُرَظيّ: لما بايعت الأنصارُ رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً أو اثنان وسبعون نفساً وامرأتان قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال: «أشترط لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال: «الجنة» قالوا: رَبِحَ البيعُ لا نَقيلُ ولا نَستقيلُ. فنزلت الآية.

تُرى في أية طريقة ولأية غاية يقدم المؤمنُ نفسَه للقتل.. ؟ لظلم وعدوان.. ! لمال ومُلْك وجَاه.. ! لاهتضام شعب واحتلال أرض وعبث بأمْن وانتقام لوهْم واعتزاز بجنس أو عصبية.. !

اللَّهم لا شيء من ذلك.. يتقدم المؤمنون إلى هذه الميادين ، ولكن ليعلُو الحق ويسود العدل وتخفق راية السلام وتكون كلمة الله هي العليا ، وليقولها خليفتهم داويةً قوية جريئة ملءَ الأرض والسماء: متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

أيها المسلمون: إن نفوسكم ليست ملكاً لكم ومع هذا فقد اشتراها الله منكم ، وإن مهمتكم وإيمانكم وعزتكم لا تكمل بغير إنفاذ هذا البيع وتسليم الأمانة مهما حاولتم، وإن الأمانة ستُسلم طَوْعاً أو كَرْهاً: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ النساء: ٧٨ . ولن يمنعها القعود من القتل إن كتب عليها ، ولن يحدوها الإقدام إليه إن منحها الله إياه ، ففيم القعود إذن ؟

ليتَ شِعْري أي جزاء سيقدمه (موسولينى) لجنود الفاشية ؟ لعل قطعة من طرابلس المهضومة أو من سهول الحبشة حيث يذوق أهلُها مر العذاب وينعم بعذابهم الفاتحون. وليت شعري أي جزاء سيقدمه (هتلر) لجنود النازية ؟ لعله يُمنّيهُم اليوم بالكَمِرُون وذهبها أو بإفريقية الشرقية ومَطّاطِها وغاباتها ؟ وليت شعري أي جزاء يُمنّي به (استالين) جنود البلاشفة الحمر؟ أظنهم سيقتسمون أنقاض الحمراء أو قصر طُلَيطلَة بإسبانيا.

أيها المسلمون اليوم: أين هذا الجزاء مما أعده الله لجنود الإسلام الفضلاء من جنة عرضُها السماوات والأرض ، أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار. أفبعد هذا أيها المسلمون يغلبكم القوم بعسكرية طائشة على هذه العسكرية الفاضلة ، حياكم الله يا أبطالَ فلسطين وأحيا في المسلمين جميعاً هماً كهممكم.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الرابعة ـ العدد ٢٦ في ٢٠ رجب ١٣٥٥ هـ / ٦ أكتوبر ١٩٣٦م.

أيـــن هـــؤلاء
الـذيـن عـاهــدوا اللّه؟

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾

قد علمت نبأ العهد الوثيق بين الحق تبارك وتعالى وبين عباده المؤمنين أن يبيعوه أنفسهم وأموالهم جهاداً في سبيله وعملاً لنصرة شريعته وأن يجزيهم بذلك الجنة ، وعلمت أنه تبارك وتعالى قد بشَّر الأوفياء بهذا البيع الرابح فقال تبارك وتعالى: ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ التوبة.

إن أردت أن تعرف سمات هؤلاء الأوفياء من المؤمنين فتأملْ الصورة الرائعة من صور الكمال البشرى فاسمع:

﴿ التَّائِبُونَ ﴾ وإنما التوبة رجوع إلى الحق يمليه الحس الدقيق ويدفع إليه الشعور الحي اليقظ ، ودقة الحس ورقة الشعور أظهر مزايا الإنسانية في الإنسان. وهل هناك صفة أنبل في النفس الإنسانية من صفة العدالة والإنصاف فيكون منها لها حارساً أميناً ومرشداً حكيماً يزَعُها عن النقائص ويكشف لها عن مساويها فتندم وتهبُّ مسرعةً نحو الكمال ، إذن ليس المقصود بالتوبة هذه الكلمات التي تلوكها الألسنة ، وليس المراد بالتائبين من يكثرون قول هذه الكلمات ، بل المراد أولئك الذين كملت في نفوسهم معاني الإنسانية السامية فاتصفوا بالعدالة والإنصاف وكان أول مظاهرها عندهم أن يحاسبوا أنفسهم.

﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ فإذا رقي هذا الشعور النبيل في النفس كشف لها عن كثير من حقائق الكون ، فعَرفت الكون من حولها وعرفت نفسها وعرفت خالقها فقدرت عظمته واتصلت به فأكثرت من خشيته واتصفت بالعبودية الصحيحة له ، والعبودية ـ يافتى ـ أرقى منازل الوصول إلى اللّٰه وأقدس مراتب القرب.

لا تَدْعُنِي إلا بِيَا عَبْدَه فإنه أشرف أسمائي

وبقدر اتصافك بأوصاف عبوديتك يتفضل عليك ربك بفيض من كرم ربوبيته: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ البقرة: ١٨٦، أو لست ترى أيها العاقل أن التوبة ، وهي مظهر الإنصاف أنتجت حكماً عادلاً هو تحقق العبد بعبوديته ؟

﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ ووصول العبد إلى هذه المنزلة يُشعره بعظيم فضل اللّٰه عليه وكبير نعمائه لديه ، فيلهج بالحمد ويكثر من الثناء ، ومن أولى بهذين من ولي النعمة ؟

﴿ السَّائِحُونَ ﴾ فإذا حملت هذا الوصف على الصيام فهو تجرد عن المادة لعذوبة متعة الروح ، وإذا حملته على السياحة فهو تفكر في مظاهر الكون أنتجه الشعور بجمال المكوِّن وعظيم نعمته ، وكلاهما كما ترى حمدٌ عميقٌ وشكرٌ فائقٌ ، ونعمةُ اللّٰه بعد ذلك أجزل ، وهل هذان إلا من نعمه ؟

﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ والركوع مظهر التعظيم والسجود أقرب القرب فإذا رقَّت الروح بالصوم أو رقَّت بالفكر فقد أعظمت ما وصلت إليه فعبرت عن علمها هذا الجديد وشعورها الفائض بالصلاة ، ولأمر مّا كانت الصلاةُ قُرَّةَ عَين سيد الشاكرين ﷺ.

﴿ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وإذا وصلت النفس إلى هذا الشعور الجميل وأنست بذلك المقام السامي ، أرادت أن تُشْرك غيرَها في هذا الخير وأن تفيض على سواها من مظاهر الإمداد الروحى ، فأمرت بالمعروف وقادت الناس أن هَلُمُّوا إلى ذلك الجناب.

﴿ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ ﴾ وهي ترى أنه لا يمنع الناس أن يتوبوا ويستغفروا إلا شهوات زائفة ، ومعاص حقيرة ، فهي تنهاهم أبداً عن المنكر، وتبين لهم ضرر الخطيئة - لو كانوا يعقلون -.

﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ وهي في ذلك كله في توبتها وعبادتها وحمدها وسياحتها وركوعها وسجودها وأمرها ونهيها وصلتها بربها وبخلقه تحفظ حدود اللَّه ، ولا تَخرج عما شرع لعباده ، وتتخذ من تعاليمه سياجاً منيعاً ومرشداً حكيماً تحفظه ولا تتخطاه وتسير عليه ولا تتعداه.

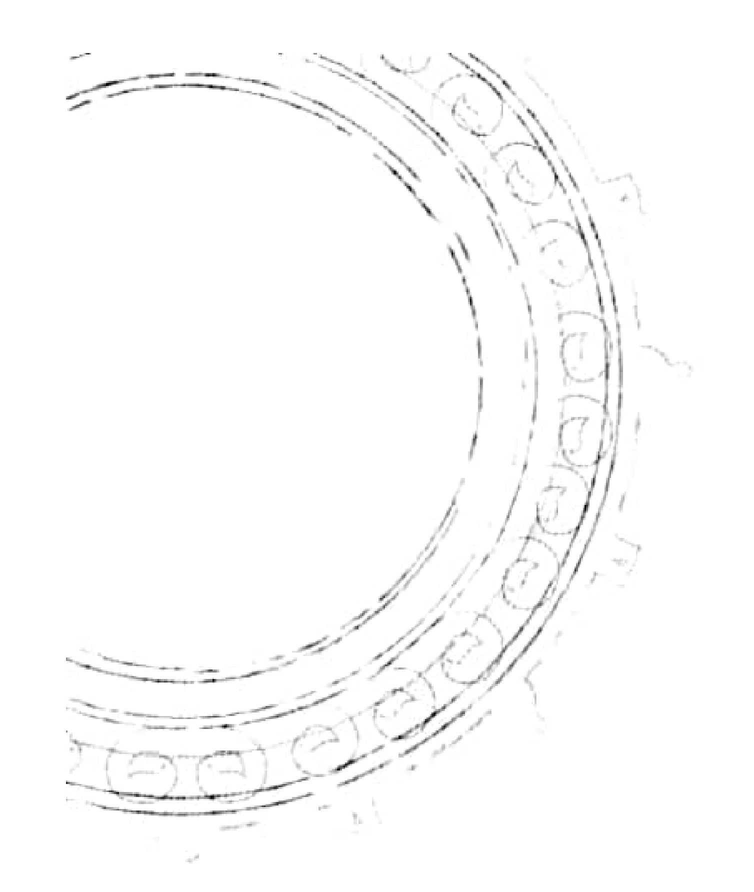
بربك يا أخي: أليس هؤلاء لهم البشرى.. ؟ أو ليس هؤلاء خلاصة المؤمنين.. ؟ أوليس هؤلاء نماذج الكمال التي يَنْشُدُها الفلاسفةُ فلا يجدونها إلا في بطون الكتب.. ؟ إنهم كذلك ، فأين هم الآن.. ؟.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية - السنة الرابعة - العدد ٢٨ في ٤ شعبان ١٣٥٥هـ/ ٢٠ أكتوبر ١٩٣٦م.



الآيات من: (١ - ٧)







يرى بعض العلماء أن من حرمة القرآن وتوقيره ألاّ يقال سورة النحل وسورة الرعد وسورة البقرة.. إلخ ، ولكن يقال السورة التي يذكر فيها النحل والسورة التي يذكر فيها الرعد وهكذا. ولقد جرى على ذلك شيخ المفسرين الطبري فعنون لهذه السورة في تفسيره بقوله: «أول السورة التي يذكر فيها الرعد» وقد رد القرطبي على من قال بهذا الرأي فقال: هذا يعارضه قوله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في كل ليلة كفتاه». (أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود) ولعل هذا هو الأقرب إلى سماحة الإسلام وابتعاده عن التعقيد الشكلي وفي اللغة والمجاز مَنْدُوحة.

■ **مكان النزول**

قال ابن الجوزي: اختلفوا في نزولها على قولين:

أحدهما: أنها مكية رواه أبو طلحة عن ابن عباس وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة ، وروى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية إلا آيتين إحداهما قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ الرعد: ٣١ ، والأخرى قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ الرعد: ٤٣ .

والقول الثاني: أنها مدنية رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس وبه قال جابر بن زيد ، وروى عن ابن عباس أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة وهما قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ الرعد: ٣١ ، وقال آخرون المدني منها قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ الرعد: ١٢ـ ١٤، وقال آخرون: نزلت آية منها بالجُحْفَة وهي قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي ﴾ الرعد: ٣٠ ، وتكاد الطبعات في المصاحف تُجْمع على أنها مدنية نزلت بعد سورة محمد ﷺ.

ويلاحظ اضطراب الروايات عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ في تحديد المكي والمدني منها ، ولعل ذلك من اشتباه الأمر على الرواة.

والذي يتفق مع القواعد العامة في تعرف المكي والمدني أن معظم هذه السورة الكريمة مكى.

فقد جعل العلماء من علامات المكي غالباً أنه يتعرض للعقائد وأدلتها من النظر في الكون واستجلاء عجائب صنع الله فيه مع الزجر والوعيد وبيان جزاء المخالفين والمؤمنين ، لأن ذلك هو الموافق لحال المخاطبين من الكفار والمشركين.

أما المدني فغالبه تقص فيه الأحكام التفصيلية من عبادات ومعاملات وغيرها. وأيضا فمن علامات المكي أن يغلب فيه الخطاب والتعبير بـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ونحوها من ألفاظ العموم ، على حين أن الخطاب والتعبير يغلب في المدني أن يكون بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ونحوها. والناظر في مقاصد السورة الكريمة يراها بحال المكيين وموقفهم أَخْلَقُ فنحن نرجح القول بمكية معظمها.. والله أعلم.

وعدد آياتها ثلاث وأربعون عند الكوفيين ، وخمس وأربعون عند الشاميين ، والسبب في ذلك اختلافهم في أن الآية الأولى هي: ﴿ المر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ أو إن ﴿ المر ﴾ وحدها آية و﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ﴾ آية ثانية وما بقى بعد ذلك آية ثالثة ، فعلى الأول هي ثلاث وأربعون ، وعلى الثاني هي خمس وأربعون ، مع الاتفاق على جواز الوقف بل على استحسانه في كل موضع من هذه المواضع.

■ المقاصد العامة في السورة

عرضت السورة الكريمة لتقرير عظمة الخالق وإثبات المعاد والرد على منكريه مع التقديم لذلك بعرض الأدلة من ظواهر هذا الكون العجيب ، والتقفية بضرب الأمثلة الرائعة لكل من الحق والباطل.

ثم عرضت بعد ذلك لقسمي المؤمنين والمخالفين وأوصاف كل منهما والأخلاق التي تنبتها في نفسه العقيدة وتنميها، وجزاء كل من الفريقين في الدنيا والآخرة ثم تثبيت الرسول ﷺ وارتقاب يوم الفصل الذي يعلم فيه الجاحدون لمن عقبى الدار.

وتستطيع أن تجمل هذه المقاصد السامية في أنها إثبات التوحيد والمعاد، وبيان ما ينتج من الإيمان بهما من أخلاق فاضلة وجزاء حسن كريم ، والمقابلة بين ذلك وضده كما هي عادة القرآن.

■ المناسبة بين هذه السورة الكريمة وما قبلها

وتستطيع من ذلك أن تلمس المناسبة بين هذه السورة وبين السورة التي قبلها ، ففي السورة التي قبلها أجمل يوسف عليه السلام عقيدة التوحيد في قوله: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ يوسف . وفي هذه السورة أفاض في بيان هذه العقيدة وتدعيمها بالأمثلة الواضحة والبراهين والأدلة.

وفي السورة التي قبلها تناول بالتحليل نفوس إخوة يوسف وما استولى عليها من أخلاق إذ ذاك دفعتهم إلى ما فعلوا بأخيهم ثم ما كان بعد ذلك من توبتهم ومسامحته إياهم واستغفار أبيهم لهم ، وفي هذه بسط لأخلاق المؤمنين كالتأكيد لما ذكر هنالك والتبين له.

وفي سورة يوسف أجمل الإشارة إلى ما في الكون من روائع الآيات وإن أعرض الناس عنها ولم يكلفوا أنفسهم عناء النظر فيها فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ يوسف. وفي هذه

السورة الكريمة تناول هذا الإجمال بالتفصيل المبين ، فذكر من آيات الله في السماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والماء والنبات والرعد والبرق... إلخ ما يلفت الأبصار الزائغة ، ويسترعى الأفئدة الغافلة المعرضة.

ولما كانت سورة يوسف قد تناولت بالبيان والتفصيل ما كان من جدود اليهود والنصارى وهم أبناء يعقوب بالنسبة لأخيهم ، ثم ختمت بأن في قصص هؤلاء وغيرهم من أنبياء الله الذين قصَّ الله من نبئهم على رسوله عبرة لأولى الألباب ، وكان ذلك مظنة اعتراض من اليهود على عادتهم في التحريف والعناد ، جاءت فاتحة سورة الرعد مؤكدة لكل هذه المعاني فذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وبذلك ينقطع عليهم سبيل الاعتراض ويتقرر المعنى في نفس القارئ والسامع.

ولما كان ختام سورة يوسف قد عرض لحقيقة الدعوة القرآنية وسبيلها في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ يوسف: ١٠٨، مع بيان: أن هذه الدعوة ليست بدعا من دعوات المرسلين ، ولا مخالفة لما جاءوا به ، وكانت المناسبة تامة بين السورتين ، فقد جاء كذلك في ختام سورة الرعد عرض لهذه الدعوة الكريمة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) ﴾ الرعد ، ثم ذكر بعدها طرفاً آخر من شئون المرسلين من قبل لبيان أن محمداً ﷺ لم يكن في أحواله بدعا منهم فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ الرعد: ٣٨ .

وإذا نظرنا إلى أن سورة يوسف كلها جاءت تفصيلا لما وقع من ذرية يعقوب وأبنائه عليه السلام رأينا أن ورود هذه الآية الكريمة في سورة الرعد إجمال في الدليل يتكئ على ذلك وسيأتي التفصيل ، فالمناسبة تامة ولا شك.

وثَمَّ وجوه أخرى من المناسبات يطول بنا الأمر إذا أردنا أن نتقصاها وسيأتي بعضها خلال التفسير إن شاء الله.

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾.

﴿ الٓمٓر ﴾ الكلام في فواتح السور بهذه الحروف الكريمة تقدم مسهبا ، واختار صاحب المنار في ذلك أنها أسماء للسور، وقد يُعتَرض على هذا القول بأن ذلك يتجه لو لم يكن لهذه السور أسماء ، أما وقد سميت بعد ذلك فما الحكمة في تعدد التسمية ؟

وقد أشار الحافظ ابن كثير إلى أن كل سورة تفتتح بمثل هذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وبيان أحقيته ، مما يدل على أن المقصود بها لفت النظر إلى اختصاصه بالإعجاز مع أنه مركب من جنس هذه الحروف التي تفتتح بها السور، ومن طرائفه في ذلك أنه نقل عن بعضهم: أن مجموع حروف الفواتح في القرآن أربعة عشر حرفا يجمعها قولك: (نص حكيم قاطع له سر) ولا شك أنه استئناس طريف ولكن غير مقصود طبعا.

وقد قيل في تأكيد هذا المعنى ـ وهو أن هذه الحروف في فواتح السور للإشارة إلى الإعجاز ـ أنك لو أمعنت النظر في حروف كل سورة من السور التي تفتتح بالحروف المتقطعة ، لوجدت حروف الافتتاح أكثر الحروف دوراناً فيها ، وعلى هذا القول نستطيع أن نفهم حكمة اختلاف هذه الفواتح فهي أحياناً ﴿ الٓمٓ ﴾ فقط ، وأحيانا ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ وأحيانا ﴿ الٓر ﴾ وأحيانا ﴿ الٓمٓر ﴾ وتتضح لك بهذا حكمة زيادة الميم في فاتحة الرعد بخلاف ما قبلها وما بعدها. ونُقل عن ابن عباس أن الحكمة في زيادة الميم في هذه الفاتحة أن معنى الفواتح السابقة في ﴿ الٓر ﴾ فقط: أنا الله أرى ، وأما في هذه فمعناها: أنا الله أعلم وأرى بزيادة أعلم ، على ما نقل عن ابن عباس في أن هذه الحروف أجزاء كلمات ، والقول الأول أوضح وأبين.

ومما يعجبني في حكمة افتتاح السور بهذه الحروف ما أشار إليه الحافظ ابن كثير أن المراد التحدي بنفس هذه الحروف ، وبيان ذلك أن المعلوم لدى قريش ومن جاورها ـ بل لدى كل من عرف النبي ﷺ واتصل به ـ أنه أميّ لم يقرأ ولم يكتب فحين يفجأ الناس باستفتاح كهذا في أول تلاوته للقرآن ، فهو بلا شك سيسترعى التفاتهم لما يقرأ من جهة ، وسيحملهم على التفكير في مصدر هذا العلم الجديد الذي طلع عليهم به من جهة أخرى ، والتفكير سلم الهداية وأول خطوات الإيمان الصحيح ، ثم نقول بعد هذا: والله أعلم بمراده بذلك ، كما كان يقول سلفنا رضوان الله عليهم.

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ إشارة إلى آيات القرآن الكريم وتأكيد لمعنى أحقيته ونزوله من عند الله تبارك وتعالى ، وأنه لا شك فيه ولا مرية: إنه تبارك وتعالى لما أشار في سورة يوسف إلى القرآن الكريم وبيَّن أنه سيقص على نبيه فيه أحسن القصص ، ثم ختم السورة بأن هذه القصص القرآنية عبرة لأولى الألباب وتصديق لما بين يديها من الكتب السماوية السابقة والشرائع الإلهية الماضية ، وهي بعد ذلك كله تفصيل كل شيء ينفع الناس في دينهم ودنياهم ، وهي كذلك هدى ورحمة لقوم يؤمنون بها ويصدقون ، لما تقدم ذلك في فاتحة السورة وختامها ، أكَّد ذلك المعنى في فاتحة هذه السورة فقال: تلك آيات الكتاب بخصائصها وروعتها وصفاتها النافعة الجليلة التي تقدمت ، وهي حق من عند الله لا شك فيه ولا مرية.

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لما ذكر في الآية السابقة صفات هذه الآيات وأنها عبرة وتصديق وتفصيل وهداية ورحمة ختم ذلك بأن الذي يستفيد هذه الفوائد جميعاً إنما هم المؤمنون المصدقون ، وقد ورد: أنه ما جلس أحد إلى القرآن إلا زاد أو نقص ، فإن كان مؤمنا زاد إيمانا وهدى ، وإن كان غير ذلك نقص: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) ﴾ الإسراء .

لما ذكر ذلك قرر في هذه الآية ناموسا اجتماعيا ، وهو أن أكثر الناس لا يؤمنون ، وقد تكرر هذا المعنى كثيراً في القرآن الكريم ، وقلما تذكر الكثرة إلا ومعها الضلالة والإعراض ، وقلما تذكر القلة إلا ومعها الهداية والنور والإنتاج. وتأملْ ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ يوسف ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الأنعام: ١١٦ ، ﴿ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ الأعراف ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾ البقرة ، ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ التوبة: ٢٥. إلى جانب قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ سبأ ، ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ ص: ٢٤ ، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ آل عمران: ١٢٣ ، ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ البقرة.. إلخ ، تجدْ ذلك يكاد يكون مطرداً. وأنت إذا طالعت مصداق ذلك في شئون الناس وأحوال الدعوات ، وجدته صحيحاً مطرداً. فما من دعوة حق إلا كان أهلها قلائل بالنسبة لمن يناوؤها من أهل الباطل والدهماء ، ولكنك إلى جانب هذا تجد أن الغلبة دائما للقلة المحقة والنصر دائماً إلى جانبها. وبذلك يتضح لك وجه الجمع بين ما سبق من وعد الله لدينه أن يظهره على الدين كله ، مع تقرير أن أكثر الناس لا يؤمنون الإيمان الكامل الحق ، ولو مع الحرص على ذلك ، ومن ذلك تعلم أن قول ذلك العربي: (وإنما العزة للكاثر) لا يتمشى إلا إذا تساوت الفئتان في غير العدد من وسائل القوة وزادت إحداهما الكثرة ، أما إذا تميز أهل الحق من أهل الباطل فقد كتب الله الغلب للمحقين مهما كان عدد خصومهم كثيراً: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ الروم.

والسر في انصراف أكثر الناس عن الإيمان أن الإنسان تتجاذبه قوتان تحاول كل منهما أن تتغلب عليه وأن توجهه وجهتها: قوة الخير التي يؤازرها العقل ويرشدها الوحي ويقويها العمل الصالح ، وقوة الشر التي تمدها الشهوات ويزينها الشيطان ويقود

إليها الهوى ، وتغري بها زخارف المادة وأعراض الحياة الدنيا ولذائذها ، وتزداد ضراوة بالمعاصي والمخالفات.

ولما كان العقل والوحي وما إليهما من عالم النفس السامية الفاضلة ، وكانت الشهوات والأهواء والزخارف المادية من عالم هذا الحس ، وكان الإنسان ما دام في حياته الدنيا فهو إلى الحس أقرب وبه ألصق ، ولا يقوى على مقاومة هذه الدوافع إلى الشر إلا بتوفيق رباني وإرادة قوية ومجاهدة دائمة وعزيمة صادقة ، وهو ما يشق على أكثر النفوس ، من هنا كان أكثر النوع الإنساني مادياً دنيويا إلا القليل الذي ملك عنان نفسه وقوي على التصرف في عوالم حسه واستعان بطاعة الله على تثبيت هذا الإيمان الكريم وسلوك هذا المسلك القويم. وتأمل الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ المعارج . وتأمل دوران هذا المعنى في كثير من الآيات التي ورد فيها ذكر الإنسان.

وانظر كيف أن صوارف الحس ونوازع النفس وتعلق الروح بالمادة ، لا تزال تحاول أن تصرف الإنسان عن إيمانه لأقل المناسبات حتى بعد أن تثبت العقيدة وترسخ ، وانظر مصداق ذلك في الآية الكريمة: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) ﴾ الأعراف ، وإلى ما كان من بعض أصحاب النبي ﷺ في غزوة حُنَين حينما مروا بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله !! هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، والذي نفسي بيده لَتركبن سَنَنَ من قبلكم».

(رواه الترمذي عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه).

تأمل ذلك كله لتعلم صدق هذا الناموس الخالد: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وليس معنى أنهم ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أن يكونوا جميعا كفارا ولا شك ، بل يدخل في معنى الآية أن من الناس من لا يؤمنون ظاهراً ولا باطناً ، وهم الكفار على اختلاف أنواعهم من وثنيين وكتابيين وملاحدة وزنادقة... إلخ ، ومنهم من يؤمن ظاهراً ولا يؤمن قلبه كالمنافقين ، ومنهم من يؤمن لفظا ولا يؤمن عملا كعصاة المسلمين، ومنهم من لا يتحقق بصفات أهل الإيمان الباطنة مع قيامه بأعمالهم الظاهرة فيكون ناقص الإيمان ، ومنهم من يتردد بين الشك والإيمان وهكذا .

والحكمة في تقرير هذا الناموس في كتاب الله تبارك وتعالى أمور:

منها: تعزية المصلحين الذين يقضون الزمن الطويل في الجهاد العنيف والكفاح المُمِضّ ثم يرون أنهم بعد ذلك كله لم يظفروا إلا بالعدد القليل من المؤمنين ، وفيه إلى جانب هذه التعزية ***إرشاد لأصحاب الدعوات أن تكون وجهتهم في التكوين أولا الكيف لا الكم والإيمان الصادق بالمبدأ والعقيدة لا العدد الكثير الذي لا يغني شيئاً*** ، ولهذا قضى رسول الله ﷺ شطر مدة الدعوة في مكة يتخير لها الأكْفاء حتى مكث مدة طويلة ولمّا يبلغ أصحابه الأربعين ولكن الرجل منهم كان أمة وحده.

ومنها: إرشاد المؤمنين إلى وجوب حياطة إيمانهم بصلاح العمل ومجاهدة النفس وسد الذرائع والبعد عن الشبهات واتباع سبيل الله حتى لا ينتكسوا ويعودوا بعد الإيمان الكامل إلى مرتبة دون هذه المرتبة ، وأكثر ما يكون ذلك إذا قلدوا غيرهم من الأمم وسلكوا سبيل سواهم ممن لا يدين دينهم ولا يعتقد عقيدتهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ آل عمران.

وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن الإيمان لا يكون كاملا حقيقيا إلا إذا اعتقد المؤمن أن هذا القرآن حق نزل من عند الله ثم عمل على إنفاذه وجعله حكما على نفسه والله أعلم..(*)

(*) مجلة المنار ـ مجلد ٣٥ ـ جزء ٥ في غرة جمادى الثانية ١٣٥٨ هـ / ١٨ يوليو ١٩٣٩م.

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾

أكدت الآية الكريمة الأولى في أول السورة صدق القرآن وأحقية ما نزل على النبي ﷺ من ربه وإن أعرض أكثر الناس عن الإيمان به. وفي هذه الآيات الكريمة بيان لأول ما يجب أن يؤمن به الناس ويعتقدونه ويصدقوا بأحقيته: وذلك هو الإيمان بالله. فمعرفة الله والإيمان به أول ما يجب أن تتوجه إليه الهمم وتعني به النفوس.

وقد سلكت الآيات الكريمة بالناس إلى هذا الإيمان أقوم السبل: وهي سبيل التفكر في مخلوقات الله وعجائب صنعه من رفع السماوات وتسخير الكواكب والأجرام وتدبير الأمور والشئون وتصريف الآيات والعبر ومد الأرض وبسطها وإمدادها بما ينفع أهلها من الجبال والأنهار والنبات والجنات على نسق رائع بديع هو الآية في الإعجاز وصدق التصوير والاستيلاء على المشاعر والقلوب.

﴿ اللَّهُ ﴾ أكبر أسماء الخالق سبحانه وتعالى وأجمعها ، لا يثنّى ولا يُجمع ، والألف واللام من بنيته لم تدخلا عليه للتعريف إذ هو أعرف المعارف . قال الخطابي: والدليل على ذلك دخول حرف النداء عليه كقولك يا الله: وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام ، ألا ترى أنك لا تقول يا الرحمن ولا يا الرحيم كما تقول يا الله ، فدلَّ على أنهما من بنية الاسم.

﴿ اللَّهُ ﴾ اسم كريم للموجود الحق الباري الخالق المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه. ولا تظن أنني أحاول بذلك الشرح أو التفسير فكمالات الحق تبارك وتعالى فوق هذا ، ولكن أريد أن ألخص لك رأي

الإسلام الموجز الحق الذي يشبع الروح ويطمئن القلب فيما يجب على المسلم أن يعتقده في ذات الخالق جل وعلا وصفاته ، مستغن بالقليل عن الكثير. فاعلم أن الإسلام قد أجمل ذلك فيما يأتي:

أولاً: عدم التعرض للحقيقة والماهية من حيث هما مع التنبيه على المخالفة التامة بين ماهية الإله وماهية الخلق. يقول القرآن الكريم: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ الأنعام ، وهو بذلك يشير إلى الكف عن التعرض للماهية ، ويقول أيضاً: ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ الشورى ، وهو بذلك يشير إلى المخالفة التامة بين الخالق والمخلوقات جميعا. وفي الحديث: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» [(١)] . ومن البدهي أن هذا الموقف لا يؤخذ على الإسلام في شئ فإن العقل البشري وهو عماد العقيدة في الإسلام يقف إلى الآن موقف العجز المطلق أمام حقائق الأشياء جميعا ، وكل الذي وصل إليه إنما هو الخواص والصفات والآثار ، أما الحقائق والبسائط المجردة فلم يصل إليها بعد. وما كان الإسلام ليكلف الناس ما لا تستطيع أن تدركه العقول والأفهام.

---

(١) الحديث ورد بألفاظ يتفق معناها. قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : رواه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه. ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر. وقال هذا إسناد فيه نظر. قلت فيه الوازع بن نافع متروك. أهـ. زاد الترمذي في الشرح قلت حديث ابن عمر لفظه: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر وأبو الشيخ في العظمة ، والطبراني في الأوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه الأصبهاني وأبو نصر في الإبانة وقال غريب ، ورواه أبوالشيخ من حديث ابن عباس: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره». ورواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله» إلخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي في المقاصد. أهـ . نقلا عن تعليق صاحب المنار على رسالة التوحيد.

ثانياً: التوصّل إلى معرفة صفات الإله وإدراك كمالات الإلوهية ومميزاتها عن طريق النظر في الكون نظراً صحيحاً وتحرر العقول والأفكار من الموروثات والأهواء والأغراض حتى يصل إلى الحكم الصائب. والقرآن مملوء بالحث على النظر في المكونات والتأمل في المخلوقات وقد ذُكر العقل في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً مقروناً بالتبجيل والتكريم والحث على الجد والعمل في إدراك الحقائق والسير في سبيل كشف مستوراتها ، وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ البقرة ، ومن مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ فاطر، فهو في هذه الآية يحض على اكتشاف غرائب النبات والحيوان والجماد بأقسامه ، ثم يرتب على ذلك الخشية من الله لما بين معرفة الكون ومعرفة مكوّنه من صلة ، ومن مثل الآيات الكريمة التي نحن بصددها من سورة الرعد.

ثالثاً: إثبات صفات الكمال للخالق نتيجة للنظر في هذا الكون ، فالله موصوف في الإسلام بالوجود وبالعلم وبالقدرة وبالحياة وبالسمع وبالبصر وبالجمال وبالحكمة وبالإرادة.. إلخ ، مع الإقرار بأن كيفياتها وحدودها مجهولة ضرورة الجهالة بذات الله تعالى ، ولكنّا نعلمها علم اليقين من وضوح آثارها في هذا الكون البديع الصنع ، فالخالق حكيم لما يجتلي في كونه من أسرار حكمته ، وقادر وعالم بأجمع معاني العلم والقدرة لأن هذا الكون البديع لا يكون إلا عن علم واسع وقدرة محيطة وهكذا. والقرآن يعدد هذه الصفات في كل المناسبات مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾ الحديد. ومثل سورة الإخلاص وهكذا.

رابعاً: نفى صفات المشابهة والنقص عن الخالق. فالتجسيم منفى عنه لأن المادة تتحول والخالق لا بد أن يكون ثابتاً، والتثليث منفي عنه لأنه تركيب والإله لابد أن يكون واحدا، والأبوة والبنوة منفصلان عن صفات الخالق لأنهما تجزئة والخالق لا يتجزأ وهكذا، والقرآن يقرر هذا ويجادل عنه في منطق دقيق وحجة قوية من مثل قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿٢٢﴾﴾ الأنبياء، ومن مثل قوله: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ المؤمنون، وقل مثل ذلك في نفي التثليث وغيره من عقائد الأمم السابقة جميعا.

خامساً: تقوية الصلة بين الوجدان الإنساني والخالق حتى يصل الإنسان بذلك إلى نوع من المعرفة الروحية هو أعذب وأصدق أنواع المعرفة جميعا وذلك أن الوجدان الإنساني أقدر على كشف المستورات غير المادية من الفكر المحدود بقيود المادة والأرقام، فالإسلام كثيرا ما يخاطب الوجدان ويستثير الخواص النفسانية الكامنة في الإنسانية لتتصل بالله تبارك وتعالى وتسمو إلى حظائر الملأ الأعلى. يقول القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ الرعد، وفي ذلك يقول أحدُ الفلاسفة الكونيين: (إن ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تشهد به عقولنا) ويصور القرآن هذا المعنى في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ الإسراء.

هذه الصلة الخفية بين الضمير الإنساني وبين الخالق التي تبدو في غاية الوضوح والجلاء عند الشدائد التي تنقطع فيها الآمال هي التي يعمل الإسلام كثيرا على أن تكون ضوءا يتعرف به الإنسان خالقه العظيم سبحانه وتعالى.

سادساً: مطالبة المؤمنين بأن تظهر عليهم نتائج هذه العقائد العملية. فالمؤمن إذا اعتقد أن ربه قادر، كانت نتيجة هذه العقيدة العملية أن يتوكل عليه ويلجأ إليه. وإذا اعتقد أنه عالم راقبه واستولت عليه خشيته. وإذا اعتقد أنه واحد لم يدع سواه ولم يسأل غيره ولم يصرف وجهه إلا إليه وحده، وإذا اعتقد أنه عظيم عظّمه فخافه وأحبه وهكذا. وقد أشارت إلى ذلك الآيات الكريمة في كثير من المواضع قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾ الأنفال. والآيات في هذا المعنى كثيرة في كتاب الله تبارك وتعالى. وكل عقيدة لا تنتج أثرها ولا تحمل صاحبها على مستلزماتها فهي عقيدة واهية ضعيفة لا تؤدي إلى الإيمان الكامل الصحيح.

ولعل من تمام هذا البحث أن أنقل لك بعض عبارات المؤمنين الصادقين في التعريف برب العالمين جلت ذاته وتقدست صفاته. سأل ذُعلب اليماني عليّاً كرَّم الله وجهه فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: أفأعبد ما لا أرى؟ فقال السائل: وكيف تراه؟ فقال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد عنها غير مباين، متكلم لا بروية، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة، تعنو الوجوه لعظمته ومخافته.

ومن كلامه رضي الله عنه في هذا المعنى: (لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له). أهـ. من نهج البلاغة.[1]

(١) في نسبة ما جاء في نهج البلاغة لعلي رضي الله عنه الخلاف المعروف بين الأدباء، وسواء أكان هذا القول من كلام علي رضي الله عنه أم من كلام الشريف، فمعناه من حيث تعظيم الله وحسن الثناء عليه رائع بديع.

وسئل بعض العلماء عن صفته تبارك وتعالى فقال: هو الواحد المعروف قبل الحدود والحروف. وسئل آخر عن التوحيد ما هو ؟ فقال: أن تعلم أنه غير مشبه للذوات ولا منفي الصفات. ومن أحسن ما قيل في التنزيه قول بعض الصالحين: تنزه ربنا عن أحوال خلقه فليس له من خلقه مزاج ولا في فعله علاج ، بايَنهم بقدَمه كما باينوه بحدوثهم ، إن قلت متى فقد سبق الوقت كونه ، وإن قلت هو فالهاء والواو خلقه ، وإن قلت أين فقد تقدم المكانَ وجودُه ، معرفته توحيده ، وتوحيده تمييزه من خلقه ، ما تصور في الأوهام فهو بخلافه فالذي يظفر الوهم به يرتقي التصوير إليه لا تماقله العيون ولا تقابله الظنون ، علوه من غير توقل ومجيئه من غير تنقل: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾ الحديد. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ الشورى.

﴿ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ يحسن قبل الكلام عن رفع السماوات وما يليه من آيات الكون في هذه الآيات البينات أن ألفت النظر إلى أصلين مهمين:

أولهما: حكمة ذكر المظاهر الكونية في القرآن الكريم.

وثانيهما: معرفة مدى ما وصل إليه العقل الإنساني في تعرف حقائق هذه المظاهر.

■ لماذا تذكر هذه المظاهر الكونية في القرآن الكريم ؟

جاء في القرآن الكريم ذكر السماوات والأرضين والشمس والقمر والسُّحب والأمطار والنبات والحيوان وعجائب الخلق وغرائب المكونات في كثير من المواطن. فهل يريد القرآن بهذا أن يتناول هذه النواحي بالتحليل العلمي فيوضح للقارئين ماهيتها وكنهها وعناصرها وأجزاءها ويبين لهم طبائعها وخواصها ويكشف لهم عن أسرار نواميسها وحقيقة قوانين سيرها ووقوفها ونموها وضعفها.. ؟ أم أن القرآن الكريم يعرض لكل هذه الظواهر الكونية لغرض آخر غير هذا التحليل العلمي ، ويدع هذا

التحليل لوقته والظروف الملائمة له عندما تتهيأ العقول البشرية لقبوله وإدراك غوامضه وأسراره ؟

لا شك أن القرآن الكريم لم يجئ ليكون كتاب فلك ولا هيئة ولا كيمياء ولا هندسة ولا لغير ذلك من الشئون التي تتناولها العلوم الكونية البحتة ، وإنما جاء ليكون كتاب هداية وإرشاد وتطهير للنفس البشرية وسمو بها إلى الكمال الممكن اللائق بجمالها ، وإيضاح وتقوية للصلة بين الخالق والمخلوق وبين المخلوقين بعضهم وبعض ، وتقرير للحقوق والواجبات ، وتفصيل للمصالح والمضار في المأمورات والمنهيات التي تتصل بسعادة الناس في معاشهم ومعادهم. وإن أشار في كثير من الأحيان إلى دقائق العلوم الكونية وعجائب النواميس التي تسير عليها المخلوقات. وإنما جاء القرآن كذلك لحكم جليلة:

منها: أنه إذا تناول حقائق العلوم والمعارف الكونية بالشرح والبيان فقد قطع على العقل البشري سبيل الرقي وحرمه لذة الجهاد العلمي وقضى على استقلاله وحريته بالجمود والخمود ولم يبق للعلماء فضل على الجهلاء وكان الناس في المواهب سواء فلن تشهد الإنسانية إلا جيلا واحدا ثم يقضي عليها بعد ذلك بالفناء.

ومنها: أن طبيعة العقل البشري في نشوئه وتكوينه لا تقبل هذه الطفرة ولا تحتملها وإنما يسلك العقل البشري في النوع الإنساني مسلكه في الفرد ، والواحد له أطوار وأدوار ، فهو ينشأ ضعيفا لا يكاد يدرك ما حوله ثم تتسع أمامه آفاق الإدراك وحدوده ، فلا يزال يتعلم فيعلم حتى يبلغ أقصى قوته ويأخذ من المعرفة بالنصيب الذي كتب له وأنت إن فاجأته وهو في دور طفولته وضعفه بما لا يستطيع إدراكه ولا يقوى على إكتناه ماهيته آذيته وشردته وأضللته وقذفت به في مهاوي الفتنة والشك والارتياب.

تصور أن طفلا سألك عن قوانين التيار الكهربائي كيف يتولد ؟ وكيف يسير؟ وكيف تتحرك به القوى العظيمة وتشتعل بضوئه المصابيح القوية على البعد والقرب سواء ؟

أو سألك عن أوجه القمر في نشوئه هلالا ثم اكتماله بدرا ثم عودته بعد ذلك من الكمال إلى النقص حتى يختفي جرمه ويخبو نوره ؟

أو سألك عن البخار كيف يدير البواخر ويحمل على الماء الأعلام المواخر؟

أتستطيع أن تتبسط في شرح ذلك لطفل صغير لم يتلق مبادئ هذه العلوم ولم يستق بعدُ من مَعين هذه المعارف ؟

كذلك العقلُ الإنساني في نشأته وأدوار حياته وأطوار نموه دائمُ الرقي والاكتمال بحسب ما يكتسب من المعارف المتجددة والتجارب المتكررة المتعددة. وما كان للقرآن وهو كتاب العصور كلها والأمم كلها والعقول جميعاً أن يتناول من علوم الكون إلا ما يتفق مع مدركات هذه العقول ثم يدع لرُقيِّها الفكري الكشف عما سوى ذلك بحسب قوانين النمو والارتقاء ، وذلك من أدب الإسلام في التعليم ومن سننه في إرشاد الناس إلى حقائق المعارف. روى البخاري في صحيحه عن عليّ كرم الله وجهه: «حَدِّثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه». وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما أنت بمُحَدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولُهم إلا كان لبعضهم فتنة».

ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في إجابة القرآن الكريم للسائلين عن أوجه القمر بصرفهم عن السؤال ولفت أنظارهم إلى فوائد ذلك ومزاياه: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ البقرة: ١٨٩.

ومنها: أن القرآن الكريم لو عرض لبيان هذه الشئون كلها واستوعب حقائقها وتفصيلاتها لصعب على الناس حفظه ولمضت الأزمان الطويلة دون استيعابه نزولا أو معرفة ولنسى الناس هديه وإرشاده فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا ، ولقد يسره الله تعالى وسهله ليكون ذلك أدعى إلى تذكره وأقرب للوصول إلى مقاصده والعمل بما فية: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ القمر.

تلك هي بعض الحكم التي من أجلها لم يتناول القرآن الكريم حقائق العلوم الكونية بالتفصيل والتوضيح وترك ذلك للعقل البشري يرقي إليه ببحثه المتواصل ويتذوق لذة معرفته بكفاحه وجهاده . وهناك حكم أخرى لا نطيل القول فيها ، وحَسْبُكَ من القِلادة ما أحاط بالجِيد ، والكلام في أسرار كتاب الله ذو سعة.

ومن ذلك نستطيع أن نقول إن القرآن الكريم جاء بهذه الظواهر واستعرضها وعرضها على الناس في كثير من المواضع لغرض واحد هو:

العبرة والعظة ولفت العقل والقلب إلى ما فيها من جمال وروعة ورقة وإعجاز وإبداع ، لا يكون إلا عن صانع حكيم متصف بالكمالات كلها لا يلحقه نقص ولا يناله قصور جلَّ ربنا عن ذلك وتعالى علوا كبيراً. يسوق القرآن كل ذلك ليكون سبيلا إلى معرفة الخالق والإيمان بالله ، وفي الوقت الذي يقصد فيه إلى هذا المعنى نجد أن في ذكر هذه المخلوقات ولفت الأنظار إليها ومطالبة الناس بالتفكير فيها والتصريح بعلو منزلة العلماء بها دفعاً بكل مؤمن أن يتعلم وأن يحيط بأسرار هذا الكون العجيب.

ذلك مع الإشارات اللطيفة إلى بعض الحقائق الدقيقة التي تعنو لها عقول الخاصة وتنحني أمامها هامُ الفطاحل من الراسخين في العلم يتلوها عليهم أميٌّ كريم لم يدخل جامعة علمية ولم يتعلم في مدرسة ، كَذكْر ناموس التلقيح: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ الحجر: ٢٢ ، وذكْر ناموس التقدير في المخلوقات: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ القمر، وغيرها من النواميس.

والعجيب في شأن القرآن الكريم أنه حين عرض لهذه المكونات ساق الكلام عنها في مساق غريب وأسلوب مدهش معجز ـ حقاً ـ يساير تمام المسايرة الإدراك الفطري ويتفق تمام الاتفاق مع التحليل العلمي والبحث الفلسفي المنطقي. فهو يجمع بين الشعر والمنطق ويغذي العاطفة والعقل ويرقى بالشعور والفكر ويستولى على الإرادة كل الاستيلاء ويفيد هذا وذاك الأثر المقصود والعزة المنشودة ، وذلك من أسرار الإعجاز

التي انفرد بها القرآن الكريم وامتاز بها كلام الخالق العليم عن كلام المخلوق القاصر العاجز.

تقرأ مثل قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ الأنعام: ١٢٥ ، فتُصوِّر هذه الآية الكريمة في النفس العادية ذلك المعنى الفطري السهل وتمثل لها ذلك الضال رجلا منهوكا متعبا قد بهرت أنفاسه وتقطع نياط قلبه مما حمل من أعباء الضلال كأنما عليه أن يقاسي في مرارة متجددة هول صعود السماء ، والآية بهذا المعنى الفطري تحدث في تلك النفس العامية ما قصدت إليه من تأثير في تقبيح صورة الضلال والابتعاد عنه.

وهذه الآية نفسها تثير في النفس العلمية ذلك المعنى الكوني الذي أيده البحث وأثبته العلم من تخلخل طبقة الهواء كلما علا الإنسان عن سطح الأرض وفناء عنصر الأوكسجين منها وهو العنصر الصالح للتنفس فتتقطع بذلك أنفاسه ويقف عن التنفس صدره فيزول عنه معنى الحياة جملة ، بل إن الضغط الهوائي ليختل توازنه على جنبات جسمه باطنها وظاهرها فتنفجر عروقه ويسيل في الفضاء دمه مهدورا ، والآية بهذا المعنى العلمي تحدث الأثر المقصود لها كذلك من تقبيح صورة الضلال وإبعاد الناس عنه.

هذا معنى من معاني الإعجاز لم يتفق لغير القرآن الكريم ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

∴

وأسوق لك هنا بمناسبة هذا البحث ما ذكره الأستاذ الإمام محمد عبده عند تفسير آية الأهلة في بيان موقف الوحي من العلوم قال ـ رحمه الله ـ: (العلوم التي نحتاج إليها في حياتنا على أقسام:

منها: ما لا نحتاج فيه إلى أستاذ كالمحسوسات والوجدانات فهذا هو (القسم الأول).

ومنها: ما لا نجد له أستاذا لأنه مما لا مطمع للبشر في الوصول إليه البتَّة، وهو كيفية التكوين والإيجاد الأول المُعَبَّر عنه بسر القدر. يمكن للنباتي أن يعرف ما يتكون منه النبات وكيف ينبت وينمو ويتغذى، وللطبيب أن يعرف كيفية تولد الحيوان والأطوار التي يندرج فيها مذ يكون نطفة إلى أن يكون إنسانا عاقلا مستقلا، ولكن لا يعرف نباتي ولا طبيب كيف وجدت أنواع النبات وأنواع الحيوان أو مادتهما لأول مرة ولا كيف وجد غيرها من المخلوقات، ومن هنا كانت العلاقة بين الخالق والمخلوق من هذه الجهة: جهة الإيجاد والخلق لا يمكن اكتناهها، وكذلك لا يمكن اكتناه ذات الله تعالى وصفاته وهذا هو (القسم الثاني).

ومنها: ما يتيسر للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصنائع والهيئة الفلكية. ومنها أسباب تطور الهلال وتنقله من حال إلى حال وهذا هو (القسم الثالث).

ومنها: ما يجب علينا للخالق العظيم الذي أودع فطرنا الشعور بسلطانه وهدى قلوبنا إلى الإيمان به بما نراه من آياته في الآفاق وفي أنفسنا، فإن هذا الشعور وهذه الهداية مبهمان لا سبيل لنا إلى تحديدهما من حيث ما يجب اعتقاده في الله تعالى وفي حكمة خلقنا ومراده منا وما يتبع ذلك من أمر مصيرنا ومن حيث ما يجب له من الشكر والعبادة.

وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بطريق صناعي أو كسب بشري، فقد وقعت الأمم في الحيرة والخطأ في مسائله لجهلهم بالصلة والنسبة بين المخلوق والخالق، فمنهم من وصفه تعالى بما لا يصح أن يوصف به، ومنهم من توهم أن أعمالنا تفيده أو تؤلمه وأنه ينعم علينا أو ينتقم منا بالمصائب لأجل ذلك. ومنهم من توهم أن الحياة الآخرة تكون بهذه الأجساد والجزاء فيها يكون بهذا المتاع فاخترعوا الأدوية لحفظ أجسادهم ومتاعهم. (١)

---

(١) والذي يؤخذ على هؤلاء قصور إدراكهم عن إمكان الإعادة بعد التحليل في الأجساد والمساواة بين نعيم الدنيا والآخرة مع أنه لا نسبة بينهما فنعيم الآخرة أجَل وأعظم من أن يقاس بهذا المتاع الفاني مهما بالغ الناس في المحافظة عليه.

وإذا كان الإنسان عاجزا عن تحديد ما يجب عليه ويحتاج إليه من الإيمان بالله وبالحياة الأخرى ، وما يجب عليه في الحياة الأولى شكراً لله واستعداداً لتلك الحياة لأن الحواس والعقل لا يدركان ذلك ، فلا شك أنه محتاج إلى عقل آخر يدرك به ما يعوز أفراده من هذه الأمور وهذا العقل هو النبي المرسل وهذا هو (القسم الرابع).

وبقى (قسم خامس) وهو: ما يستطيع العقل البشري إدراك الفائدة منه ولكنه عرضة للخطأ فيه دائما لما يعرض له من الأهواء والشهوات التي تلقى الغشاوة على الأبصار والبصائر فتحول دون الوصول إلى الحقيقة أو تشبه منافع الضار وتلبس الحق بالباطل ، ومثال ذلك السعاية ، يدرك العقل ما فيها من الضرر والقبح ، ولكنه إذا رأي لنفسه فائدة من السعاية لشخص ، يزينها له هواه ويراها حسنة من حيث هو يخفي عليه ضررها لذاتها. وكذلك شرب الخمر والحشيش ، قد يعرف الإنسان مضرتهما في غيره ، ولكن الشهوة تحجبه عن إدراك ذلك في نفسه ، فيؤثر حكم لذَّته على حكم عقله الذي ينهاه عن كل ضار ، فصار محتاجا إلى معلم آخر ينصر العقل على الهوى ووازع يكبح من جماح الشهوة ليكون على هدى.

فما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يطالب الأنبياء ببيانه ومطالبتهم به جهل بوظيفتهم وإهمال للمواهب والقوى التي وهبه الله إياها ليصل بها إلى ذلك ، وكذلك لا يطالبون بما يستحيل على البشر الوصول إليه كقول بعض بني إسرائيل لموسى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ البقرة: ٥٥ ، وأما ما كان إدراكه ممكنا وكسبه بالحس والعقل متعذراً أو تحديده متعسرا فهو الذي نحتاج فيه إلى هاد مخبر عن الله تعالى لنأخذ عنه بالإيمان والتسليم ، ولذلك قلنا إن الرسول ﷺ عقل الأمة.

لو كان من وظيفة النبي أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية ، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل وينزع الاستقلال من الإنسان ويلزم بأن يتلقى كل فرد من أفراده معلوماته بالتسليم ولوجب أن يكون عدد الرسل في كل أمة كافيا لتعليم أفرادها في كل زمن كل ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم ، وإن شئت فقل لوجب ألا يكون الإنسان هذا النوع الذي نعرفه.

نعم إن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ينبهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم في كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التي ترتقي بها نفوسهم، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوي الإيمان ويزيد في العبرة). أهـ.

∴

ونستطيع بعد ذلك أن نلخص موقف القرآن من العلوم الكونية العصرية وغير العصرية مما سبقها أو مما سيلحقها أو موقف هذه العلوم من القرآن الكريم في هذه النقاط:

١. ليست مهمة القرآن شرح بحوث هذه العلوم تفصيليا ، وإنما تَركَ ذلك للعقل الإنساني يكشف في كل طور من أطوار رقيه وكماله جزءا منه يتناسب مع مقدرته وما أتيح له من وسائل البحث والإدراك السليم.

٢. إنما عرض القرآن لما عرض له من هذه البحوث تنبيها لما فيها من دقة الصنع وجمال الإبداع ليكون ذلك حافزا إلي معرفة الله وصدق الإيمان به كما يكون حافزا إلى دوام البحث والنظر كذلك.

٣. إن هذا لم يمنع القرآن الكريم من أن يتعرض لكثير من النواميس الدقيقة في هذه العلوم إرشاداً للخاصة من الناس وإثباتاً لنسبة هذا الكتاب الكريم إلى العليم الحكيم.

٤. كان أسلوب القرآن في التكلم عن هذه المظاهر الكونية أسلوبا معجزا حقا.. فيه إجمال وفيه دقة وفيه وضوح إلى جانبهما فهو يرضي النفس الفطرية كما يشبع نهمة الفكرة العلمية كما لا يمكن أبدا أن يصطدم في مرونته وسعة معاني ألفاظه بنتائج البحث العلمي أيا كان في أي عصر من العصور وهذا من أبلغ وجوه إعجاز القرآن.

٥. إن القرآن بهذا الأسلوب فارق ما في أيدي الناس مما يزعمونه التوراة والإنجيل ، فقد امتلأت بالتفريعات الدقيقة لهذه العلوم والتفصيلات الشاملة للتحدث عن

كل مظاهر الكون والتصوير المادي لكل ما فيه ، فكانت نتيجة ذلك أن اصطدمت هذه الصور والأحكام بنتائج البحوث العقلية الثابتة فسقطت قيمتها العلمية في نظر الكونيين سقوطا لا قيام لها بعده ، وكانت عن ذلك الخصومة الحادة التي ذهب ضحيتها كثير من العلماء أمثال جاليليو وغيره ، وانتهت بأن قَبَعَ الدين في زوايا الكنائس الأدْيرة ، وليس في القرآن الكريم شيء من هذا كله وهو قدساير العلوم والمعارف منذ نزل على قلب محمد ﷺ فأشرقت الدنيا بنوره إلى الآن فلم يصطدم بنظرية علمية صحيحة ، ولم يخالف حقيقة كونية ثابتة ، ولم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ذلك لأنه تنزيل من عزيز حكيم.

٦. والنتيجة من هذا البحث أنه لا يصح للمسلم أن يعترض نصوص القرآن بنتائج هذه العلوم ، فإن من هذه النتائج ما لم يثبت بعد ، ومنها ما توهم العقل البشري ثبوته في عصر ثم نقضه أشنع النقض في عصر آخر وتلك طبيعة الترقي العلمي كما سترى في الفصل الذي يلي هذا ، وفي التفسير الذي يجمع بين الإيمان بالنص وإرضاء نتائج البحث الصحيح مندوحة ، بل مخارج كثيرة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فلا يجوز للمسلمين أن يقفوا عن البحث العلمي في مستورات الكون وخفاياه اعتمادا على ما جاء في القرآن من ذلك ولا سيما والقرآن نفسه مملوء بالحث على النظر في الكون ووجوب الازدياد من العلم: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤) ﴾ طه ، ولعلك بعد ذلك تدرك سر هذه الآية الكريمة مع قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ الإسراء: ٣٦ ، فالأولى: حث على تعرُّف ما تمكن معرفته مما هو في حيز البحث العلمي ، والثانية: نهى عن مزاولة ما لا يمكن الوصول إليه حتى تنصرف الجهود للنافع.

■ إلى أي مدي وصل العقل في العلوم الكونية ؟

يحسن بعد هذا البحث أن نجيب على هذا السؤال ليعلم المغرورون بنتائج البحث العلمي إلى أي مدى وصل العقل الإنساني في حل مشكلات الكون وكشف مستوراته ؟

وسنورد في هذا البحث بعض الشواهد من كلام علماء الكون غير المسلمين ونعتذر عن ذلك مقدما ، فلسنا في حاجة إلى تأييد كتاب الله تبارك وتعالى بغير ما هو فيه ، ولكننا قصدنا بذلك إلى أمرين:

أولهما: انتزاع الدليل من غير المؤمنين بالقرآن ليكون ذلك أبلغ في الفصل وأقوى في الاستدلال والفضل ما شهدت به الأعداء.

وثانيهما: إقناع المغرورين بعلوم الفرنجة المفتونين برقي أوروبا المادي أعظم الفتنة إذا عرفوا أن أساتذتهم قد أعلنوا العجز واعترفوا بالقصور وطامنوا من غرورهم وخفضوا من حدة تعصبهم لما لا يعلمون والله الهادي إلى سواء السبيل.

لقد أتى على الناس زمان توالت فيه الكشوف العلمية المادية ولمس الناس آثارها العملية في مجرى حياتهم الدنيا وظن علماء الكون أنهم وصلوا إلى لب الحقائق وابتكروا من النظريات والقواعد ما يستطيعون به تفسير كل المظاهر الكونية وأعلن كثير منهم في ذلك الوقت تبرمه بالأديان وأهلها ، والعقائد ومعتقديها ، وطغت موجة من الإلحاد على العقول والأفكار.. ثم لم تلبث هذه الموجة أن انحسرت أمام ما تجلى لهؤلاء العلماء أنفسهم من عظمة الكون ، وأمام ما انكشف لهم من النواميس التي هدمت ما اطمأنوا إليه من قبل وما اعتقدوا أنه الحق فطامنوا من غرورهم واعترفوا بقصورهم وأعلنوا هذا العجز التام ، وواصلوا بحوثهم في تواضع وأدب.

ذلك أمر طبيعي ، فإن هذا العقل السائح في ملكوت الله لا يستطيع أن يكشفه جملة ولا أن يصل إلى مكنوناته طفرة ، فهو لابد أن يبلغ المدة التي كتبها الله له باحثا منقبا ، ولابد أن يصل إلى الحقائق متدرجا ، ولابد أن يخطئ مرة ويصيب أخرى فيتلقى عن الخطأ درساً ويكشف بالصواب حقيقة ، وهكذا دواليك. على أن العقل مهما بلغ من الكمال فهو لم يصل بعد إلى حقيقة شئ من الأشياء ، إنما كل ما ظفر به بعض العوارض والصفات التي تنفع الناس ، أما حقائق البسائط المجردة فهو لم يصل

إلى شئ منها بعد ، وأغلب الظن أن ذلك ليس من شأنه ولا مما يعنيه وإنما هو سر الخلق الذي استأثر الله بعلمه.

وإليك بعض أقوال علماء الكون في ذلك:

نستفتحها بقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد في هذا المقام: (إذا قَدرّنا عقلَ البشر قَدْرَه ، وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها، وأما الوصول إلى كنه حقيقته فمما لا تبلغه قوته ، لأن اكْتناه المركبات إنما هو باكْتناه ما تركبت منه وذلك ينتهي إلى البسيط الصِرف ، وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره ، خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء ، قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة حصلوها في علم خاص به ، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ؟ ولا أن يكْنه معنى الإضاءة نفسها ، وإنما يعرف من ذلك ما يعرف كل بصير له عينان وعلى هذا القياس). أهـ.

١ . وتحدث الفيلسوف الفرنسي (جوستاف لوبون) في كتابه (تحول المادة) عن تطور المعارف الإنسانية الكونية وقصور العقل البشري عن إدراك حقائق النواميس الطبيعية في كلام طويل نقتطف منه ما يلي: (كل نظرياتنا العلمية العظيمة ليست بقديمة العهد. لأن تاريخ العلم التجريبي المحقق لا يصعد إلى أبعد من ثلاثة قرون ، وفي هذا العهد القريب قرباً نسبياً حدث دَوّران مختلفان من أدوار التحول في أفكار العلماء:

فالدور الأول: كان دور الثقة والاعتقاد فكانت فيه المقررات الفلسفية والدينية وهي قواعد مدركاتنا القديمة عن الوجود تضمحل وتزول ببطء أمام المكتشفات العلمية

التي تتوالي يوميا ، ولا سيما في النصف الأول من القرن الماضى ، وكان يظن مؤسسو كل علم جديد أنهم متى أتموا بناء الصرح العلمي ، استمر هذا الصرح قائما على أنقاض أوهام الزمان الماضي ، فكانت العقيدة العلمية في هذا الدور على غاية تمامها.

دامت هذه العقيدة في المقررات الكبرى للعلم العصري حافظة لقوتها ، إلى أن حدثت في الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمي أن يكابد من الشكوك في نتائج بحثه ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الآبدين ، فإن الصرح الذي كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية تزعزع فجأة بشدة عظيمة ، فصارت التناقضات والمحالات التي فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون ، أدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون عما إذا كانت الأصول المكونة للمقررات اليقينيّة لمعارفنا الطبيعية لم تكن إلا فروضا واهية تحجب تحت غشائها جهلا لا يُسْبَرُ له غَور ، فحدث في إدراك المقررات العلمية مثل ما حدث قبل ذلك للعقائد الدينية [1] عندما شرعوا في مناقشتها الحساب فبدأت ساعة الانحطاط ثم تلاها دور الزوال والنسيان.

لا مشاحة في أن الأصول التي كان العلم يختال بها اختيالا لم تزل كل الزوال بل هي ستبقى أمداً طويلاً في نظر الدهماء كحقائق مقررة وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها ، ولكنها قد فقدت كل ما كان لها من الإجلال في نظر العلماء الحقيقيين ، تلك المكتشفات التي نوهت بها آنفا قد كشفت اللثام عن الظنيات التي بدأت تفضحها الكتب الحديثة ، وبذلك دخل العلم نفسه في دور من الفوضى كانوا يظنون أنه قد سلم منه إلى الآن ، وأصبحنا نرى أصولا كان يظن أنها ذات قاعدة رياضية محققة صارت موضوع النزاع بين العلماء الذين من وظائفهم تعليمها والدفاع عنها).

---

(١) يقصد المؤلف العقائد الدينية عندهم وإلا فإن عقائد الإسلام قد سايرت العلم في كل عصر فلم تضعف أمامه وقد بيَّنا سر ذلك في الفصل السابق.

ثم أورد بعد ذلك عدة شواهد على قوله هذا من كلام (هنري بوانكاريه) و(أميل بيكار) و(ماتش) و(لوسيان بوانكاريه) ختمها بقول هذا الأخير: (فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسيسا ثابتا صارت اليوم لدينا موضوعا للمناقشة ، وقد رفض اليوم على وجه تام الرأي القائل بأن كل الظواهر الطبيعية تقبل تفسيرا ميكانيكيا فإن أصول علم الميكانيكا نفسه صارت مشكوكاً فيها وقد شوهدت حوادث جديدة زعزعت عقائدنا المتعلقة بالقيمة المطلقة للنواميس التي اعتبرت أساسية إلى اليوم).

ثم قال بعد ذلك: (من حسن الحظ أنه لا شئ أكثر ملاءمة للترقي العلمي من هذه الفوضى ، فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذي يحجبه عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي ، وأشد الأشياء خطرا على تقدم العقل الإنساني هو تقديم الظنيات للقراء لابسة حلل الحقائق المقررة على نحو ما تفعله كتب التعليم والتطاول لوضع تخوم للعلم ورسم حدود لما تمكن معرفته كما كان يود ذلك اجوست كونت). أهـ.

٢. حتى (دارون) نفسه وقد فتن مذهبه كثيرا من الأغرار بيَّن أن غاية نجاحه العلمي لم يتعد بعض التفسيرات في أصل الأنواع ، وقد كتب في هذا المعنى إلى صديقه المستر (هيات) فقال: (اسمح لي أن أضيف إلى هذا بأني لست من قلة العقل بحيث أتصور أن نجاحي يتعدى رسم دوائر واسعة لبيان أصل الأنواع).

٣. ومن كلام (وليم جيمس) الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة: (إن علمنا ليس إلا نقطة ولكن جَهْلَنا بحر زاخر، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشئ من التأكيد هو أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر لم تدرك خواصه المكونة له إلى اليوم).

٤ . وقال الأستاذ (وليم كروكس) الإنجليزي من خطبة له في مجمع العلوم: (متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية لم نبدأ بإدراك إلى أي حد تحصر هذه النتائج أو النواميس كما نسميها في دائرة نواميس أخرى ليس لنهايتها أقل علم عندنا ، أما أنا فإن تركي لرأس مالي العلمي الوهمي قد بلغ حداً بعيدا فقد تَقبَّض عندى هذا النسيج العنكبوتي للعلم كما عبر بذلك بعض المؤلفين إلى حد أنه لم تبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تدرك).

٥ . وقال (كاميل فلامريون) في كتابه (المجهول): (ترانا نفكر، ولكن ما هو الفكر؟ لا يستطيع أحدنا أن يجيب على هذا السؤال ، وترانا نمشي ، ولكن ما هو العمل العضلي ؟ لا يعرف أحد ذلك ، بل كيف ينقل العصب البصري الصور الخارجية إلى الفكر؟ وقل لي كيف يدرك هذا الفكر واين مستقره ؟ وما هي طبيعة العمل المخي ؟ أستطيع أن أسأل عشر سنين ولا تستطيع أكبر رأس فيكم ـ يقصد العلماء الكونيين ـ أن يجيب على أحقر أسئلتي).

٦ . وقال الفيلسوف (أندريه كريسون) في كتابه (قواعد الفلسفة): (العلم لا يعطينا عن الوجود في مجموعه إلا معارف مبهمة للغاية ، فإننا لا نعلم البدء الحقيقي للنجوم ولا للكواكب التي تحيط بالشموس البعيدة ، فإبداء فرض والحالة هذه على تركيب مجموع الكون لا يمكن أن يكون إلا تحكماً).[1]

تلك صورة مصغرة في الحقيقة عن اعتراف علماء الكون بجهالتهم بنواميس الكون نسوقها تذكرة لإخواننا الذين افتتنوا بهذه البحوث وأرادوا أن يتخلصوا من سلطان العقيدة الدينية استنادا إليها ، بل أزيدهم في ذلك أن الفيلسوف الإنجليزي (هربرت سبنسر) كان من حججه القوية في المطالبة بالعناية بالعلوم الطبيعية أن معرفتها مما يقوي الإيمان ويؤدي إلى معرفة الله ، فإن ما في الموجودات من جمال

---

(١) هذه الشواهد منقولة من كتاب (على أطلال المذهب المادي) للأستاذ /فريد وجدي.

التناسق والإبداع ودقة الصنع والاختراع يثير في النفس الإنسانية فطرة الإيمان العميق ، فتعترف راضية مطمئنة بعظمة الخالق العظيم ، ويزيدها تسليما وتفويضا عجز العقل البشري عن تخطي الحدود العرفانية المقررة له ، وضرب لذلك عدة أمثلة في غاية الروعة فلتراجع في رسالته في التربية.

ومن ذلك نعلم أن الإنسان لا زالت أمامه مراحل واسعة لإدراك حقائق الظواهر الكونية ، فإذا عجزنا الآن عن إدراك ملكوت السماوات وعن تعرف عجائب الأرض وعن اكتناه سر الحياة ، إذ أن القرآن الكريم لم يكشف لنا من ذلك إلا ما نحتاجه للعظة والعبرة ، والعقل البشري لم يصل في كشفه إلا إلى بعض الجوانب دون بعض ، إذا عجزنا الآن فليس ذلك بنقص ولا بعيب ، ولسنا ملزمين أبداً بإدراك كل الحقائق ، فلنقنع مؤقتا بما وصلنا إليه ولنعمل بجد لإدراك ما خفى عنا أمره ، ولكل مجتهد نصيب: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ العنكبوت .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ تقدم في سورة الأعراف في الجزء الثامن من تفسير المنار كلام مطول نفيس عن السماوات والأرضين وعن الأيام الستة التي خلقت فيها وعن المطابقة بين الوارد في القرآن والمعروف من نظريات علماء الفلك ، وفي الرد على كثير من الأقاصيص حول هذه الموضوعات ، فليراجع هناك وخلاصته ما يأتي:

١ . أن السماوات والأرض يطلقان ـ في مثل آية الأعراف ـ على كل موجود مخلوق أو ما يعبر عنه بالعالم العلوي والعالم السفلي وإن كان العلو والسفل فيهما من الأمور الإضافية ، وقد تطلق السماوات على ما دون السفلي من العالم العلوي ، ولا سيما إذا وصفت بالسبع وهذا المعنى هو الموافق في آية الرعد.

٢ .أن الأيام الستة التي وردت في خلق السماوات والأرض هي من أيام الله التي يتحدد اليوم منها بالعمل الذي يكون فيه ، فالمراد بها إذاً ـ والله أعلم ـ التطورات التي

اعْتَوَرَت خلق السماوات والأرض من الدخان إلى المائية إلى اليبوسة إلى خلق الأحياء والتعمير بالنسبة للأرض فهذه أربعة أيام ، ثم إلى تكوين الأجرام السماوية في زمنين آخرين ، فليست هي كأيام الدنيا وما جاء من الآثار في ذلك فهو إسرائيلي أو ضعيف ، وأصح ما ورد فيه حديث أبي هريرة في ذلك وفي سنده حجاج بن محمد الأعور وهو قد تغير في آخر عمره وثبت أنه حدَّث بعد اختلاط عقله.

٣. أن تَكلُّفَ التوفيق بين ما ورد في ذكر السماوات السبع وبين الأفلاك التسع المعروفة في الهيئة الفلكية عند اليونان مردودٌ ببطلان هذه النظريات ولا حاجة إلى الخوض فيه.

هذه خلاصة ما تقدم في سورة الأعراف ونزيد عليه هنا ما انفردت به هذه الآية وهو:

النص على أن رفع السماء بغير عمد إظهارٌ لكمال قدرة الله سبحانه وتعالى وعظيم سلطانه ، فهذه السماوات كلها وما فيها من الأجرام والكواكب والخلائق مرفوعة بإذنه وإمساكه من غير أن تستند على شئ ، بل بذلك الناموس العجيب الذي أودعه طبيعتها وجعله لازما لتكوينها فاستغنت به عن أن تعتمد على ما سواه ، وسواء أسمينا هذا الناموس جاذبية أو نسبية أو إمساكاً إلهياً أو قدرةً ربانيةً فلا تغير هذه الأسماء من حقيقة الأمر شيئا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(٤١) ﴾ . فاطر

وقد نقل بعض المفسرين عن بعض السلف: أن للسماء عُمُداً ولكن لا تُـرَى ، أو أنها مرتكزة على الأرض كما يشاهد في الأفق. وكل ذلك غير صحيح ، وقد نفاه شيخ المفسرين ابن جرير فقال في ذلك: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ فهي مرفوعة بغير عمد نراها كما قال ربنا جل ثناؤه ، ولا خبر بغير ذلك ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه ، بل إنه قد ورد في شعر الجاهلية ما يفيد الاستدلال على قدرة الله وعجيب صنعه برفع السماء بغير عمد.

قال أُمَيَّة بن أبي الصلْت ويروونها لزيد بن نفيل رضي الله عنه:

إلـي الله أهدى مـدحـتـي وثـنـائـيـا	وقـولا رضيـا لايـنـي الدهـر باقيـا
إلى الملك الأعلى الذي ليس فـوقـه	إلـه ولا رب يـكـون مـدانـيـا
الا أيـهـا الإنـسـان إيـاك والـردى	فإنـك لا تـخـفـى مـن الله خافيـا
وإياك لا تجـعـل مـع الله غـيـره	فـإن سبـيـل الرشد أصبـح باديـا
رضـيـت بـك اللهـم ربا فـلـن أرى	أديـن إلهـا غـيـرك الله ثـانيـا
وأنت الذي من فـضـل منٍّ ورحـمـة	بعـثـت إلى مـوسـى رسـولا مـناديـا
فـقلت له: فـاذهـب وهرون فـادعـوا	إلى الله فـرعـون الذي كـان طاغيـا
وقـولا لـه: هـل أنـت سـويت هـذه	بلا وتـد حتـى استقلت كما هـيـا؟
وقـولا لـه: أأنـت رفـعـت هـذه	بلا عـمـد أو فـوق ذلـك بانيـا؟
وقـولا له: هل أنت سـويت وسطهـا	منيرا إذا مـا جنَّـك الليل هاديـا؟
وقـولا لـه: من يرسل الشـمس غـدوة	فيصبح مـا مست من الأرض ضاحيا؟
وقـولا لـه: من أنبت الحب في الثـرى	فـيـصبـح منه العشب يهتز رابيـا؟
ويخـرج مـنـه حـبـه فـي رؤوسـه	فـفـي ذاك آيـات لمـن كـان واعـيـا
فـرب العـبـاد ألـق سـيـبـاً ورحـمـة	علـيَّ وبـارك فـي بنـيَّ ومـالـيـا

نقله الحافظ بن كثير في البداية والنهاية عن ابن إسحاق.

وما ورد في تحديد مادة السماوات وتقدير الأبعاد بينها وبين الأرض أو بينها وبين عوالم الملأ الأعلى لا يصح فضلا عن أنه غامض مبهم.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال صاحب المنار ـ رحمه الله ـ في مثل هذه الآية من سورة الأعراف بعد كلام في المعنى اللغوي للاستواء والعرش وإيراد للآيات التي ذكر فيها ذلك ما نصه:

(لم يشتبه أحد من الصحابة في معنى استواء الرب تعالى على العرش على علمهم بتنزهه سبحانه عن صفات البشر وغيرهم من الخلق ، إذ كانوا يفهمون أن استواءه تعالى على عرشه عبارة عن استقامة أمر ملك السماوات والأرض له وانفراده هو بتدبيره ، وأن الإيمان بذلك لا يتوقف على معرفة كنه ذلك التدبير وصفته وكيف يكون بل لا يتوقف على وجود عرش.. ولكنه ورد في الكتاب والسنة أن لله عرشا خلقه قبل خلق السماوات والأرض وأن له حملة من الملائكة ، فهو كما تدل اللغة مركز تدبير العالم كله قال تعالى في سورة هود: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ الآية: ٧ ، ولكن عقيدة التنزيه القطعية الثابتة بالنقل والعقل كانت مانعة لكل منهم أن يتوهم أن في التعبير بالاستواء على العرش شبهة تشبيه للخالق بالمخلوق ، كيف وإن بعض القرائن الضعيفة لفظية أو معنوية تمنع في لغتهم حمل اللفظ على معناه البشري ، فكيف إذا كان لا يعقل ؟ وكيف والاستواء على الشيء يستعمل في البشر استعمالا مجازيا وكفائيا كما تقدم ؟!

والقاعدة التي كانوا عليها في كل ما أسنده الرب تعالى إلى نفسه من الصفات والأفعال التي وردت اللغة في استعمالها في الخلق أن يؤمنوا بما تدل عليه من معنى الكمال والتصرف مع التنزيه عن تشبيه الرب بخلقه فيقولون إنه اتصف بالرحمة والمحبة واستوى على عرشه بالمعنى الذي يليق به لا بمعنى الانفعال الحادث الذي نجده للرحمة والحب في أنفسنا ولا ما نعهده بالاستواء والتدبير من ملوكنا ، وحسبنا أن نستفيد من وصفه بهاتين الصفتين أثرهما في خلقه وأن نطلب رحمته ونعمل ما يكسبنا محبته ، وما يترتب عليهما من مثوبته وإحسانه ، ونستفيد من الاستواء على عرشه كون الملك والتدبير له وحده فلا نعبد غيره ولذلك قرنه في سورة يونس بقوله: ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ الآية: ٣، وفي سورة الم السجدة: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾). اهـ.

ونقول لك: أن تقول هذا فتلاحظ في معنى الاستواء الوارد في الآيات القرائن والملابسات وذكر الخلق والتدبير والتصريف ونفي الشفعاء في معظم الآيات التي ورد فيها الاستواء ولم يجئ ذلك عبثا، وإنما جاء لرابطة بين المعاني الواردة في الآية ، فتعتقد أن المراد بالاستواء على العرش مطلق التدبير والتصرف ، وتَصْرِفَهُ صرفا تاما عن معناه الذي يوهم التشبيه كما جاء في هذا القول المتقدم.

ولك أن تتوقف مبالغة في التورع فتقول: نُمِرُّه كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولكل من الموقفيْن موضعه فأنت إذا خفت على نفسك أو غيرك شبهة التشبيه فأمامك المعنى الأول يثلج الصدر ويُطَمْئن القلب ولا يتنافى مع ظاهر اللغة ولا يقدح في جلال الصفة ، وإن كنت رجلا رضيَّ النفس مطمئن القلب بالإيمان مستريح البال بالتفويض والتسليم تخشى أن الكلام في هذه المعاني يفتح عليك وعلى غيرك أبوابا من الفتنة المغلقة ، فقلت آمنت بما جاء عن الله على مراد الله والله أعلم بمراده واستفْت قلبك وإنْ أفتَوْك وإنْ أفتَوْك وإنْ أفتَوْك.. والله أعلم.

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وقد يكون المراد بالجريان: ما يرى من حركتهما الظاهرة التي تلازم ناموس الاتصال بينهما وبين الأرض وبقية الكواكب حتى تقوم الساعة فيبطل ذلك النظام ويختل ذلك الناموس وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

وقد يكون المراد جريانهما الحقيقي ، وقد ثبت أن لكل الأجرام حركات حول نفسها ، ولكثير منها حركات حول غيرها ، وللشمس حركة حول نفسها ، ولها هي ومجموعتها الكوكبية حركة انتقالية في السماء بحيث إن دوران الأرض حول الشمس ليس في خط منحن مقفل بل في خط حلزوني مفتوح دائما يجعلها لا تمر من نقطة واحدة دفعتين منذ دارت إلى الآن وهذا عجيب حقا. وإلى أين تسير الشمس في السماء ؟ لا يجيبك أحد من الفلكيين ، ولكن القرآن الكريم يقول: ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ يس: ٣٨ ، وأين هذا المستقر؟ ذلك ما يعلمه الله ولم يصل إليه العلم التجريبي بعد .

وكلا المعنيين صحيح الأول معنى نظري والثاني معنى علمي ، وهو أسلوب القرآن المعجز الذي ذكرت لك آنفا ، وإنما خصت الشمس والقمر بالذكر لصلتهما الواضحة بالأرض وما عليها وإلا فالتسخير والتصريف والقهر يتناول كل الأجرام السماوية بل كل العوالم ، وقد صرح القرآن بذلك في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ الأعراف.

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ هذا النظام المعجز والخلق البديع والتكوين الكامل والتصريف العجيب هو تدبير الله وصنعه ، وكذلك يدبر الله أمر الخلق ويفصل لهم الآيات الكونية والقولية لعل ذلك يكشف عن قلوبهم حُجُبَ الغفلة ويزيل غشاوة الشك والريب ، فإذا أدركوا بعض مظاهر هذه العظمة الربانية اعتقدوا وأيقنوا أن هذا الخالق قادر على إعادتهم وأنهم سيلقونه فيحاسبهم على ما قدموا من الأعمال في حياتهم الدنيا.

واليقين صفة من صفات العلم ومرتبة من أعلى مراتب الإيمان وهو: فوق المعرفة والدراية ، هو: سكون القلب واطمئنانه مع ثبوت الحكم في النفس واستقراره وزوال كل عوارض الشك والريب.. والله أعلم..(*)

(*) مجلة المنار - مجلد ٣٥ - جزء ٦ في غرة رجب ١٣٥٩هـ / ١٧ أغسطس ١٩٣٩م.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾

افتتحت السورة الكريمة بتقديم القرآن للناس على أنه الكتاب الحق المنزل من عند الله تبارك وتعالى ، وإن صرفت الصوارف كثيراً منهم عن الإيمان به والاهتداء بهديه ثم عرضت لما في هذا القرآن الكريم من أمهات العقائد الكفيلة بالنجاة والفوز في الآخرة. ولا شك أن أول هذه العقائد معرفة الله تبارك وتعالى ، ولما كانت الوسيلة إلى معرفة الله تبارك وتعالى والإيمان العميق بعظمته وقدرته وجليل صفاته النظر في ملكوته والتأمل في عجائب صنعه وبدائع مخلوقاته ، عرضت السورة الكريمة لهذه المظاهر الكونية مشيرة بها إلى عظمة الخالق المدبر تبارك وتعالى وبدأت بخلق السماوات وما فيها من عجائب تسخير الشمس والقمر وجريانهما إلى أجل مسمى فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ الرعد.

ثم لفتت السورة أنظار العباد بعد ذلك إلى خلق الأرض وما فيها من عجائب الصنع ودقائق الإبداع فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا... ﴾ الآيتان.

قرأ حمزة والنسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم (يغشى) بفتح الغين وتشديد الشين وقرأ الباقون يغشى بالتخفيف.

وقرأ الجمهور (وجنات) برفعها على تقدير وفي الأرض جنات فهو معطوف على قطع متجاورات أو على تقدير وفيها جنات. وقرأ الحسن بالنصب وجنات على تقدير وجعل فيها جنات.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ برفع الأربع عطفاً على جنات. وقرأ الباقون بالجر عطفا على أعناب.

وقرأ مجاهد والسلمي بضم الصاد من صنوان وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان. قال أبو عبيدة: صنوان جمع صنْو ، وهو أن يكون الأصل واحداً يتفرع فيصير نخيلا ثم يحمل ، وهو قول جميع أهل اللغة والتفسير. وقال ابن الأعرابي: الصِّنْو: المثْل ومنه قوله ﷺ: «عَمُّ الرجل صنْوُ أبيه». والمعنى على ذلك أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد تكون غير متماثلة. وأخرج الغرياني وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الفتح وابن مردويه عن البراء بن عازب في قوله: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ قال: الصنوان ما كان أصله واحدا وهو متفرق ، وغير صنوان التي تنبت وحدها.

وقرأ عاصم وابن عامر قوله تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ بالتحتية أو يسقى ذلك كله بماء واحد ، وقرأ الباقون بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات واختاره أبو حاتم وأبو عبيد وأبو عمرو.

وقرأ حمزة والكسائي قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ بالتحتية كما في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾. وقرأ الباقون بالنون على تقدير ونحن نفصل.

وفي الآيتين بعد ذلك مباحث عدة نجملها فيما يلي:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ ورد التعبير عن خلق الأرض في القرآن الكريم بألفاظ كثيرة منها المد المذكور هنا ، ومنها الفرش في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ البقرة ، وقوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) ﴾ الذاريات . ومنها البسط في قوله تعالى في سورة نوح: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ ومنها الدَّحْو أو الدَّحْي في قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) ﴾ والمراد من ذلك كله: خلقها وسواها وجعلها ممهدة لمعايش الخلق ومصالحهم ، كما قال تبارك وتعالى في سورة الحجْر: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) ﴾.

وفي هذا التنويع في التعبير إشارة إلى تصرف القرآن في أساليب البلاغة اللفظية وبلوغه من ذلك المبلغ الذي لا يُسامَى وفيه كذلك فائدة معنوية وهي الإشارة بهذه التعبيرات المختلفة إلى فوائد الأرض ومنافعها للناس: ففي المد إشارة إلى السعة والامتداد لمن شاء الغدو والرواح والتقلب في مناكبها والاضطراب في مذاهبها ، وفي البَسْط إشارة إلى السعة والتذليل لمن شاء اجتناء منافعها وتحصيل خيراتها ، وفي الفرش إشارة إلى الراحة والإيواء والاستقرار على ظهرها لمن شاء أن يتذكر نعمة الله في ذلك فيقوم بشكرها ، وفي الدحو إشارة إلى عجائب صنع الله تبارك وتعالى في خلقها وتسويتها وهكذا.

ولا تَنافي بين ما جاء في القرآن الكريم من التعبير بهذه الألفاظ وما يقوله علماء الفلك من كروية الأرض ، فإن كل جزء من أجزاء سطح الأرض يبدو في رأي العين ممتداً مبسوطاً وحقيقة وضعه تكاد تكون كذلك إذ لا يتوفر فيها معنى التكوير

والتقوس لسعة المحيط ، والقرآن لا يريد تنبيه الناس إلى المعنى العلمي البحت في شأن الأرض ، ولكنه يريد تنبيههم إلى الاعتبار والتفكر فيما يقع تحت حواسهم منها ، وهذا الذي يقع تحت حواسهم منها هو ما يستخدمونه فعلاً ، ويعيشون عليه فعلاً ، وهذا الجزء لا مظهر فيه ولا حقيقة ولا حسَّ لمعنى التقوس الذي لا يكاد يدرك ، فلهذا آثَرَ التعبير بالمد والبسط والفرش ونحوها.

قال الشوكاني ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ ﴾ قال الفراء: بسطها طولا وعرضاً. وقال الأصم: إن المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه. وهذا المد الظاهر لا ينافي كرويتها في نفسها لتباعد أطرافها.

وفي الجزء الأول من تفسير المنار عند قوله تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾ البقرة ، استطراداً إلى معنى الدحو. الدحو في أصل اللغة: دحرجة الأشياء القابلة للدحرجة كالجوز واللوز والكرى والحصا ورميها ، ويسمون المطر الداحي لأنه يدحو الحصا وكذا اللاعب بالجوز. وفي حديث أبي رافع: كنت الاعب الحسن والحسين ـ رضوان الله عليهما ـ بالمداحي وهي أحجار أمثال القرصة كانوا يحفرون ويدحون فيها بتلك الأحجار فإن وقع الحجر فيها غَلَبَ صاحبها وإلا غُلب ، ذكره في اللسان. وقال بعده والدحو: هو رمي اللاعب بالحجر والجوز وغيره.. إلى أن قال وهذا لا ينافي ما قيل: من أن معناه بسطها أي: وسعها ومد فيها ، وأنه سطحها أي جعل لها سطحا واسعا يعيش عليه الناس وغيرهم. فمن جعل مسألة كرويتها وسطحها أمرين متعارضين يقول بكل منها قوم يطعنون في الآخرين فقد ضيقوا من اللغة والدين واسعاً بقلة البضاعة فيهما.. والله أعلم.

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ الرواسي: الجبال الثوابت ، وهي جمع راسية ، والإرساء: الثبوت. قال جميل:

أحبها والذي أرسي قواعده	حتى إذا ظهرت آياته بطنا

وأنشدوا من قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت … له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما استوت شدها … بأيد وأرسى عليها الجبالا

والأنهار: مجارى الماء العذب على وجه الأرض. وقد ورد ذكر الجبال والأنهار في كثير من آيات القرآن الكريم. وقلما يرد ذكر الجبال خاليا من وصفها بالإرساء ومن بيان أن حكمة ذلك الإرساء التثبيت للأرض حتى لا تميد بمن عليها مع مقارنة ذكر الأنهار في أغلب الآيات ، ففي سورة الأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ وفي سورة النحل: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) ﴾ وفي سورة فاطر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾.

ووجه الارتباط بين الجبال والأنهار ملحوظ معروف ، فإن الجبال هي سبب حدوث الأنهار ، لأن الماء حين يسقط من السحب على رؤوس الجبال ينحدر إلى سطح الأرض فيخدُّها بقوة الانحدار ويحدث فيها بمرور الزمن مجرى يكوِّن نهراً عظيما ، وقلما نجد نهرا لا يبدأ في منبعه بجبل أو بمجموعة من الجبال ، ولم يعرض القرآن الكريم للكيفية التفصيلية في حدوث الجبال وتركيبها وتعداد فوائدها ومنافعها وترك ذلك إلى النظر العقلي والبحث العلمي ، وإنما أشار إلى دقة الصنع وعظيم الإبداع ليكون في ذلك عظة للناظرين وعبرة للمعتبرين.

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ الزوج يطلق على الاثنين وعلى الواحد المزاوج للآخر. والمراد هنا بالزوج: الصنف الواحد ، ولهذا أكد بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين. ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصود من ذلك: أن الله جل جلاله جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين إما في اللونية كالبياض

والسواد ونحوهما أو في الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما أو في القَدْر كالصغر والكبر أو في الكيفية كالحر والبرد. وقال الفراء: إن المراد بالزوجين الذكر والأنثى. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ قال: ذكرا وأنثى من كل صنف.

وأنت إذا عرفت ما قرره النباتيون من أن الاتحاد في كل أصناف النبات لا يكون إلا بعد الإخصاب الذي يكون بعد التلقيح، وأن الأزهار النباتية منها ما هو ذكر ومنها ما هو أنثى ومنها ما هو مزدوج ففيه أعضاء الذكورة والأنوثة معا، علمت مبلغ الإعجاز في هذه الآية الكريمة وأنها تشير إلى قانون نباتي لم يكتشف إلا في الأعصار الحديثة ورجحت بهذا ما ذهب إليه الفراء ومجاهد من أن المراد بالزوجين الذكر والأنثى.

ولا يُرَد على هذا أن بعض الثمار ينمو من غير تلقيح كالدرنات مثل نبات البطاطس ونحوها فإن هذه ليست ثمارا حقيقية ولكنها امتدادات أو جذور من جسم النبات الأصلي تنمو بقوة التوالد الخضري.

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف الآية: ٥٤ عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾.

وملخص ما قيل هناك أن معنى التغشية أو الإغشاء: التغطية. وفي قراءة التشديد المبالغة والكثرة، والمعنى: أن الله قد جعل الليل الذي هو الظلمة يغشى النهار وهو ضوء الشمس على الأرض أي يمنعه ويغلب على المكان الذي كان فيه ويستره، وأن مسألة الليل والنهار صارت معلومة بالقطع في هذا العصر فيمكن تحديد ساعات الليل والنهار في كل قطر ومخاطبة أهله بالتلغراف للتأكد من صحة الوقت الحسابي عندهم، وأن المحققين من علماء المسلمين في المعقول والمنقول كالغزالي والرازي وابن تيمية وابن القيم قد اتفقوا على كروية الأرض وظواهر النصوص أدل على هذه

الكروية ، وأن هؤلاء المحققين قد حكوا القول بدوران الأرض على مركزها وأوردوا عليه نظريات تشكك في كونه قطعيا ولا تنقضه كما في المواقف والمقاصد وغيرها ، والنصوص لا تمنع مما يقول به علماء الهيئة من هذا الدوران.

ونزيد هنا أن الامتنان بعجائب الليل والنهار وما في تعاقبهما من الفوائد والمنافع جاء في كثير من آيات القرآن الكريم في كثير من المواضع وبأساليب متنوعة. ففي سورة الإسراء: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾ وفي سورة الفرقان: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ وفي سورة القصص: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ وفي سورة يس: ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) ﴾ إلى كثير من هذا المعنى في كتاب الله ، وهو في ذلك كله إما أن يلفت الأنظار إلى سلخ النهار من الليل أو إلى غشيان الليل النهار أو إلى تعاقبهما وتخالفهما ، وفي التعبير بالتغشية والسلخ والتخالف إشارة إلى الاتصال التام بين وقتي الليل والنهار والتدرج في تعقب أحدهما الآخر فكل جزء من سطح الأرض يخلو من أحدهما يعقبه فيه الثاني توا وهكذا دواليك ، وهو يوافق ما يقرره الفلكيون في هذه الأعصار.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إن فيما ذكر من مد الأرض وما يتصل بها من عوالم الجبال والأنهار وغرائب النبات والأفلاك لدلائل واضحة على قدرة الصانع الحكيم لمن أراد أن يعمل فيها فكره ويوجه إليها أشعة بصيرته ، وهذه الآيات

تظهر لكل أحد على قدر علمه وفهمه وجودة فكره وصفاء ذهنه وصدق توجهه ، فأما علماء الهيئة والنبات وغيرهم من الباحثين في علوم الكون فهم يعرفون من نظامها ما يدهش العقل ، وأما سائر الناس فحسبهم هذه المناظر البديعة والأجرام الرفيعة والعوالم العجيبة وما فيها من الحسن والروعة والجمال.

﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ من دقائق البلاغة في تركيب هذه الآية الكريمة أن تقرأ هذه الجملة منها منفصلة عما سواها فتفهم أن المراد بذلك: لفت النظر إلى التأمل في طبيعة الأرض وأسرار تكوينها ففيها قطع متجاورات ، ولكنها تختلف في العناصر وتتنوع في الطبائع وتتباين في المواد والصفات باختلاف بعض العوارض الطبيعية ، فترى في الأرض قطعة خصبة يانعة لما يجري فيها من أنهار وما ينبع منها من ماء وبجوارها صحراء قاحلة قد حرمت هذه المزايا وعطلت من تلك الخواص ، وترى قطعة من الأرض معتدلة العناصر صالحة للزرع وإلى جوارها سبخة مالحة لا تمسك ماء ولا تنبت زرعاً ، وترى سهلا فسيحا منبسطا يمتد في سفح جبل عالي الذرا شامخ القمة ، وفي كل ذلك فوائده ومنافعه للناس.

هذه المعاني الكثيرة تتوارد إلى ذهنك إذا قرأت هذه الجملة منفصلة عما بعدها من بقية الآية الكريمة فإذا وصلتها بهذه البقية تبادر إلى ذهنك معنى آخر هو أن المراد: الاعتبار والتفكر في اختلاف ألوان النبات وصنوفه مع أن الأرض التي يزرع فيها متجاورة متحدة الخواص ، والماء الذي يسقى به كذلك ولكنه هو ينبت مختلفا في شكله فهو صنوان وغير صنوان وفي طعمه فبعضُه يَفْضُلُ بعضاً في الأُكُل.

﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ وفي الأرض كذلك جنات وحدائق وبساتين فيها الأعناب ونحوها من النباتات المتسلقة وفيها الزروع ونحوها من النباتات الحشيشية السابقة وفيها كذلك النخيل ونحوه من الأشجار العظيمة الكثيرة الأغصان والأوراق.

﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ متشابهة وغير متشابهة أو مفردة الساق ومزدوجة كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ الأنعام: ١٤١.

﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ هذه الجنات والأعناب والزروع والنخيل تسقى بماء واحد وتزرع في قطع متجاورة من الأرض ثم تختلف بعضها عن بعض في الطعم ، فمنها الحلو ومنها الحامض ومنها المر. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هذا حامض وهذا حلو وهذا دقل وهذا فارسي. بل إن الصنف الواحد من النبات قد يزرع في الأرض المتجاورة ويسقى بالماء الواحد ثم يختلف طعم بعض ثمراته عن بعض ، ويقول علماء النبات: إن ذلك الاختلاف يرجع إلى طبيعة الجنين المستقر في البذور وما ينجم عنه من جذور تمتد في باطن الأرض ثم تمتص منها ما يناسب هذا الجنين ويوافق أطوار حياته حتى ينمو ويصير شجرة كاملة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، فما يمتصه جنين الفول من أجزاء الأرض غير ما يمتصه جنين القمح من هذه الأجزاء ولو في نسب العناصر المختلفة ، وما يمتصه العنب غير ما يمتصه الخوخ والتفاح ، وهكذا.. فسبحان من أعطى كلَّ شئ خَلْقه ثم هدى.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في هذه العجائب جميعاً لدلائل على قدرة الخالق وعظمته لقوم يستخدمون عقولهم في إدراك الحقائق وتعرفها.

ومن دقائق البلاغة في الآيات الكريمة الإشارة إلى مراتب الاعتقاد في تدرج وتلطف: فإن النظر في عوالم السماوات والعرش والشمس والقمر كما هو في الآية الثانية من السورة يؤدى إلى اطمئنان القلب وحسن اليقين ، ولذلك ختمها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.. والتأمل في عوالم الأرض ومدها وما فيها من جبال وأنهار وصلتها بغيرها من العوالم ، تلك الصلة التي تظهر في تعاقب الليل والنهار يؤدي

إلى يقظة الفكر وجودة النظر ولذلك ختمها بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.. والبحث في عوالم النبات وعجائب حياته بعد حياة القلب باليقين وصحة الفكر يؤدي إلى كمال العقل وتمام المعرفة ، ولذلك كان ختام الآيات: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فاليقين شعور يلتئم مع الفكرة فينتج العقل الكامل: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) ﴾ النساء.

■ الحث على تعلم هذه العلوم

ولعل من نافلة القول أن نذكر أن ورود هذه الآيات بهذا الأسلوب في القرآن أكبر دافع للمسلمين إلى أن يدرسوا هذه العلوم ويستبْحروا في دراستها ويأخذوا منها بالنصيب الأوفر فهي وسيلتهم إلى معرفة الله تبارك وتعالى ، وقد اعتبر الإسلام التفكر في هذه المصنوعات الربانية والتبحر في دراسة أسرار الكون عبادة لا تَعْدلُها عبادة ، وهم بذلك يستطيعون أن يدفعوا عن دينهم شبهات بعض الذين عرفوا قشورا من هذه المعارف ثم راحوا يهاجمون بها العقائد مخادعين بأن العلم يناقض الدين وهو كلام كاذب لا حجة عليه ، بل إن معرفة الكون هي الوسيلة الصحيحة لمعرفة الله في نظر الإسلام ومن كلام الفيلسوف الإنجليزي (هربرت سبنْسر) في هذا المعنى في رسالته في التربية:

(العلم يناقض الخرافات ولكن لا يناقض الدينَ نفسَه ، يوجد في شئ كثير من العلم الطبيعي الشائع روح الزندقة ولكن العلم الصحيح الذي فات المعلومات الصحيحة ورسب في أعماق الحقائق بَراءٌ من هذه الروح. العلم الطبيعي لا ينافي الدين ولكن الذي ينافي الدين هو ترك هذا العلم ، التوجه للعلم الطبيعي عبادة صامتة واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التي تعاين وتدرس ثم بقدرة خالقها ، فليس ذلك التوجيه تسبيحاً شفهياً بل هو تسبيح عملي وليس باحترام مُدَّعي إنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل. وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد في تفهيم

الإنسان استحالة إدراك ذات الله ، ولكنه ينهج بنا النهج الأوضح في تفهيمنا هذه الاستحالة بإبلاغنا جميع أنحاء تلك الحدود التي لا يستطاع اجتيازها ثم يقف بنا في رفق وهوادة عند هذه النهاية وهو بعد ذلك يرينا بكيفية لا تعادل صغر العقل الإنساني إزاء ذلك الذي يفوت العقل). أهـ.

■ الإنسان والطبيعة

إن القرآن بهذا الأسلوب البديع الفريد قد ربط بين القلب المؤمن والعقل المفكر وآخي بذلك بين الدين والعلم ووفّق بين الإنسان والطبيعة وبين الفرد وبيئته ، وهذا أقصى ما وصل إليه الاجتماعيون والمربون من سمو الغاية ونبل المقصد قد سبقهم به الإسلام بعدد عظيم من الأجيال. يتبرم كثير من الشبان العصريين بالطقوس والترانيم التي جعلتها الكنيسة لب العبادة وعماد المناجاة ، ويرى هذا الفريق من الشبان أن هذا الوجود هو أقدسُ سفْر يتلو فيه الإنسان آيات عظمة الله تبارك وتعالى وهم لذلك يرددون آثار (شوبنهور) و (جوته) و (بيرون) و (لامرتين) وغيرهم من شعراء الغرب الذين تناولوا الكون بالوصف الرائع البديع ، هذا الفريق من الشباب لو قرأوا القرآن الكريم ودرسوا الدين الإسلامى الحنيف ، لوجدوا فيه فوق ما يتصورون من تغذية العقول والأرواح بالتأمل في خلق الله تبارك وتعالى والتفكر في كونه ومخلوقاته ، ولوجدوا في ذلك حياة أرواحهم وسعادة أنفسهم ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ؟ إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير..(*)

(*) مجلة المنار - مجلد ٣٥ - جزء ٧ في ربيع الأول ١٣٥٩هـ / إبريل ١٩٤٠م.

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) ﴾

بعد ذكر العقيدة الأولى وهي: عقيدة التوحيد ومعرفة الصانع جلَّ وعلا وإفاضة العقول فيها وذكر الدلائل الكونية لذوي اليقين والفكر والتعقل على وجود البارئ سبحانه ، تناولت الآيات العقيدة الثانية من أصول العقائد وهي: عقيدة المعاد والبعث بعد الموت فذكرت الآية أن هؤلاء الذين أُرسلَ إليهم رسول الله ﷺ يستغربون هذه الإعادة بعد التحلل ، ويرونها أمراً عجبا ، مع أن العجيب حقا هو اعتقادهم هذا مع وضوح الدلائل عليه ونهوض البراهين المثبتة له فقال تعالى:

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ . أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم وهم رأوا من قدرة الله وأمره وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم من حياة الموتى والأرض الميتة: ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أولا يرون أنه خلقهم من نطفة ، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب وعظام ، ولك أن تقول وإن يكن شئ يستحق العجب فهو هذا القول منهم بعد وضوح الدلائل والبراهين على قدرة الله تبارك وتعالى لهم ، وتكرير الاستفهام في قوله: ﴿ أئذا كنا ﴾ و ﴿ أئنا ﴾ فيه إشعار بشدة استغرابهم لهذا المعاد واستبعادهم إياه ، وهذا مما يضاعف العجب من جمودهم هذا ، وفي التعبير بالتراب بدلا من الموت ، وبالخلق الجديد بدلا من الإعادة ، تصويرٌ دقيق لشدة استمساكهم بهذا الجحود وعدم تصورهم إمكان البعث بعد الموت ، ثم وضحت الآية

الكريمة سر ذلك الجحود وسببه فقال تبارك وتعالى:

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ فالسبب الأول لجحودهم البعث هو كفرهم بالله تبارك وتعالى وعدم تقديرهم لعظمته وجليل قدرته ، فلو علموا أن قدرته تبارك وتعالى فوق التقيد بالأسباب والوسائط العادية وأنه ما شاء فعل: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ يس ، لهان عليهم الخَطْبُ ولوجدوا أن هذا المعاد أمر داخل في حيز القدرة لا غرابة له ولا مشقة فيه: ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) ﴾ الروم ، ولكنهم لما كفروا بالله وظنوا عدم القدرة أو عدم كمالها أو إنكار العلم أو إنكار كماله أو إنكار الصدق إلى غير ذلك من صفات الكمال التي يتصف بها الباري جل وعلا لما كانت عقيدتهم في ربهم هكذا ، صعب عليهم أن يتصوروا سهولة الإعادة بعد الموت.

﴿ وَأُولَئِكَ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ وسبب آخر، هو هذا الجمود الذي استولى عليهم ، فلم يطلقوا لعقولهم عنان الفكرة ، ولم يتأملوا فيما بين أيديهم وما خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم من دلائل القدرة ، ورضوا بالتقليد الأعمى لأسلافهم وآبائهم وجمدوا على ما ورثوا من فاسد عقائدهم لمَّا وضعوا في أعناقهم هذه القيود والأغلال من التقليد والجمود ، لم يكن لهم مجال إلى إدراك الحقيقة الواضحة حقيقة الإيمان بالمعاد والتسليم بالبعث والنشور فتكون الآية على ذلك كناية عن الجمود والتقليد المانع عن إدراك الحق وتَعرُّف أصوله وقواعده ، وبنحو هذا قال الأصم وتؤيده الآية الكريمة في سورة يس: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) ﴾ قال أبو عبيدة: هو مَثَلٌ ضربه الله لهم في امتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول. وقال الشاعر: (لهم عن الرشد أغلالٌ وأقيادُ) ولا ريب في أن الجمود أشد ما يبعد الناس عن إدراك الحقائق.

وذهب جمهور المفسرين إلى أن الآية على ظاهرها: أنها وعيد لهؤلاء الجاحدين على جحودهم وتصوير لحالهم يوم القيامة ، وبيان لما ينتظرهم من عذاب فهو من قبيل قوله تعالى: ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ﴾ غافر.

ثم بينت الآية بعد ذلك جزاءهم على هذا الجحود فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فهؤلاء الجاحدون للمعاد المكذبون بالبعث سيذوقون النار ويخلدون فيها ، وهذا هو العقاب الطبيعي لهم ، فمن جحد المعاد وكذب بالجزاء جُوزِيَ بما كذب به حتى يعلم أحقية الخبر وصدقَ المُخْبر: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾ السجدة.

■ **الإسلام والمعاد**

جاء الإسلام الحنيف يقرر: أن للناس حياة بعد هذه الحياة الدنيا هي الدار الآخرة ، وأنها الدار الباقية حقا ، الكاملة النعيم الشديدة العذاب كذلك ، وأن الناس يبعثون من قبورهم بعد الموت ليحاسبهم الله على ما قدموا من الأعمال: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ الزلزلة ، وأن هذا البعث سيكون للأجسام وللأرواح جميعاً ، وأن هذا النعيم أو العذاب حسي ومعنوي معاً ، وآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ ناطقة بذلك كله على وجه لا يحمل التأويل ولا التعطيل. وقد سلك القرآن في تقرير هذه العقيدة وردِّ الشبهات عنها وتصوير ما يكون من شأن القيامة وأهوالها وذكر المناظرات بين أهل الطاعة وأهل العصيان فيها وبيَّن الغاية منها والاستدلال على ذلك كله تارةً بعجائب صنع القدرة الإلهية ، وأخرى بالمشاهد الكونية من الإيجاد بعد الإعدام وغرائب حياة الجنين والنبات ولفت الأنظار إلى ابتداء الخلق على غير مثال والإعادة أهون من الابتداء ، وأنت ترى ذلك كله منثوراً في ثنايا كتاب الله تبارك وتعالى وفي أحاديث رسول الله ﷺ وإليك بعض هذه الآيات البينات:

١. في سورة الإسراء: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾ وفيها الاستدلال على البعث بسهولة الخلق الأول.

٢. في سورة الحج: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) ﴾ وفيها الاستدلال على البعث بأطوار خلق الإنسان في بطن أمه وأطوار حياة النبات في الأرض بهذا الأسلوب المعجز الرائع.

٣. في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ وفيها الاستدلال على البعث بغرابة أطوار خلق الإنسان وعجائب قدرة الله تبارك وتعالى على إبداع سواه من المخلوقات.

٤. وفي سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ

الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون (٨٠) أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم (٨١) إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٨٢) فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون (٨٣) ﴾ وفيها ملخص أدلة البعث التي تدور في القرآن الكريم ففيها الاستدلال بالإنشاء الأول وبعجائب قدرة الله تبارك وتعالى ، وخلق الإنسان من النطفة ، والمشابهة بين المخلوقات في الإيجاد ، فمن أوجد هذا الخلق فهو على مثله قادر، ثم بتتويج ذلك كله بذكر اتصاف الباري جل وعلا بالخلق والإبداع ، وعلم ذلك علما لا جهالة معه ولا صعوبة في شئ أمامه: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾.

٥. وفي سورة ق: ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (٢) أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد (٣) قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ (٤) بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج (٥) أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (٦) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج (٧) تبصرة وذكرى لكل عبد منيب (٨) ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد (٩) والنخل باسقات لها طلع نضيد (١٠) رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١١) ﴾ وفيها الاستدلال بعجائب هذا الخلق وما فيه من تحليل وتركيب وإبداع وتصوير على سهولة إعادة الموتى من تراب ، وفيها كذلك الرد على شبهة تداخل الأجساد بعضها في بعض بالتحلل والنبات. فهذه الآية الكريمة تبين أن ما تنقصه الأرض من أجساد الموتى معلوم عند الله تبارك وتعالى ثابت في كتاب حفيظ ، فإذا جاء وقت البعث وُجدتّ الأجساد الذاهبة من مادتها الأصلية على النحو الأول مادة وصورة وكما وكيفا فلا تغيير ولا تبديل.

٦. وفي سورة الواقعة إجمال رائع لأدلة البعث في القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون(٤٧) ﴾ هذه أقوالهم وتلك مذاهبهم وقد جاء القرآن يقرر هذه الحقيقة الآتية: ﴿ قل إن

الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ ويتوعد من كذب بها أشد الوعيد: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ثم أخذ يورد البراهين الدالة على صدق البعث والنشور ووقوعه فاستدل بخلقهم أنفسهم: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ثم لفت أنظارهم إلى عجائب ما في النطفة ، وذلك أن الماء المنوي يحتوي على مئات الملايين من العلقات التي تصلح كل منها لإيجاد رجل إذا التقت ببويضة اللقاح حتى قيل إن المليمتر المربع من ماء الرجل يحتوي على نحو مليون من هذه العلقات فكم في قذفة واحدة من ماء الرجل من أُناس لو كانوا يعقلون ، لفتهم القرآن إلى هذا فقال: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ثم لفت نظرهم كذلك إلى الخلق الأول ، ثم إلى عجائب النبات ثم إلى خلق الماء ، والماء بيئة الحياة الأولى ، ثم إلى عجيبة العجائب وهو كمون النار في الشجر الذي لا ينبت بغير الماء ، ومن يستطيع أن يوجد من عنصر الأوكسجين نارا وماء فيكون قوامهما وهما ضدان لا يلتقيان يستطيع أن يوجد الموتى بعد التحلل ويعيدهم إلى سيرتهم من الحياة فذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

٧. وفي سورة الزمر: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾ وفيها الإشارة إلى أن البعث يقظة كبرى كما أن الموت نوم أكبر ، ونحن نرى كل يوم وليلة بعثا وموتا جزئيين لهذه الكائنات الحية.

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات المطهرة تؤكد هذه المعاني وتوضحها وفيما أوردنا بلاغ والحمد لله.

وقد جاءت السنة المطهرة مبينة وموضحة وشارحة لما جاء في هذه الآيات المطهرة ، ولقد استدل رسول الله ﷺ في عبارة وجيزة بليغة بكثير من البراهين التي مرت في الآيات الكريمة من ذلك قوله ﷺ لقريش في أول خطبة أعلن بها دعوته حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو ، إني لرسول الله إليكم حقا وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون ولتُحاسَبُنَّ بما تعملون ولتَجزَونَّ بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجَنَّةٌ أبداً أو لنارٌ أبداً وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذابٌ شديد».

وروى أحمد ورزين بسندهما عن أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله كيف يعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك ؟ قال: «أما مررت بوادي قومك جدبا ثم مررت به يهتز خَضراً» قلت: نعم ، قال: «فتلك آية الله في خلقه كذلك يحيي الله الموتى».

بهذا الأسلوب البديع يقرر القرآن الكريم والسنة المطهرة عقيدة البعث في نفوس الناس وهي أمر مركوز في هذه النفوس مستقر فيها لا يحجبها عن التسليم به والإذعان له إلا هوىً جامح أو شهوةٌ غالبة أو ماديةٌ كثيفة أو خَبَلٌ في التصور والإدراك ، وما أحسن ما قرره الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد في هذا المعنى إذ يقول: (اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين ، مِلِّيِّين وفلاسفة ـ إلا قليلا لا يقام لهم وزن ـ على أن لنفس

الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه ، وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه.

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث في جميع الأنفس عالمها وجاهلها وحشيُّها وإنسيُّها باديها وحاضرها قديمها وحديثها لا يمكن أن يعدّ ضلَّةً عقليةً أو نزعةً وهمية ، وإنما هو الهام من الإلهامات التي اختص بها هذا النوع.

قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان في الوجود ، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حياً باقياً في طور آخر ، وإن لم يدرك كنهه ، ذلك إلهامٌ يكاد يزاحم البديهة في الجلاء). اهـ.

وثَمَّ برهانٌ آخر غير هذا البرهان الفطري ألفتك إليه وأوجه نظرك نحوه ، ذلك أن نظام هذا الكون وما فيه ومنزلة الإنسان منه يدلك أوضح الدلالة على أن هذه الحياة القصيرة الأمد ـ التي تحسب بأعوام قلائل مهما طالت فهي مدة محدودة وفترة معدودة ـ لا تتناسب أبدا مع الحكمة في تكوين هذا الإنسان وإبداعه هذا الإبداع وتمييزه بهذا العقل المفكر والفكر المدبر الذي سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً ، فإذا انتهت سعادة الحيوان بحصوله على مطالب جسمه ، وانتهت سعادة النبات ببلوغه حد نموه ، فإن نفس هذا الإنسان قد خلقت مستعدةً لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة شيقة إلى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية مهيأة لدرجات من الكمال لا تحدها أطراف المراتب والغايات ، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات. وتأمل سر ذلك الخلق في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾ المؤمنون.

والقول بأن بعث الأجساد بعد فنائها أمر يصطدم بنواميس الكون المقررة ولا يتفق مع المشاهدة كلامٌ سقيم لا حجة عليه ولا برهان معه ، فهذه النواميس نفسها تدعم ذلك المعنى وتدل عليه ، ومتى كانت النواميس الكونية تتحكم في القدرة الإلهية والله غالبٌ على أمره ؟! ومن ذا الذي يستطيع أن يدعي العلم بكل النواميس حتى يحكم بمخالفة هذا الشيء لها أو موافقته إياها ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم أن نواميس المادة وقواعدها تطبق على عالم غير عالمها ونظام لا يتصل بنظمها ؟ ونحن نرى من عجائب الظواهر الروحية في عالمنا هذا ما لا ينقضي منه العجب ؟ وأين هؤلاء الجامدون على نواميس المادة وقوانينها مما يفعل فقراء الهند ؟!

وما أبدع الإشارة إلى هذه المعاني في قصة أهل الكهف: ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ آية: ٢١. وفي قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، وفي قصة إبراهيم إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ البقرة.(*)

(*) مجلة المنار ـ مجلد ٣٥ ـ جزء ٨ في ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / مايو ١٩٤٠م.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) ﴾

بعد أن فصلت الآيات السابقة مظاهر قدرة الله تبارك وتعالى وأدلة عظمته وعجائب صنعه في الكون، ذكرت الشبهات التي يتذرع بها الجاحدون في إنكار نبوة الأنبياء ويبررون بها انصرافهم عما جاء به الرسل الكرام من الهدى والنور. ومن هذه الشبهات استبعاد أمر البعث والخلق الجديد بعد الموت والفناء، ومنها استبطاء العقوبة على التكذيب واستعجالها لتكون دليلا على صدق المبلّغ عن الله تبارك وتعالى في دعواه، ومنها اقتراح الآيات والمعجزات. فأما الشبهة الأولى فقد فصلتها الآية الكريمة وردتها في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) ﴾ الرعد. وأما الشبهتان الباقيتان فقد أشير إليهما في الآيتين الكريمتين كما عرض لهما القرآن الكريم في سور كثيرة ماضية وتالية.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ ويطلبون إليك أن يوقع الله بهم العذاب والعقوبة قبل النعمة والعافية، وهذا خُلُقٌ من أخلاق الجاحدين المعاندين في كل زمان ومكان استكباراً في الأرض وتعاليا بالباطل وبَطَراً على الحق، ولقد حكى الله عن قوم هود عليه السلام في سورة الأعراف: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾، كما حكى عن قوم نوح في سورة هود عليه السلام: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم

بِمُعْجِزِينَ (٣٣) ﴾ كما حكى ذلك عن كفار قريش في كثير من الآيات ففي سورة الأنفال: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣٢) ﴾ وفي سورة العنكبوت: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾ وفي سورة يونس: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٤٨) ﴾.

وهذا الخُلُقُ غريب حقا في الإنسان ، فإن مقتضى العقل السليم الذي يتحلّى به هذا الجنس البشري أن يطلب الهداية والعافية بدلا من العذاب والنقمة ، وما أظرف رد هذا السبأي الذي خاطبه معاويةُ بقوله: ما أجهلَ قومك حين ملّكوا عليهم امرأةً ، فقال: أجهلُ من قومي قومُك حين قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، ولم يقولوا: فاهدنا له.

ولعل السر في ذلك أن الإنسان مفطور على نوع من التعالي والكبرياء يجعل قبوله للحق أمراً شديداً على نفسه لا يستطيعه إلا من ألهمه الله الرشد وهداه سواء السبيل.

وقد سبق في الجزء الأول من هذا التفسير إشارة لطيفة إلى هذا المعنى فقد جاء هناك ما نصه: (إن كُلَّ قوة من قوى هذه الأرض وكُلَّ ناموس من نواميس الطبيعة فيها خُلِقَ خاضعاً للإنسان. وخُلِقَ الإنسان مستعداً لتسخيره لمنفعته إلا قوة الإغراء بالشر وناموس الوسوسة بالإغواء الذي يجذب الإنسان دائما إلى شر طباع الحيوان ويعيقه عن بلوغ كماله الإنساني ، فالظاهر من الآيات أن الإنسان لا يَغلب هذه القوة ولا يُخْضِعُها مهما ارتقى وكَمُلَ ، وقُصارى ما يصل إليه الكاملون هو الحذرُ من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها بألا يكون لها سلطان على نفس الكامل تجعله مسخراً لها وتستعمله بالشرور كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ الإسراء: ٦٥، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ

تذكَّروا فإذا هُم مُّبصرون ﴿٢٠١﴾ ﴾ الأعراف ، قال صاحب التفسير[١] ـ ثم زاد الأستاذ [٢] هنا قوله ـ: أما سلطان تلك القوة في الفناء ، وقطع حركة الوجود إلى الصعود، فلا يستطيع إخضاعه لقدرته من البشر كامل ولا يقاوم نفوذه عامل ، وإنما ذلك لله وحده وهذا حكمها في الكائنات إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) . اهـ.

والمراد بهذا الكلام ـ كما ترى ـ : بيان قوة الشر ونزعاته ووضوح أثرها في الوجود وسهولة انجذاب النفوس إليها وسرعة التصاقها بها ، وليس المراد استحالة التخلص منها ، فإن من عصمه الله تبارك وتعالى وحفظه ويسَّره لمغالبة الشرور وأعانه على مقاومة النزعات الفاسدة والوساوس المضلة كان منها بمنجاة ـ ولا شك ـ كما تشير إليه الآية الكريمة.

ووجه العبرة فيما تقدم أن يَتنبَّه الإنسان لقوة هذه الناحية في نفسه وفي ناموس الخليقة ، وأن يراقب نفسه مراقبة دقيقة ، وأن يَخضد فيها دائما شوكة الكبرياء الكاذب والتأبِّي على الحق ، وأن يلح على الله في الدعاء أن يجعله من أهل الهداية والتوفيق الذين لا يجد الشيطان إلى نفوسهم سبيلا .

﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾ خلت: مضت وذهبت ، والمثلات جمع مَثُلَة قال الراغب: والمَثُلَة نقمةٌ تنزل بالإنسان فيُجعل مثالاً يَرتدع به غيرُه وذلك كالنَّكال وجمعه مُثُلات ومَثُلات ، وقد أمثلَ السلطانُ فلاناً إذا نَكَّلَ به. وقال ابن جرير يقول تعالى ذكره: (ويستعجلونك يا محمد مشركو قومك بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية فيقولون ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وهم يعلمون ما حل بمن خلا قبلهم من الأمم التي عَصَت ربها وكَذَّبت رسلها من عقوبات الله وعظيم بلائه ، فمن بين أُمة مُسخت قِرَدَة وأخرى

(١) المقصود بصاحب التفسير هو الأستاذ / رشيد رضا.

(٢) المقصود بالأستاذ هو الإمام / محمد عبده.

خنازير، ومن بين أُمة أُهلكت بالرجفة وأخرى بالخسف ، وذلك هو المَثُلات التي قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾ والمَثُلات: العقوبات المنكّلات ، والواحدة منها مَثُلَة بفتح الميم وضم الثاء ثم تجمع مَثُلات كما واحدةُ الصدقات صدقة ثم تجمع صدقات ، وذُكر أن تميما من بين العرب تضم الميم والثاء جميعا من المُثُلات ، فالواحدة على لغتهم منها مثلة ثم تجمع مثلات مثل غرفة وغرفات ، والفعل منه مثلت به أمثل مثلا بفتح الميم وتسكين الثاء ، فإذا أردت أنك أقصصته من غيره قلت أمثلته من صاحبه أمثله مثلا وذلك إذا أقصصته منه وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل) . اهـ.

وفي الآية تبكيت لهم على هذه الغفلة التي تجعلهم يتناسون الاتعاظ بغيرهم وتجاهل ما حل بسواهم من السابقين ، وفي المثل: (السعيد من وُعظَ بغيره والشقي من وُعظَ بنفسه) . وبهذا تقرر الآية الكريمة ناموس العبرة والعظة وتلفت إليه أنظار الأمم والشعوب.

واعلم أن العبرة والعظة لا تنحصر في الفرد ولا في الجماعة على الاعتبار بحال غيرهما وعاقبته ، بل تكون كذلك في الفرد وفي الجماعة بما يقع لهما من الحوادث ، فالفرد الذي يحرص على الاستفادة من تجاربه ونتائج أعماله يزيد صوابه دائما فتزيد سعادته ، ويقل خطؤه فيزول شقاؤه ، وكذلك الأمة والفرد الذي لا يعتبر ولا يستفيد من تجاربه ونتائج أعماله يظل على خطئه وضلاله فلا يلقى إلا الخسارة والوبال ، وإلى هذا يشير حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين». (رواه أحمد في مسنده والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه) . ولا يُعرض عن الانتفاع بالآيات والنذر إلا الجاحدون الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) ﴾ يونس.

ولو أن المسلمين راجعوا تاريخهم وتاريخ الأمم السابقة والمعاصرة وأنعموا في ذلك النظر لخلصوا بكثير من العبر ولاستطاعوا أن يجدوا في صفحات هذا التاريخ دروسا وافية تدفعهم إلى العمل وتجنبهم الأخطاء والزلل ولو ذهب الباحث يستقصي ذلك لأعجزه حصره ، ولقد علم الناس لو يتعلمون.

ولا نريد أن نفيض في ذكر حوادث التاريخ وعبره فذلك ما لا يُستطاع ، ولكنا نلفت أنظار المسلمين إلى عبرتين واضحتين في التاريخ الحديث: واحدة تتصل بتاريخهم وحياتهم ، والثانية تتصل بتاريخ غيرهم وحياته.

• قامت الحرب العالمية الماضية سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ وللمسلمين حكومة جامعة ودولة واسعة ووحدة قائمة ، وإن كان قد دب في ذلك كله الضعف والوهن ، ولكنهم زادوا هذا الضعف ضعفاً بتفرقهم وتباغضهم وتحاقدهم ونسيانهم الأخوة الإسلامية ورابطة الدين والعقيدة التي هي أقدس الروابط وأوثق الوشائج والصلات ، ودب فيهم دبيب الفكرة العنصرية ، فالأتراك يحاولون تتريك عناصر الدولة وإظهار الشعائر الطورانية ، والعرب يحلمون بالاستقلال على أساس من الوحدة العربية ، وبذلك دب إلى النفوس الإسلامية داء الأمم من قبل: البغضاءُ وفسادُ ذات البَين التي تفسد أمر الدنيا والدين ، وهبت عواصف الحرب فزادت دسائسها ومكائدها النفوس جفوةً وتباعداً ، وكان أن ثار العرب على الحكومة التركية وصار المسلمون قسمين كلُ قسم إلى صف عدو من أعداء دينهم وقوتهم وجامعتهم ، وانتهت الحرب بتفريق جامعتهم وضياع الرسم الباقي من خلافتهم وانحلال حكومتهم ، وكان ذلك جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم ومثلة منذرة بعاقبة المقصرين المفرطين.. هذه عبرة من تاريخنا يجب أن نطيل إليها النظر في هذا العصر الذي لا يعيش فيه إلا الأمم القوية بعددها وعدتها ورابطتها وإيمانها ، ونعمل جاهدين لإحياء الجامعة الإسلامية والوحدة المحمدية ، ولا ننخدع أبدا.. أبدا بهذه الوعود الكافرة الجاحدة بل نعتمد على أنفسنا ونستمد النصر والتأييد من الله وحده وبذلك تعود إمامة المسلمين وتتجدد دولتهم.

وقامت هذه الحرب الحاضرة [١] بين قوتين عظيمتين في أوروبا بين الدولة الألمانية ومن شايعها من جانب وبين فرنسا وإنجلترا ومن شايعهما من جانب آخر، وما كان الناس يظنون أو يخطر ببالهم أن دولة غنية مجهزة مستعدة كفرنسا تُهزم شر

(١) المقصود بالحرب الحاضرة هي الحرب العالمية الثانية من ١٩٣٩ - ١٩٤٦م.

هزيمة في أيام قلائل ويقضي على استقلالها وجيشها وسلطانها ويحتل عدوها أرضها ويتحكم في كل مقدراتها ، هذا أمر لم يكن يخطر ببال أحد بمثل هذه السرعة العجيبة ولكن رئيس وزرائها (المسيو بيتان) قد أماط اللثام عن سر ذلك بكلمته المشهورة: (لقد أتت الهزيمة من الانحلال ، ودمرت روح الملذات ما شيدته روح التضحية) وكان ذلك مصداقا للناموس الإلهي الخالد في حياة الأمم والشعوب: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ الأنفال: ٥٣ ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ الإسراء . ومع هذا فما زال كثير من المسلمين يُعجَبون بحياة فرنسا الزائلة ويتغنون بآدابها وفنونها ومفاتنها التي صرفت شعبها عن الجد والتضحية إلى اللهو والملذات فحق عليها القول وصارت مُثْلَةً بين الدول في هذا المصير[١].. وهذه عبرة أخرى من تاريخ غيرنا ممن يعاصروننا ويتصلون بنا أوثق اتصال يجب كذلك أن نطيل النظر فيها ونعمل جاهدين على بناء نهضتنا على دعائم قوية صحيحة من الجد والعمل والخلق والإيمان والتضحية والكفاح ، فإن البقاء دائما للأصلح ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إن الله تبارك وتعالى لم يخلق الخلق عبثا ولم يتركهم سدى ، وإنما خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملا وليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسني ، وفي الإنسان الاستعداد القابل للخير والشر: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ الشمس . وإنما تجئ الأديان لتقوّىَ في النفوس البشرية معاني الخير وتبين لها طرق المقاومة لنوازع الشر وبذلك تهتدي إلى الصراط المستقيم: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ

(١) كُتب هذا المقال وفرنسا ترزح تحت الاحتلال الألماني بعد هزيمتها عسكرياً واحتلال أراضيها.

إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة ، والنفس الإنسانية إنما تقاد إلى الخير وتُوزَعُ عن الشر بأحد عاملين: إما الخوف ، وإما الرجاء بالرغبة أو بالرهبة ، ولابد من تعادل هذين العاملين في التأثير في النفس وإلا كانت عرضة للانحراف ، فإذا غلبها الخوف بغير رجاء أدَّاها ذلك إلى اليأس ، وإذا غلبها الرجاء بدون خوف أدَّاها ذلك إلى التحلل والإباحة ، ومن هنا كان ناموس المؤاخذة من الله لخلقه دائراً بين هذين العاملين ، فهو سبحانه وتعالى يطمعهم في رحمته ومغفرته وفاقا لقانون الفضل الرباني ثم يحذرهم سطوته وعقوبته وجبروته إحقاقا للعدل الإلهي.

قال الحافظ بن كثير في تفسير هذا الشطر من الآية الكريمة: أي أنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ الأنعام . وقال: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ الحجر. إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت الآية: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتَّكَل كلُّ أحد». وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد». (رواه مسلم).

وذهب ابن جرير إلى أن المغفرة المذكورة هنا خاصة بالمؤمنين التائبين والعقوبة للكافرين والعاصين ، وأن الكلام إن كان خبراً في ظاهره فإنه وعيد وتهديد للمشركين من أهل مكة إن لم يتوبوا وينيبوا إلى الله تبارك وتعالى قبل أن يحل عليهم غضبه

وعقوبته ونقمته ، ولا ينافي هذا ما ذكرناه من تقرير الناموس العام في حكمة ذكر الثواب والعقاب والعدل والرحمة مقترنين دائما في كتاب الله.

واستدل الأشاعرة بقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ بعد ذكر المغفرة على مذهبهم من جواز العفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة ، وقد أطال النيسابوري في توجيه هذا الاستدلال وكأنهم يريدون أن يجعلوا الظلم المذكور في الآية إنما يراد به التلبس بالإثم والعصيان.. والذي تطمئن إليه النفس أن المراد بالظلم هنا ما عرف من قوة ميل النفس الإنسانية إلى الشر أكثر مما تميل إلى الخير حتى صار ذلك وصفاً ملازما لها لاصقا بها ، وقد تردد هذا المعنى في كثير من آيات القرآن الكريم وجاء ذكر الإنسان والنفس الإنسانية مقرونا بالظلم تارة ، وبالجحود تارة أخرى ، وهكذا قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ إبراهيم ، وقال تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ يوسف: ٥٣ ، ويكون المراد على ذلك والله أعلم أن الله تبارك وتعالى يغفر للناس تفضلا منه وكرما وإن كانت طبائعهم إلى الشر والظلم أقرب.

ومن ذلك تعلم أن الإنسان في أشد الحاجة إلى محاسبة نفسه ومراقبتها أدق المراقبة ومقاومة غرائز السوء فيها وتقوية عوامل الصلاح والخير التي تحيط بها حتى يسلس له قيادها ويسير في الطريق المستقيم ، وذلك بإشعارها الخوف تارة وأخذها بالشدة والقسوة ، وإشعارها الرجاء تارة أخرى وأخذها باللين والأمل.

قال الإمام النووي في رياض الصالحين: (إعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفا راجيا ويكون خوفه ورجاؤه سواء ، وفي حال المرض بمحض الرجاء ، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة متظاهرةً على ذلك.. فيجتمع الخوف والرجاء في آيتين مقترنتين أو آيات أو آية واحدة). اهـ.

وكأنه رحمه الله أشار بتغليب الرجاء في حال المرض إلى قوله ﷺ في حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسنُ الظنَّ بالله عز وجل». (رواه مسلم).

والقاعدة التي يجب أن يسير عليها الإنسان دائما الفرار إلى الخوف إذا استنام إلى الرجاء والفرار إلى الرجاء إذا استبد به الخوف، وهكذا لا يزال يكسر حدَّةَ أحدهما بالآخر بحسب حاله في مجاهدة نفسه.

وفي التعبير بالربوبية في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ إشارة إلى عظيم لطف الله تبارك وتعالى بعباده وتعهده إياهم بفضله وبره، وأن المراد بالثواب والعقاب إنما هو كمال تربية النوع الإنساني حتى يصل إلى كماله المنشود.

ووجه الارتباط بين أجزاء الآية الكريمة واضح، فإنهم لما استعجلوا السيئة قبل الحسنة ذكَّرهم القرآن الكريم بما وقع للأمم من قبلهم وأحوالهم على ما عرفوا من أحوال المكذبين السابقين الذين حقت عليهم الكلمة ووقعت بهم المَثُلات وبيَّن لهم بعد ذلك أن الله قادر على المغفرة كما أنه قادر على العقوبة الشديدة ولكنه يغفر لمن يشاء ويعاقب من يشاء، لا تتوقف عقوبته ولا مغفرته على اقتراح أحد أو تحكم مخلوق، وفقنا الله وإياكم إلى الخير وهدانا سواء السبيل..(*)

(*) مجلة المنار ـ مجلد ٣٥ ـ جزء ٩ في جمادى الآخرة ١٣٥٩ هـ / أغسطس ١٩٤٠م.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾

تشير الآية الكريمة إلى صفة من صفات الكفار وحجة من حججهم الواهية التي يتعللون بها في تكذيب الرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ ويحاولون بها التشكيك في صدقهم ويعترضون بها رسالاتهم ، وفي الآيتين السابقتين عرض لبعض هذه الحجج فهم يستبعدون البعث بعد الموت وهم يستعجلون العذاب الدنيوي ويستبطئون نزوله بالمخالفين ، ويريدون أن يتخذوا من هذا وذاك حجة لهم على أن الرسول ﷺ ليس بصادق ، وقد علمت ما في ذلك من المغالطة والضعف.

وهذه الآية تقرر أن هؤلاء أخذوا يقترحون على الرسول ﷺ أن ينزّل عليهم آية يستدلون على صدقه ، وقد تكرر هذا المعنى في كثير من آيات القرآن الكريم ، بل ورد في هذه السورة نفسها في موضع آخر قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وفي سورة الأنعام ورد ذلك في موضعين ، ففي الأول منهما اقترحوا آية معينة: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ آية: ٨ ، وفي الثاني اقترحوا آية مبهمة: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وفي سورة طه: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ آية: ١٣٣.

وفي سورة يونس: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وفي سورة الإسراء ذكر لآيات مفصلة اقترحوها: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾.

وقد تكرر طلبهم نزول الملك بدلا من الرسول البشرى في آيات كثيرة غير سورة الأنعام ففي سورة الحجر: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) ﴾.

وفي سورة هود: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) ﴾.

وفي سورة الفرقان: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٨) ﴾ .

وجاء في سورة العنكبوت أنهم اقترحوا آيات لا آية واحدة ، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾ .

وقد بيَّن القرآن الكريم أن تلك كانت سنة الأمم السابقة أن يقترحوا على أنبيائهم الآيات المعجزات ، وأن يستعجلوهم بالعذاب ، فلقد قالت ثمود من قبل لصالح عليه السلام: ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) ﴾ الشعراء .

وقال أصحاب الأيكة لشعيب عليه السلام: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) ﴾ الشعراء . وقال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾ الأعراف.

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة جميعا الرد على مقترحاتهم هذه بما يفحمهم ويلجمهم ، وبينت أن السبب في عدم إجابتهم ليس العجز عنها ، فإن الله على كل شئ قدير، وإنما السبب في ذلك اعتبارات جليلة وحكم سامية وردت منثورة في هذه الآيات ، وهذه هي حكمة تكرارها وورودها فى سور كثيرة ومن هذه الاعتبارات والحكم التي تقتضي عدم إجابتهم إلى ما سألوا:

١. بيان أن ذلك ليس من مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام فهم دعاة هداية وأساتذة إرشاد يبينون للناس الحق ويدعونهم إليه . فمن اهتدى فقد فاز ومن أبى فقد خسر، وليس من مهمة الرسل ولا من وظائفهم التصرف في نواميس الكون ونظمه ، فذلك لله وحده إن شاء ذلك فهو على كل شئ قدير، وإن لم يرده فلا قدرة لأحد عليه ، وقد أُشير إلى هذا في الجواب عليهم في كثير من الآيات السابقة مثل قوله تعالى: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) ﴾ يونس ، ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾ الرعد . ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ﴾ الرعد ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) ﴾ العنكبوت ، ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) ﴾ الأنعام.

وإنما آثر وصف الإنذار للرسل في هذه الآيات الكريمة مع أنهم ـ صلوات الله عليهم ـ مبشرون ومنذرون كما جاء في سورة النساء:﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ . . ﴾ آية: ١٦٥ ، لأن هذا الوصف هو الأليق والأخلق بهذه النفوس العنيدة والرؤوس الصلبة التي تأبى الإيمان إلا أن تُقْسَر عليه قَسْراً ، فالمقام يقتضي هذا الوصف ، ولهذا أُفرد بالذكر دون

الوصف الثاني وهو التبشير لأنه مقتضى المقام ، وهذا المعنى هو الغالب على النفوس البشرية أن تقاد بالقهر والتخويف أكثر مما تقاد بالحب والتبشير.

٢. بيان أن حكمة الله تعالى قد اقتضت أن الأمة التي تقترح الآيات ثم تكذب بها لابد أن تُعَذَّبَ عذابَ استئصال ويأخذها الله تعالى أخذ عزيز مقتدر. فثمود حين كذبت صالحا أخذتها الصيحة والرجفة ، وفرعون حين كذب موسى أخذه الله هو وجنوده فنبذهم جميعا في اليم وهكذا.. ولما كانت نبوة محمد ﷺ نبوة خالدة أبد الدهر، وكانت أمته هي الوارثة إلى يوم القيامة ، وقد علم الله من عناد هؤلاء الكفار وصلابة رؤوسهم أنهم لن يؤمنوا حتى ولو جاءتهم هذه الآيات كما قال تبارك وتعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٩) ﴾ وكما قال تبارك وتعالى في هذه السورة نفسها: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ لما علم الله منهم ذلك لم يجبهم إلى ما طلبوا ، إذ لو أجابهم فكذبوا كما فعلت الأمم السابقة لاستأصلهم وأبادهم وذلك مخالف لمقتضى بقائهم ووراثتهم ، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾ الإسراء . وقد صرحت به سورة الحجر في قوله تبارك وتعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨) ﴾. وقد يقال إن هذه القاعدة قاعدة الاستئصال لا تطبق على الأمة المحمدية فقد أمَّنها الله برسوله وبالاستغفار، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ الأنفال ، وهو قول محتمل.

٣. بيان أن أفضلَ الإيمان ما كان عن طواعية واختيار لا عن إلجاء واضطرار، وما كان عن نظر سليم وفكر ثاقب حكيم وتدبر لآيات الله وتقديس لقدرته وعظمته في مخلوقاته والمتجلية في إبقاء آيات كتابه الكريم. فالمعجزة الكبرى والآية الخالدة لنبينا ﷺ

هي القرآن الكريم وفيه الكفاية كل الكفاية لمن تدبر وتذكر، وقد ورد ذلك صريحا في سورة العنكبوت في قوله تعالى جوابا لهم على اقتراح الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ وقد روى الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

وقد سبق في هذا التفسير في سورة العنكبوت عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ آية: ٥٠ . ذكر اعتراض وجوابه قال: (هذا وإن بعض الكفار وبعض الشاكّين والمتشككين في الإسلام يقولون لو أن محمداً ﷺ أوتى آية بينة ومعجزة واضحة تدل على نبوته ورسالته لما طلب قومه الآية ، وأن هذا الجواب بقدرة الله على تنزيل الآية ومعنى العلم عن أكثرهم لا تقوم به الحجة عليهم المبطلة لحق طلبهم). ثم أجاب عن هذا بما خلاصته ما قدمناه من: أن القرآن هو المعجزة القطعية الباقية الخالدة لرسول الله ﷺ. على أن الجواب لم يقتصر على ما ذكر بل قد علمت أن الإجابات تعددت تلفت أنظارهم إلى حكمة الامتناع عن الإرسال بالآيات الخارقة.

ويقال أيضاً: إنه لما كانت أسئلتهم أسئلة تعنت وإحراج ، لا أسئلة تثبت واسترشاد ناسب أن يجابوا بمثل هذه الإجابات: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾ الأنفال.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أكثر المفسرون في بيان المعنى المراد بالهادي في هذه الآية ، فذهب بعضهم إلى أن المراد به: الله تبارك وتعالى ، وذهب آخرون إلى أنه: محمد ﷺ أو النبي أيا كان أو قائد يقودهم أو داع يدعوهم إلى الخير. كل ذلك مروي بأسانيده ، وقال ابن جرير بعد أن أورد كثيراً من هذا: (وقد بينت معنى الهداية ، وأنه الإمام المتبع الذي يقدم القوم ، فإذا كان ذلك كذلك ، فجائز أن يكون ذلك هو الله الذي يهدي خلقه

ويتبع خلقه هداه ويأتمرون بأمره ونهيه ، وجائز أن يكون داعيا من الدعاة إلى خير أو شر، وإذا كان ذلك كذلك ، فلا قول أولى في ذلك بالصواب من أن يقال كما قال جل ثناؤه ، أن محمداً هو المنذر مَنْ أُرسلَ إليه بالإنذار، وأن لكل قوم هاديا يهديهم فيتبعونه ويأتمون به). اهـ.

وذكر الشيعة أن المراد بالهادي: عليّ كرَّم الله وجهه ، واستدلوا بذلك على خلافته وأوردوا في الاستدلال له ما رواه ابن مردويه والديلمي وابن عساكر عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ الآية ، وضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «أنا المنذر وأومأ بيده إلى منكب عليّ كرم الله وجهه فقال: أنت الهادي يا عليّ بك يهتدي المهتدون من بعدي». وبما أخرج عبد الله بن أحمد في زوائده وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن عليّ كرم الله وجهه أنه قال في الآية: رسول الله ﷺ المنذر وأنا الهادي. وفي لفظ: والهادي رجل من بني هاشم يعني نفسه. وقد أطال الألوسي في رد هذا الخبر ومناقشته بما خلاصته: أن تصحيح الحاكم لا يعتد به وأنه على فرض صحة الخبر فكل ما فيه أن علياً كرم الله وجهه من الخلفاء الراشدين الهادين المهديين ولا يخالف في هذا أحد من أهل الحق. وقال ابن كثير في هذا الخبر: فيه نكارة شديدة ، ولقد أفسد الناس كثيراً مما ينتفع به من علم عليّ كرم الله وجهه بما دَسُّوه عليه وما نسبوه كذبا إليه. حتى روى مسلم بسنده عن طاوس قال أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء عليّ رضي الله عنه فمحاه إلا قدر، وأشار سفيان بن عيينة بذراعه. وروى كذلك عن حسن بن على الحلواني بسنده عن أبي إسحاق قال: لما أحدثوا تلك الأشياء بعد عليّ رضي الله عنه قال رجل من أصحاب عليّ: قاتلهم الله أي علم أفسدوا.

ولا لزوم لأن تحمل الآية الكريمة كل هذه الأقوال ، فالله تبارك وتعالى يجيب هؤلاء المقترحين بأن مهمة النبي ليست الإتيان بالآيات ولكن الإنذار الذي تترتب عليه الهداية ، وأن محمدا ﷺ وهو المنذر لهم لم يكن بدعا من الرسل فلكل قوم هاد يهديهم كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ فاطر. والله أعلم.

وقد ورد الكلام في هذه البحوث كلها مطولا في تفسير المنار في الأجزاء السابقة السابع والحادي عشر عند الكلام على سورتي الأنعام ويونس فليرجع إليه ففيه بحوث نفيسة لم نرد التطويل بتلخيصها.(*)

(*) مجلة المنار ـ مجلد ٣٥ ـ جزء ١٠ في شعبان ١٣٥٩ هـ/ سبتمبر ١٩٤٠م.

الإسلام والمعجزات والعجائب

ليست الرسالة بدعا من النظم بل هي في حقيقتها ومهمتها نظام طبيعي بَحْتٌ يستلزمه هذا الوجود الإنساني بما جُبلَ عليه من فطَر وأخلاق ، وإلى هذه الإشارة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ يونس: ٢ ، وبقوله تبارك وتعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) ﴾ الأعراف.

وليس الوحي كذلك بدعا من النظم في هذا الكون فهو لا يعدو أن يكون اتصالا بين بشر من بني الإنسان وبين الملأ الأعلى بأسلوب يتناسب مع طبيعة الروحانية الإنسانية التي هي في حقيقتها فيض من روحانية هذا العالم العلوى ، وليس عجيبا أن يتصل النوع بأصله وأن يعود الماء إلى نبعه متى تعلقت بذلك الإرادة الإلهية.

ولقد جاء هؤلاء الرسل الكرام يرشدون الناس إلى الخير ويهدونهم سواء السبيل، وقد قص علينا القرآن الكريم من نبَئهم وذكر أن الله تبارك وتعالى أيَّدهُم بنصره وآياته ، وأن كثيرا منهم قد جاء قومه بما أعجزهم من خوارق العادات وعجائب الآيات ، فسفينة نوح وناقة صالح وعصا موسى وعجائب عيسى كلها ورد ذكرها في القرآن الكريم بما لا يدع مجالا للارتياب فيها ولا للشك في وقوعها وحدوثها على أيديهم ـ صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ـ وقد اختلفت الناس في أمر هذه المعجزات وسنلخص في هذا البحث نظرة الإسلام الحنيف إليها ، وما يجب أن يعتقده المسلم بخصوصها.

■ تعريف المعجزة

المعجزة: أمر خارق للعادة يقع على يد نبي مقرونا بدعوى التحدى.

■ الحاجة إليها في تأييد الرسالة

يخاطب الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ عقول الناس وأرواحهم ، وفي هذه العقول ما هو مشرق مستنير يدرك الحق بأشعته وأضوائه فيؤمن به ويسلم له ويهتدي بهديه ، وهؤلاء لا تحتاج الرسالة معهم إلى معجزات أو عجائب. ومن هذه العقول ما هو مظلم متحجر صلب لا تؤثر فيه موعظة ولا ينفع في إرشاده ضياء ، وهؤلاء كذلك ميؤوس من إصلاحهم مهما كانت العجائب والمعجزات ، وكلا الصنفين قليل في الناس ، وإنما يكون عامة الناس ودَهْماؤهم في درجة عادية من الإدراك العقلي تحتاج إلى ما يُنبِّهها من غفلتها ويوقظها من رقدتها ، وليس ذلك إلا المعجزة تقرع آذانهم وتنفتح عليها أبصارهم فَتَحار فيها مداركهم وعقولهم ويؤمنون بأن هذا النبي إنما يتحدث عن قوة فوق قوتهم ويتصل بقدرة أعظم من قدرتهم ويستمد من عالم أسمى من عوالمهم ، ومن هذا الشعور يقادون إلى الإيمان وتنفتح بصائرهم لاستيعاب أدلته والنظر في حججه وبراهينه حتى يترقوا من هذا التسليم إلى غايته وحقيقته ، ولهذا كانت المعجزة من لوازم الرسالة ولا يكابر في هذا إلا جاهل بطبائع الناس أو مُمار في حقائق الأمور.

■ موقف الناس من المعجزات

أ. أنكر كثير من المرتابين المعجزات قليلها وكثيرها ما تقدم منها وما تأخر بحجة أنها تخالف النواميس الكونية ولا تتفق مع نتائج البحوث العلمية ، وقد يحتج بعضهم بقول الله تبارك: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣)﴾ فاطر، وقد يلجأ بعضهم إلى تأويل ما ورد من النصوص القرآنية مشيرا ومصرحا بهذه المعجزات والخوارق. وهؤلاء جاحدون جامدون متعسفون متكلفون ولا دليل لهم فيما ذكروا ، فإن نواميس الكون التي علمها الناس ليست هي كل شيء ، ولا زالت هناك

نواميس لم تعرف بعد ولعلها أكثر مما عرفوا ، بل إنها لكذلك ، ونتائج العلم الحديث لا تزال تترقى وتتغير وتتبدل بحكم ترقى الفكر الإنساني وتقدمه ، والآية الكريمة حجة عليهم لا لهم ، فقد علمنا بحكم الواقع أن من نواميس الله خرق النواميس الكونية لتأييد رسله وأنبيائه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا . وكثير من أمثال هذه العجائب تقع بين ظَهْرانينا ولا يقال أنها خرق لنواميس الكون ، والآيات الواردة بهذه المعجزات في صراحتها ووضوحها لا تحتمل التأويل إلا من متلاعب باللفظ صارف له عن مدلوله صرفاً تاماً ، فضلا عن أن هذا التأويل لا موجب له بعد ما بيناه.

ب. وفريق ثان سلم بالمعجزة من حيث هي وبوقوعها في الأمم السابقة على يد الأنبياء السابقين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ كما ورد ذكر ذلك في القرآن ، ولكنه نفاها فيما يتعلق بأمة محمد ﷺ ورسالته نفيا تاما ، واحتج لذلك بأنها لم ترد في القرآن ، وبتصريح القرآن برد الكفار عن مقترحاتهم هذه مع عدم إجابتهم إليها ، حتى ورد ذلك صريحا في نحو الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ الإسراء: ٥٩ ، وجرَّحوا ما جاء في ذلك من الأخبار الصحيحة وأوَّلوا ما رأوا أنه يحتمل التأويل منها ، وقالوا إن المعجزة الكبرى لنبينا ﷺ هي القرآن الكريم ، واستدلوا لذلك بما قدمنا من حديث الشيخين والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». قالوا فهذا الحديث الصحيح والآيات الكريمة تنطق بأن آية النبي ﷺ هي القرآن الكريم ولا نعدل عن ذلك لآثار مهما صحت فهي لا تنهض لمعارضة هذه الأدلة.

وهؤلاء قوم غالون قد ورَّطوا أنفسهم فيما لا موجب له من تجريح كثير من الأحاديث والأخبار الصحيحة التي لا مغمز فيها سنداً ولا متناً وكلها تنطق بغرائب

المعجزات التي وقعت على يد سيدنا محمد ﷺ كما ورد في حديث نبع الماء من بين أصابعه ﷺ وقد أخرجه الستة إلا أبا داود ، وكما في حديث تكثير الطعام وقد رواه الشيخان من طرق عدة ، وكما في الأحاديث الكثيرة التي استجاب الله فيها دعاء نبيه ﷺ أو كف عنه الأذى أو أخبر فيها بما سيقع لأمته من بعده ، وكلها صحاح لا مطعن عليها ولا داعي لتأويلها أو إنكارها من عقل أو نقل.

ج. وفريق ثالث سلَّم بالمعجزة من حيث هي وبوقوعها للأنبياء السابقين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وبوقوعها في هذه الأمة على يد رسول الله ﷺ متى صح بذلك الخبر، ولكنه نفى أن يكون ذلك لإثبات الرسالة ، ولكنه لكشف الأذى أو لإجابة الدعاء أو لتثبيت أهل الإيمان.. إلخ ، ولم يقع شئ فيها إجابة لمقترحات المشركين أو إقناعاً لهم بصدق الرسول ﷺ إذ أن دعامة الإيمان في هذا الدين الإسلامي الحنيف الاستدلال العقلي السليم: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ﴾ البقرة: ٢٥٦ ، وقالوا إن في ذلك جمعاً بين الأدلة التي نفت والتي أثبتت فيكون المراد بالنفي نفي الإقناع والاستدلال ، ويكون المراد بالإثبات إثبات الوقوع من حيث هو ، وهو مذهب حسن ورأي معقول لا حرج على قائله ولا الأخذ به ، إذ كل ما هنالك تنزيه الإسلام عن أن يستخدم هذه الخوارق كنوع من أنواع الأدلة الإقناعية ، وهو كذلك.

وقد أكثر جماعةٌ من إيراد المعجزات وتلمس الخوارق والتسليم بكل ما ورد من ذلك من طريق واه أو ضعيف بل موضوع ، يريدون بذلك أن يستدلوا لعظمة هذا الدين وعظمة النبي الذي جاء به ﷺ فأساءوا من حيث أرادوا الإحسان ودفعوا غيرهم إلى إنكار الخوارق جملة وللقَدْح فيها ولا لزوم لشئ من هذا ، فإن هذا الدين عظيم متين بوضوح حجته واستقامة طريقه ، والرسول ﷺ كريم أمين بما اختصه الله به من عظيم الفضائل وجميل الصفات وعموم البعثة وخلود الأثر: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾ النساء.

بقي أن يقال إن انشقاق القمر معجزة وقعت لرسول الله ﷺ إجابة لاقتراح مشركي قريش وقد كذبوا به ، ومع ذلك فلم يهلكهم الله تبارك وتعالى ولم يستأصلهم ، وقد أجيب على ذلك بأمور:

منها: أن هذه المعجزة لم تكن إجابة لاقتراحهم كما ورد في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يذكر فيه أنهم اقترحوا ذلك ، ولكن هذا لا ينفي الاقتراح في روايات أخر.

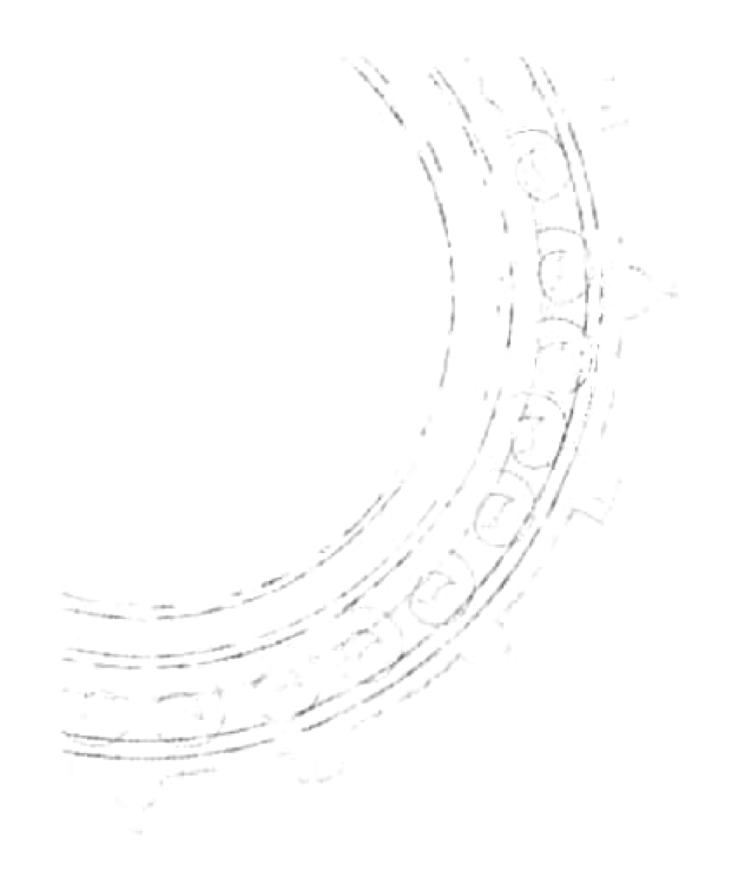
ومنها: أن قاعدة الاستئصال أغلبية لا كلية وأن أمة محمد ﷺ قد أمَّنها الله منها وهو جواب حسن لا بأس به.

ومنها: أن أحاديث انشقاق القمر نفسها فيها كلام طويل وقد أفاض في ذلك صاحب المنار في المجلد الثلاثين ، وذهب إلى أن هذه الآثار في أسانيدها ومتونها ما يوجب ضعف الاعتماد عليها ، وتلك مسألة فنية الحكم فيها لقواعد المحدثين ، والمهم أن نخرجها من حيز الطعن في العقيدة ، فإن الأساس مسلم به من كل منصف وهو الإيمان بما صح عن الله ورسوله من المعجزات التي وقعت لسيدنا محمد ﷺ ولعلنا نعود إلى توفية هذا الموضوع حقه في فرصة أخرى إن شاء الله.



الآيتـان: (٣٠ - ٣١)







﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾

في الآية الكريمة الأمر بغض البصر وهو: خفضه وكفه عن محارم الله تبارك وتعالى ، وفيها الأمر بحفظ الفرج وهو: صيانته عن غير من تحل له من زوجة أو ملك يمين: ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴾ المؤمنون، وفي الآية بيان الحكمة في ذلك وهو أن هذا هو الأزكى والأطهر والأسلم والأخلق لشهامة الرجولة وعفة الإيمان ، وفيها التحذير من غضب الله ومقته وعظيم رقابته لخلقه إن الله خبير بما يصنعون.

أيها الأخ المسلم: هذه العين الباصرة من نعم الله عليك وتصور أنك فقدتها ـ أمتعك الله بسمعك وبصرك وقوتك ـ فماذا يكون حالك.. ؟ وما مبلغ الخسارة العظيمة التي تشعر بها حينذاك.. ؟ هذه النعمة أعطاكها الله لتصرفها في فائدتك ولتشكره عليها باستخدامها في طاعته ولو شاء لسلب نعمته ولئن سلب نعمته ليكونن الشقاء في الدنيا والآخرة.

ثم ماذا تستفيد أيها الأخ من إدامة النظر إلى المحارم ومن الولوغ في المعاصي

والمآثم ، لا شيء إلا تعب القلب وغماء الضمير وخسارة المال وفقدان الشرف وانهدام الصحة والابتلاء بالأمراض ويرحم الله القائل:

وإنك إن أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً ، وترك الخطيئة خير من علاج الداء ، وإنك لتديم الالتفات وتختلس النظرات والله رقيب عليك وناظر إليك ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ثم هو محاسبك بعد ذلك على كل ما جنت عيناك واقترفت جوارحك إن لم يتغمدك برحمته ويتولاك بعنايته.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه». (رواه أحمد والطبراني) . وفي رواية الطبراني: «ينظر إلى امرأة أول رمقة» وهو المقصود في الحديث. وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَتَغُضُّنَّ أبصاركم ولَتَحفظنَّ فروجكم أو ليكسفَنَّ الله وجوهكم».

فغض يا أخي بصرك.. واحفظ فرجك.. وغالب نفسك .. وفي الحلال مندوحة ، وفي العصر فساد.. ولتكن داعية الإيمان في نفسك أقوى من فساد الزمن.(*)

(*) جريدة النذير الإسبوعية - السنة الثانية - العدد ٢٢ في الإثنين ٢٩ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ/ ١٧ يوليو ١٩٣٩م.

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾

غض البصر: خفضه وكفه. أزكى: أطهر. الخُمُر: جمع خمار وهو ما تستر به المرأة رأسها وصدرها (الطرحة). الجيب: الشق في الثوب فوق الصدر.

في الآية الكريمة لطائف دقيقة يجب أن ينتبه لها المؤمن الحريص على دينه، من ذلك أمر المؤمنات بغض البصر وهو كفه عن المحارم، وحفظ الفرج إلا عن زوج، ثم نهاهن بعد ذلك عن أسباب الاختلاط والإغراء جميعا ومن ذلك إبداء الزينة، وإذا كان النهي منصبا على إبداء الزينة فالمراد مواضعها وإنما جاء اللفظ هكذا مبالغة في وجوب التحرز والاحتفاظ.

وبعد ذلك بيان منْ يجوز للمرأة أن تظهرهم على مواضع زينتها وهم الاثنا عشر صنفا المذكورة في الآية، ومنهم التابع الصغير أو الذي لا حظ له في النساء، وليس من هذه الأصناف كما ترى السَّقاء ولا الخباز ولا الخادم الكبير ولا البائع الجوال ولا أقارب الزوج من أبناء الأعمام والأخوال بل حتى إخوة الزوج أنفسهم، كل هؤلاء ليسوا من هذه الأصناف التي يحل للمرأة أن تظهر أمامهم مواضع الزينة من جسمها، إنما

إذا اقتضت الضرورة أن تظهر المرأة أمام هؤلاء فلتظهر مستترة متحجبة لا يبدو منها إلا الوجه والكفان على الأكثر إذا لم تخف الفتنة ، ومن ذلك تحذير النساء أن يحاولن إظهار ما استتر من زينتهن بضرب الأرجل ونحوه حتى يلفتن نظر من لم يلتفت.

أين هذه الآداب العالية مما نرى فيه نساءنا المسلمات من التبذل والتكشف والاختلاط الشائن ؟! بل تمادين إلى ما هو أكثر من ذلك: إلى حضور الحفلات والمآدب والمراقصة والمخاصرة والمبالغة في التزين للأجانب وإظهار ما يمكن إظهاره من صنوف هذه التزين لهم ، وبعد ذلك يزعم كثير من الناس أنهم مسلمون !! اللهم لطفا.(*)

(*) جريدة النذير الأسبوعية ـ السنة الثانية ـ العدد ٢٣ في الإثنين ٧ جمادى الثانية ١٣٥٨هـ / ٢٤ يوليو ١٩٣٩م.



الآيـــة: (٦)

الآيتان: (٤٥ - ٤٦)





﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

الأحزاب: ٦

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعال معي - أيها الأخ القارئ - لنَقفَ برهة أمام هذه الآية الكريمة فَنستَجليَ ما فيها من روائع الجمال اللفظي وبدائع التفضل المعنوي ثم نقول بعد ذلك .. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء:

١. أرأيت كيف عبَّر القرآنُ الكريمُ عن محمد ﷺ (بالنبي) وهل تذوقْتَ مافي هذا اللفظ الكريم من معاني التعظيم والتكريم والشرف العالي والمنحة الخاصة والمقام السامي الرفيع الذي نَبَا عن تقدير الناس وسَمَا عن مقاييسهم وموازينهم.

٢. وأرأيتَ كيف عبَّر القرآن الكريم عن الاستحقاق بالولاية فوقعت كلمة (أولى) موقع كلمة (أحق) لما في الأولى من الشعور بأن ذلك الاستحقاق إنما كان عن الحب والولاء والرغبة والرجاء لا عن خوف ولا إرهاب ولا إلزام ولا إكراه.

٣. وأرأيت كيف عبَّر القرآنُ بكلمة (المؤمنين) ولم يقل الناس أو المسلمين لما في هذه الكلمة من الإشارة إلى أن هذه الأولوية ثمرة التصديق ونتيجة الإيمان واليقين كما قال ﷺ: «تالله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين ومن نفسه التي بين جنبيه».

وهناك لطيفة أخرى هي أن هذه الفضيلة فضيلة موالاة النبي ﷺ إنما كتبها الله لأشرف طبقات الخلق وهم المؤمنون تعظيماً لقدر نبيه ﷺ وتقديراً لتصديق عباده المؤمنين.

٤. وأرأيت كيف عبَّر (بالأنفس) ليُدخلَ في هذه الأولوية كلَّ ما دونها وهو كل شيء من مباهج الحياة ومظاهرها.. فالأهلُ دون النفس.. والمالُ دون النفس.. والمسكنُ دون النفس.. والزوجُ دون النفس.. والعشيرةُ دون النفس.. وإنما يكون حب الإنسان لهذه العوارض نتيجةَ حُبِّه لنفسه وثمرة حرصه على إسعادها.

الا كلُّنا يبغي الحياةَ لنفسه حريصاً عليها مُستهاماً بها صَبّا

فحبُّ الجبان النفسَ أورده التقى وحبُّ الشجاع النفسَ أورده الحربا

فإذا جاد الإنسان بنفسه وسخا بروحه، فقد جاد بكل شيء والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

ويعد أيها الأخ: فهذه لوامع بروق تسطع في قلوب المؤمنين حين تهطل عليهم سحائب فيض الحب النبوي من سماء الحقيقة المحمدية فتهتف بها السنتهم وتجري بها اقلامهم، وإن في القول بعد ذلك لسعة، وإن ما يبدو في مرآة قلوب العارفين لا حد له، فسل الله يعطك، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وبعد أن ملأت سمعك وقلبك من روائع هذا الجمال هلمَّ نتفهم الآية الكريمة: إن ربك يقول لك: النبي أحق بك من نفسك، فنفسُك وكل ما تملك فداء لنبيك وملْك لرسولك ﷺ وَوَقف على مناصرة الدعوة وحماية شريعته، ليس لك أن ترغب بنفسك عن نفسه أو تحتجز روحَك أو مالَك أو كلَّ ما تملك عن مناصرته، وفي هذا المعنى وردت الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الأحزاب: ٣٦. والآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ التوبة: ١٢٠،

والحديث الصحيح: «تاللَّه لا يؤمن أحدكم حتى يكون هـواه تبعاً لما جئت به».

وإذا كان النبي ﷺ قد اختار الرفيقَ الأعلى وفارق الحياة الدنيا ، فإن هذا المعنى ثابتٌ لسنته من بعده ولشريعته الباقية الخالدة ، فهي أولى بكل مؤمن من نفسه وأحق به من أهله وأرضه ومسكنه وقومه وعشيرته والناس أجمعين. فَهِمَ المسلمونَ الأولونَ رضي الله عنهمَ هذا المعنى فسمعنا حساناً رضي الله عنه يقول:

فإن أبي ووالده وعرْضي لعرْض محمد منكم وقاءُ

وسمعنا أبا بكر رضي الله عنه يبكي حين سمع قول النبي ﷺ: «إن من أَمنِّ الناس عليَّ في نفسه وماله أبا بكر بن أبي قحافة» يقول: بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه وهل أنفسنا وأموالنا إلا ملك يمينك.

فهل يفهم المسلمون الآن هذا.. فيعلموا أن دينهم أولى بهم من أنفسهم وأموالهم ، فيعملوا على مناصرته وإنقاذه.. أم هم في غمرة ساهون.. ؟ اللَّهم فقهنا في دينك.. وعلمنا من أسرار كتابك.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثانية ـ العدد ٨ في ٩ ربيع الأول ١٣٥٣هـ / ٢١ يونية ١٩٣٤م.

وظائف النبوة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) ﴾

تلك هي بعض وظائف النبوة التي أراد الله تبارك وتعالى أن يَعْلمها الناس عن نبيه سيدنا محمد ﷺ بعد أن خاطبه بأحب الأسماء وأفضل الألقاب عنده فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ وفي هاتين الكلمتين الشريفتين مجتمع الفضائل والكمالات وبرهان الصدق والحقيقة ، وبعد أن بيَّن للناس أنه رسوله الأمين على وحيه لم يتقَّول على ربه ولم يأت بشيء من عنده فقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾.

فالوظيفة الأولى: الشهادة فهو ﷺ شاهد لربه عالم به عارف إياه إلى أقصى حدود المعرفة التي أجازها الله لعباده كما قال ﷺ فيما يرويه البخاري: «إنَّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا».. وهو شاهدٌ بربه يُثبت للناس بالآيات الساطعة والبراهين القاطعة صفاته ووحدانيته ويعلِّمهم أحكام دينهم ويحدد لهم الصلة بينهم وبينه كما قال تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) ﴾ إبراهيم. وهو ﷺ شاهدٌ على أمته يراقب أحوالهم ويستطلع شئونهم ، ويشجع محسنهم ، ويرد على مسيئهم. وشاهدٌ على الأمم السابقة بما أعلمه الله من أنبائها وأطلعه عليه من شئونها وذلك قول الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾ النساء.

والوظيفة الثانية: التبشير بجمال الفضيلة والحق ، ووصف طريق السعادة وراحة البال واطمئنان النفس للناس ، وفتح باب الأمل الواسع الفسيح الصادق في رعاية اللَّه ومعونته لهم في الدنيا وثوابه ونعيمه في الآخرة ، وأية راحة تتطلبها النفس الإنسانية وتدخل عليها البشرى والسعادة والسرور أكثر من أن تعتقد أن لها نصيراً في هذه الحياة الدنيا مثيباً في العقبى قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) ﴾ الأحزاب.

والوظيفة الثالثة: الإنذار والتخويف من مهالك الرذيلة ومضارّها وتحذير الناس من عواقبها وآثارها وما تلك النتائج إلا شقاء الدنيا والبؤس فيها وشقاء الآخرة وغضب اللَّه تعالى ، وأية صورة تحذرها النفس وتخافها أفظع من أن يعيش الإنسان في الدنيا مضطرب البال قلق النفس ثم يُرَدُّ في الآخرة إلى عذاب أليم كما قال اللَّه تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) ﴾ الليل.

والوظيفة الرابعة: الدعوة إلى اللَّه تبارك وتعالى وكشف النقاب عن جمال المعرفة ولذة الوصول إلى قدس الحقيقة وسعادة التعرف إلى اللَّه تبارك وتعالى حيث الكمال الروحي والرقي النفسي واللذة التي يقول فيها بعض أهلها: (نحن من معرفتنا باللَّه في لذة لو عرفها ملوك الدنيا لقاتلونا عليها بالسيوف). ويقول الآخر:

أيا صاحبي قف بي مع الحق وقفةً ... أموت بها وجداً وأحيا بها وجداً

وقل لملوك الأرض تجهد جهدها ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

وإلى ذلك الإشارة بقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) ﴾ الذاريات.

والوظيفة الخامسة: الإرشاد والهداية فهو ﷺ السراج المنير يهتدي بهديه السائرون ويسير بنوره الحائرون ، وفي التعبير بـ (السراج) إشارة إلى أن النبي ﷺ مصدر نور ذاتي يشع على الخلق فلا يخبو أبداً فأين النور من السراج ؟

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة كل شرائط الدعوة الصادقة ***فلا بد ان يكون الداعي عالماً بدعوته ، ولا بد من ان يعتمد فيها على الترغيب والتبشير والإنذار، ولا بد أن تكون لله خالصة لا تشوبها شائبة وللخير المحض ، ولابد ان يكون فيها قدوة يهتدي بهديه ويسير اتباعه علي غراره ، وقد جُمع ذلك كله للرسول ﷺ على اكمل مثال ، وفي طي هذه الآيات لطائف يصل إلى إدراكها من أزهر مصباح الهدى في قلبه واشرق النور من سراج النبوة على فؤاده.***(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الأولى ـ العدد ٤ في ١٣ ربيع الأول ١٣٥٢هـ / ٦ يوليو ١٩٣٣م.


تفسير
سورة الحجرات





﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) ﴾

فلْنتدارسْ هذه الآية الكريمة معاً ، اقرأْها كما قرأتها بتدبر وإنعام ، وسل نفسك بعد ذلك هذه الأسئلة كما سألت نفسي من قبلك ، وسأجيبك عنها ، فإن طابقتْ إجابتي ما وصلتَ إليه فبها ، وإن فتح الله عليك بخير مما فتح به عليَّ فاحمد الله ، وإن شئت أن تفيدني إياه فافعل وأنت في حل إن لم تشأ ذلك ، وسأمدك في هذه الإجابة بما عرفتُ من أسباب النزول والمأثور في الآية الكريمة ، وأظنك بعد هذا عرفتَ أن ما أكتبه إلى مدارسة القرآن أقرب منه إلى التفسير، ولمَ لا نتدارس القرآن ؟ ولمَ لا تكون هذه المدارسة نوعاً آخر من أنواع التفسير ومسلكاً مبتكراً من مسالكه ؟ ولأعد بك بعد ذلك إلى المدارسة.

الجهر: رفع الصوت.

حبوط الأعمال: فسادها وضياع ثوابها.

غض الصوت: خفضه.

الامتحان: الاختبار.

وبعد أن عرفت معاني هذه الألفاظ سألتُ نفسي عدة أسئلة. هل هناك ارتباط بين هذه الآيات الكريمة وما قبلها ؟ وما سبب نزولها وما المقصود بها ؟ وكيف نستفيد منها ؟ وإليك الجواب:

▪ أ. ارتباط هذه الآيات بما قبلها

يقول الله تبارك وتعالى في آخر سورة الفتح: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ فها أنت ترى أن في هذه الآية كلام عن منصب الرسول ﷺ ومهمته وعن صفات المؤمنين ومظاهر الكمال فيهم ، فناسب بعد ذلك أن تحدد الصلة بين مقام الرسالة النبوية المحفوف بجلال الزعامة الدينية والدنيوية وبين غيره من المقامات ، مع بيان ما يجب لهذا المقام الكريم من تكريم وتعظيم ، وهو ارتباط قوي متين وصلة وثيقة تجعل الآية الثانية أُولى ما يتبع الآية الأولى.

▪ ب. سبب النزول والمقصود منها

أما سبب نزول هذه الآية الكريمة فقد قال قوم: إنها نزلت حين جادل أبو بكر عمراً ـ رضي الله عنهما ـ في شأن وفد بني تميم فارتفعت أصواتهما ، وحجة هؤلاء

ما رواه البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه: أَمِّرْ القعقاع بن معبد ، وقال عمر رضي الله عنه: بل أَمِّرْ الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أردتَ إلا خلافي ، فقال عمر رضي الله عنه: ما أردتُ خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل اللّه تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الآية.

وقال قوم: إنها نزلت حين ذَبَحَ بعض المسلمين أضحيتهم قبل رسول اللّه ﷺ واستدل هؤلاء بما رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن أن أناساً ذَبَحُوا قبل رسول اللّه ﷺ يوم النحر فأمرهم عليه الصلاة والسلام أن يعيدوا الذبح فأنزل اللّه تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الآية. قال ومن هؤلاء الذين ذبحوا أبو بردة ابن نيار.

وقال آخرون: إنها نزلت حين توالت وفود العرب على رسول اللّه ﷺ فأكثروا من مسألته قبل أن يكون هو البادئ بالكلام ، فنهاهم اللّه عن ذلك حتى يبتدئهم ﷺ بما يريد من الأحكام.

وقال غيرهم: إن أناساً كانوا يتعجلون فيقولون: لو أنزل اللّه في كذا لكان كذا ، فنهاهم اللّه عن هذا التمني بهذه الآية. وروى ابن جرير هذا عن قتادة وغيره.. وفي سبب النزول أقوال أُخر لا تخرج عن مثل ما ذكرنا ، ولا نخرج عن القصد من هذه المدارسة بسردها وحسبك ما تقدم.

وأعتقد أنه ليس ما يمنع من إرادة هذه المعاني جميعاً فكلها لا تخرج عن مقصد واحد وهو الانتظار حتى يكون الرسول ﷺ البادئ بالكلام وبالسؤال وبإيراد الأحكام وبتأويلها وهكذا ، وعلى ذلك يكون معنى الآيات الكريمة واللّه أعلم بمراده:

يأيها الذين آمنتم وصدقتم بمحمد ورسالته ، واعتقدتم دينه وعقيدته ، أَجِلُّوا قدر هذه المهمة العظمى في شخصه الكريم ، وتأدبوا معه الأدب السامي العالي فلا

تكونوا بادئيه بشيء حتى يتقدم إليكم فيه بأمر، ولا ترفعوا أصواتكم في حضرته كما يرفع أحدكم صوته في حضرة أخيه ، ولا تنادوه بما ينادي به بعضكم بعضاً بل نادوه ﷺ نداءً يُشعرُ بالتعظيم والتكريم والإجلال والاحترام ، حتى لا تكون غفلتكم عن تقديس هذه المنزلة سبباً في تقصيركم ومؤاخذتكم بما يزيد على طاعتكم فيبطل ثوابها ويربى على جزائها فتهلكون وأنتم لا تشعرون ، فإن امتثلتم وغضضتم أصواتكم وخفضتموها في حضرة الرسول ﷺ كان ذلك دليلاً على أن الله تبارك وتعالى قد اختبر قلوبكم وصفَّاها وطهَّرها وامتحنها فوجدها صالحة لأن تكون مهبطاً لتقواه ومستقراً لرحمته وأهلاً لمغفرته وثوابه.

.:.

ويتردد في نفسي معنى لهذا الاستفتاح سأقصه عليك وإن لم أره من قبل ، ذلك أن الحق تبارك وتعالى شرع للمسلمين في أول الإسلام أنهم إذا أرادوا مناجاة الرسول ﷺ والدخول عليه أن يقدموا بين يدي نجواهم صدقة رمزاً إلى أن هذا مقام كريم لا يقربه بين يدى رسول الله ﷺ إلا الكرام المتطهرون بالصدقات ، ثم خفَّف ذلك عمن لا يستطيع رحمة به ورأفة ، فذلك قول الله تبارك وتعالى في سورة المجادلة: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) ﴾.

حتى إذا استقر تمجيد الرسول ﷺ في نفوسهم واطمأنت إلى تعظيمه قلوبهم وصار ذلك دأباً لهم ، رفع الله عنهم هذا الحكم وأباح لهم المناجاة بغير صَدَقة قَبْلها ، فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾ المجادلة.

وأراد الحق تبارك وتعالى أن يقرر هذا المعنى في نفوسهم بمناسبة ما تقدم من الحوادث ، فذكَّرهم برحمته إياهم في أنه خفَّف عنهم في تقديم الصدقات وأخذ عليهم

أن يطيعوا ويتقوا فعليهم أن يفوا بذلك ويعملوا عليه ، وأردف ذلك بما يتلوه من الآداب والتعاليم ، ويكون المعنى حينئذ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله أي: لا تقدموا الصدقة التي أُمرتم بها من قبل ، ومهما يكن فإن في حذف المفعول هنا كثير من معاني الإعجاز والخلود والإبهام الذي يؤدي إلى أوضح من الوضوح وذلك مما امتاز به القرآن الكريم.

وفي الآية الكريمة بعد ذلك لطائف كثيرة يتذوقها من صفا قلبه وطهر لُبُّه:

- ومن ذلك التعبير بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والمعروف أن الكلام في حق رسول الله ﷺ وحده وأن التقديم لم يكن إلا بين يديه إشعاراً للمؤمنين بأن قيامهم بهذه الحقوق للرسول ﷺ إرضاءٌ للحق تبارك وتعالى وكأنهم يقومون به معه جل شأنه ، ذلك إلى ما فيها من الإشارة إلى صلة الرسول ﷺ بربه وقربه منه ، وقد ورد كثير من هذا المجاز في الكتاب الكريم وفي السنة ، من ذلك ما ورد من قول رسول الله ﷺ: «من آذى مسلماً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى اللهَ عز وجل». وهكذا.
- ومنها التعبير عن النبي ﷺ في مواقف السورة الكريمة بوصف الرسالة عن الله عز وجل لأن هذا الوصف فضلاً عن أنه يشعر بعظمته ﷺ الذاتية أولاً ثم بفضل الله تبارك وتعالى عليه ثانياً ، يُشعر بعظيم الصلة وكبير القرب بينه وبين الحق تبارك وتعالى وبين أن صلته ﷺ بالخلق إنما جاءت عن هذا الطريق الإلهي الكريم ، وفي ذلك ما فيه من تشريف تتذوق حلاوته نفوس الصادقين من المؤمنين.
- ومنها نداء الحق تبارك وتعالى عباده بوصف الإيمان تنبيهاً على أن أداء حق رسول الله ﷺ من صميم الإيمان ولب الإيمان.
- ومنها الأمر بالتقوى بعد هذا النداء كأن الذي يَتَنَكَّبُ طريقه غيرَ تقيٍّ وليس بينه وبين نقمة الله حاجز.

■ جـ . ما الذي نستفيده من الآيات الكريمة ؟

أما الذي استخلصته من الآيات الكريمة من روائع الآداب ودقيق الأحكام فهو:

١. إحاطة مرتبة الزعامة العادلة الصحيحة العاملة لخير الدنيا والآخرة من الاحترام

والإجلال تحول بينهم وبين زراية الزارين وتهجم الغافلين ، وهي للرسول ﷺ بالأصالة ولغيره من أئمة الأمة بالوراثة مع تفاوت المراتب ، وقد ألمَّ بذلك أبوحيان فَكَرِه رفع الصوت في حضرة العالم ومن في منزلته.

وقد كان ﷺ إذا قَدِمَ عليه الوفودُ أرسل إليهم من يعلمهم كيف يُسلمُون ويأمرهم بالسكينة والوقار بين يدي رسول الله ﷺ.

ومن ذلك - يا أخي - تعلم أن القرآن الكريم عرض فيما عرض له لقواعد (البروتوكول) أو (التشريفات) وأن رسول الله ﷺ عمل بذلك فيما عمل ، ولكن هناك أمرين أساسيين لا تنسهما أبداً:

أولهما: أن هذه المظاهر التكريمية لا يصح أن تكون إلا لمن يستحق من صالحي أئمة المسلمين ورؤسائهم.

ثانيهما: أنه لا يصح أن يكون فيها محظور شرعي كالمبالغة في التعظيم إلى حد يشبه العبادة ، وما عدا ذلك فجائز أرشد إليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢. هذا التعظيم والتكريم لرسول الله ﷺ كما يكون من حقه وهو في هذه الحياة الدنيا فهو من حقه ﷺ وهو في الرفيق الأعلى ، ومن هنا استدل العلماء بالآية على وجوب خفض الصوت عند قبره الشريف وعند قراءة حديثه ﷺ.

٣. أن من تعظيم الزعامة وإجلالها أن ينتظر الإنسان حتى تتقدم بأمرها ، وألا يدعوها بما يدعو به آحادَ الناس ، وألا يرفع صوته فوق صوت الكبير، وألا يجادل الناسَ أَمَامَهُ ويُمَاريهم ، وإجمالاً يكون على حالة من الوقار في حركاته وحديثه ونقاشه ومطالبه تتناسب مع مقام الكبير وحرمته.

٤. أن الخروج على هذه الآداب مفسد للخطط مضيع للجهود يجعل الطريق ملتوية أمام الزعيم بعيدة على أتباعه ومريديه.

٥. أن التخلق بهذه الآداب مقرِّبٌ للغاية مستجلبٌ لرضوان اللّه تبارك وتعالى.

إذا عرفت هذا فاعلم ـ يا أخي ـ أن من الواجب أن نتخلق بهذه الأخلاق، وإلا يكون القرآن ومدارسته مسلاةً نقرأ ونسمع ولا نعمل ولا نتأدب، فنكون بذلك ممن ينطبق عليهم الحديث الشريف: «رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه».

▪ **وإليك أثر هذه الآيات في نفوس المسلمين الأولين رضي الله عنهم**

١. أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال بعد نزول هذه الآية: والذي أنزل عليك الكتابَ يا رسول اللّه ﷺ لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى اللّه تعالى.

يريد ألا أكلمك إلا كما يكلم الإنسانُ شخصاً يُسَارّه ويَهمُس في أذنه بما لا يحب أن يسمعه غيره.

٢. وفي صحيح البخاري وغيره عن ابن الزبير أن عمر: كان إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه.

٣. وروى البخاري ومسلم وغيرهما من طُرق عدة أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة دخل ثابت بن قيس بن الشماس بيته وأغلقه عليه وطفق يبكي، فافتقده رسول اللّه ﷺ فقال: «ما شأن ثابت؟» قالوا: يا رسول اللّه ما ندري ما شأنه غير أنه أغلق باب بيته فهو يبكي، فأرسل إليه ﷺ فسأله: «ما شأنك؟» فقال: يا رسول اللّه أنزل اللّه عليك هذه الآية وأنا شديد الصوت (وكان رضي الله عنه في أذنه صمم) فأخاف أن أكون قد حَبطَ عملي، فقال ﷺ: «لستَ منهم بل تعيش بخير وتموت بخير». وفي رواية: «أما يرضيك أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة» فقال: رضيت ببشرى اللّه ورسوله لا أرفع صوتي أبداً عند رسول اللّه فأنزل اللّه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ والآية تشمل ثابتاً والشيخين وغيرهم من الأصحاب الكرام ـ رضى اللّه عنهم جميعاً ـ وقد تحققت بشرى المصطفى ﷺ لثابت فمات شهيداً في خير المواطن يوم اليمامة.

أسمعت يا أخي.. وهل عرفت من كل هذا أن من واجب كُتَّابنا وخطبائنا وشعرائنا ومؤلفينا أن يتأدبوا مع رسول الله ﷺ.. اللَّهم ألهمنا حسن الأدب.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ٨ في ٤ ربيع أول ١٣٥٤ / ٤ يونيو ١٩٣٥م.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾

تحدثت إليك في الآية السابقة عما أدَّب الله به المسلمين في مخاطبة نبيهم ﷺ والتحدث في حضرته ، وسنتدارس الآن هذه الآية الكريمة على الأساس السابق ، فاسمع والله ولي توفيقي وتوفيقك.

الحجرات: جمع حجرة وهي الغرفة وليس في الآيات ألفاظ تحتاج إلى بيان.

■ ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة

وارتباط هذه الآية بالآيات السابقة واضح ، فإنما كانت تلك بياناً لواجب الصغير في خطاب الكبير في الحديث والقول ، وهذه بيان لما يجب أن يتأدب به الناس مع أئمتهم وعلمائهم في الاستئذان عليهم وطلب لقائهم.

■ سبب النزول

وسبب نزول الآية أنه لما قدمت على رسول الله ﷺ وفود العرب ، قدم عليه عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي في أشراف بني تميم منهم الأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر التميمي ـ أحد بني سعد ـ وعمرو بن الأهتم ، والحتحات بن يزيد ، ونعيم بن يزيد وقيس بن الحارث ، وقيس بن عاصم أخو بني سعد في وفد عظيم من بني تميم. قال ابن اسحاق: ومعهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، وقد كان الأقرع بن حابس وعيينة شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنين والطائف ، فلما قدم وفد بني تميم كانا معهم ، ولما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أن أخرج إلينا يا محمد. فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك ، فأْذن لشاعرنا وخطيبنا ،

قال: «قد أذنت لخطيبكم فليقل» فقام عطارد بن حاجب فقال: الحمد للَّه الذي له علينا الفضل والمن وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزة أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة ، فمن مثلنا في الناس ، ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم ، فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ولكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك ، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا وأمر افضل من أمرنا ثم جلس. فقال رسول اللَّه ﷺ لثابت بن قيس بن شماس أخي بني الحارث بن الخزرج: «قم فأجب الرجل في خطبته» فقام ثابت فقال: الحمد للَّه الذي السماوات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، وَوَسع كرسيه علمه ولم يك شئ قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خيرته رسولاً اكرمه نسباً وأصدقه حديثاً وافضله حسباً ، فأنزل عليه كتاباً وائتمنه على خلقه فكان خيرة اللَّه من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن برسول اللَّه ﷺ المهاجرون من قومه وذوي رحمه أكرم الناس أحساباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعَالاً ، ثم كان أول الخلق إجابة واستجاب للَّه حين دعاه رسول اللَّه ﷺ نحن ، فنحن أنصار اللَّه ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا ، فمن آمن باللَّه ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في اللَّه أبداً وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولي هذا وأستغفر اللَّه لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم.

فقام الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع

نحن يطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس الفزع

بما ترى الناس تأتينا سَراتُهم ... من كل أرض هويا ثم نصطنع

فننحر الكَوْمَ عَبْطاً في أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

فما ترانا إلى حي نفاخرهم إلا استفادوا وكانوا الرأس تقتطع

فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه فيرجع القوم والأخبار تستمع

إنَّا أَبيْنَا ولم يأبى لنا أحد إنا كذلك عند الفخر نرتفع

قال ابن إسحاق: وكان حسان بن ثابت غائباً فبعث إليه رسول اللَّه ﷺ ، قال: فلما انتهيت إلى رسول اللَّه ﷺ وقام شاعر القوم فقال ما قال أعرضت في قوله وقلت على نحو ما قال ، فلما فرغ الزبرقان قال رسول اللَّه ﷺ لحسان بن ثابت: «قم يا حسان فأجب فيما قال» فقال حسان:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق ـ فاعلم ـ شرها البدع

إن كان في الناس سباقون بعدهمُ فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا

إن سابقوا الناس يوماً فاز سبقهم أو وازنوا أهل مجد بالندى منعوا

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطمعون ولا يرديهم طمع

لا يبخلون على جار بفضلهم ولا يمسهم من مطمع طبع

إذا نصبنا لحي لم ندب لهم كما يدب إلى الوحشية الذرع

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

لا يفخرون إذا نالوا عدوهمُ وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع

كأنهم في الوغى والموت مكتنع أسد بحلية في أرساغها فدع

خذ منهم ما أتوا عفوا إذا غضبوا ولا يكن همك الأمر الذي منعوا

فإن في حربهم ـ فاترك عداوتهم ـ شراً يخاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفاوتت الأهواء والشيع
أهدي لهم مدحتي قلب يؤازره فيما أحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم أن جد في الناس جد القول أو سمعوا

وقال ابن هشام: وأخبرني بعض أهل العلم بالشعر من بني تميم أن الزبرقان لما قدم علي رسول الله ﷺ فى وفد بني تميم فقال:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا إذا اختلفوا عند احتضار المواسم
بأنّا فروع الناس في كل موطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وأنا نذود المعلمين إذا انتخوا ونضرب رأس الأصيد المتفاقم
وإن لنا المرباع في كل غارة تغير بنجد أو بأرض الأعاجم

قال: فقام حسان فأجابه فقال:

هل المجد إلا السؤدد العود والندى وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وأوينا النبي محمداً على أنف راض من معد وراغم
بحي حريد أصله وثراؤه بجابية الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حل بين بيوتنا بأسيافنا من كل باغ وظالم
جعلنا بنينا دونه وبناتنا وطبنا له نفساً بفئ المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا على دينه بالمرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها ولدنا نبي الخير من آل هاشم
بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالاً عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول من بين ظئر وخادم

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

فلا تجعلوا للّه نداً وأسلموا ... ولا تلبسوا زياً كزي الأعاجم

قال ابن إسحاق: فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس: وأَبى إن هذا لَمُؤتي له ، لخَطيبه أَخَطَبُ من خطيبنا ، ولَشَاعرُهُ أَشْعَرُ من شاعرنا ، ولأَصواتُهم أعلى من أصواتنا ، قال: فلما فرغ القوم أسلموا ، وجَوَّزهم رسولُ اللَّه ﷺ فأحسن جوائزَهم ، وكان عمرو بن الأهتم قد خلَّفه القوم في رحالهم وكان أصغرهم سناً ، فقال قيس بن عاصم - وكان يبغض عمرو بن الأهتم -: يا رسول اللَّه ﷺ كان رجلٌ منا في رحالنا وهو غلام حدث وأزري به ، فأعطاه رسولُ اللَّه ﷺ مثلَ ما أعطى القوم ، قال عمرو بن الأهتم حين بلغه أن قيساً قال ذلك يهجوه:

ظللت مفترش الهلباء تشتمني ... عند الرسول فلم تصدق ولم تصب

سُدْناكم سؤدداً رَهْواً وسؤددكم ... باد نواجذُه مُقْعٍ على الذنَب

قال ابن إسحاق: ونزل فيهم من القرآن قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾. قال ابن جرير: حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث المروزي حدثنا الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد عن أبي اسحاق عن البراء في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ قال: جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا محمدُ إن حمدي زَينٌ ، وذَمّي شَينٌ. فقال: «ذاك اللَّه عز وجل». (وهذا إسناد جيد متصل). وقد رُوى عن الحسن البصري وقتادة مرسلاً عنهما ، وقد وقع تسمية هذا الرجل فقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا موسى بن عقبة عن أبي سلمة عن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس أنه نادى رسولَ اللَّه ﷺ فقال: يا محمد يا محمد - وفي رواية يا رسول اللَّه ﷺ - فلم يجبه ، فقال: يا رسول اللَّه إن حمدي لزَينٌ ، وإن ذَمّي لَشين. فقال: «ذاك اللَّه عز وجل».

ومعنى الآية على هذا واضح فإنما هي تعليمٌ للأمة أن تتخلق: بالصبر والأناة والرفق والحلم وألاَّ تَشُقَّ على الرؤساء في الحديث واللقاء ، فإن الرئيسَ كثيرُ المشاغل عظيمُ المهام لا يتسع وقته لها جميعاً ولا يمكن أن يكون وقته موزعاً وفق أهواء الناس ومطالبهم ، فعليهم أن يَدَعوا له وقته ليصرفه فيما يراه خيراً لجماعته ولا يتألموا من ذلك ولا يظنوا به الظنون ، فإنما تلك ضرورة من ضرورات تنظيم الأعمال لا بد من النزول على حكمها حتى لا تفوت المصالح باضطراب الأوقات وخلل نظامها.

∴

والذي نستفيده من هذه الآيات الكريمة بعد ما تقدم من بيان معناها هذا الأسلوب الرائع الجميل المثمر في التربية والتأديب .. يعلم المؤدب ذنب المذنب فيصارحه به في حزم وعزم ويعرفه إياه حتى يكون على بينة منه .. ويبين له بعد ذلك آثار هذا الذنب ونتائجه حتى يعلم خطرها ويستشعر ضررها .. ثم يرشده بعد ذلك إلى ما كان يجب أن يفعل حتى يسير على هذا المنهج فيما بعد .. ثم يظهر له الرفق والرحمة واللين والعطف ، حتى يتقبل بذلك النصيحة وحتى تبرز إليه في ثوب الإرشاد لا في ثوب الانتقام ، إلا أن يكون مدمناً على الإجرام فذلك له طريق آخر، فقوله تعالى: ﴿ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ بيان لذنبهم ، وقوله: ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ توبيخ وبيان لنتائج هذا العمل ، وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا ﴾ تعليم لما يجب أن يكون ، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لطف بهم ورحمة ، الا فليأخذ من هذا المربون كيف يُقَوِّمون الأخلاقَ ويُصلِحون النفوسَ ، ونعم المعلم كتاب اللّه.

واعلم يا أخي أن السلف ـ رضوان اللّه عليهم ـ على عادتهم أخذوا بهذا الأدب وعملوا به على سنتهم في اتباع أمر اللّه ورسوله ﷺ:

١. نقل عن أبي عبيد وعن القاسم بن سلام قال كل منهما: ما دَقَقْتُ باباً على عالم حتى يخرج في وقت خروجه.

٢. وروى عن ابن عباس أنه كان يذهب إلى أُبيّ في بيته يأخذ عنه القرآن فيقف عند الباب ولا يدق الباب عليه حتى يخرج، فاستعظم ذلك أُبيّ منه فقال له يوماً: هلا دققتَ الباب يابن عباس، فقال: العالم في قومه كالنبي في أمته، وقد قال الله تبارك وتعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾.

يا أخي: أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. (*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ٩ في ٤ ربيع أول ١٣٥٤ هـ/ ١١ يونيو ١٩٣٥م.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) ﴾

الفسق: الخروج عن طاعة الله تبارك وتعالى.

العنت: دخول المشقة على الإنسان وهو الفساد والهلاك وما في هذا المعنى.

■ **سبب النزول**

وأكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق وعلى رأسهم الحارث بن ضرار والد أم المؤمنين السيدة ميمونة بنت الحارث ، وحجتهم في ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلْتُ فيه وأقرَرْت به ، ودعاني إلى الزكاة فأَقْرَرْتُ بها ، وقلت يا رسول الله: أرجع اليوم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته وَتُرْسل إليَّ يا رسول الله رسولاً إبَّان كذا وكذا (أي وقت كذا) ليأتيك بما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبَّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ولم يأته ، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقَّت لي وقتاً يرسل إليَّ رسولَه ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله الخُلْفُ ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمعه من الزكاة ، فما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق ، فَرَق (أي: خاف) فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله: إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه.

وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث (أي: الجيش الذي بعثه الرسول ﷺ ليحاربه على منعه الزكاة) وفصل عن المدينة قالوا: هذا الحارث ، فلما غشيهم قال: إلى من بُعثتم ؟ قالوا: إليك ، قال: ولم ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته من الزكاة وأردت قتله ، فقال رضي الله عنه: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني ، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «مَنعْتَ الزكاةَ وأردْتَ قَتْلَ رسولي» قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول الله ﷺ خشيت أن تكون سخطة من الله تعالى ورسوله ، قال: فنزلت الحجرات ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾.

ورُوى هذا الأثر على هذا الوجه من طرق كثيرة ، ورواه ابن جرير الطبري بنحوه وزاد فيه أن الوليد وصل إليهم فَسَرُّوا به وَهشُّوا له واجتمعوا حوله ولكن خَيَّل إليه الشيطان أنهم يتآمرون بقتله فانقلب راجعاً وقال ما قال. هذا ما ذكره أكثر المفسرين في سبب نزول الآية على هذا الوجه.

وعليه تكون الآية إرشاداً للرسول ﷺ وللمؤمنين معه أن يتبينوا في مثل هذه الأنباء حتى يتأكدوا من صحتها.

وهناك رواية أخرى في سبب النزول هي ما أخرجه عبد بن حميد عن الحسن قال: أتى النبي ﷺ (هكذا بدون ذكر الآتي) فقال: يا نبي الله إن بني فلان حياً من أحياء العرب - وكان في نفسه عليهم شئ ، وكان حديث عهد بالإسلام - قد تركوا الصلاة وارتدوا وكفروا بالله تعالى ، فلم يَعْجَل رسول الله ﷺ ودعا خالد بن الوليد

فبعثه إليهم ثم قال: «أرمقهم عند الصلوات فإن كان القوم قد تركوا الصلاة فشأنك بهم وإلا فلا تعجل عليهم».. فَدَنا منهم بعد غروب الشمس فَكَمن حتى يسمع الصلاة ، فرمقهم فإذا هو بالمؤذن قد قام عند غروب الشمس فأذَّن ثم أقام الصلاة فصلوا صلاة المغرب ، فقال خالد: ما أراهم إلا يُصلُّون فلعلهم تركوا صلاة غير هذه.. ثم كَمَن حتى إذا جنح الليل وغاب الشفق أَذَّنَ مؤذنهم فصلُّوا ، فقال: لعلهم تركوا صلاة أخرى.. فَكَمن حتى إذا كان في جوف الليل حتى أَطلع الخيل بدورهم ، فإذا القوم قد تعلموا شيئاً من القرآن فهم يتهجدون به من الليل ويقرأونه ثم أتاهم الصبح فإذا المؤذِّن حين طلع الفجر قد أذَّن وأقام فقاموا وصلُّوا.. فلما انصرفوا وأضاء لهم النهار إذا هم بنواصي الخيل في ديارهم فقالوا: ما هذا؟ قالوا: خالد بن الوليد ، قالوا: يا خالد ما شأنك ؟ قال: أنتم والله شأني أُتِىَ النبيُّ ﷺ فقيل له أنكم تركتم الصلاة وكفرتم بالله تعالى ، فَجَثوا يبكون فقالوا: نعوذ بالله تعالى أن نكفر أبداً ، فصرف الخيل وردَّها عنهم حتى أتي النبيَّ ﷺ وأنزل الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ ﴾ الآية.

وعلى هذا تكون الآية تقريراً من الله تبارك وتعالى لفعل النبي ﷺ وإرشاداً للمؤمنين أن يقتدوا به ﷺ في هذا الخلق الفاضل خلق التثبُّت والتبَيُّن قبل البتّ والقطع ، وهذا السياق فضلاً عما فيه من هذه اللطيفة هو المتسق مع نظم القرآن الكريم في الآيات التالية المتممة للموضوع ، وإن كانت الرواية الأولى أشهر وأعرف عند جمهور المفسرين.

وعندي أنه ليس ما يمنع من أن تكون الثانية متممة للأولى ، بأن يكون الرسول ﷺ قد أرسل الوليد بن عقبة وفقاً للرواية الأولى فلما خاف وعاد وكان منه ومن القوم ما كان وَشَي بهم إلى الرسول ﷺ فأرسل إليهم الرسول ﷺ خالداً وأوصاه بالتبين وفقاً للرواية الثانية ، وبذلك يجمع بين الروايتين ولا سيما ورئيس البعث في كليهما خالد

والسبب فيهما واحد والواشي مجهول في الثانية مذكور في الأولى ، ومهما يكن فقد عرفت أن السبب أن واشياً وشي بقوم إلى رسول الله ﷺ فأرشد الله عباده إلى ما يجب أن يكون في مثل هذه القضية.

ومعنى الآية الكريمة على هذا: يأيها الذين آمنتم وصدَّقتم بكتاب الإسلام ورسول الإسلام ليكن شأنكم إذا نُقلت إليكم الأخبار والأنباء أن تتأكدوا من صحتها وتتبينوا حقيقة شأنها ولا تأخذوها على علاَّتها فقد يؤدي ذلك إلى عمل غير محكم يؤدي إلى الندم.

فعليهم أن يُقلِّبوا الأمور على وجوهها ويَزِنُوها بميزان العقل والحكمة والتبصر ، ثم بين لهم تبارك وتعالى بعد ذلك أن بين ظهرانيهم ميزاناً آخر عليهم أن يزنوا به هذه الأمور فيرجعوا إلى أمره وينزلوا عند حكمه ، ذلكم هو الوحي والرسول ﷺ فإذا كانت القاعدة العامة في إدراك حقائق الأشياء أن تلمسها بنور العقل ، فليعلم المؤمنون أن بين ظهرانيهم طريقاً آخر لإدراك هذه الحقائق هو الرسول ﷺ الذي ينزل عليه أمر الله ووحيه ، فعليهم أن يطيعوه وأن يرجعوا إلى رأيه في مثل هذه الشئون ، ولو أنه ﷺ أطاعهم ونزل على رأيهم ـ وهم لم يتبينوا في كثير من الشئون حقيقتها ـ لأصابهم من ذلك جهد ومشقة ولكن الله تبارك وتعالى حبَّب الإيمان والتصديق والتفويض والتسليم لرسول الله ﷺ إلى نفوس المؤمنين وزيَّنه في قلوبهم وبغَّض إليهم الخروج على رسوله ﷺ ودينه القويم ، سواء كان ذلك الخروج كفراً وهو أشد المعاداة للدين ، أو فسقاً وهو المخالفة في الكبائر، أو عصياناً وهو مطلق المخالفة ، فقد تدرج من الكبير إلى الصغير ، فكأن المخالفة بكل أنواعها بغَّضها الله إلى المؤمنين وهم بذلك في رشاد وهدى ، فضلاً من الله تفضَّل به عليهم ، ومنَّة قدَّمها إليهم ، وهو عليم بجميع شئونهم حكيم في منحهم فضله ومِنَّته. وإذ كان هذا هو شأن المؤمنين ، فعليكم يا أصحاب محمد ﷺ ويا من جاء بعدهم أن تكونوا على هذا الوصف حتى تكونوا من الراشدين الفائزين بفضل الله ومنته.

ونستطيع أن نستفيد من الآية الكريمة هذه الأحكام جميعاً وفوق كل ذي علم عليم:

١. أن النميمة والوشاية وتَقوُّل الوقائع الكاذبة على الناس بغير حقيقة نوع من أنواع الفسق ، يَدمَغُ صاحبه بوصف من أوصاف العار، ويجعله بعد أن كان طائعاً فاسقاً، فهو عمل من أكبر الكبائر، ومن علامات الكبائر في الدين أن يَرد فيه وعيداً ويوصف بوصف كهذا الوصف المقيت البغيض.

٢. أن من واجب المؤمنين أمام هذه الأخبار أن يتثبَّتوا من صحتها والا يعملوا بها حتى تثبُت لديهم ، فإن الواشين هم آفة الصلات ، وهم الذين يشقون العصا ولا يتركون أديم صحبه ، وما تهدمت الروابط ولا انقطعت الأواصر ولا تحركت فتنة نائمة إلا وكان سبب ذلك فرْيةٌ منقولة أو وشايةٌ متقوَّلة. ولقد وشي بعضُهم برجل إلى أمير المؤمنين عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ فقال للواشي: يا هذا إن شئتَ جمعْنا بينك وبين الرجل فنظرنا صِدْقَ ما جئتَ به ، وإنْ شئتَ أقلْناك ولا تَعُدْ ، فقال: أَقلْني أقالكَ اللّهُ يا أميرَ المؤمنين ، فتركه فقام يجر أذياله خجلاً. وَوشَي بعضُهم بصاحب له إلى أحد الخلفاء فلما جمع بينهما تَمَثَّل المُوشَي به بقول القائل:

وأنت امرؤٌ إمّا ائتمنتُك صادقاً ... فخنتَ وإما قلتَ قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا ... بمنزلة بين الخيانة والإثم

ثم قال: يا أمير المؤمنين أما إن كان صادقاً فقد خانَ الأمانة وأفشى السرَّ، وإن كان كاذباً فقد افترى. وقد سمى اللّهُ الناقلَ فاسقاً ، فما كان الحق ليصفه بالفسق ويكون قوله عند أمير المؤمنين حجة ، فوبَّخ الخليفة النمام ولم يأخذ بقوله ، فمن أدب الإسلام الا يشجع المسلمون المتقوِّلين بل عليهم أن يتأكدوا قبل أن يقدموا.

٣. أن من واجب المؤمنين أن يرجعوا إلى قول الله ورسوله ﷺ وأن يجعلوا قواعدالإسلام في كل شأنهم هي الأساس الذي تدور عليه تصرفاتهم فإنها من وضع الحكيم العليم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وهم إذا فعلوا

ذلك فقد رشدوا وصاروا في عداد المؤمنين الذين تفضل الله عليهم بنعمة الإيمان الكامل وامتنَّ عليهم بحلاوتها وزين قلوبهم بأنوارها وهنا مسألتان:

أ . هل التبيّن والتثبّت واجب أمام خبر الفاسق الذي عُرف فسقه قبل النقل أم هو واجب مطلقاً ولا يثبت وصف الفسق للناقل إلا بعد ثبوت كذبه وافترائه ؟ والذي يمكن أن نستفيده من الآية الكريمة أن التثبت واجب أمام خبر الفاسق الذي عرف بالفسق قبل النقل وجوباً مؤكداً.

وواجب أمام الإخبار مطلقاً وجوب احتياط ، وأن الوصف لا يثبت مع نقل إلا بأحد أمرين: إما أن يقصد الإفساد بنقله هذا ـ ولو كان صحيحاً ـ وإما أن يثبت كذبه.

ب . وهل يستدل بهذه الآية الكريمة على أن من الصحابة ﷺ من ليس بعَدْل..؟ في هذه المسألة أقوال كثيرة لا نفيض ذكرها ولكنا نجمل ونقف مع الآية الكريمة فنقول: إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ليسوا بمعصومين عن الوقوع في الخطأ، وهذه الآية تدل على أن واحداً منهم ارتكب خطأ وأذنب ، ولكنهم مع هذا أقرب الناس إلى التوبة وأرجاهم قبولاً عند الله تبارك وتعالى ، والتوبة النصوح تمحو ما قبلها ، فلئن كان الناقل فاسقاً حين النقل فهو عدل بعد التوبة النصوح ، وأنت عليم أن ماعزاً ﷺ قد ارتكب وزراً عظيماً وهو جريمة الزنا ولكنه بعد ذلك تاب توبة لو قُسِمت على أهل الأرض لَوسعَتْهُم بشهادة رسول الله ﷺ ، وأن حاطب بن أبي بلتعة نقل إلي الكفار بعض أنباء الرسول ﷺ ثم صرَّح رسول الله ﷺ بعد اعتذاره بأن الله عفا عنه وغفر له ، وهؤلاء الثلاثة المُخَلَّفون من خيار الأنصار تخلّفوا في ساعة العسرة ثم نزل القرآن بتوبة الله عليهم توبةً خلّدها لهم القرآنُ ما دامت السماوات والأرض ، فليس في الآية ما يدل على تَنقُّص قَدْرهمَ رضوان الله عليهمَ وهم مصابيح هذه الأمة ومفاتيح الخير لها رضي الله عنهم وغفر لنا ولهم. وقد ورد أن رسول الله ﷺ حين نزلت الآية قال: «التَّبَيّن من الله والعجلة من الشيطان».

فتمسكْ بهذا الخلق الفاضل.. وخُذْ في كل أمر بالتثبت والأناة والرفق واللين يعصمْك اللهُ من الزلل وهو حسبنا ونعم الوكيل.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ١٠ في ١٧ ربيع أول ١٣٥٤ هـ/ ١٨ يونيو ١٩٣٥م.

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾

الطائفة: الجماعة والفئة من الناس.

البغي: الظلم والعدوان.

الفيء: الرجوع والامتثال.

القسط: العدل والإنصاف.

■ **سبب النزول**

سبب نزول هذه الآية خلاف وقع بين الأوس والخزرج ـ رضي الله عنهم ـ جميعاً أو هو بين جماعتين من الأنصار مطلقاً. روي البخاري في كتاب الصلح عن مسدد وروى نحوه في مسلم في كتاب المغازي عن عبد الأعلى وروى الإمام أحمد في مسنده عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ لو أتيتَ عبدالله بن أُبيٍّ ، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون ـ وهي أرض سبخة ـ فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال: إليك عني فوالله لقد آذاني ريحُ حمارك ، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحاً منك ، قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وفي بعض روايات هذا الحديث أن رسول الله ﷺ ما كان زائراً لعبد الله بن أُبيٍّ ولكنه كان يعود مريضاً فمر به فقال ما قال ، فكان ما كان ، وفي بعض الروايات أيضاً تصريح باسم الرجل الذي انتصر لنبي الله ﷺ وهو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال ولم يذكر سببه فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمره أن يصلح بينهما.

وقال السدي: أن رجلاً من الأنصار اسمه عمران كانت له امرأة تدعى أم زيد، وأن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في مكان عال له لا يدخل عليها أحد من أهلها، وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وأن الرجل كان قد خرج فاستعان أهل الرجل فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآية، فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله.

∴

ذلك مجمل ما ذكر في أسباب نزول الآية الكريمة، وها أنت ترى أن سببها أن قوماً اختلفوا فبين الله تبارك وتعالى موقف بقية المؤمنين من الفئتين المختلفتين بهذه الآية الكريمة ويتلخص هذا الموقف فيما يأتي:

أولاً: أن المؤمن قد أعطاه الله حقاً عليه أن يستخدمه ويقوم بواجبه، هذا الحق هو أن يكون داعية السلام ونصير الحق في أي موطن وفي أي وقت، فمن واجب المسلم الديني على هذا أن يكون دائماً مصدر توفيق وهداية وأمن وسلام، وأن يعمل لذلك ما استطاع إليه سبيلاً، وأن من واجبه كذلك إذا أبى الناس عليه الحق الأول أن يستخدم القوة حتى يعود الحق إلى نصابه، فالإسلام لا يرضى للمسلم بهذا الموقف السلبي أمام حق يُغتصب ولو من غيره، وباطل يَطْغى ولو على سواه، وسلام تعبث به المطامع وإن كان ذلك بعيداً عنه، بل عليه أن يعمل للخير في ذاته وإن كان خيراً للجماعة لا لشخصه.

ثانياً: أن من واجب المسلم في مثل هذا الموقف أن يتقدم بالنصيحة أولاً وأن يُبَيِّن الحقائق بالدليل والبرهان وأن يزيل ما عساه أن يكون من شبهة بين الفريقين.

ثالثاً: أن الأساس الذي يجب أن يدعو إليه المصلح ويرجع إليه المتخاصمان محدود معروف واضح هو حكم الله وأمره من غير أن تحرِّفه الأهواء أو تعطله الغايات والأغراض، فذلك هو الدستور الذي لا يُقدح فيه ولا يخرج على حكمه إلا كل معتد أثيم.

رابعاً: أن من حق المسلم إذا أهملت الفئة القوية الباغية هذا الأساس أن ينضم إلى الفئة الأخرى فيكون في صَفِّها حتى تنتصف ويرتدَّ عنها عدوان المفسدين وحَيفُ الظالمين، فإن أبت الفئتان جميعاً النزول على حكم الله، فهما خارجان فمن واجبه أن يردهما جميعاً إلى الحق وأن يقف منهما موقف الخصومة حتى يَخضدَ شوكتهما ويفلَّ عزمهما ويضعف قوتهما ويرجعا إلى حكم الله، فإن الحق لا يرهب صولة أحد ولا يدخر المؤمنون في سبيل نصرته نفساً أو مالاً وإنما يعيش المسلم في هذه الحياة بالحق للحق.

خامساً: إذا رجعت الفئتان إلى حكم الله فمن واجب المحكَّمين أن يتحروا العدل والقسط والإنصاف وألاَّ يجوروا في حكم أو يظلموا في قضية أو يتأثروا بهوى، فإن الحق أحق أن يتبع ولن يجتمع الحق والهوى في قرن، والله يحب المقسطين العادلين الذين لا يتأثرون في حكمهم ولا يهضمون العدل في قضاياهم.

واعلم - يا أخي - أن المخاطبَ بهذا الخطاب في الأمة الكريمة هم المؤمنون جميعاً، فكل مسلم مكلف كفرد بإنفاذ مضمون هذه الآية تحقيقاً لمدلولات القرآن الكريم وأوامره ونصوصه، ولكن كيفية هذا التنفيذ تختلف باختلاف البيئات والظروف وطبائع الأشياء .. فإذا كان الخلاف بين أفراد الأسرة فَوَلِّي أمرها وراعيها وجيرانها ومعارفها مخاطبون بهذه الآية الكريمة وعليهم إنفاذها، فإن لم ينفذها أفراد الأسرة رفعوا أمرهم إلى من يستطيع إلزامهم الحق وساعدوا ما استطاعوا على أن يعود الحق إلى نصابه بكل الوسائل الممكنة لهم.. وإذا كان الخلاف بين أفراد القرية أو البلد كان ذلك واجب الرؤساء والوجهاء وذوو الرأي والمكانة فيهم.. وإذا كان

بين أفراد الأمة وهيئاتها كان ذلك واجب الإمام وهو الحاكم العام للمسلمين سواء كان خليفة أو ملكاً أوأميراً وعليه أن يستخدم في ذلك الجيش الإسلامي ويكون من يجاهد البغاة في تلك المواقف بسبب بغيهم مجاهداً في سبيل اللّه ، وهكذا ترى دائرة التنفيذ تتسع وتضيق بحسب حدود الخلاف وأقطاره.

وأظنك عرفت من هذا أن القرآن الكريم وهو دستور العالم الشامل الكامل ، وقد وضع بهذه الآية الكريمة نظام التحكيم (بروتوكول التحكيم) قبل أن يفكر الغربيون في عصبة الأمم بأكثر من ألف عام ، وأظنك عرفت أيضاً أن الآية قد أحاطت هذا النظام بسياج من العدالة والقداسة جعلته للحق وحده ، على حين نرى التحكيم كلمة حق يُراد بها باطل ، ووسيلة كل ما يُقصد من ورائها تَلمُّس الحيل ليصطبغ عدوان القوي على الضعيف بصبغة يقولون إنها شرعية.

∴

وقد قررت الآية الكريمة للمسلمين عدة مبادئ من أسمى المبادئ الاجتماعية وأعظمها نفعاً للأمم والشعوب منها:

أولاً: وجوب وحدة الأمة والعمل على سلامة هذه الوحدة وصيانتها من العبث والبغي وفي ذلك يقول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ آل عمران: ١٠٣.

ثانياً: وجوب إصلاح ذات البَين ، وهو خلق شريف وعمل فاضل حث عليه الإسلام ورفع من قدره الكتاب والسنة ، يقول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾ النساء ، ويقول رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟» قالوا: بلى ، قال: «إصلاح ذات البَين فإن فساد ذات البين هي الحالقة». وزيد في رواية: «لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين». (والحديث رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه وقال الترمذي حسن صحيح). وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال لأبي أيوب: «ألا أدلُّك على تجارة ؟» قال: بلى ، قال: «صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا وقرِّب بينهم إذا تباعدوا». (رواه البزار والطبراني). والآثار في ذلك أكثر من أن تحصر.

ثالثاً: الانتصار للمظلوم حتى ينال حقه وهذا خلق إذا نما في الأمة علَّمها العزة ورفع عنها الذلة وزادها ارتباطاً وحباً وأخوة وقرباً ، وقد حثَّ عليه كذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة ، فقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾ الشورى . وفي الحديث الشريف عن جابر وأبي طلحة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يخذل امرءاً مسلماً في موضع تُنتهك فيه حرمته ويُنتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يُحبُّ فيه نُصرَته ، وما من امرئ يَنصر مسلماً في موضع يُنْتَقَصُ فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته». (رواه أبو داود).

رابعاً: وجوب تغيير العدوان وإقامة العدل مهما كانت العوائق في سبيل ذلك ، وفي الحديث: «لا تقدس أمة لا يقضي فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع». (رواه الطبراني ورواته ثقات ورواه البزار).

ومن أروع المُثُل النبوية الشريفة في هذا المعنى ما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فاصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها ، فكان الذين

في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنّا خَرَقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً». (رواه البخارى).

وبعد .. فهذه بعض المبادئ السامية التي أشارت إليها آية واحدة من كتاب الله ، فهل تطمع أمة تتعشق الكمال في أروع من هذا السمو.. ؟ اللَّهم لا .(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ١١ في ٢٤ ربيع أول ١٣٥٤ هـ/ ٢٥ يونيو ١٩٣٥م.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾

بعد أن ألزم الحق تبارك وتعالى المؤمنين أن يقيموا قسطاس العدل ويحافظوا على وحدة الأمة الإسلامية ، أرشدهم من طريق آخر إلى معنى ثان يوجب المحافظة على هذه الوحدة والعمل على سلامتها ، ذلك المعنى هو الصلة التي ربط بها الإسلام بين قلوبهم وهي أخوة الإيمان.

والعقيدة - يا أخي - أقوى الروابط بين الناس إذا سلمت وصَحَّت وقَوِيت في نفس صاحبها ، ومنشأ ذلك ان صاحب العقيدة القوية يرى نفسه مفرداً بسبب هذه العقيدة عن الناس ، وحيداً بينهم غريباً فيهم ، فهو في مسيس الحاجة إلى من تسكن إليه نفسه ويأنس به قلبه ويشتد به أزره ، وليس في ذلك إلا رجل اعتقد مثل عقيدته وآمن بمثل ما آمن به ، هنالك يلتئم الروحان ويتحد القلبان وتسكن ثائرة النفس ويستشعر كلٌ منهما روح الأنس ويود أحدهما لو يفتدي الآخر بالدنيا وما فيها ، وما قيمة الدنيا وما فيها إذا خلت من أنيس يرتاح إليه القلب وتسكن معه النفس ، هذا هو منشأ الوحدة والارتباط في نفوس أهل العقيدة الواحدة والمبدأ المتَّفِق.

وإنك لترى بين الناس روابط كثيرة من نَسَبية وعصبية وصداقة ومعرفة واشتراك في تجارة أو مصلحة أو غاية مما يرتبط بهذه الأغراض الزائلة ، فترى كل هذه الروابط سريعة الزوال وشيكة الانحلال على حين ترى أهل العقيدة الواحدة على قلب واحد وشعور واحد ، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ التوبة: ٧١ ، على حين وصف المنافقين وهم الذين تذبذبت عقائدهم واضطرب ميزان إيمانهم بقوله: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ الحشر: ١٤.

وهناك معنى آخر من معاني توحيد العقيدة بين قلوب أبنائها الذين أخلصوا لها ، ذلك أن كلاً منهم قد فني فيها وامتزج بها فصار جزءاً منها وصارت جزءاً منه فهم جميعاً يفتدونها ، وهم جميعاً يفتدي كل منهم الآخر ، لأن افتداءه إياه افتداء للعقيدة نفسها ، وذلك تعبير قد لا يراه واضحاً إلا مؤمن غرَّبته عقيدته بين الناس ، فرأى كيف يسعد بمن يجد ممن على شاكلته ، وكيف يلذ له أن يفتديهم بنفسه معتقداً أن في ذلك خدمةً جُلَّى لعقيدته.

∴

هذا الارتباط بين أبناء العقيدة الواحدة هو الذي جعل من الصفوف الإسلامية الأولي كتلة متراصة يتجلى عليها الحق تبارك وتعالى بمحبته ويصفها بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ الصف ، وهذا الارتباط هو الذي جعل كل أنصارى يحرص على أخ مهاجر لم يتصل به من قبل ولم يعرف عنه شيئاً إلا أنه أخوه في العقيدة حتى روى البخاري: «ما نزل مهاجرٌ على أنصاريٍّ إلا بقرعة». وحتى خَلَّدَ اللَّه هذه المنقبة للأنصار بالآية الكريمة: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحشر.

وبإزاء هذا الارتباط ترى التنابز والخلاف بين أبناء العقائد المتباعدة حتى إن كثيراً من الناس من ضحى بأهله ونازلهم وجالدهم ونال منهم في سبيل عقيدته ، وهل الإيمان إلا الحب والبغض ؟ هذا أبو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة رضي الله عنه يقتل أباه في سبيل اللَّه ، واللَّه تبارك وتعالى يقول: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ الممتحنة: ٤، ثم حكى

الحق تبارك وتعالى عن إبراهيم أنه حين تَبَيَّن له أن أباه عدو للَّه تبرأ منه ، هذا إيمان صادق قوي لا خداع فيه ولا تذبذب وإنما يعيش المؤمنون بقلوبهم وعقائدهم ، فاللَّهم ارزقنا صدق الإيمان.

∴

واعلمَ ـ يا أخي ـ أن رسول اللَّه ﷺ أرشدنا في أكثر من حديث إلى جليل قدر الإخوة الإسلامية وصوَّرها لنا في أكثر من حديث أروع تصوير وأَدقَّه ، وإليك بعض ذلك وكله في الصحيح:

١ . «مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

٢ . «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبَّك بين أصابعه ﷺ».

٣ . «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس». وهذا حديث انفرد به أحمد ولا بأس بإسناده.

ثم إن الحق تبارك وتعالى أكد بهذه الآية ما أرشد المسلمين إليه في التي قبلها من وجوب السعي بالصلح بين المختلفين منهم فقال تبارك وتعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الحجرات.

فَشُدَّ يدك ـ يا أخي ـ على إخوة أهل الإيمان وسنبين بعض حقوق هذه الأخوة فيما يلي إن شاء اللَّه.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ١٢ في غرة ربيع ثاني ١٣٥٤هـ / ٢ يوليو ١٩٣٥م.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾

■ سبب النزول

قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس بن الشماس ، وذلك أنه كان في أذنه وَقْرٌ فكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول ، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر ، فلما انصرف النبى ﷺ من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم فَضَنَّ كل رجل بمجلسه فلا يكاد يوسع أحدٌ لأحد ، فكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلساً يجلس فيه قام قائماً كما هو ، فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا ، فقال له رجل: قد أصبت مجلساً فاجلس فجلس ثابت خلفه مغضباً ، فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال: من هذا ؟ قال: أنا فلان ، فقال له ثابت: ابن فلانة وذكر أماً له يعيره بها في الجاهلية ، فَنَكَّسَ الرجل رأسه واستحيا فأنزل الله هذه الآية.

وقال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذين تقدم ذكرهم في الآية قبلها وقد كانوا يستهزئون بفقراء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مثل عمار وخباب وبلال وصهيب وسالم مولى أبي حذيفة لما رأوا من رثاثة حالهم فأنزل الله تعالى في الذين آمنوا منهم الآية.

ورُوي عن انس انها نزلت في نساء رسول الله ﷺ حين عُيِّرت أم سلمة بالقصَر. فقد رُوي أن عائشة وحفصة ـ رضي الله عنهما ـ رأتا أم سلمة ربطت حقويها بثوب وسدلت طرفه خلفها، فقالت عائشة لحفصة ـ تشير إلى ما تجر أم سلمة خلفها ـ : كأنه لسان كلب فنزلت الآية.

وقد رُوي كذلك أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية لأنها كانت قصيرة فنزلت الآية.

وعن عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي قال لها النساء: يهودية بنت يهوديين فنزلت.

وقيل نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل، كان يمشي بالمدينة فقال له قوم: هذا ابن فرعون هذه الأمة، فَعَزَّ ذلك عليه وشكاهم إلى رسول الله ﷺ فنزلت.

وكل ذلك محتمل جائز وكما أن كل رواية من هذه الروايات تصلح سبباً للنزول فجميعها كذلك يصلح سبباً للنزول.

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي جيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ قال قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت، ورواه كذلك أبوداود من طريق أخرى.

.·.

السخرية: الاحتقار والاستهانة وذكر العيوب والنقائص على وجه فيه تهكم وزراية، وكما تكون بالقول تكون بالمحاكاة والإشارة ونحوها.

القوم: الجماعة من الناس رجالاً ونساء وإطلاقه على الرجال أكثر كما في قول زهير:

وما أدرى ولست أخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

اللمز: العيب ، قيل اللمز بالمقال والهمز بالفعال ، وهما صفتان مذمومتان فقد قال تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١ ﴾ الهمزة.

التنابز بالألقاب: التداعي بالألقاب المكروهة بقصد الإيذاء والنيل من صاحبها سواء كان له شخصياً أو لأسرته أو لأبيه أو لأمه. قال النووي: أجمع العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره سواء كان صفة له أو لأبيه أو لأمه أو غيرهما.

∴

ومعنى الآية الكريمة على هذا أن الله تبارك وتعالى ينهى المؤمنين عن عدة خصال من خصال الشر التي يترتب عليها شق العصا ووقوع البغضاء والكراهية بين الناس وتفريق وحدة المسلمين والقضاء على أخوتهم ومحبتهم. من هذه الخصال: أن يحقّر بعضهم بعضاً سواء أكانوا رجالاً ينتقصون رجالاً أم نساء ينتقصن نساء ، وأن يعيب بعضهم بعضاً بقول أو إشارة أو لقب يغيض إليه أو نحو ذلك ، ثم بيَّن لهم تبارك وتعالى أن ظلمة هذا الشر لا تتفق مع نور الإيمان ، وأن نعمة الأخوة لا تقابل بأسباب القطيعة ، فمن فعل شيئاً من ذلك ثم لم يتب منه فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية وظلموا غيرهم بهذا الأذى.

وكما ورد النهي عن هذه الخصال في الآية الكريمة فقد أكَّد ذلك الرسول ﷺ في عدة أحاديث من أحاديثه الشريفة:

١. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، ويشير إلى صدره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله». (رواه مسلم وغيره).

٢. وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بالتقوى». (رواه أحمد).

٣. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كم من أشعثَ أغبرَ ذي طمْرَين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره». منهم: البراء بن مالك. (رواه الترمذي وقال حديث حسن).

والأحاديث في ذلك كثيرة ، والارتباط بين الآية الكريمة والآيات قبلها واضح ، فإنه تبارك وتعالى حين بيَّن صلة المؤمن بالمؤمن وإنها إخوة فوق أخوة النسب ، أرشد المؤمن إلى حقوق هذه الأخوة وأولها أن يحافظ بعضهم علي كرامة بعض محافظة دقيقة فلا ينتقصها بسخرية ولا لمز ولا نبز.

وأنت إذا أمعنت النظر رأيت أن هذه الثلاثة هي أول أبواب الشر والخصومة بين الناس ، يستهين أحدهم بأخيه فيهزأ منه ويسخر.. ثم يلمزه ويعيبه.. ثم يناديه بلقب يكرهه فتتولد من ذلك كراهية وبغضاء. لهذا أدَّب الله المؤمنين بترك هذه الخصال وسدُّ هذا الباب حتى تظل وحدتهم سليمة وكلمتهم مجتمعة.

واعلم - يا أخي - أن الألقاب المستقبحة إذا جرت مجرى الأعلام ولم يكن صاحبها يتأذى بها لاستملاحها فإن نداءه بها لا يكون نبزاً كما يقال سليمان الأعمش ، والأفضل على كل حال أن يخاطب الإنسانُ الناس بأحب أسمائهم إليهم حتى يعوِّد لسانَه الطيِّبَ من القول ، ثم إن كان ذلك من خلق أحد في الماضي فعليه أن يتوب ويستقبل عهداً جديداً ويتحلل من ذلك باستسماحهم وطلب الصفح منهم إن لم ينجم عن ذلك شر يخشى تطايره ، فإن خشى الشر أقبل على الدعاء لهم والندم على ما كان منه والاستغفار حتى يَمُنَّ الله عليه بالتوبة الصادقة النصوح ، وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية - السنة الثالثة - العدد ١٣ في ٨ ربيع ثاني ١٣٥٤هـ/ ٩ يوليو ١٩٣٥م.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) ﴾

اجتناب الشيء: تركه والبعد عنه.

والظن: التهمة وتوهم الشيء من غير تحقيق ودليل قوى.

والإثم: الذنب.

التجسس: التطلع إلى معرفة ما غاب عن الإنسان ، والعمل على ذلك بالاستماع ، أو النظر أو البحث.

والاغتياب: أن تذكر أخاك بما يكره وهو غائب عنك لا يسمع قولك ، وقد شَبَّه القرآن هذا العمل بمن يأكل لحم الميت ، إذ أن الغائب كالميت في عدم السماع ، ونهش العرض كأكل اللحم كلاهما تقطيع للشخص ونيل منه وكلاهما عمل قذر تعافه النفوس وتأباه الطباع اللئيمة فضلاً عن الكريمة.

■ **سبب النزول**

روى البغوي أن الآية الكريمة نزلت في رجلين اغتابا رفيقهما ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدم لهما إلى المنزل فيهئ لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب ، فضم سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره فتقدم سلمان إلى المنزل (أي: مكان النزول للراحة) فغلبته عيناه فلم يهيئ لهما شيئاً ، فلما قدما قالا له: ما صنعت شيئاً ؟ قال: لا غلبتنى عيناي ، قالا له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعاماً ، فجاء

سلمان إلى رسول الله ﷺ وسأله طعاماً ، فقال له رسول الله ﷺ: «انطلق إلى أسامة بن زيد إن كان عنده فضل من طعام وإدام فليعطك» وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ وعلى رحله ، فأتاه فقال: ما عندي شئ ، فرجع سلمان إليهما وأخبرهما ، فقالا: كان عند أسامة طعام ولكن بخل ، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً ، فلما رجع قالا: لو بعثناك إلى بئر سميحة لغار ماؤها ، ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما ؟» قالا: والله يا رسول الله ما تناولنا في يومنا هذا لحماً ، قال: «بل ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة» فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ ﴾ الآية.

■ **المعنى**

أمر الله المؤمنين في هذه الآية أن يبتعدوا عن خصال ثلاث: كثير من الظن ، والتجسس ، والغيبة . وإنما نهاهم عن هذه الثلاث لأنها موجبةٌ للفرقة والبغضاء جالبةٌ للكراهية والعداء قاطعةٌ لأخوة الإيمان ورابطة الحب الإسلامي ، وكثيراً ما تكون غير حقيقية فيندم صاحبها بعد أن يكون قد قُضيَ الأمرُ وسبق السيفُ العذل.

قد تقابل أخاك فتراه كئيباً فتظن أنه إنما اكتئب لرؤيتك وقَطَّبَ للقائك وأظهر هذا النفور إيذاءً لك ، وتبني على هذا الظن عملاً ، وهو أن تقاطع هذا الأخ وتبتعد عنه ، ثم يَتَبَيَّن لك بعد ذلك فساد هذا الظن وأنه إنما كان كذلك لأنه وقع له حادث جلل كفقد عزيز أو خسارة مال أو مهمة من مهمات شأنه أظهرته بالمظهر الذي ظننته نفوراً منه ووحشة فتندم وتتألم.. وقد تتلمس العيب لأخيك ويتاح لك أن تراه على حال غير مرضية في ظنك ، كأن تراه مع امرأة لا تعرفها يضحك لها وتضحك له ، فتنشر ذلك عنه وتتحدث به ، ثم يتبين لك بعد ذلك أنها زوجه أو أخته فتندم وتتألم.. وقد تنقل عن أخيك قولاً لم تفهم مغزاه أو عملاً لم تدرك ملابساته

وظروفه وتنتقصه بذلك وتعيبه ثم يتبين لك أن ذلك غير صحيح فتندم وتتألم ، لهذا نهى اللّه المؤمنين عن هذه الخصال الثلاث وأوصاهم بتركها والبعد عنها.

وإذا تأملت رأيت دقة الترتيب ومتانة الصلة بينها ، فهي جميعاً أخوات يستتبع بعضها بعضاً وتكوّن ثلاث حلقات متصلة أشد الاتصال في سلسلة الشرور والآثام ، يبدأ الأمر بظن سيء ، فيحمل هذا الظن صاحبه على التجسس ، ثم يتحدث بما توهم من عيوب ونقائص ، فيكون قد ارتكب الجرائم الثلاث جميعاً وقلما يقتصر الأمر على واحدة.

ولما كان من الظنون ما هو حسن جميل كأن تظن بإخوانك المؤمنين الخير والكمال والاستقامة ، بل إن من الظنون التي تتصل بناحية النقص في المظنون به ما هو خير، وذلك أن يُحمل الظن على الاحتراس والأخذ بالحيطة والحذر دون انتقاص أو عيب أو ظلم أو عدوان أو مؤاخذة ، لما كان ذلك كذلك عبَّر الحق تبارك وتعالى في النهي عن الظن باجتناب الكثير منه وبأن بعض الظن إثم ، حتى تكون هذه الأنواع التي ينجم عنها الخير خارجة عن النهي ، وفي كلام العرب مما ينسبونه إلى أكثم بن صيفي حكيم تميم: (حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة) . وفي الأثر: (احترسوا من الناس بسوء الظن). فكل ما هو من هذا الباب إنما يحمل على ما ذكرت لك من الظن الذي يؤدي بصاحبه إلى الحذر دون انتقاص أو عدوان ومؤاخذة.

وقد نهى رسول اللّه ﷺ عن هذه الخصال أشد النهي كذلك وأبان طريقة علاجها النفسي بأشفى معنى وأوفى عبارة في كثير من الأحاديث المطهرة وإليك بعض ذلك:

١. «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسَّسُوا ، ولا تحسَّسَوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد اللّه إخواناً».

(رواه البخاري ومسلم) . والتحسس: نوع من التجسس.

٢. «ثلاث لازمات لأمتي الطيرة والحسد وسوء الظن» فقال رجل: وما يذهبهن يا رسول اللَّه ممن هن فيه ؟ قال: «إذا حسدت فاستغفراللَّه ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض». (رواه الطبراني).

٣. وعن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أَطْيَبَك وأطيب ريحك وأعظم حُرمَتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند اللَّه تعالى حرمةً منك ، ماله ودمه وأن لا يظن به إلا خيراً». (رواه ابن ماجه).

٤. وروى أبو داود عن نفر من الصحابة منهم المقداد بن معد يكرب وأبو أُمامة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم». فانظر إلى ما في هذا الحديث الشريف من التنبيه إلى ما يقع من الفساد في أمة فشَتّ فيها الجاسوسية وتوترت بينها وبين أميرها العلائق ، فهو يظن بها ويتجسس عليها حذرَ الحادثات.

٥. وروى أبو داود بسنده عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عوراتهم يتبع اللَّه عورته ، ومن يتبع اللَّه عورته يفضحه في بيته».

٦. وروى الترمذي وأبو داود وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول اللَّه ما الغيبة ؟ قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال ﷺ: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهتَّهُ».

٧. وقال أبو داود عن مسدد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك صفية كذا وكذا ـ قال غير مسدد تعني قصيرة ـ فقال ﷺ: «لقد قُلتِ كلمةً لو مُزِجَت بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنساناً ـ أي قلَّدته وأتت

بمثل حركاته ـ فقال: «ما أحب أني حكيت إنساناً وأنَّي لي كذا وكذا». (رواه الترمذي من طرق عدة).

∴

ولقد تمسك الأصحاب ـ رضي الله عنهم ـ ومن تبعهم بإحسان بهذه الآداب أجمل التمسك، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول في بعض وصاياه: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير مَحْمَلاً.

وروى الإمام أحمد بسنده عن دجين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر وأنا داع لهم الشُّرَطَ فيأخذونهم، قال: لا تفعل، ولكن عظْهُم وتَهدَّدهُم، قال: ففعل، فلم ينتهوا، قال: فجاء دجين فقال: إني نهيتهم فلم ينتهوا وإني داع لهم الشَّرط فتأخذهم، فقال له عقبة: ويحك لا تفعل فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها». (رواه أبو داود والنسائي).

وليس هناك تعارض بين هذا الحديث الشريف وبين أحاديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه وعظهم ونهاهم، وبقيت بعد ذلك مهمة الحاكم، فهو الذي يَعِس على الناس ويضبط من يأتي بالمخالفات منهم حتى لا تكون إباحة السعاية سبيلاً إلى الانتقام والإضرار وتربية للأمة على خلق من الأخلاق الرديئة، أما إذا طلب إليه أن يؤدي الشهادة فيما علم فمن واجبه ألا يستر فإنه حينئذ يخدم الحق ويعين على إظهاره.

وقد أجمع المسلمون على حرمة الغيبة إلا في بعض المواطن، كموطن المشورة والنصح، فمن واجب المستشار أن يقول ما يعلم كقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس حين استشارته ﷺ وقد خطبها معاويةُ وأبو الجَهْم: «أما معاوية فصعلوك وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه». وهي في غير مثل هذا الموطن من المواطن التي تَرجُحُ فيها المصلحة على المفسدة كبيرة من أفظع الكبائر وأغلظها.

ومن واجب المسلم أن يرد غيبة أخيه ويدافع عنه وألا يتركه غرضاً لسهام الطاعنين وهدفاً لرماية المغتابين ، روى الإمام أحمد بسنده عن أنس الجهني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمناً بشئ يريد سَبَّه حَبَسَهُ الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال».

ثم إن الله تبارك وتعالى ختم الآية الكريمة بتخويف المسلمين من بطشه وجبروته وإرشادهم إلى اتقاء سطوته بطاعته وبالمبادرة إلى التوبة من هذه الخصال ، وبشَّرهم بأنه تعالى تواب رحيم يقبل من تاب إليه ، وندم على ماضيه ، وأحسن في مقتبله.

وطريق التوبة من الظن الكفُّ عنه ، ومن التجسس الكفُّ عنه وطلب السماح ممن تجسس عليهم إن لم ينجم عن ذلك شر وخصومة والاستغفار لهم ، وهو طريق التوبة من الغيبة وقال بعض العلماء إن من طرق التوبة من الغيبة أن يكثر من الثناء على إخوانه الذين اغتابهم في المجالس التي كان يغتابهم فيها وأن يرد غيبتهم وينتصر لهم فتكون هذه بتلك ، وكلها من غير شك طرق توصل إلى التوبة النصوح وإذا صدق العزم وضح السبيل.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ١٤ في ١٥ ربيع ثاني ١٣٥٤هـ/ ١٦ يوليو ١٩٣٥م.

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾

■ **سبب النزول**

قال مقاتل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا ظهر الكعبة وأذَّن ، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم ، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مُؤذِّناً ، وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره ، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ بما قالوا ، فَدَعَاهم وسألهم عما قالوا فَأقرُّوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وزَجَرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء.

∴

خلقناكم من ذكر وأنثى: من آدم وحواء فالبشر جميعاً متساوون بأصل الخلقة ، وقديماً قيل:

والناس من جهة التمثيل أكفاء   أبوهمو آدم والأم حـــــواء

فإن يكن لهمو من أصلهم شرف   يفاخرون به فالطين والمـــاء

والشعب بفتح الشين: القبيلة الرئيسية كربيعة ومضر وفي العرف الحالي الأمة والجماعة ، والقبائل دون الشعوب كبكر من ربيعة وتميم من مضر، ودون القبائل العمائر واحدتها عَمارة بفتح العين كشيبان من بكر، ودون العمائر البطون واحدتها بطن كبني غالب ولؤي من قريش ، ودون البطون الأفخاذ واحدتها فَخذ كبني هاشم

وأمية من بني لؤي ، ثم الفصائل والعشائر واحدتها فصيلة وعشيرة.. وقيل الشعوب من العجم ، والقبائل من العرب ، والأسباط من بني اسرائيل وهو تقسيم تواضعي.

وعلى كل فالمراد من ذكر القبائل والشعوب في الآية الكريمة التنبيه على أن حكمة الأنساب التعارف فحسب وليس التفاخر ولا التكاثر ولا التعظيم فإنما يكون الفخر والشرف بشئ آخر هو تقوى الله وأداء الواجبات والحقوق.

∴

وقد وضعت هذه الآية الكريمة أساس المساواة بين البشر جميعاً قبل أن يتشدق بها المتشدقون من علماء الاجتماع ، وما زالت الأمم تخضع لنظام الطبقات وتفرق بين الأفراد على غير أساس إلا أساس التوارث والعصبية الباطلة حتى جاء الإسلام بدستوره العادل القويم فَصَدَّع هذه النظم وقضى على تلك الفوارق.

لقد كان نظام الطبقات معمولاً به في الأمة اليونانية في أوج حضارتها وهي أمة الفلسفة والنور، وفي الأمة الرومانية وهي أمة القوانين وتقرير الحقوق ، وفي الأمة الفارسية وهي أمة الحضارة العريقة ، بل إنك لترى الأمم الحديثة تسير عليه وتأخذ به ، وهذه فرنسا تعتبر اليوم الذي هدمت فيه نظام الطبقات والتفريق بين أبناء الأمة الواحدة على غير أساس ـ حتى أعلنت تلك الحقوق التي سَمُّوها حقوق الإنسان ـ عيداً للحرية ومبدأ المساواة على حين هدم الإسلام هذه النظم وقضى عليها وقرر حقوق الإنسان وواجباته منذ بعثة رسول الله ﷺ.

والمساواة المطلقة خيال لا يتحقق وأمر لا يمكن أن يؤدي إلى خير البشرية إن وصل الناس إليه ، فلابد من التفاوت بين الخلق ، ولابد أن يكون هذا التفاوت على أساس صحيح من الفرق في خدمه الإنسانية وأداء الحقوق ، ففي الوقت الذي وضع الإسلام فيه أساس المساواة بين الناس بأصل الخلقة في الآية الكريمة وبيَّن أن أساس التفاوت تقوي الله أشار كذلك إلى ضرورة هذا التفاوت في قوله تعالى:

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ الزخرف.

ومن هنا تعلم أن الذين ينادون بالمساواة المطلقة كالبلاشفة والشيوعيين وأضرابهم غالون خياليون ، كما أن الذين يتمسكون بنظام الطبقات على غير أساس كالبراهمة وأضرابهم ظالمون معتدون ، وأفضل النظم ما قرره الله لعباده وأوصى به الإسلام الحكيم.

ولقد أَيَّد رسول الله ﷺ هذا المبدأ القويم في عدة أحاديث من أحاديثه الشريفة نورد لك طرفاً منها:

١. روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تَعَلَّمُوا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلةَ الرحم محبةٌ في الأهل ، مثراةٌ في المال ، منسأةٌ في الأثر». ألا ترى أنه ﷺ في هذا الحديث نبَّه على حكمة الأنساب وأنها إنما تعرف للتواصل والتراحم والتعارف لا للتفاخر والتكاثر والتَّجَبُّر.

٢. وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لستَ بخير من أحمرَ ولا أسودَ إلا أن تَفْضُلَه بتقوى الله».

٣. وروى الطبراني بسنده عن محمد بن حبيب بن خراش النصري يحدث عن أبيه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى».

٤. وروي البزار في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ، ولَينتهينَّ قومٌ يفخرون بآبائهم أو ليكونُنَّ أهونَ على الله تعالى من الجُعْلان».

٥. وروى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحْجَن في يده فما وجد لها مَناخاً في المسجد حتى نزل على أيدي الرجال فخرج بها إلى بطن المسيل

فأُنيخَتْ ، ثم إن رسول اللَّه ﷺ خطبهم علي راحلته فحمداللَّه تعالى وأثنى عليه بما هو له أهلٌ ثم قال: «يا أيها الناس إن اللَّه تعالى قد أَذْهبَ عنكم عيبة الجاهلية وتَعظُّمها بآبائها فالناس رجلان رجلٌ بَرٌّ تقيٌّ كريمٌ على اللَّه تعالى ، ورجلٌ فاجرٌ شقيٌّ هَيِّنٌ على اللَّه تعالى: إن اللَّه عز وجل يقول: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ثم قال ﷺ: أقول قولي هذا وأستغفر اللَّه لي ولكم».

وفي تغيير النداء في الآية الكريمة من الأسلوب السابق ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلى هذا الأسلوب ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ لطيفةٌ اجتماعيةٌ فيها إشارةٌ إلى أن هذه المساواة تنتظم الناسَ جميعاً ، فهي بمثابة إعلان الوحدة الإنسانية. وقد استدل بهذه الآية الكريمة وما أوردنا من الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النسب لا تشترط في الزواج ولا يشترط سوى الدين لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾.

فانظر كيف كان من المقررات الإسلامية ما يعتبره علماء الاجتماع الآن من مفاخر المدنية العصرية ، ولقد علم المسلمون لو يتعلمون.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ١٥ في ٢٢ ربيع ثاني ١٣٥٤هـ/ ٢٣ يوليو ١٩٣٥م.

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾

لا يلتكم: أي لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً.

لم يرتابوا: أي لم يشكوا ولم يتطرق إلى قلوبهم وهن أو ضعف.

■ **سبب النزول**

قال البغوي نزلت الآية في نفر من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر، فأفسدوا طرق المدينة بالقاذورات وأغلوا أسعارها، وكانوا يغدون ويروحون إلى النبي ﷺ ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يَمُنُّون على النبي ﷺ ويريدون الصدقة ويقولون أعطنا فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. كذا قال ولعل ذلك كان سبباً في نزول الآية التالية وهي قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾.

وقال السدي نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الفتح وهم أعرابٌ من جُهَينة ومُزَينة وأسلمَ وأشجعَ وغفار كانوا يقولون آمنا ليأمَنوا على أنفسهم وأموالهم فلما استُنفِرُوا إلى الحُدَيبية تَخلَّفوا فأنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾. ولعل هذا هو أولى الأقوال بالصواب لما بين السورتين: الفتح والحجرات من رابطة في الترتيب المعنوي والوضعي .. والله أعلم.

وفي الآية بحثان جليلان جديران بالعناية وإنعام النظر:

أولهما: بيان حقيقة الإيمان وآثاره.

وثانيهما: التفرقة بينه وبين مجرد الإسلام.

■ **حقيقة الإيمان وآثاره**

فاعلم. يا أخي. أن الإيمانَ عقيدةٌ قلبيةٌ تخالط القلبَ وتستولى على النفس وتتملكَ الفؤاد فترى المؤمنَ ذاكراً لعقيدته فانياً فيها مضحياً في سبيلها يراها في حلمه ويقظته وغُدُوِّه ورَواحه لأنها مَلَكتْ عليه نفسَه واستولت عليه. والناسُ في الإيمان متفاوتون مختلفون درجات بعضُها فوق بعض، فأنت مُصَدِّقٌ بشئ وسمعت عنه فإذا قرأت عنه بعد ذلك زاد إيمانك به وتصديقك فيه، فإذا رأيت صورته ثبت هذا الإيمان في قلبك، فإذا رأيته رأْي العين وفتَّشت فيه وعرفت ظاهره وخافيه انتهيت إلى درجة من الإيمان لا تقبل شكّاً ولا يتطرق إليها وَهَنٌ، كذلك إيمان المؤمن بالله تبارك وتعالى تتفاوت درجاته وتتباين منازله.

فمن الناس من يدَّعون الإيمان وهم في هذه الدعوى كاذبون كالذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ البقرة.

ومنهم من يؤمن في الرخاء حتى إذا عَضَّته الشدة بأنيابها انقلب على عقبه وكفر بنعمة ربه كالذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾ الحج.

ومنهم من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ قلبَه فهو يُظهر كلمة الإيمان وقلبُه منها خواء كأولئك الأعراب الذين عرضت لهم الآية الكريمة.

ومن المؤمنين قوم اطمـأنت بالإيمان قلوبهم ، وأخبتت له أرواحهم ، فهم به سعداء وعليه حريصون أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ الأنعام.

وإذا وصل الإيمان إلى مثل هذه الدرجة السامية واحتل من القلب مكاناً رفيعاً أنتج أروع الآثار ولم يكن عاطفة خامدة بل يثور في النفس سائرةً ، فتبدو على الجوارح آثاره أوضح من الصبح وأضوأ من النور وأجلي من غرة النهار وشرح ذلك يطول وإنما نُلِمُّ من ذلك بطرف ليكون تبصرةً للمؤمن وتذكرةً للمخدوعين وحسرةً على المجرمين.

- من آثار الإيمان حُبٌّ يستروح معه المؤمن السعادة الكاملة والنعيم المقيم والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥ .

- ومن آثار الإيمان سعادة دائمة وراحة قلبية واطمئنان نفسي لا يجد المؤمن معه مَسَّ الشقاء ولو عُذِّب بجميع ما عرف الناس من أنواع العذاب ما سَلِمَت له عقيدته واطمأن قلبه.. كالذي حَدَّثُوا أن بعضهم خاصم زوجته المؤمنة فكان فيما قال لها: والله لأُشقِيَنَّك ، فابتسمت وقالت: إنك لا تستطيع ذلك ، فقال: ولِمَ ؟ فقالت: لأن سعادتي في إيماني ، وإيماني في قلبي ، وقلبي لا سلطان لأحد عليه ، فَسُرِّيَ عنه وَهشَّ لها وابتسم. وهم يقولون إن ذلك مما وقع لعمر بن الخطاب رضي الله عنه مع زوجه أم كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهم أجمعين ، والله أعلم حيث يجعل رسالته..

وقد علمت نبأ ذلك الشيخ الذي طال به السجن في سبيل إيمانه ، فأخذ تلامذته يُعَزُّونَه ويتلمسون له سبيل النجاة فكان فيما قال لهم: (إن حبسي خلوةٌ ، وقتلي شهادةٌ ، ونفيي سياحةٌ ، وكل ذُل بأجره ، ولو ملأْتُ لهم قلعتهم هذه ذهباً ما كافأتُهم على ما سَاقُوا إليّ من ثواب الله ، وإن جَنَّتي وبُستَاني في صدري).

الله أكبر.. أرأيت يا أخي كيف يُحيلُ الإيمانُ المصائبَ والنكبات نعماً سابغات وكيف يُصَيِّرُ الهمومَ الراسيات لذائذَ مُفْرحات ، وصدق رسول الله ﷺ الذي يقول ما معناه: «عجبت لأمر المؤمن إن أمره كلَّه خيرٌ إن أصابته النَّعماءُ شكر وإن مسته الضراءُ صبر».. و هذا أبو القاسم الجُنَيد يقول: نحن من إيماننا بالله ومعرفتنا إياه في لذة لو عرفها ملوك الدنيا لقاتلونا عليها بالسيوف.

• ومن آثار الإيمان عزةٌ سابغةٌ تجعل المؤمنَ عزيزاً بربه عظيماً في نفسه لا يرى أحداً أعز منه إذ يستمد عزته من الله لا من أحد من خلقه وإذ يدوي في نفسه صدى الآية الكريمة: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (٢٥٧) ﴾ البقرة ، إلى جانب الآية الكريمة: ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٣٩، إلى جانب قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ المنافقون.

• ومن آثار الإيمان شجاعة تتضاءل أمامها الجحافل وتنطوى أمام قوتها الجبابرة وتذل لها النكبات والمشاق والصعاب والعقبات: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ آل عمران.

• وبعد ، فمن آثار الإيمان بعد ما علمت جهادٌ في سبيل الله بالنفس إلى آخر قطرة من دمها وبالمال إلى آخر درهم منه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ التوبة: ١١١.

ولما كان هذا الأثر الأخير يعتبر النتيجة الطبيعية والعملية للآثار السابقة من الحب والسعادة والعزة والشجاعة ذكره الله تبارك وتعالى وَنوّه به واكتفى بذكره في الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾ الحجرات.

وأمامك آيات القرآن وأحاديث الرسول العظيم ﷺ تجد فيها ما تدهش له من تحصيل حقيقة الإيمان وبيان آثاره وتربية النفوس عليه ، فَرَوِّضْ نفسَك بها حتى تكون من الصادقين.

■ **التفرقة بين الإيمان وبين مجرد الإسلام**

هذا بحث وأما البحث الثاني وهو الذي عَرَضَتْ له الآية الأولى فقد طال فيه الجدل بين علماء الكلام وكل يؤيد مذهبه بحججه ولسنا نفيض في هذا كما أننا نرى أن الأيسر من كل هذا أن نقول إن هي إلا تعبيرات تختلف قوة وضعفاً باختلاف القوم وأحوال الناس ودرجاتهم ، فقد جعل القرآن الإسلام أقل درجة من الإيمان في الآية الكريمة ، كما أشار إلى ذلك الرسول ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. فقد روى الإمام أحمد وغيره بسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً ، فقال سعد رضي الله عنه: يا رسول الله ﷺ أعطيت فلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً وهو مؤمنٌ ، فقال النبي ﷺ: «أَوْ مسلمٌ» حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثاً ، والنبي ﷺ يقول: «أَوْ مسلمٌ» ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجالاً وأَدَعُ من هو أحب إليَّ منهم فلم أعطه شيئاً مخافة أن يُكبُّوا في النار على وجوههم».

وقد أخرجاه في الصحيحين فها أنت ترى الرسول ﷺ فرَّق بين المؤمن والمسلم ، وقد يقول قائل إن مقتضى هذا الحديث أن يكون الإسلام أرفع درجة من الإيمان لأن الرسول ﷺ وَكَلَ الرجل إلى إسلامه فلم يعطه شيئاً وهو مطمئنٌّ عليه ، وقد يجاب على هذا بأن المقصود التفريق بين الإيمان والإسلام وكل ما يستفاد بعد ذلك هو أن المسلم على درجة من الخير تعصمه من الانتقاض والهلاك ، ومهما يكن من شيء فها أنت قد رأيت أن ثَمَّ تفريقاً بين الإيمان والإسلام مع وضوح الإشادة بدرجة الإيمان وبيان أنها أعلى من أختها.

وفي موضع آخر سَوَّى القرآنُ بينهما فقال تبارك وتعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٢) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ(٣٦) ﴾ الذاريات ، وفي موضع ثالث ذكر الإسلام وحده في موضع لا ينفع فيه إلا كمال الإيمان فقال تبارك وتعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ آل عمران ، كما أن الإسلام كان الدين الذي ورثناه عن إبراهيم وأمتَنَّ الله علينا بهذه الوراثة وهو الكلمة التي وصى بها ابراهيمُ بنيه ويعقوبُ: ﴿ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾ البقرة . ومن ذلك تعلم أن هذا خلافٌ لفظيٌّ خيرٌ للمؤمنين أن يَدَعُوه جانباً وأن ينصرفوا إلى تكميل إيمانهم وتحقيق آثاره عليهم.. والله ولي التوفيق.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ١٦ في ٢٩ ربيع ثاني ١٣٥٤هـ/ ٣٠ يوليو ١٩٣٥م.

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾

روى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتَلَتْكَ العربُ ولم نقاتلْك ، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ فِقْهَهُم قليلٌ وإن الشيطانَ ينطق على ألسنتهم». فنزلت هذه الآية ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾.

لما بيَّن القرآن الكريم صفات المؤمنين الصادقين في الآية الكريمة السابقة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أخذ يُبَيِّن بعض أعراض الإيمان الضعيف فذكر من هذه الأعراض أمرين تلاحظهما في كل شخص ضعف إيمانه ولانت عقيدته. أما أولهما: فالتظاهر بالإيمان ، أما ثانيهما: فالمنُّ به والتحدث بسابقة فيه.

إن المؤمن القوي العقيدة الثابت الإيمان في غني عن هذين المظهرين بما يشعر به من اطمئنان إلى عقيدته وقوة في يقينه ، فهو يعمل ولا يرى داعياً يدعوه إلى أن يتكلم أو يمتدح بما عمل ، وهو إلى جانب هذا يعلم أنه كلّه لله فلا شئ له ففيم الامتنان بعد هذا .. كان رسول الله ﷺ يقول في أبي بكر ما معناه: «إنَّ أَمَنَّ الناس عليَّ في نفسه وماله أبو بكر، وما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاّ كانت له كبوةٌ إلا أبا بكر بن أبي قحافة». افتدري ما موقف أبو بكر من هذا الإطراء ؟ إنه يبكي ويقول: بأبي وأمي يا رسول الله وهل أنفسنا وأموالنا إلا ملْك يمينك..

ولقد قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم اللَّه بي وكنتم متفرقين فألَّفكُم اللَّه بي وكنتم عالةً فأغناكم اللَّه بي». وكلما قال شيئاً قال الأنصار: اللَّه ورسوله أَمَنُّ. هؤلاء هم الذين آوَوا ونصروا وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وخلَّد اللَّه ذكرهم في كتابه الكريم ، أفبعد هذا يكون لأحد منَّة.

وأنت إذا حَقَّقت النظر وجدت أنك أنت نفسك لا شئ لك وكُلُّكَ للَّه يتصرف فيك ، ألست عبده وهو سيدك ؟ وأليس له سبحانه حق التصرف المطلق في ملكه ما شاء يفعل ؟ فهو اختارك لتكون مؤمناً به داعياً لدينه مثاباً على دعوته وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) ﴾ الحجرات ، أفترى لنفسك في هذا شيئاً ؟ ويقول العارف: حَسْبُكَ من ثوابك على الطاعة أَنْ رضيك مولاك لها أهلاً وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ، فهذا الذي ذكرت لك من علامات الإيمان الصادق.

أما ضعيف الإيمان فهو خائر العقيدة واهن اليقين يتسرب الشك إلى نفسه في نفسه ، فيظن أن صورة ذلك منطبقة في خارجه يراها الناس جميعاً فيلمزونه بالقول ويغمزونه في دينه وإيمانه فهو لهذا يريد أن يُعزِّز بالتحدث عن نفسه ما يشعر به من ضعف ويتظاهر بعمله يريد أن يقنع الناس بهذا التظاهر، وهو إن كان يحاول إقناع الناس فهو خاطئ لأن الناس لا يُغنُونَ عنه من اللَّه شيئاً ، وإن كان يحاول بهذا إظهار اللَّه تبارك وتعالى على إيمانه فإن اللَّه يعلم السر وأخفى فلا داعى إلى ذكر هذا الإيمان والمنّة به ، لهذا قال اللَّه تبارك وتعالى في ختام هذه السورة الكريمة أنه: ﴿ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

واعلم ـ يا أخي ـ أن ذلك أدب قويم من الآداب النفسية ختم اللَّه به السورة الكريمة ، فبعد أن كانت السورة كلها آداباً تعاملية وآداباً عملية تُؤَدِّي بين الناس بعضهم

وبعض بالجوارح والصور، انتقل إلى معاملة الناس لمولاهم وبيَّن أنها بالقلوب والعواطف المغيبة والضمائر المحجبة وأن قوامها - إن كان صاحبها يريد الوصول إلى رضوان اللّه - شهود المنّة للّه تبارك وتعالى في كل شيء وصدق العبودية وكمال الأدب مع الحق تبارك وتعالى مع دوام المراقبة.

.·.

أفرأيت - يا أخي - كيف جمعت هذه السورة الكريمة عدة أنماط من التربية العالية والأدب الكريم: جمعت أدب الحديث وأدب المرؤوس والرئيس وأدب المؤاخاة والصلة في حالتي الرضا والغضب ، وكيف يتصرف الإنسان في الوشاية إذا بلَغتْهُ وفي العدوان إذا انتدب لرده ، وأدب احترام الناس والمحافظة على كراماتهم وأدب المواساة بين الخلق وأدب الإيمان باللّه والتصديق به وحسن معاملته. وكذلك القرآن الكريم ينبوع الفضائل والحكم ، ومعدن الخلائق الغُرّ، فتمسكْ به تكن من الفائزين: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾ الأعراف.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية - السنة الثالثة - العدد ١٧ في ٧ جمادى الأول ١٣٥٤ / ٦ أغسطس ١٩٣٥م.


تفسير
سورة المجادلة





﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾

■ **سبب النزول**

المرأةُ التي جادلت رسول اللّه ﷺ في زوجها هي خَوْلة بنت ثعلبة وزوجها أَوْسُ بنُ الصامت أخو عُبادةَ بن الصامت ، وقد كان بينهما شيء فغضب وظاهَرَ منها ثم ندم على ما قال ، وكان الظهار والإيلاء من طلاق الجاهلية وذلك أولُ ظهار وقع في الإسلام ، ومنَعتْه نفسَها حتى يحكم اللّهُ ورسولُه فيهما بحكمه ، وتحرَّج هو فقال

لها: ما أَظُنُّك إلا قد حَرُمْت عليَّ ، فجمعت عليها ثيابها وأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابةٌ غنيةٌ ذاتُ مال وأهل ، حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرَّق أهلي وكبر سني ظاهَرَني ، وقد ندم ، فهل من شئ يجمعني وإياه تنفسني به ؟ فقال رسول الله ﷺ: «حَرُمْتِ عليه» فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وإنه أبو ولدي وأحب إليَّ ، فقال رسول الله ﷺ: «حَرُمْتِ عليه» ، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، قد طالت صحبتي ، ونَفضْتُ له بطني ، فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلاَّ قد حَرُمْتِ عليه ولم أومر في شأنك بشيء» ، فجعلت تراجعُ رسول الله ﷺ ، وكلما قال لها: «حَرُمْتِ عليه» هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي ، وإن لي صبيةً صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليَّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللَّهم إني أشكو إليك ، اللَّهم فأنزل على لسان نبيك فَرَجى. فأنزل الله الآيات الكريمة: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآيات.

فَعُلِمَ من هذا سبب نزول الآيات وإليك بعض ما فيها من عظيم الفوائد ونبيل المقاصد وجليل العبر والعظات:

١. في الآية إشادةٌ بمنزلة المرأة في الإسلام وكيف أنها كانت من عظيم المنزلة وشرف القَدْر ما يجعلها تقف أمام رسول الله ﷺ تجادله وتحاوره وتبادله الحجة بالحجة ، حتى أن القرآن يَنزلُ في شأنها ويستجيب الحق لندائها وتكون قضيتها صدر سورة من كتاب الله خالدة ما بقيت السماوات والأرض ، ورضي الله عن أم المؤمنين عائشة إذ تقول: الحمد لله الذي وَسِعَ سَمْعُه الأصوات لقد جاءت المجادلةُ إلى النبي ﷺ تكلّمه ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾.

٢. وفي الآية كذلك بيان إلى ما جُبلَتْ عليه المرأةُ المسلمةُ من شريف الخلال ونبيل الخصال وكريم الأخلاق ، فأنت تراها في هذه القصة مؤمنةً تقيةً قويةَ الإيمان عظيمةَ التقوى لله ، تمنع نفسَها زوجَها حتى تعلمَ حكمَ الله ورسوله ، وتلجأ إلى الله وحده في حرارة ورجاء وأمل تسأله أن ينزل تفريج كربها على لسان نبيه ﷺ وتراها فقيهة ذكية الفؤاد تقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، وتراها وفيَّةً لزوجها أمينةً على صحبته حفيظة على حقوق عشْرته ، وتراها مربيةً فاضلةً تَقْدُرُ حياةَ الأسرة قَدْرها وتحافظ على كيانها وتعلم أن الأسرة المبتورة لا خير فيها وأن أبناءها إن ضمَّتهم إلى أبيهم دونها ضاعوا إذْ فقدوا المربي الأول وهو الأم ، وإن ضمتهم إليها دونه جاعوا إذ فقدوا العائل القوي ، فما أفضله إدراكاً لمهمة كل ركن من ركني الأسرة وتحديد الحقوق والواجبات في إجمال وإيجاز.

٣. وفي الآية بعد ذلك أحكام الظهار وإليك مجملها:

أ. الظهار أن يقول الرجل لزوجته: (أنت عليَّ كظهر أمي). يقصد بذلك أنها محرمة عليه كتحريم أمه ، ولا يقصد بذلك الطلاق بل التحريم كتحريم مَنْ شَبَّه بها في ظهاره ، ومثل الأم في ذلك بقية المحارم على التأبيد كالأخت والعمة والخالة ، وكذلك إذا قال لها: أنت مني أو معي ، يريد بذلك التحريم أيضاً ، أما إن أراد التكريم فليس ظهاراً ، ومثْلُ الظَّهْر سواه من أجزاء الجسم فلو قال: كبطن أمي أو كرأس أمي أو كبد أمي أو شبه عضواً منها بعضو من أعضاء أمه أو إحدى محارمه فهو ظهار كذلك ، وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يكون الظهار إلا في التشبيه بالبطن أوالفرج أو الفخذ وأما في غيرها من الأعضاء فلا. وقال الظاهرية: لا يتحقق الظهار إلا بتكرير اللفظ أخذاً بظاهر الآية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ وهو خلاف ما عليه جمهور الأئمة.

ب . الظِّهار كما تقدم مُحَرَّمٌ لأنه مُنْكَرٌ من القول ، أو هو تحريفٌ للأوضاع التي أرادها الدين وآكدها القرابات والأنساب وزور لأنه غير مطابق للحقيقة فليست هي أمه وإنما أمه هي التي ولدته ولهذا قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) ﴾.

جـ . والمُظاهِرُ من امرأته إن أراد أن يعود إليها وهو المقصود في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ قال الفراء: يقال عاد فلان لما قال أي فيما قال. وقال قوم: إن المراد من العَوْد الوَطْء ، وهو قول الحسن وقتادة وطاووس والزهري وقالوا: لا كفارة عليه ما لم يطأها. وذهب أبو حنيفة إلى أن الظهار نفسه يوجب الكفارة لأنه محرم ، وقال قوم: هو العزم على الوطء وهو قول مالك وأصحاب الرأي ، وذهب الشافعي إلى أن العَوْدَ: هو أن يمسكها عُقَيبَ الظِّهار زماناً يمكنه أن يفارقها فيه فلم يفعل ، فإن طَلَّقها عُقَيبَ الظِّهار في الحال أو مات أحدهما في الوقت فلا كفارة عليه لأن العَوْدَ للقول هو المخالفة وعلى ذلك فالمظاهر إذا أراد أن يعود وجبت عليه الكفارة قبل أن يَمَسَّها ، وقال مالك: إلا في الإطعام فيجوز أن يَمَسَّها قبل أن يُكَفِّر.

وكَفَّارةُ الظهار على الترتيب فيبدأ بالعتق فمن لم يجد فعليه الصوم فمن لم يستطع فعليه الإطعام. وفي تمام القصة أن رسول اللّه ﷺ دعاها فقال: «يا خُوَيْلَةُ قد أنزل اللّه فيك وفي صاحبك قرآناً» ثم قرأ عليَّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ الآيات.. إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قالت: فقال رسول اللّه ﷺ: «مُرِيه فَلْيُعتِقْ رقبةً».

قالت: فقلت يا رسول اللّه: ما عنده ما يعتق.

قال: «فليصم شهرين متتابعين».

قالت: فقلت: والله إنه لشيخ كبير ماله من صيام.

قــال: «فلْيطعم ستين مسكيناً وَسْقاً من تَمْر».

قالت: فقلت يا رسول الله: ما ذاك عنده.

فقال: رسول الله ﷺ: «فإنَّا سنعينه بفَرَق من تمر».

قالت: فقلت يا رسول الله ﷺ: وأنا سأعينه بفَرَق آخر.

قــال: «قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به ثم استوصي بابن عمك خيراً»

قالت: ففعَلتُ.

وهي مَنْقَبةٌ أخرى من مناقب خَوْلَة ـ رضي الله عنها ـ وفيه جواز أن يعين القاضي على خلاص المتهم مما وقع فيه بمثل هذا الإحسان الكريم ، فهذا أول الآداب العالية التي ذكرت في هذه السورة الكريمة مما يتعلق بحياة الأسرة وحقوق الزوجية.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ١٩ في ٢١ جمادى الأول ١٣٥٤ هـ/ ٢٠ أغسطس ١٩٣٥م.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧ ﴾

المحادّة: المشاقّة والمخالفة والعصيان ومجاوزة الحدود.

الكبْت: القمع والمنع وتغلغل الحزن والألم في النفس.

العذاب المهين: المؤلم الذي تَسقط منه الكرامة وتَعْظُم به الإهانة.

في الآيتين الكريمتين أمور ثلاثة:

١. سنة الله تبارك وتعالى في الانتقام في الدنيا من الأمم التي تخرج على حدوده وتخالف عن أمره بعد أن تتضح لها الآيات البينات وتأتيها رسلها بشرائع الله القويمة فتأبى إلا العناد والإصرار ومقاومة نور الحق بظلمة الباطل أو تهمل هذه الشرائع فلا تعمل بها ولا تنفذ أحكامها.. هذه الأمم لابد أن ينتقم الله منها في الدنيا بصنوف كثيرة من صنوف الانتقام: فهناك الضيق في الرزق، وهناك الاستعمار والذلة، وهناك الأمراض والأسقام، وهناك بلبلة البال وفقدان الطمأنينة واختلال الأمن وجَوْر السلطان، ثم من بعد ذلك كله الآفات الكونية والاستئصال الإلهي: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ المدثر: ٣١ .

وقد أوضح الحق تبارك وتعالى هذه السنة جملةً وتفصيلاً وضرب لنا الأمثال بالأمم السابقة ، بعد أن بيَّن أن سر ذلك الانتقام هو الانحراف عن دين اللَّه وإهمال شريعته والمخالفة عن أمره مما يؤدي إلى غضب اللَّه تبارك وتعالى وحلول اللعنة على هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾ المائدة ، وكما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ النحل.

فإذا فاءت هذه الأمم إلى ربها ورجعت إلى دينها أدالَ اللَّه لها من أعدائها وردَّ عليها عزَّتها وأزال عنها آلامها وأوصابها كما قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ نوح، بعد أن قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ الأعراف: ٩٦.

٢. بيان أن انتقام الحق تبارك وتعالى ممن يعصونه ويُحادُّونه ليس قاصراً على الدنيا، ولكن الحق تبارك وتعالى يحصيه عليهم ويبعثهم يوم القيامة فيخبرهم بأعمالهم ويحاسبهم عليها ويعذبهم بها عذاباً شديداً مهيناً ويذكرهم بما كان من أعمالهم ، والحق تبارك وتعالى منزه عن الغفلة والنسيان وفي الحديث الشريف: «البرُّ لا يَبلى والذنبُ لا يُنسى والديانُ لا يموت كما تَدينُ تُدانُ».

٣. بيان عظم مراقبة اللَّه تبارك وتعالى لخلقه وإحاطته بكل ما يعملون من صغير وكبير وذلك من عدة أوجه:

منها سعة علمه تبارك وتعالى الذي لا تخفى عليه خافية كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾ غافر، كما قال تعالى حكاية عن لقمان: ﴿ يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ لقمان . وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ يونس.

ومنها الكتبة الذين يحصون أعمال العبد عليه ويسجلونها في كتاب حفيظ كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) ﴾ القمر، وكما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ الكهف . وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ الإسراء . وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾ الجاثية.

وقد جمع الحق هذين المعنيين في آية واحدة فقال تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) ﴾ الزخرف.

وخلاصة ذلك أن سعادةَ الدارَين موقوفةٌ على الصدق مع الله تبارك وتعالى والتزام حدوده وإنفاذ أمره واجتناب ما نهى عنه، فشد يدك ـ يا أخي ـ على ذلك تكن من الفائزين.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ٢٢ في ١٢ جمادى الثانية ١٣٥٤هـ/ ١٠ سبتمبر ١٩٣٥م.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) ﴾

النجوى : السر وهي بين القوم التهامس وإخفاء الحديث وجعله قاصراً عليهم لا يسمعه غيرهم.

■ **سبب النزول**

كان بين رسول اللَّه ﷺ وبين اليهود موادعة ، وكان إذا مرَّ بهم نفرٌ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره أو يذهب به الظن إلى أنهم قد يكونون علموا بأخبار تسوؤه بالنسبة لإخوانه الذين في السرايا والبعوث وهو لم يعلم بها فهم لهذا يتهامسون ويتغامزون ، فنهاهم رسول اللَّه ﷺ عن ذلك فلم ينتهوا وعادوا إلى ما كانوا عليه من هذا التهامس والتغامز على المؤمنين والخوض في أعراضهم وتدبير المكايد لهم ، ولجُّوا في عصيان الرسول ﷺ ومخالفة أمره الشريف لا ينتهون ولا يرتدعون ، وكانوا إذا دخلوا عليه أو على أصحابه الكرام ألحدوا في السلام وحرفوا الكَلِمَ عن مواضعه وَلَوُّوا به ألسنَتَهم فقالوا: السام عليكم ولم يقولوا السلام عليكم. روى ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت دخل على رسول اللَّه ﷺ يهودٌ فقالوا: السام عليك

يا أبا القاسم ، فقالت عائشة: وعليكم السام. وفي رواية أنها قالت لهم: وعليكم السام والذام واللعنة ، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» قلت: ألا تسمعهم يقولون السام عليك ، فقال رسول الله ﷺ: «أو ما سمعت أقول وعليكم». وفي رواية أنه قال ﷺ: «أنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا».

وكانوا بعد ذلك يقولون في أنفسهم ها نحن قد حرفنا القول وألحدنا السلام وذممناهم وسببناهم فلو كان هذا نبياً لعذبنا الله بهذا العدوان عليه ، ونسوا أن من ورائهم جهنم يصلونها فبئس المصير ، فأنزل الله الآيات الكريمة رداً عليهم وتبياناً لحالهم وتبكيتاً لهم ، هذا ما تظاهرت عليه الآيات الكريمة ، وفي رواية لابن أبي حاتم بسنده عن أبي سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ نبيت عنده يطرقه من الليل أمر وتبدو له حاجة ، فلما كانت ذات ليلة كثر أهل النوب والمحتسبون حتى كنا أندية نتحدث ، فخرج علينا رسول الله فقال: «ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟».

قلنا: تُبنا إلى الله يا رسول الله ﷺ ، إنا كنا في ذكر المسيح الدجّال فرَقاً منه.

فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه ؟».

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: «الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل».

وكأن معنى هذا أن الآية نزلت في نفر من الصحابة وذلك لا يتفق مع آخر الآية في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ على أن الإسناد غريب وفيه بعض الضعفاء وفيه بعد هذا ما علمت.

وبعد أن أوضح القرآن الكريم فساد عمل هؤلاء المنافقين ، أرشد المؤمنين إلى ما يجب أن تكون عليه النجوى فيما بينهم ، وأن ذلك لا يكون إلا بالبر والتقوى وليس

بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ فإن المؤمنَ طاهرُ القلب كريمُ النفس لا يصدر عنه إلا الخيرُ ولا يدور بخَلَده إلا الخيرُ، فهو محفوظُ القلب محفوظُ اللُّبِّ محفوظُ السر من خَطَرات الشياطين ولمة المفسدين. ولهذا قال تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنْ الشَّيْطَانِ ﴾ وإنما يراد بذلك النجوى الكاذبة الخاطئة كنجوى المنافقين ، وإنما يريد الشيطان بذلك أن يؤلم المؤمن ويحزن نفسه وليس في ذلك ما يضيره أبداً فإن الأمور كلها بيد الله والمؤمن أعرف الناس بالله فهو متوكل على ربه راض بقضائه وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

وهنا أدبٌ عال من آداب الإسلام التي يرشد إليها أبناءه ، ذلك هو مراعاة شعور غيرك والمحافظة على إحساسه بحيث لا تأتى بعمل يتألم منه غيرك ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه». أخرجاه من طريق الأعمش ، ومثل ذلك أن يتكلم الاثنان أمام الثالث بلغة يجهلها فإن ذلك يحزنه كذلك إلا أن يستأذناه ، فانظر إلى أي حَدٍّ راعَي الإسلامُ الرقةَ في المجاملة وفي المحافظة على حقوق الآخرين.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ٢٣ في ١٩ جمادى الثانية ١٣٥٤هـ/ ١٧ سبتمبر ١٩٣٥م.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾

النشوز: الخروج والبروز والظهور والمراد به الإسراع إلى الخير والمبادرة به.

الإشفاق: الخوف والتوجس.

■ سبب النزول

قال مقاتل بن حيان: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مُقبلاً ضَنُّوا وبخلوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يفسح بعضهم لبعض. قال مقاتل بن حيان أنزلت هذه الآية يوم الجمعة وكان رسول اللَّه ﷺ يومئذ في الصُّفَّة وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهلَ بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول اللَّه ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة اللَّه وبركاته ، فرد النبي ﷺ عليهم ثم سلَّموا على القوم بعد ذلك فَردُّوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يُوسَّعَ لهم ، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام فلم يُفسَحْ لهم ، فشَّق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: «قم يا فلان وأنت يا فلان»

فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر، فشقَّ ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبيُّ ﷺ الكراهةَ في وجوههم، فقال المنافقون: ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قَبْلُ عدل على هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه، فبلغنا أن رسولَ الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً يفسح لأخيه» فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً فيفسح القوم لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة. (رواه ابن أبي حاتم).

وقال أبو العالية والقرظي والحسن وروى عن ابن عباس: أن الآية في مجالس القتال والحرب، كان الرجل يأتي في الصف فيقول: تَوسَّعوا، فيأبون عليه لحرصهم على القتال ورغبتهم في الشهادة فأنزل الله الآية الكريمة.

والأول أشهر وأرجح والآية تحتملهما معاً وتحتمل غيرهما من معاني الشركة في الخير وإفساح المجال فيه للمؤمنين والمبادرة إليه.

ويكون معنى الآية الكريمة على هذا: يا أيها الذين آمنوا إذا طلب إليكم إخوانكم أن تتفسحوا في المجالس وتُوسِّعُوا لهم فيها فاسمعوا لهم ومَكِّنوهم من ذلك وراعوا المنازل والأقدار فقدِّموا أهل الإيمان والعلم أولاً ثم من يليهم وأنزلوا الناس في ذلك مَنازلَهم والله بما تعملون خبير. وتكون الآية حينئذ إقراراً للرسول ﷺ على فعله من إقامته للمسبوقين وإذنه لأولى السابقة من البدريين باحتلال أمكنتهم، وعلى ذلك يكون من حق الرئيس أو الكبير أن يأمر بهذا من هم أقل منه في مجلسه.

ولكن ليس من حق الإنسان أن يقيم شخصاً أياً كان من مجلسه ليجلس هو مكانه وخصوصاً في الجمعة فقد نُهينا عن ذلك.

روى الإمام أحمد والشافعي بسندهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يُقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه ولكن تَفسَّحُوا وَتَوسَّعُوا».

وروى في الصحيحين من حديث نافع وروى الشافعي بسنده: «لا يُقيمنَّ أحدكم أخاه يوم الجمعة ولكن ليقل أفسحوا». والأفضل أن يجلس الإنسان حيث انتهي به المجلس ، ففي الحديث المروي في السنن أن رسول اللَّه ﷺ كان يجلس حيث انتهي به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، فكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يجلسون منه على مراتبهم ، فالصدّيق رضي الله عنه عن يمينه ، وعمر رضي الله عنه عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعليّ ـ رضي الله عنهما ـ لأنهما كانا ممن يكتبون الوحي وكان يأمرهم بذلك كما رواه مسلم من حديث الأعمش بسنده أن رسول اللَّه ﷺ كان يقول: «لِيَلِني منكم أولو الأحلام والنُّهَي».

وخلاصة هذا الأدب الكريم البادي في هذه الآية المطهرة أن المستحب في المجالس أن تنظم على حسب أقدار من سيجلسون ويوضع كل منهم في المرتبة اللائقة به ، فإذا خولف هذا النظام فلا بأس بأن يطلب الإنسان الفسحة من إخوانه ليصل إلى مرتبته وعليهم أن يفسحوا له ، فإذا جلس حيث انتهى به المجلس كان ذلك أجدر بالنسبة له ، وإذا أمر الرئيس أو نحوه أحداً بإخلاء مكانه لسواه فعليه الطاعة لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ إما أن يكون المقصود بهؤلاء القادمين ويكون المراد برفعتهم إنزالهم في المجلس ، وإما أن يكون المراد الجالسين الذين يمتثلون فيؤمنون بحكمة هذا التشريع ويعلمون أسراره ويطيبون نفساً به فيرفعهم اللَّه بحسن الثواب في الآخرة ، أو يكون المراد هما معاً واللَّه أعلم بمراده.

هذا في المجالس وهل يكون الأمر على ذلك في صفوف الصلاة ؟ فأما أبي بن كعب رضي الله عنه فقد تمسَّك بقول رسول اللَّه ﷺ: «لِيَلِيَنِي منكم أولوا الأحلام والنهي». فكان إذا انتهي إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً من أفناء الناس ويدخل هو في الصف المقدم إذ كان سيد القراء لشهادة رسول اللَّه ﷺ وأما عبد اللَّه بن عمر فكان لا يجلس

في المكان الذي يقوم له عنه صاحبه محتجاً بحديث رسول الله ﷺ: «لا يُقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا». ولكل وجهة فليتصرف المؤمن بحسب ظروفه وهو في كلتا الحالتين موافق لما روى عن رسول الله ﷺ.

هل يقوم الجالسون للوارد أو يتفسحون من جلوس فقط ؟ أجمع المسلمون على جواز التفسح من جلوس ، واختلف الفقهاء في القيام على أقوال:

فمنهم من رخص فيه مستنداً إلى حديث: «قوموا إلى سيدكم» وحديث قيامه ﷺ لفاطمة ـ رضي الله عنها ـ وقيامها له ﷺ.

ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث: «من أحب أن يَمْثُلَ له الرجالُ قياماً فلْيتَبوأْ مقعدَه من النار».

ومنهم من فصل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته ، كما تدل عليه قصة سعد بن معاذ.

وفي فتاوى الإمام النووي ما نصه:

(قيام الناس بعضهم لبعض كما هو العادة هل هو جائز أم حرام أم مكروه وهل ثبت في جوازه أو منعه شئ ؟

الجواب: القيام لأهل الفضل وذوي الحقوق فضيلةٌ على سبيل الإكرام ، وقد جاءت به أحاديث صحيحة وقد جمعتها من آثار السلف وأقاويل العلماء في ذلك ، والجواب عما جاء مما يوهم معارضتها وليس معارضاً ، وقد أوضحت ذلك في جزء معروف ، فالذي نختاره ونعمل به واشتهر عن السلف من أقوالهم وأفعالهم جواز القيام واستحبابه على الوجه الذي ذكرناه والله أعلم) . أهـ.

وقد راجعتُ هذا الجزء المشار إليه وهو الموسوم بالترخيص بالقيام لذوي الفضل والمَزِيَّة من أهل الإسلام . وفيه أوفى الشيخُ النوويُّ البحثَ حقَّه رحمه الله ونفع به.

وفي الآية الكريمة بعد هذا تنبيه إلى فضل الإيمان والعلم وإلى بيان استحقاق أصحابهما للرفعة في الدنيا والآخرة. روى الإمام أحمد بسنده أن نافعاً بن الحارث

لقى عمر بن الخطاب بعُسْفانَ وكان عمر استعمله على مكة فقال له عمر: من استخلفتَ على أهل الوادي ؟

قال: استخلفتُ عليهم ابن أبْزي رجل من موالينا .

فقال عمر: استخلفتَ عليهم مَوْلًى ؟!.

فقال: يا أمير المؤمنين إنه قارئٌ لكتاب اللّه عالمٌ بالفرائض قاض.

فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيَّكم ﷺ قد قال: «إن اللّه يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين». (وهكذا رواه مسلم من غير وجه).

ثم ذكر القرآن الكريم بعد ذلك أدباً يتعلق بالمسلمين مع رسول اللّه ﷺ قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ ذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول اللّه ﷺ حتى شَقُّوا عليه ، فأراد اللّه أن يخفف عن نبيه ﷺ فنزلت هذه الآية ، فلما شَقَّ ذلك عليهم نَسخها اللّه تبارك وتعالى بما بعدها وأنزل الرخصة في ذلك ، حتى قال معمر بن قتادة: إنها منسوخة ما كانت إلا ساعة من نهار، وقد قيل إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها إلا على بن أبي طالب رضي الله عنه .

قال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: نُهُوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا فلم يناجه إلا عليّ بن أبي طالب قدم ديناراً صدقة تصدق به ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال ثم أنزلت آية الرخصة وفي بعض روايات هذا الأثر قال عليّ رضي الله عنه: ولم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي.

وفي رواية أخرى عنه أنها حين أنزلت قال رسول اللّه ﷺ له: «ما ترى دينار؟» قال: لا يطيقون ، قال: «نصف دينار؟» قال: لا يطيقون ، قال: «ما ترى ؟» قال: شعيرة ، فقال له النبي ﷺ: «إنك لزهيد» فنزلت: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ الآية . قال عليّ: فبي خفف اللّه عن المسلمين بهذه الآية. وقال العوفي عن ابن عباس: كان المسلمون يُقدِّمُون بين يدي النَّجْوى صدقة ، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا .

وعلى كل فالذي يبدو أن الحكمة في هذا التشريع إشعارهم أن خطاب رسول الله ﷺ ليس كخطاب غيره من الناس ، ومنزلته ليست كمنزلتهم حتى في المحادثة ، حتى إذا تقرر هذا في نفوسهم واستشعرته قلوبهم ، خفف الله عنهم ورخّص لهم والله رؤوف رحيم.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية - السنة الثالثة - العدد ٢٤ في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٥٤ هـ/٢٤ سبتمبر ١٩٣٥م.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾

تولَّوا قوماً: صاحبوهم واتخذوهم أصدقاء.

يحلفون على الكذب: يحلفون بالكذب ، ويريدون تغيير الحقائق بالأَيْمان.

هم يعلمون: وهم يعرفون أنهم كاذبون.

الجُنَّة: بضم الجيم الوقاية والحاجز.

استحوذ عليهم الشيطان: استولى عليهم وفتنهم.

المحادَّة: المشاقة والمخالفة.

التأييد: النصر والمعاضدة والمعونة.

في الآيات الكريمة وصف لأحوال نفسية تتجلًى في صنفين من الناس:

صنف المذبذبين المنافقين، الذين يقولون ما لا يعلمون، وَيُحَرِّفُون ما يسمعون، ويُنكرون ما يقولون، ويريدون إذكاء الفتنة الخامدة، وإيقاظ الشر النائم..

وفئة المؤمنين المخلصين الذين استولت على نفوسهم عقيدتهم ففنوا فيها بقدر ما امتزجت بأرواحهم، وجعلوا كل أعراض الحياة لها فداء..

ومن أمثلة الأولين عبد الله بن نَبْتَل.

ومن أمثلة الآخرين ابو بكر وابو عبيدة وعلى وحمزة وعبيدة بن الحارث ومصعب بن عمير رضي الله عنهم أجمعين.

■ **سبب النزول**

قال السدي ومقاتل في أوائل هذه الآيات: نزلت في عبدالله بن نبتل المنافق، كان يجلس إلى رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حجراته إذ قال: «يدخل عليكم رجل قلبه قلب جَبَّار وينظر بعيني شيطان» فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق العينين، فقال له رسول الله ﷺ: «عَلاَمَ تشتمني أنت وأصحابك» فحلف بالله ما فعل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبّوه، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات.

وقال سعيد بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود في الآيات الباقية إنها نزلت في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح قَتَلَ أباه يوم بدر وقيل يوم أحد.. وفي أبي بكر حين أراد أن يبارز ابنه عبد الرحمن يوم بدر قبل أن يُسلم، وقال: يا رسول الله دعني أكن في الرعلة الأولى، فقال له رسول الله ﷺ:

«مَتِّعنا بنفسك يا أبا بكر».. وفي مصعب بن عمير قَتَلَ أخاه عبيد بن عمير يوم أحد.. وفي عمر بن الخطاب قَتَلَ خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر.. وفي عليٍّ وحمزة وعبيدة ابن الحارث قتلوا شيبة وعتبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر.

ومن هذا الباب ما قال عمر حين استشارهم رسول الله ﷺ في أسرى بدر، فكان من رأي عمر: أن يُمَكِّنَ رسولُ الله ﷺ من كلِّ واحد من المشركين قريباً له من المسلمين يقتله ، يقول عمر: ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا مُوادَّةٌ للمشركين.

وذكر بعضهم أنها نزلت عقاباً لحاطب بن أبي بَلْتَعة يوم كتب إلى المشركين في قصته المشهورة.

ومهما كانت أسباب النزول ، ففي الآيات الكريمة بيان لعدة أوصاف من أوصاف المنافقين وعدة أوصاف من أوصاف المؤمنين تُلازِمُ كلا منهما أبد الدهر، وكما كانت تلك أوصافهم في كل عصر من العصور خالدة على الزمن باقية على الدهر شنْشنةٌ تُعرَفُ من أَخْزَمَ ، فتعال معاً نكشفْ بعض أعراض تلك الأوصاف:

فأما الأولون فقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم تولَّوا قوماً غضب الله عليهم فلم يصاحبوا أطهاراً ، ولكنهم صاحبوا من على شاكلتهم ممن حَلَّتْ بهم اللعنة ونزل عليهم السخط ، وشبه الشئ منجذبٌ إليه ، ولن تروج الفتنة ولن يجد الدسَّاس مجالاً إلا عند مرضى القلوب ضعاف العقائد صغار النفوس ووصفهم بأنهم: ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ فهم لم ينقلوا ما نقلوا بإخلاص يبتغون من ورائه منفعة المنقول عنهم أو المنقول لهم ، وإنما هو داء وبيل وخلق ضعيف ، فهم يجرون على غرار طبيعتهم ، ويسيرون وفق غريزتهم ، جُبلُوا على الشر وطُبعوا على الأذى ، وويل لمن جُعل مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير، ووصفهم بأنهم: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ ﴾ مع علمهم بأنهم كاذبون عن غير خطأ أونسيان ، إنما هو جبن وخَوَرٌ يحملهم على التنصل من تبعة ما ارتكبوا وعدم الثبات على ما قالوا ، فهم قد جمعوا إلى خيانة النقل وتحريف القول

كذب اليمين وفقدان الشجاعة الأدبية والهروب من التبعة ، ووصفهم بأنهم يتخذون هذه الأيمان الكاذبة وقاية من الجزاء العادل وحاجزاً دون احتمال العقوبة الحاضرة ، وهم بذلك يَصُدُّون عن سبيل الله ويحاربون الله ورسوله إذ حسبوا أن هذه الأَيْمَان تنجيهم من عذاب الله كأنهم لما وجدوا سبيل الهرب وستر أعمالهم وفهموا أن هذه الأيْمان تصلح لذلك ، اندفعوا في طريق الصد عن سبيل الله والعدوان على نبيه الكريم ﷺ ، ووصفهم بتأصل هذه الخصال في نفوسهم حتى إنهم يوم القيامة يحاولون أن يخدعوا ربهم في الآخرة ـ وهي دار الحق ـ بما كانوا يحاولون أن يدفعوا به عن أنفسهم في دار الدنيا ، فيحلفون بالباطل كما كانوا يحلفون للرسول ﷺ وأصحابه ، ونسوا أن الآخرة دار الحساب ودار كشف المخبآت وإظهار السيئات والحسنات ، يوم تبلي السرائر فتجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، فاعْجَبْ لخادع يَخدع نفسه.

ثم ذكر الحق تبارك وتعالي أن هؤلاء إنما حل بهم هذا الوبال من طريق واحد هو أنهم أسلموا للشيطان قلوبهم ومكَّنوه من نفوسهم فاستولي عليهم وتخلل مسالك أرواحهم وتمكن من أفئدتهم ، فكانوا حزبه وشيعته فزيَّن لهم الباطل وحسَّن لهم القبائح وحال بينهم وبين التفكير في رقابة الحق عليهم والتفكير في آياته بين يديهم ، وليس للقلب إلا وجهة واحدة فإذا مَكَّنْتَ فيه الشيطانَ هجره ذكر الرحمن وإذا مَلأْته بمعرفة الرحمن فارقته لمة الشيطان ، فالأولون ينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) ﴾ الزخرف ، والآخرون ينطبق عليهم قوله تعالي: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) ﴾ الإسراء.

وبيَّن الحق بعد ذلك جزاء هؤلاء القوم بعد أن وصف أعمالهم وخصالهم بالسوء والقبح والانحراف عن جادة الصواب ، فبيَّن أن لهم عذاباً مهيناً تضيع معه كراماتهم وتنحطُّ أقدارهم ولن يخلصهم من هذا العذاب مال ولا ولد ، وإنما هم في النار خالدون.

ولما كان من بعض مزاعم هؤلاء القوم ومَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ أن رسول الله ﷺ وأصحابه سوف ينهزمون أمام جبابرة الأرض من روم وفرس وغيرهم ، يُهَوِّلون بهذا القول ويحاولون به أن ينالوا من عزائم المؤمنين ، بيَّن الحق تبارك وتعالي سنته في ذلك وقانونه الذي لا يتخلف ، فذكر أن كلَّ من حادَّ الله ورسوله ﷺ وخالف عن أمره وحارب أولياءه ، حقَّت عليه كلمة العذاب وحلَّ به الذل المقيم في الدنيا بالأسر والهزيمة ، وفي الآخرة بالنار التي وقودها الناس والحجارة ، كتب الله ذلك يوم خلق السماوات والأرض أن تكون الغلَبةُ لله علي أعدائه ، ولرُسُله بنصره إياهم ، فمن كان من رُسُل الحرب فنصْرُه في ميادين القتال ، ومن كان من رُسُل القول فنصْرُه في حلبة البيان ونصاعة الحجة ووضوح البرهان ، ومن جمعها الله له أيَّده بها جميعاً ، تلك سنة الله التي قررتها الأديان وجرت عليها الأزمان وأثبتها التاريخ وعرفها الناس علماً وعملاً .

ونقول في ارتباط الآية الكريمة بما قبلها إنه لما كان هؤلاء القوم قد حادُّوا اللَّهَ ورسولَه بيَّن الله لهم مصائرهم وأنهم سيذلُّون في الدنيا والآخرة ، ولن ينالوا من رسول الله ﷺ ولا أصحابه نَيْلاً ، والله غالبٌ علي أمره وهو سبحانه وتعالي القوي العزيز، وناسب ذلك طبعاً أن يتكلم القرآن الكريم عن موقف المؤمنين من هؤلاء المخادعين ، وأن يبين لك بعض أوصافهم كما بين لك أوصاف السابقين ، فها أنت تراه قد وصفهم بوصفين اثنين كل منهما يقتضي الآخر ويستتبعه ، ***وصفهم بأنهم آمنوا بالله واليوم الآخر إيماناً قوياً متيناً كتبه الله في قلوبهم وثبَّته في أرواحهم وتغلغل في أفئدتهم ، فأنتج الفناء فيه والفداء له والتضحية بكل شئ في سبيله ، فالإيمان والتضحية وصفان لهؤلاء القوم وهما متلازمان كما ترى ، فمتى صح الإيمان وصدق استغنى به المؤمن عن كل أعراض الحياة فضحى بها في سبيله ، ولن تكون التضحية إلا حيث يكون الإيمان ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وجزاء هؤلاء القوم المؤمنين عند الله عظيم فهم حزبه المنتسبون إليه المقربون لديه يؤيدهم بنصره ويمدهم بروحه***

ويسددهم بتوفيقه ويصلح لهم دنياهم بنعمته، ولهم بعد ذلك في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ويعوضهم من فقدان العشائر والأنصار رضاه عنهم ورضاهم عنه، وما وجد شيئاً من فقده، وما فقد شيئاً من وجده سبحانه وتعالى.

إذا صح منه الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

وهكذا ترى الجزاء من جنس العمل، قوماً يتركون في سبيل الله آثارهم وإخوانهم وعشيرتهم وأولياءهم فيكون الله لهم ولياً: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ البقرة: ٢٥٧، كتب معاوية إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري عليَّ، فكتبت عائشة إلى معاوية: سلام عليك أما بعد .. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس» والسلام عليك. (رواه الترمذي)... وكان من دعائه ﷺ فيما يرويه الديلمي من طريق الحسن عن معاذ رضي الله عنه: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق يداً ولا نعمة فيَودُّه قلبي فإني وجدتُ فيما أوحيتَ لي لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ اللَّهَ ورسولَه».

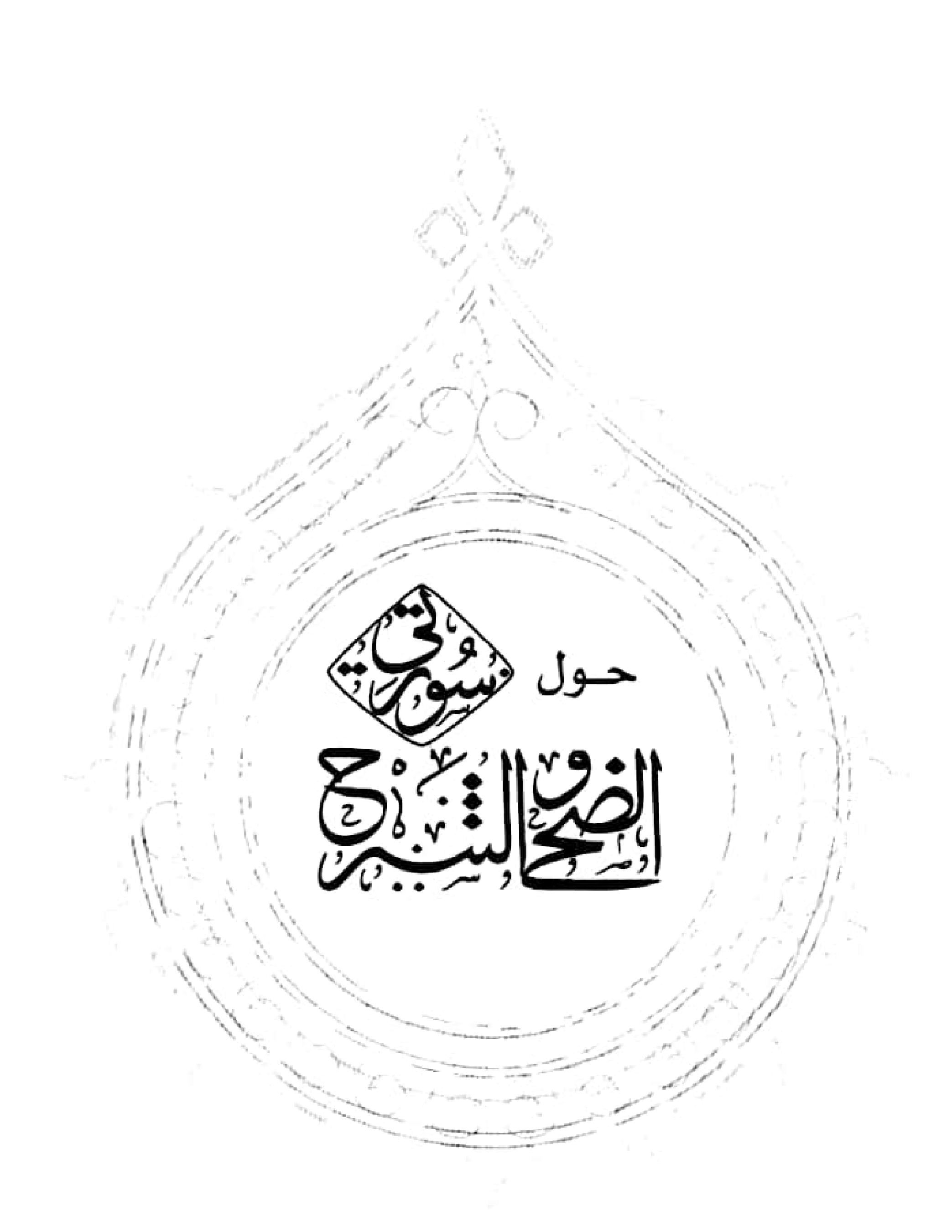
ومما أخرجه الطبراني والحاكم والترمذي عن واثلة بن الأسقع مرفوعاً يقول الحق تبارك وتعالى: «وعزتي لا ينال رحمتي من لم يُوال أوليائي ويُعاد أعدائي».

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن البراء بن عازب مرفوعاً قال: «أَوْثَقُ الإيمان الحبُّ في اللَّه والبغضُ في اللَّه».

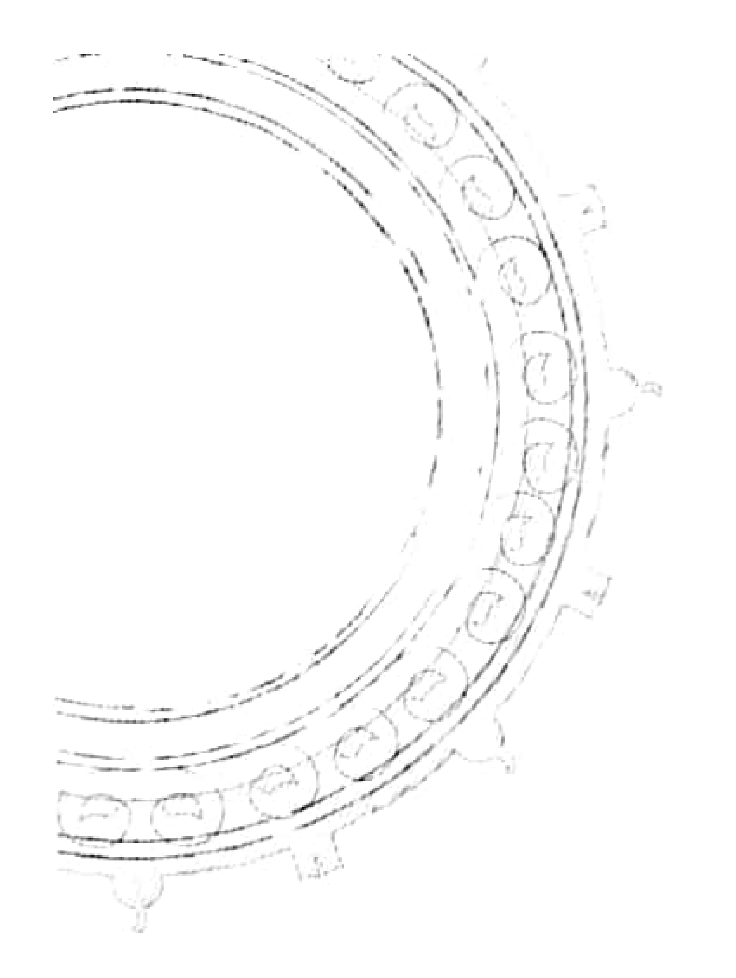
فهل فهم المسلمون هذا فأحبوا إخوانهم وقاطعوا أعداءهم وكانوا كما قال اللَّه تبارك وتعالى في أسلافهم: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: ٢٩، أم اجتالتهم الشياطين عن دينهم وخدعتهم الأبالسة عن قوميتهم فاتبعوا سَنَنَ خصومهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ؟

أيها الأخ الكريم .. في هذه السورة الحكيمة آداب رائعة وحكم بارعة ، فقد رأيت فيها أدب الزوجين وحرمة الزوجية كيف يسمو بها الإسلام إلى حد من القداسة عظيم ، وأدب مراقبة اللَّه تبارك وتعالي ، وأدب تعظيم رسول اللَّه ﷺ وأدب احترامك لعواطف غيرك ، وأوصاف المنافقين لتتجنبها وأوصاف المؤمنين لتستمسك بها .. فَشُدَّ يدك على هذا الأدب الرباني.. واللَّه ولي توفيقنا وتوفيقك إلى ما يحبه ويرضاه.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ السنة الثالثة ـ العدد ٢٥ في ٣ رجب ١٣٥٤هـ/ ١١ أكتوبر ١٩٣٥م .


حول سورتي
الضحى والشرح







﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ⑧ ﴾

بحث تحليلي لنفس المصلح
أو
حال النبي ﷺ قبل البعثة

أرأيت رجلاً سليم الفطرة طيب النفس ذكي الفؤاد خُلق لغيره لا لنفسه وأُعدَّ ليكون مصلحاً كريماً زعيماً فهو دقيق الحس دقيق الشعور ثائر العاطفة يقظ العقل بعيد الآمال كبير المطامع في الإصلاح طموح إلى المجد ، كل همه أن يكون نافعاً لغيره أو أن يدفع الضر عن سواه . مثِّلْ لنفسك هذا الرجل بعواطفه الحية ونفسه الكبيرة ثم ضَعْهُ في أمة فَسد أمرها واختل نظامها وقبحت عاداتها رغم ما فيها من استعداد للخير وتقبل الصلاح وانطباع على مكارم الأخلاق ، فهو يرى بعيني رأسه انتهاك الحرمات وارتكاب الموبقات وقبح العادات وانتشار الظلم ومخالفة الحق وفُشُوّ الفظائع والتدابر ، ولاحظ مع هذا أن هذا الرجل الذي يشعر بكل ما حوله شعوراً قوياً حاداً ويدركه إدراكاً جلياً واضحاً وينكره إنكاراً شديداً ، ويود أن يغير هذا الحال إن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، لم يدرس وسائل إصلاح المجتمعات ولم يتعلم طريق قيادة الجماعات ولم يتلق فلسفة النفسيات.

ثم قل لي بربك ماذا يكون شعور هذا الرجل أمام ما يحيط به ؟ وهو يعلم كما قلت لك ما يحيط به ولا يرضى عنه ، لأنه لا يتفق مع فطرته وإدراكه ويود أن يغيِّره ويأخذ الناس بالإقلاع عنه ، لأنه يلمس فساده ولا يجد وسيلة إلى ذلك ولا يعلمها ، فكلما حاول الإرشاد افترقت أمامه السبل وتشَعَّبت بين يديه الطرق ، لا شك أنك معي في أن هذا الرجل يحمل عبئاً من الضيق النفسي والحيرة الفكرية تنوء بحمله الجبال.

إذا عرفت هذا فاعلم أنه صورة مصغرة تقريبية لحال النبي ﷺ قبل بعثته فقد كان ﷺ أزكى الناس فطرة وأقواهم حساً وشعوراً وعقلاً وتفكيراً.

فهو أشدهم إدراكاً لما عليه فساد المجامع والأمم في عصره فطرةً لا تعليماً ، ثم هو يَوَدُّ من صميم فؤاده أن يصل إلى طريق لهدايتهم أو يعلم سبيلاً لإرشادهم ، ثم هو أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس فلسفة الإصلاح على أستاذ أو معلم ، فأي ضيق نفسي كان ينتابه ﷺ قبل أن يَتَنبَّأ ؟! وأي حيرة فكرية كانت تتوزع عقله الشريف قبل أن يُرسل ؟! حتى أراد الله تبارك وتعالي أن يُريحه من عناء هذا العبء وأن يُرشده إلى أقوم طرق الإصلاح ، فأنزل عليه وحيه وأرشده بقرآنه وألهمه السداد في كل خطواته: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الشورى: ٥٢ .

ولو عرفت هذا أيضاً سهل عليك أن تعلم أن سورة (الضحى) وسورة (ألم نشرح لك صدرك) لم تكونا إلا تصويراً لحالته النفسية ﷺ قبل البعثة وذكْراً لمنة الله عليه ﷺ بعدها ، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾ الضحى ، أي : حائر الفكر في طريق إصلاح قومك وإرشادهم فهداك بوحيه إلى أفضل هذه الطرق وأنجعها وهو معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ الشرح ، بالهداية إلى طريق الإصلاح بعد انقباضه حيناً من الدهر لعدم معرفة هذا الطريق: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ الشرح ، ووضعنا عنك حمل التألم لما عليه قومك مع عجزك عن علاجهم أولاً ، ووضعنا عنك ما كنت تشعر به من الضيق الشديد الذي تنوء به الجبال فأرشدناك إلى طريق الهداية والإرشاد ورفعنا لك ذكرك.

هذا هو المقصود والله أعلم وكل ما يتقوله الذين في قلوبهم زيغ من أغرار الملاحدة والمبشرين يريدون انتقاص المصطفى ﷺ فكل ما يتقولونه عَفَنٌ في العقول وزَيغٌ في العقائد.

وهذا المعنى إنما يُدْركه مَنْ صَفت نفسه ، وخَلُصَ من رق الغايات عمله ، وشعر بما عليه قومه وَوَدَّ إصلاحه من صميم قلبه..

فاللَّهم أرشدنا إلى أقوم السبل لا يُرشدُ إلى أقومها إلا أنت.(*)

(*) جريدة الإخوان المسلمين الإسبوعية ـ السنة الأولى ـ العدد ٥ في ٢٠ ربيع الأول ١٣٥٢ هـ/ ١٣ يوليو ١٩٣٣م.



الفهرس التاريخي

م	عنوان المقالة	المصدر	السنة	العدد	التاريخ الهجري والميلادي
١	تفسير موجز لسورة الفاتحة.	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الأولى	٢	٢٨ صفر ١٣٥٢هـ ٢٢ يونيو ١٩٣٣م
٢	وظائف النبوة ، سورة الأحزاب الآيتان: (٤٥ - ٤٦).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الأولى	٤	١٣ ربيع الأول ١٣٥٢هـ ٦ يوليو ١٩٣٣م
٣	حول سورتي (الضحى) و(ألم نشرح لك صدرك) ، بحث تحليلي لنفس المصلح أو حال النبي ﷺ قبل البعثة.	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الأولى	٥	٢٠ ربيع الأول ١٣٥٢هـ ١٣ يوليو ١٩٣٣م
٤	تفسير قوله في سورة الأحزاب: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) الآية: (٦).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الثانية	٨	٩ ربيع الأول ١٣٥٣هـ ٢١ يونيه ١٩٣٤م
٥	من الأدب العالي ، سورة الحجرات الآيات من: (١ - ٣).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الثالثة	٨	٤ ربيع أول ١٣٥٤هـ ٤ يونيو ١٩٣٥م
٦	من الأدب العالي ، سورة الحجرات الآيتان: (٤ - ٥).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الثالثة	٩	١٠ ربيع أول ١٣٥٤هـ ١١ يونيو ١٩٣٥م
٧	من الأدب العالي ، سورة الحجرات الآيات من: (٦ - ٨).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الثالثة	١٠	١٧ ربيع أول ١٣٥٤هـ ١٨ يونيو ١٩٣٥م
٨	من الأدب العالي ، سورة الحجرات الآية: (٩).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الثالثة	١١	٢٤ ربيع أول ١٣٥٤هـ ٢٥ يونيو ١٩٣٥م

م	عنوان المقالة	المصدر	السنة	العدد	التاريخ الهجري والميلادي
٩	من الأدب العالي . سورة الحجرات الآية: (١٠).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الثالثة	١٢	غرة ربيع ثاني ١٣٥٤هـ ٣ يوليو ١٩٣٥م
١٠	من الأدب العالي . سورة الحجرات الآية: (١١).	جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية	الثالثة	١٣	٨ ربيع ثاني ١٣٥٤هـ ٩ يوليو ١٩٣٥م
١١	من الأدب العالي . سورة الحجرات الآية: (١٢).	جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية	الثالثة	١٤	١٥ ربيع ثاني ١٣٥٤هـ ١٦ يوليو ١٩٣٥م
١٢	من الأدب العالي . سورة الحجرات الآية: (١٣).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الثالثة	١٥	٢٢ ربيع ثاني ١٣٥٤هـ ٢٣ يوليو ١٩٣٥م
١٣	من الأدب العالي . سورةالحجرات الآيتان: (١٤-١٥).	جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية	الثالثة	١٦	٢٩ ربيع ثاني ١٣٥٤هـ ٣٠ يوليو ١٩٣٥م
١٤	من الأدب العالي . سورةلحجرات الآيات من: (١٦- ١٨).	جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية	الثالثة	١٧	٧ جمادى الأول ١٣٥٤هـ ٦ أغسطس ١٩٣٥م
١٥	من الأدب العالي . سورة المجادلة الآيات من: (١- ٤).	جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية	الثالثة	١٩	٢١ جمادى الأول ١٣٥٤هـ ٢٠ أغسطس ١٩٣٥م
١٦	من الأدب العالي . سورة المجادلة الآيات من: (٥- ٧).	جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية	الثالثة	٢٢	١٢جمادى الثانية ١٣٥٤هـ ١٠ سبتمبر ١٩٣٥م
١٧	من الأدب العالي . سورةالمجادلة الآيات من: (٨ – ١٠).	جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية	الثالثة	٢٣	١٩ جمادى الثانية ١٣٥٤هـ ١٧ سبتمبر ١٩٣٥م

م	عنوان المقالة	المصدر	السنة	العدد	التاريخ الهجري والميلادي
١٨	من الأدب العالي ، سورة المجادلة الآيات من: (١١ – ١٣).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الثالثة	٢٤	٢٦ جمادى الثانية ١٣٥٤هـ ٢٤ سبتمبر ١٩٣٥م
١٩	من الأدب العالي ، سورة المجادلة الآيات من : (١٤ – ٢٢).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الثالثة	٢٥	٣ رجب ١٣٥٤هـ ١١ أكتوبر ١٩٣٥م
٢٠	صوت النفير العام ، سورة التوبة الآيات من : (٣٨ – ٤٠).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	١	٢٢ محرم ١٣٥٥هـ ١٤ أبريل ١٩٣٦م
٢١	صفحة من الوطنية في كتاب الله (١) سورة البقرة الآيات من: (٢٤٦–٢٤٨).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	٣	٧ صفر ١٣٥٥هـ ٢٨ أبريل ١٩٣٦م
٢٢	صفحة من الوطنية في كتاب الله (٢) سورة البقرة الآيات من: (٢٤٩–٢٥١).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	٤	١٤ صفر ١٣٥٥هـ ٥ مايو ١٩٣٦م
٢٣	في سبيل الكرامة (١) سورة البقرة الآيات من: (١٩٠–١٩٣).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	٥	٢١ صفر ١٣٥٥هـ ١٢ مايو ١٩٣٦م
٢٤	في سبيل الكرامة (٢) سورة البقرة الآيتان: (١٩٤–١٩٥).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	٦	٢٨ صفر ١٣٥٥هـ ١٩ مايو ١٩٣٦م
٢٥	من سنن الله في تربية الأمم سورة البقرة آية: (٢١٤).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	٧	٥ ربيع أول ١٣٥٥هـ ٢٦ مايو ١٩٣٦م
٢٦	من وظائف القائد سورة البقرة آية: (١٥١).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	٩	١٩ ربيع أول ١٣٥٥هـ ٩ يونية ١٩٣٦م
٢٧	من وظائف الأمة الناهضة سورة البقرة الآيات من: (١٥٢– ١٥٤).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	١٠	٢٦ ربيع أول ١٣٥٥هـ ١٦ يونية ١٩٣٦م
٢٨	من وسائل إعداد الأمة سورة البقرة الآيات من: (١٥٥– ١٥٧).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	١٣	١٨ ربيع الثاني ١٣٥٥هـ ٧ يوليو ١٩٣٦م

م	عنوان المقالة	المصدر	السنة	العدد	التاريخ الهجري والميلادي
٢٩	الصبر . سورة آل عمران الآية: (٢٠٠).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	١٤	٢٥ ربيع ثان ١٣٥٥هـ ١٤ يوليو ١٩٣٦م
٣٠	العسكرية : عهد سورة التوبة الآية: (١١١).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	٢٦	٢٠ رجب ١٣٥٥هـ ٦ أكتوبر ١٩٣٦م
٣١	أين هؤلاء الذين عاهدوا الله سورة التوبة الآية: (١١٢).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	٢٨	٤ شعبان ١٣٥٥هـ ٢٠ أكتوبر ١٩٣٦م
٣٢	ظلمة ونور سورة البقرة الآيتان: (٢٥٧-٢٥٨).	جريدة الإخوان المسلمين الاسبوعية	الرابعة	٢٩	١١ شعبان ١٣٥٥هـ ٢٧ أكتوبر ١٩٣٦م
٣٣	شرف الإسلام الدولي (١) سورة التوبة الآيات من: (١-٣).	مجلة النضال	الأولى	١	١٤ ربيع الأول ١٣٥٧هـ ١٥ مايو ١٩٣٨م
٣٤	شرف الإسلام الدولي (٢) سورة التوبة الآيتان: (٤-٥).	مجلة النضال	الأولى	٢	٢ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ أول يونيو ١٩٣٨م
٣٥	شرف الإسلام الدولي (٣) سورة التوبة الآية: (٦).	مجلة النضال	الأولى	٣	١٦ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ ١٥ يونيو ١٩٣٨م
٣٦	شرف الإسلام الدولي (٤) سورة التوبة الآيات من: (٧-١١).	مجلة النضال	الأولى	٤	٢ جمادي الأولى ١٣٥٧هـ أول يوليو ١٩٣٨م
٣٧	شرف الإسلام الدولي (٥) سورة التوبة الآيات من: (١٢-١٦).	مجلة النضال	الأولى	٥	١٧ جمادي الأولى ١٣٥٧هـ ١٥ يوليو ١٩٣٨م
٣٨	سورة آل عمران الآيات من: (١٠٠-١٠٢).	جريدة النذير الأسبوعية	الثانية	١٨	غرة جمادى الأولى ١٣٥٨هـ ١٩ يونيه ١٩٣٩م
٣٩	سورة آل عمران الآيات من: (١٠٣-١١٠).	جريدة النذير الأسبوعية	الثانية	١٩	٨ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ ٢٦ يونيه ١٩٣٩م

م	عنوان المقالة	المصدر	السنة	العدد	التاريخ الهجري والميلادي
٤٠	سورة آل عمران الآيات من: (٥-٨).	جريدة النذير الأسبوعية	الثانية	٢٠	١٥ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ ٣ يوليو ١٩٣٩م
٤١	سورة النساء الآيات من: (٦٥-٦٨).	جريدة النذير الأسبوعية	الثانية	٢١	٢٢ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ ١٠ يوليو ١٩٣٩م
٤٢	سورة النور الآية: (٣٠).	جريدة النذير الأسبوعية	الثانية	٢٢	٢٩ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ ١٧ يوليو ١٩٣٩م
٤٣	سورة النور الآية: (٣١).	جريدة النذير الأسبوعية	الثانية	٢٣	٧ جمادى الثانية ١٣٥٨هـ ٢٤ يوليو ١٩٣٩م
٤٤	سورة الرعد الآية: (١).	مجلة المنار	مجلد٣٥	جزء ٥	غرة جمادى الثانية ١٣٥٨هـ ١٨ يوليو ١٩٣٩م
٤٥	سورة الرعد الآية: (٢).	مجلة المنار	مجلد٣٥	جزء ٦	غرة رجب ١٣٥٨هـ ١٧أغسطس ١٩٣٩م
٤٦	سورة الرعد الآيتان: (٣-٤).	مجلة المنار	مجلد٣٥	جزء ٧	ربيع الأول ١٣٥٩هـ أبريل ١٩٤٠م
٤٧	سورة الرعد الآية: (٥).	مجلة المنار	مجلد٣٥	جزء ٨	ربيع الثاني ١٣٥٩هـ مايو ١٩٤٠م
٤٨	سورة الرعد الآية: (٦).	مجلة المنار	مجلد٣٥	جزء ٩	جمادى الآخرة ١٣٥٩هـ أغسطس ١٩٤٠م
٤٩	سورة الرعد الآية: (٧).	مجلة المنار	مجلد٣٥	جزء ١٠	شعبان ١٣٥٩هـ سبتمبر ١٩٤٠م
٥٠	سورة التوبة	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	الخامسة	٣٥	٢١ شوال ١٣٦٦هـ ٦ سبتمبر ١٩٤٧م
٥١	سورة التوبة الآيات من: (١-٤).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	الخامسة	٣٦	٢٨ شوال ١٣٦٦هـ ١٣ سبتمبر ١٩٤٧م
٥٢	سورة التوبة الآيات من: (٥-١١).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	الخامسة	٣٧	٥ ذو القعدة ١٣٦٦هـ ٢٠ سبتمبر ١٩٤٧م

م	عنوان المقالة	المصدر	السنة	العدد	التاريخ الهجري والميلادي
٥٣	سورة التوبة الآيات من: (١٢-١٦).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	الخامسة	٣٨	١٢ ذو القعدة ١٣٦٦هـ ٢٧ سبتمبر ١٩٤٧م
٥٤	سورة التوبة الآيات من: (١٧-٢٢).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	الخامسة	٣٩	١٩ ذو القعدة ١٣٦٦هـ ٤ أكتوبر ١٩٤٧م
٥٥	سورة التوبة الآيات من: (٢٣-٢٧).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	الخامسة	٤٠	٢٦ ذو القعدة ١٣٦٦هـ ١١ أكتوبر ١٩٤٧م
٥٦	سورة التوبة الآيات من: (٢٣-٢٧).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	الخامسة	٤١	٤ ذي الحجة ١٣٦٦هـ ١٨ أكتوبر ١٩٤٧م
٥٧	سورة التوبة الآية: (٢٨).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	الخامسة	٤٢	١١ ذي الحجة ١٣٦٦هـ ٢٥ أكتوبر ١٩٤٧م
٥٨	سورة التوبة الآية: (٢٩).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	الخامسة	٤٣	٢٥ ذي الحجة ١٣٦٦هـ ٨ نوفمبر ١٩٤٧م
٥٩	سورة التوبة الآيات من: (٣٠-٣٣).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	السادسة	١	٢ محرم ١٣٦٧هـ ١٥ نوفمبر ١٩٤٧م
٦٠	سورة التوبة الآيتان: (٣٤-٣٥).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	السادسة	٢	١٦ محرم ١٣٦٧هـ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م
٦١	سورة التوبة الآيتان: (٣٤-٣٥).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	السادسة	٣	٢٣ محرم ١٣٦٧هـ ٦ ديسمبر ١٩٤٧م
٦٢	سورة التوبة الآيتان: (٣٦-٣٧).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	السادسة	٤	٣٠ محرم ١٣٦٧هـ ١٣ ديسمبر ١٩٤٧م
٦٣	سورة التوبة الآيات من: (٣٨-٤١).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	السادسة	٥	١٤ صفر ١٣٦٧هـ ٢٧ ديسمبر ١٩٤٧ م
٦٤	سورة التوبة الآيات من: (٤٢-٤٧).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	السادسة	٦	٢٧ ربيع الأول ١٣٦٧هـ ٧ فبراير ١٩٤٨م
٦٥	سورة التوبة الآيات من: (٤٩-٥٩).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	السادسة	٧	٤ ربيع الثاني ١٣٦٧ هـ ١٤ فبراير ١٩٤٨م

م	عنوان المقالة	المصدر	السنة	العدد	التاريخ الهجري والميلادي
٦٦	سورة التوبة الآية: (٦٠).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	السادسة	٨	١١ ربيع الأول ١٣٦٧ هـ ٢١ فبراير ١٩٤٨ م
٦٧	سورة التوبة الآية: (٦٠).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	السادسة	٩	١٨ ربيع الثاني ١٣٦٧ هـ ٢٨ فبراير ١٩٤٨م
٦٨	سورة التوبة الآيات من: (٦١-٦٦).	مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية	السادسة	١٠	٩ جمادى الأولى ١٣٦٧ هـ ٢٠ مارس ١٩٤٨ م
٦٩	مقدمات في علم التفسير .	مجلة الشهاب	الأولى	١	غرة ربيع آخر ١٣٦٧هـ ١٢فبراير ١٩٤٨م
٧٠	فاتحة الكتاب.	مجلة الشهاب	الأولى	٢	غرة جمادى أول ١٣٦٧هـ ١٢مارس ١٩٤٨م
٧١	سورة البقرة الآيتان: (١-٢).	مجلة الشهاب	الأولى	٣	غرة المحرم ١٣٦٧هـ ١٤ نوفمبر ١٩٤٧م
٧٢	سورة البقرة الآية: (٣).	مجلة الشهاب	الأولى	٤	غرة صفر ١٣٦٧هـ ١٤ ديسمبر ١٩٤٧م
٧٣	سورة البقرة الآيتان: (٤-٥).	مجلة الشهاب	الأولى	٥	غرة ربيع أول ١٣٦٧هـ ١٣يناير ١٩٤٨م


النادي الشبابي

الفهرس الموضوعي

الصفحة	الموضـــــوع

الصفحة	الموضـــــوع
١٨٧	تفسير قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ . . . وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة: (٢٣-٢٧).
	التجرد ـ فضل محبة الله ورسوله ـ يَوْمَ حُنَيْن: الوقائع ـ اللواحق ـ الحِكَمْ.
١٩٦	تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـاأَيُّهَـا الَّـذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ . . . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة: ٢٨.
	نجاسة المشرك ـ الكفار في دار الإسلام ـ نموذج من الامتثال ـ من أحكام القتال والجزية.
١٩٩	تفسير قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩.
	حكم القتال في الإسلام ـ حكم قتال أهل الكتاب ـ أوصاف أهل الكتاب في الآية ـ أحكام الجزية.
٢٠٦	تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ... وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ التوبة: (٣٠-٣٣).
	دعوة النبوة في الأديان السابقة ـ ربوبية الأحبار والرهبان ـ كيد أعداء الدين للدين ـ ما يرجى من ظهور الإسلام.
٢١١	تفسير قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ . . . مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ التوبة: (٣٤-٣٥).
	فتنة المال ـ من أساليب الصد عن سبيل الله ـ عاقبة كنز المال والبخل به ـ أسلوب العذاب.
٢١٧	تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا . . . الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ التوبة: (٣٦-٣٧).
	مناسبة ـ حكمة إيثار الشهور القمرية ـ لطيفة ـ الأربعة الحُرم ـ من أحكام القتال ـ أحكام النسيء.

الصفحة	الموضـــوع

الصفحة	الموضـــــوع
٢٥٤	**شرف الإسلام الدولي (٤)** تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ... وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ التوبة: (٧-١١).
٢٥٦	**شرف الإسلام الدولي (٥)** تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ... خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ التوبة: (١٢-١٦).
٢٥٨	**صوت النفير العام** تفسير قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا...إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ التوبة: (٣٨-٤١).
٢٦٣	**العسكرية : عهـد** تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ...الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة: ١١١.
٢٦٦	**أين هؤلاء الذين عاهدوا الله ؟** تفسير قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ...وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التوبة: ١١٢.
٢٦٩-٣٤٦	**تفسير ما تيسر من سورة الرعد** مكان النزول ـ المقاصد العامة في السورة ـ المناسبة بين هذه السورة الكريمة وما قبلها.
٢٧٥	تفسير قوله تعالى: ﴿المر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الرعد: ١.
٢٨١	تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ الرعد: ٢. لماذا تذكر هذه المظاهر الكونية في القرآن الكريم ؟ ـ إلى أي مدى وصل العقل في العلوم الكونية ؟.

الصفحة	الموضـــــوع


شباب
النادي الشبابي